شؤون فلسطينية

٥٦

نيسان (ابريل) ١٩٧٦

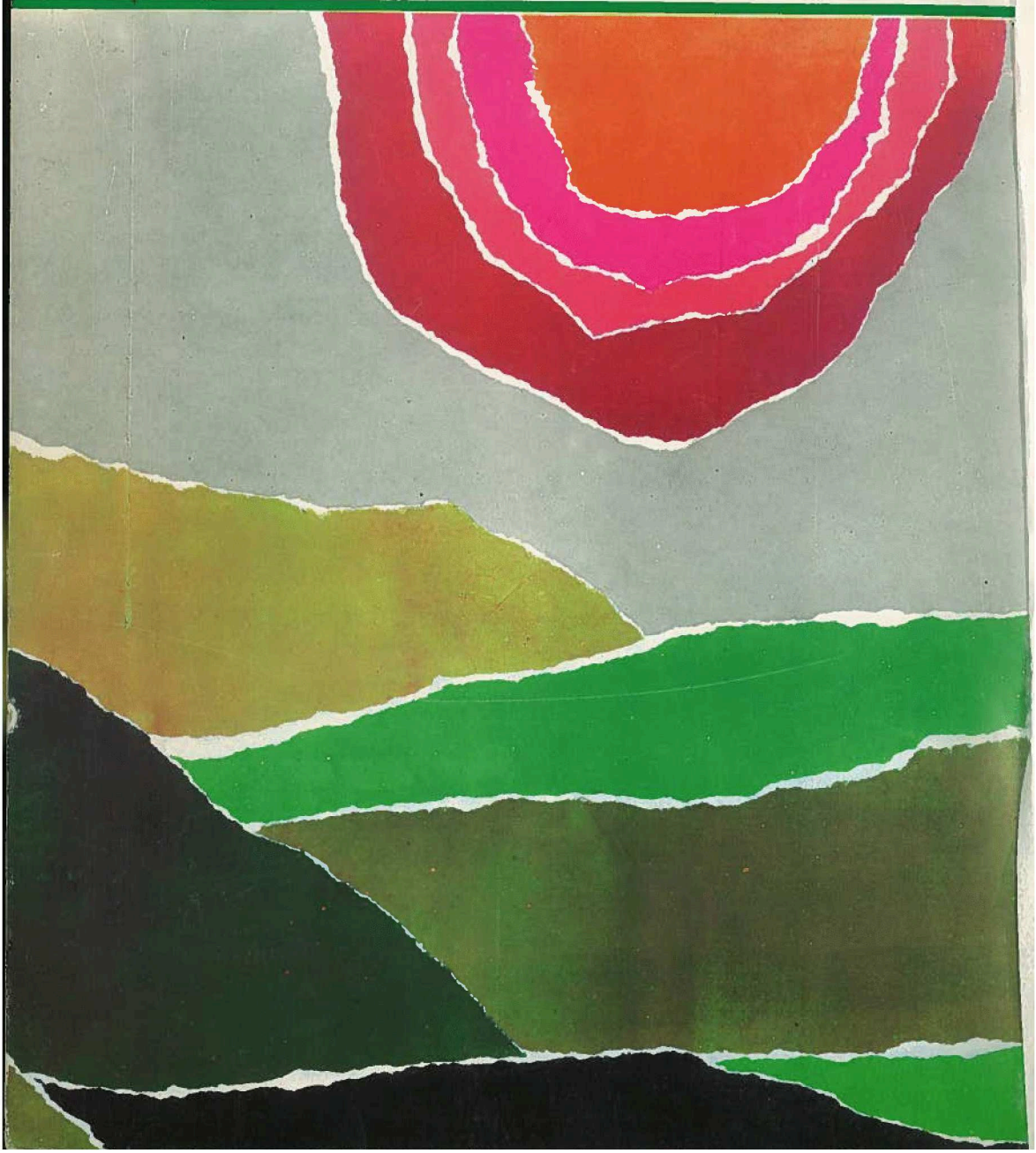

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٦ — نيسان (ابريل) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٣٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن هذا العدد : ٧ ل.ل. في لبنان ، ٨ ل.س. في سوريا ، ٩٠٠ فلس في الكويت والعراق ، ٩ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في أوروبا وأفريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في أميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

صفحة ٤ شؤون فلسطينية : **عماد سمارة** ، الدكتور انيس صايغ .

٥ **انتفاضة ...** ، محمود درويش .

٨ **المسألة الفلسطينية والتسوية : احتمالات وتوقعات** ، غازي الخليلي.

١٨ **صراع من اجل الوحدة : ملاحظات على برنامج الجبهة الديمقراطية** ، محجوب عمر .

٣١ **اتفاقية سيناء كشكل من اشكال سياسة الاحتواء الاميركية** ، الدكتور نصير عاروري .

٣٧ **الفاشية الصغيرة : دراسة في صحف ونشرات القوى الانعزالية** ، انور خالد .

٥٧ **حول الازمة اللبنانية : عرض وتقييم للمسار السياسي للاحداث وخطوط سير القتال** (الحلقة الاولى) ، نواف عبدالله .

٧٣ **غزال يبشر بزلزال ...** محمود درويش .

٨٠ **دور العلم والتكنولوجيا في المعركة** ، الدكتور الياس زين .

١٠٦ **الطبقة العاملة والحركة السياسية في فلسطين** ، عبد القادر ياسين .

١٥١ **نظرة جديدة على معادلة امبريالية قديمة : وعد بلفور والبحث عن الجذور** ، حازم موسى الحسيني .

١٥٩ **مراجعات :** فكرة الدولة ثنائية القومية ، غازي الخليلي . حرب التكفير ، السيد عليوه . ديوان عبد الرحيم محمود ، ابراهيم خليل . بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ، يوسف شويري .

١٨٠ **اسرائيليات :** يوسف حمدان وحنه شاهين وتوفيق فياض .

٢٠٢ **شهريات :** (١) القضية الفلسطينية دوليا . (٢) المناطق المحتلة ، عيسى الشعيبي . (٣) القضية الفلسطينية عسكريا ، الرائد الطيار حسين عويضة . (٤) جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٢/١٦ — ١٩٧٦/٣/١٥ ، غازي خورشيد .

شؤون فلسطينية :
عماد سمارة

كلنا نعرف ان الموت لا يختار الا الاحسن . فملائكة السماء تصطفي لجوارها الانقياء الابرار . ودرب الشهادة معبد بذوي الشجاعة والشهامة .

وكنا ، افراد اسرة مركز الابحاث (ومجلة شؤون فلسطينية) نعرف ان ملائكة السماء تقف بانتظار زميلنا عماد سمارة ، وان عدة الشهادة عنده قد اكتملت ولم ينقص الا تحديد موعد الاستشهاد .

ومع ذلك ، نجد انفسنا اليوم ، وقد حصل ما توقعناه ، وما خشيناه ، اعجز من ان نرضى او ان نفهم .

لقد زاملنا عماد خمسة اعوام . جاءنا الى المركز فتى ابن سبعة عشر ربيعا ، شهما شجاعا ، حييا خلوقا ، لطيفا كريما ، دمثا ، نشيطا ، مؤمنا ، صلبا ، متعاونا متواضعا ، وعاش صفاته هذه وعمل متحليا بها في خدمة بلده وقيمه وثورته وشعبه، ومضى حينما صرعه الموت وكأن الحياة كلها مجرد محطة عابرة في مسيرة لا تسمح بالبقاء ولا بالانتظار .

وعلى قصر السنوات الخمس ، ترك عماد سمارة لزملائه في مركز الابحاث تراثا حيا حافلا . فكان اقدر العاملين (وهو من اصغرهم) على فهم العلاقة بين المركز وبين المنظمة التي انتسب اليها ، وبينهما وبين الثورة التي انتميا اليها ، وعلى وضع صيغة عملية وناجحة في خدمة الثورة من خلال الانتماء للمركز ، في حمل البندقية والقلم في آن ،في تكملة جهد المكاتب بالجهادفي الخنادق. وكان انجح العاملين فيتجسيد مواصفات العامل الثائر ، الاداري المقاتل ، الموظف الجندي . نقل الى الادارة انضباط الجندي واندفاعه وجرأته . وانطلق في عملياته القتالية ، في فلسطين المحتلة وخارجها ، بوعي ومعرفة وخلق . وجعل فلسطين اكبر من المركز الذي يعمل فيه ومن الحركة التي ينتمي اليها . وعمل للمركز وللحركة باخلاص لانه رأى فيهما سبيلا نحو فلسطين وجهدا يسهم في تحرير الشعب واستعادة الوطن .

وان كنا ، عموم افراد اسرة مركز الابحاث (وشؤون فلسطينية) نرى في عماد سمارة قدوة نعتز بالاعتبار بها ، فانني ، وقد حصلت منه على ارقى صور الوفاء والسلوكية الخيرة والمناقبية الرفيعة ، افتخر بان مناضلا مثل عماد كان من جملة ، وعلى رأس ، عشرات الزملاء الذين تعهدهم مركز الابحاث واتاح لهم ان ينموا في رحابه وتتبلور فيه مداركهم وشخصياتهم وطموحاتهم وعطاءاتهم ، حتى انطلقوا به وحققوا له المزيد من نجاحاته واسهموا في تمكينه من خدمة القضية التي قام المركز من اجلها .

وبفضل عماد سمارة ، وامثال عماد سمارة من المناضلين الصامتين ، تصبح مرارة العمل الشاق حلوة المذاق ، وتبدو وعورة السبيل التي نسلكها ليبلغ المركز ذروة العطاء ومثال المؤسسة المعطاء ناعمة المسلك . فقد كانت رفقته ، في العمل وفي النضال ، ممتعة . ولولا ذكراه الحية ابدا لاصبح الفراغ الذي تركه مثبطا للعزائم .

انيس صايغ

انتفاضـــة . .

□ ضفة ، ضفتان ، لا . انه وطن واحد . والنهر ، حصان الغضب ، يتدفق منهم جميعا . دبابة بحجر ، وسجن بابتسامة ، ويغير الاطفـــال العابهم . من الدمية الى عجلة المطاط المحترق ، ويدخلون في وقت الثورة .

الان الان ، وليس امس . الان يتكامل نشيد الارض . الداخل والخارج متداخلان . هنا كانت هناك . وهناك صارت هنا . ولا تشكل احصائية الهزائم العابرة اي فارق في الزواج الابدي بين الناس ذاتهـــم والارض ذاتها . فالقابضون على طرف البركان يتحدون جميعا في ساعة اللهب .

دقت . . دقت . من المخيمات الزاحفة الى العواصم ، الـــى الجليل الذي كاد يلامس النسيان في حساب المؤقت ــ يندلع نشيـــد الارض ذاتها . واليكم هذه الاحصائية : ابن الشهيد شهيد ، وحفيده شهيـــد ، ولا نورث الا الذاكرة واليوم القادم . وفي الوقت المحدد يلتئم شمـــل العائلة .

عدنا من كل الهزائم لنقاوم . وطني ليس حقيبة ، وطني ليس جدارا . من رأس الخارطـــة حتـــى بطنهـــا ينهمر نداء الحريـــة . ومـــن اول اغتيال حتى أحدث سلاح يتحول الموت فينا الى مواطن اليف والـــى دمية حتى تجد الحياة حياتها فينا . اي موت لم تذوقوه ايها الفلسطينيون ! وأي موت سيمشي فيكم بعد الان على قدمين ؟ .

لا تقيسوا الجهـــات بالنهر النازل من الشمـــال الى الجنوب . مـــن الجرح تبدأ المسافة ، والبوصلة ايضا تبدأ . والضفة الغربية الجـــرح الفلسطيني لا تدهش الا السائح والكاميرات .

فلا يصفقن احد لهذا الفجر الطالع من جرح طفل مارس فيه الغـــزاة طقوسهم ، لانه ولد من اجل ذلك . . من اجل ان يطلع الفجر البديهي .

□ ضفة ، ضفتان ، لا . انه جسد واحد . وجملة الوطن واحدة .

عائلة الوطن تعرب نفسها : غزة كانت المبتدأ والضفة الغربية صارت الخبر وللجليل مزايا شجر الزيتون .

في الناصرة مات حبنا الاول وسقط سجننا الاول

وماذا يحدث الان .. ماذا يحدث ؟ يتصاعد نشيد الثورة من كل جسد وصخرة وشجرة . تنتفض الارض في الانسان ، وينتفض الانسان في الارض . ويبدأ جناز اليأس ..

وقال لي صاحبي القادم من المشهد الخارجي : ان الجسر هو العار . دخلت الوطن برخصة وتجولت كسائح . لم اذهب الى حيفا ، لان اطفال نابلس الذين استبدلوا العابهم برقصة الوطن والتحدي ذكروني بأني قطعت الجسر برخصة ..

الجسر .. الجسر كم كان لغزا ومصيدة لان الذين اقاموه ارادوه لتصدير الوطن في صناديق تجار الفواكه . وكم من سؤال اخذ هذه الصيغة : من يوقف هذه السياحة التي تنشر عدوى الدعاية ؟ والان يدرك صاحبي المسكون بالانتفاضة ان الثورة لا تعبر طريق الجسر . انها تنفجر من كل قيد ، وتطلع من كل سجن . والان يدرك صاحبي ان الوطن لا يرحل ولا يعتقل .

ـ وماذا ينشدون هناك ؟

ـ يا قمرنا طل طل
ضوي الكرة الارضية
ما خلقنا نعيش بذل
خلقنا نعيش بحرية

واطل القمر الفلسطيني : من كل شهيد قطرة ضوء . من كل سجين قطعة معدن . ومن كل مقاتل خطوة . لقد رموك يا صاحبي من النافذة كجسر طائش وجرحت رصاصة بريئة

ـ هل تعني بيروت ؟

اعني انك في كل تحول لا تموت . اعني انك في كل مكان علاقة . واعني ان القمر الفلسطيني لم يقع في شباك الصيد ، فهل نسيت عقدة الجسر ؟

□ ضفة .. ضفتان .. لا . انه نهر واحد . والقدس تخدع عشاقها كما تخدع غزاتها . تسللت اليها بلا رخصة وبلا هزيمة او انتصار وكان الجسر في داخلي . قلت : اضع حدودا لقلبي على الاسوار وازور الاقصى والاجراس ، فاشغلتني القدس في البحث عن قلبها المطمور تحت عجلات المحتلين . حملت اسوارها وعدت . لقد كان الصفر في اول العمر . لم اعتذر لها لان الجريح لا يعتذر لجرحه . مرت سبع سنين ، وصار عمر الطفل الذي ولد في السقوط سبع سنين . والان ارى قلبي هناك حجرا في يد الطفل الذي يواجه دبابة . لم يضع قلبي .

وقال صاحبي : لقد عبرت الجسر قبل سنة ، ولم تكن الارض تنتفض
ـ لم تسمعها جيدا

ـ لعل تمادي الغزاة في تدنيس الاماكن المقدسة .... لعل انخفاض الليرة ومستوى المعيشة .. لعل مصادرة المزيد من الارض ... لعل

نجاح الثورة في الخارج ... لعل معارك بيروت ... لعل ذلك كله هو الذي حرك الارض المحتلة ..

ـ كانت الارض تتحرك . ليس نهر الاردن هو الذي يحدد الجهات . الثورة هي العلامة وهي النهر وهي الوطن . جاء وقت الانفجار . جاء وقت الانفجار ، فبأية بيروت ستذهب : في الشارع الضيق يموت فقراء الوطن دفاعا عن رغيف يدخل في ازمة ، وبرصاص حسن التصويب . وفي الشارع الواسع يجري سباق السيارات . يطلق الرصاص ابتهاجا فتصاب ثلاث موجات بجراح طفيفة . فبأية بيروت ستذهب .

ضفة .. ضفتان .. لا . انه وطن واحد . تأتي الشرارة من بيروت احيانا لان بيروت ليست اصغر من قذيفة كما يتصور السائح . هذا هو طرف البحر . وهذا هو طرف البركان . وليست الرباط مصدر الشرعية ، انها محصلة الدم والتضحية . وهكذا تلتحم دائرة العلاقة بين انتفاضة بيروت وانتفاضة الارض المحتلة على محور واحد : الثورة . وهكذا تجري عملية الانقسام بين انصار الثورة واعداء الثورة .

فليواصل الاعداء تدنيس المسجد الاقصى . والاستيلاء على اجراس القدس

فتلك هي طقوسهم

وذلك هو وقتنا .

ان الزمن يرتدي لباس الميدان

والنهر ـ قميصه كحلي .

ضفة . ضفتان . لا . انه وطن واحد وشعب واحد . والرب والشعب وزن واحد . وقافية واحدة .

محمود درويش

المسألة الفلسطينية والتسوية : احتمالات وتوقعات

غازي الخليلي

تدخل المسألة الفلسطينية الآن مجالات التسوية السياسية للصراع العربي — الاسرائيلي ، ليس باعتبارها احدى مسائل التسوية فقط ، بل باعتبارها المركز والاساس في هذه التسوية ، على الرغم مما يجري من محاولات اسرائيلية واميركية للالتفاف حول هذه المسألة ودفعها الى المؤخرة . ولم يكن ممكنا ان تحظى المسألة الفلسطينية بكل هذا الاهتمام وهذه المركزية ، لو ان الحركة الوطنية الفلسطينية لم تثبت قدرة بعد العام ١٩٦٧ على فرض نفسها كمعبرة عن الطموحات الوطنية للشعب العربي الفلسطيني . فالى ما قبل العام ١٩٦٧ ، كانت المسألة الفلسطينية ، لا تخرج في نظر العديد من الاطراف الدولية ، وكذلك بعض الدول العربية ، عن كونها « قضية لاجئين » . ولهذا فان كل مشاريع الحلول التي طرحت قبل العام ١٩٦٧ لتسوية الصراع مع العدو الصهيوني كانت تقوم على اسكان وتوطين الفلسطينيين الذين هجروا من اراضيهم ، مع السماح — في اقصى الحالات — بالتعويض عن البعض ، وعودة بعض آخر ضمن اطار « جمع شمل العائلات » . وقد استمر هذا النهج من التعامل مع المسألة الفلسطينية فارضا نفسه ، وجرى تكريسه بعد حرب العام ١٩٦٧ بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، الذي عبر عن المسألة الفلسطينية « بايجاد حل عادل لقضية اللاجئين » . ولم يكن بامكان الحركة الوطنية الفلسطينية ان تحول دون صدور هذا القرار — آنذاك — فقد كانت لما تزل وليدة ، تخطو خطواتها الاولى لانهاض جماهير الشعب الفلسطيني في اماكن شتاته المختلفة وفي الاراضي المحتلة . ولذلك استمرت محاولات البحث عن تسوية للصراع العربي — الاسرائيلي ، تتجاهل المسألة الفلسطينية باعتبارها قضية وطنية ، وتعتبر ان الصراع ان هو الا صراع بين اسرائيل والدول العربية ، وان حل المسألة الفلسطينية لن يكون الا « تحصيل حاصل » لتسوية الصراع مع الدول العربية .

واستمر هذا النهج مع بعض التعديلات الطفيفة * طيلة الفترة الممتدة من اواخر العام ١٩٧٠ الى حرب تشرين « اكتوبر » ١٩٧٣ . ومع النتائج التي افرزتها حرب تشرين ، خرجت التسوية للصراع مع العدو الصهيوني من مجال الاحتمال البعيد

* كان ابرز هذه التعديلات مجموعة القرارات التي صدرت عن الجمعية العامة للامم المتحدة بدءا من الدورة ٢٥ في العام ١٩٧٠ ، حيث اكدت الجمعية في قرارها عن هذه الدورة ان احترام حقوق

— نسبيا — الى مجال الامكان ، وجرى قطع اول خطوة عملية بهذا الاتجاه بعقد اتفاقيتي فك الارتباط بين اسرائيل من جهة ، وكل من مصر وسوريا من الجهة الاخرى. ان هذا الانتقال بموضوع التسوية ، دفع المسألة الفلسطينية الى واجهة الاحداث ، لان ما مثلته الحركة الوطنية الفلسطينية اثر نهوضها بعد حرب العام ١٩٦٧ ، فرض نفسه على اطراف الصراع المختلفة ، وجعل من الصعب القفز فوق المسألة الفلسطينية والتعامل معها بالنهج السابق . ازاء هذا الوضع الجديد كان لا بد لاطراف الصراع المختلفة ، وهي تبحث عن منافذ للتسوية ، ان تجيب على سؤال اساسي وهو : **كيف ستحل المسألة الفلسطينية وعبر من ؟** وطيلة الفترة الماضية منذ حرب تشرين حتى الآن ، والسؤال لا يزال طارحا نفسه وبالحاح ، ولا زالت الاجوبة عليه — حتى الان — تدور في حلقة مفرغة ، ولا ينتظر ان تخرج منها لسنتين او ثلاث قادمات . وذلك لاسباب عديدة منها ، ان الدخول العربي الى التسوية وقطع اولى الخطوات العملية باتجاهها قد تم دون ان يتم الاتفاق — ولو بشكل اولي — على وضع المسألة الفلسطينية في هذه التسوية ، فقد كانت ارضية التسوية هي قرارا مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ ، وهما قراران لا يتعاملان مع المسألة الفلسطينية الا باعتبارها قضية لاجئين ، وان اساس التسوية هو الدول العربية التي تحتل اسرائيل قسما من اراضيها ، وليس المسألة الفلسطينية . ان الدخول العربي للتسوية بهذا الشكل ، قد اعطى اسرائيل والولايات المتحدة وحلفائها ، هامشا واسعا وكبيرا جدا للمناورة بالمسألة الفلسطينية ، ومحاولة القفز من فوقها ، او التهرب من التعاطي معها بالاهمية التي تفرضها مركزيتها في التسوية وفي الصراع مع العدو الصهيوني . ومنها ايضا ، ان بعض الدول العربية تتعامل مع المسألة الفلسطينية بما يخدم حركتها التكتيكية فقط ، اي بما يخدم مناوراتها السياسية للحصول على بعض المكاسب الجزئية التي قد تقوي بعض مواقعها هنا وهناك ، او قد تقوي مركزها التفاوضي . ان المسألة الفلسطينية لم تدخل — الى الآن — عقل بعض الدول العربية من ضمن رؤية استراتيجية شاملة لمستقبل الصراع مع العدو الصهيوني وحلفائه ، بقدر ما سكنت عقل هذه الدول باعتبارها « مهمازا » قد يستخدم — احيانا — لحث الفرس على الجري السريع ، وقد يستخدم في احيان اخرى ، لايذاء الفرس ومنعها من الجري . وهذا يعني ان عبء دفع المسألة الفلسطينية الى الامام ، سيكون عبئا على الثورة الفلسطينية ان تتحمله بمعظمه ، وان تتحمل معه عبء حركة ومواقف بعض الدول العربية . وهو عبء اثبتت الثورة الفلسطينية خلال السنوات الماضية ، انها قادرة على تحمله ، بدليل ان المضي قدما بالتسوية ، عاد واصطدم مجددا بالمسألة الفلسطينية ، على الرغم من عقد اتفاقية سيناء المذلة ، وما الحوار الدائر الآن في الاوساط الاسرائيلية وكذلك في اوساط امريكية عديدة ، حول المسألة الفلسطينية ، الا دليلا آخر ، على **ان اندفاع التسوية الى الامام سيظل يصطدم بالمسألة الفلسطينية ما لم يتم حل هذه المسألة حلا وطنيا .**

ان ما جرى ويجري من محاولات امريكية واسرائيلية منذ حرب تشرين حتى الآن ، وربما لفترة قادمة ، في التعامل مع المسألة الفلسطينية لا يزال يدور في اطار البحث

شعب فلسطين « عنصر لا غنى عنه في اقامة سلم عادل ودائم في الشرق الاوسط » . كما اعترفت بقرارها بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني . كذلك كان من ابرز هذه التعديلات ما ورد في بيان القمة السوفياتي — الاميركي المشترك حول الشرق الاوسط عقب زيارة بريجنيف لواشنطن في العام ١٩٧٣ . حيث اكد الطرفان « النظر بعين الاعتبار للمصالح المشروعة للشعب الفلسطيني » في اية تسوية لازمة الشرق الاوسط .

عن حلول تفسر المد الوطني الفلسطيني وتحول دون بلورة الشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة ، فالحلول الاميركية والاسرائيلية المقترحة تقوم على النقاط التالية : (١) الاعتراف شبه الرسمي بأهمية ايجاد حل للمسألة الفلسطينية في نطاق التسوية المطروحة او الممكنة ،مع محاولة التقليل من مركزية هذه المسألة في التسوية، على اعتبار ان الصراع هو مع الدول العربية ، وبشكل خاص ، مصر وسوريا ، وليس مع الفلسطينيين«١» . (٢) الفصل بين المسألة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، والعمل على تنمية او ايجاد اطر ومراكز بديلة او موازية لمنظمة يجري التعامل معها وعبرها لايجاد حل للمسألة الفلسطينية«٢» . (٣) التأكيد على ان اي حل للمسألة الفلسطينية يجب ان يقوم على اساس استمرار الدور الفلسطيني للنظام الهاشمي ، وان لا يكون نفيا له او اسقاطا له لمدى زمني منظور — على اقل تقدير . ومن هنا يجري التأكيد باستمرار على رفض قيام دولة فلسطينية مستقلة بين اسرائيل والاردن ، كما يجري التأكيد على ان حل المسألة الفلسطينية لن يكون ممكنا الا في اطار فلسطيني — اردني .

ان هذه النقاط الثلاث ، والتي تعتبر بمثابة مرتكزات قام ويقوم عليها الموقفان الاسرائيلي والاميركي ، تصطدم بشكل حاد مع الموقف الوطني الفلسطيني ، وتتداخل وتشتبك وتصطدم **بحدود** مع المواقف الرسمية لبعض الدول العربية . كما تتداخل وتصطدم ايضا — **بحدود** — مع التحرك العام للاتحاد السوفياتي بصدد المسألة الفلسطينية . ومن خلال وحول عملية التداخل والاصطدام هذه تتحرك وترتسم مواقف اطراف الصراع المختلفة . وحتى الآن ، يمكن القول بكل ثقة . ان حركة هذه المواقف لا زالت تدور في حدود ضيقة جدا ، وهي اقرب الى المراوحة في مكان واحد منها الى الحركة الفاعلة . فما يدور من حوار واسع في هذه الفترة في الاوساط الاسرائيلية ، لم يخرج عن اطار الحوار العام ، ولم ينتقل الى التأثير في السياسة الرسمية او في الحركة السياسية للحكومة الاسرائيلية ، اضافة الى ان هذا الحوار لم يخرج في اطاره العام عن المرتكزات الاساسية المعلنة بصدد سياسة اسرائيل ازاء المسألة الفلسطينية ، باستثناء اصوات قليلة ، اعلنت استعدادها للقبول بدولة فلسطينية اذا اعترفت هذه الدولة باسرائيل وبالتعايش معها .

الخلاف الاسرائيلي حول المسألة الفلسطينية

وفي داخل الحكومة الاسرائيلية يتمركز الحوار حول نهج اسحاق رابين . ونهج ييغال آلون ، ففي حين ان رابين لا زال يحشر نفسه في الخيار الاردني ، اي التفاوض مع النظام الاردني بصدد تقرير مستقبل الضفة الغربية ، فان آلون يحاول ادخال تعديل على هذه الصيغة بادخال الفلسطينيين من غير م.ت.ف. اليها . فآلون يرى ان المسألة الفلسطينية « يجب ان تحل في اطار المفاوضات مع الاردن وباشتراك ممثلين عن الضفة الغربية » وهو يرى « ان ممثلي الفلسطينيين في الضفة الغربية يجب ان يشتركوا في هذه المفاوضات حتى تجد الشخصية الفلسطينية التعبير عنها داخل دولة اردنية — فلسطينية شرقي اسرائيل » «٣» . كما يرى ان اسرائيل سترتكب خطأ في حال قبولها التفاوض مع الاردن دون اشتراك ممثلين عن الضفة الغربية» «٤». اضافة الى ذلك فان آلون عكس رابين ، يرى ان الوقت قد حان للبحث مجددا في الموضوع الفلسطيني . واتخاذ قرار يوسع هامش المناورة والمبادرة الاسرائيليتين بصدد المسألة الفلسطينية وهو « يخشى ان تكون اسرائيل ، بسبب الجرف في الموقف الاميركي وازدياد قوة م.ت.ف ، قد دفعت نحو سياسة عقيمة لدولة محاصرة ، لن

تكون هناك عودة عنها » ويبدي خشيته من ان استمرار المراهنة الاسرائيلية على حسين ، يجعله اقل مرونة لانه « يتوقع ان تقوم اسرائيل عنه بالعمل المجاني ، لرفض كل محاولة لاشراك م.ت.ف » «٥» . في حين ان رابين يرى ان الساعة غير ملائمة بعد للبحث مجددا في الموضوع الفلسطيني ويرى « ان النقاش والخلاف في الموضوع الفلسطيني ، في الحكومة والجمهور خصوصا الآن ، قد يكونان ضارين وخطرين » «٦» ويعزو ماتي غولان ، اصرار رابين على موقفه هذا الى اعتبارين « اولهما ان قيام دولة فلسطينية يشكل تهديدا لوجود اسرائيل ، والثاني يكمن في الخوف من الهزة التي يمكن ان تحدثها تغيير صيغة الائتلاف الحكومي ، مما يخشى رابين ان تكون له تأثيرات سلبية في وضعه السياسي الشخصي » «٧» وينتقد غولان نهج رابين هذا ويطالب بتغييره فيقول « ومما يدعو الى خيبة الامل ، ان رابين لا يبدي اية دلالة على انه يفهم ان تغيير الاسلوب والصيغة لا يقودان بالضرورة الى النتيجة التي يخشاها ، اي انه اذا اعلنت اسرائيل استعدادها للتفاوض مع م.ت.ف اذا اعترفت بوجود اسرائيل ، فذلك لا يعني ان دولة فلسطينية في يهودا والسامرة ستقوم غدا . بل على العكس فهناك دبلوماسيون كبار في القدس ، يؤمنون ايمانا عميقا بان تبني هذه الصيغة سيحدث ارباكا في العالم العربي يخرج اسرائيل من الموقف الدفاعي الذي تورطت فيه ... اضافة الى ان مثل هذا التغيير سيخلق شروخا في الساحة الفلسطينية » «٨» .

ان الخلاف بين رابين وآلون ، هو خلاف في الحركة التكتيكية ، فبينما يرى آلون ضرورة توسيع هامش المناورة الاسرائيلية من خلال اتخاذ قرار اكثر وضوحا من المسألة الفلسطينية والخروج من اطار المراهنة على الخيار الاردني كخيار وحيد ، فان رابين لاعتبارات تتعلق بوضعه داخل الحكومة يحجم عن اتخاذ قرار كهذا ، ويحاول ان يناور بالخيار الاردني . وهذا ما اتضح بعد زيارته الاخيرة للولايات المتحدة . فقد اكد بعد رجوعه من الولايات المتحدة «انه جرى الاتفاق بين اسرائيل والولايات المتحدة على محاولة ادخال الاردن مجددا الى حلقة المفاوضات السياسية » وان الطرفين تمسكا « بالراي القائل بعدم جواز اجراء مفاوضات مع م.ت.ف » «٩» . ولكن **ما هي امكانات استمرار اسرائيل بموقفها هذا ، وما هي حدود المناورة السياسية امامها بهذا الموقف ؟**

مما لا شك فيه ان اسرائيل باتت شبه محاصرة بالمسألة الفلسطينية ، ولم يعد بامكانها ان تتعامل معها بنفس النهج الذي تعاملت به معها قبل حرب تشرين ١٩٧٣ ، ويتضح ذلك من كثافة واتساع الحوار الذي يدور منذ سنتين في الاوساط الاسرائيلية . وهو حوار ، وان كان بمعظمه لا يزال يدور في فلك السياسة الاسرائيلية التقليدية ولا يخدش الا جوانب هذه السياسة ، فانه بتركيزه على المسألة الفلسطينية واهميتها فيما يدور من بحث عن منافذ للتسوية ، ثم ميل بعضه نحو حث الحكومة الاسرائيلية على التعامل مع المسألة الفلسطينية بأفق اوسع ، يجعل بالامكان القول ان هذا الحوار قد يتخذ مستقبلا ابعادا اكبر — بحدود — من الابعاد التي يبدو فيها الآن ، وذلك على ضوء ما يمكن ان تمثله الثورة الفلسطينية من تحرك فاعل يضغط على المجتمع الاسرائيلي ويؤثر بشكل واضح على احتمالات التسوية وصيغتها الممكنة . الا اننا حتى لا نقع في التفاؤل المسطح ، يجب ان نحدد بدقة المدى الذي يمكن ان تصل اليه هذه الابعاد في ظل محاولات التسوية الجارية في هذه الفترة وفي ظل ما تتمتع به اطراف الصراع المختلفة — المباشرة وغير المباشرة . من مواقع قوة ، وامكانية احداث تأثيرات معينة على مسيرة التسوية .

ان معظم ما يدور من حوار في الاوساط الاسرائيلية حول المسألة الفلسطينية يقوم على اساس انتقاد الموقف المعلن للحكومة الاسرائيلية من هذه المسألة ، وتحديدا موقف رابين ، باعتبار ان هذا الموقف لا يترك خيارات مفتوحة امام الدبلوماسية الاسرائيلية يوسع هامش المناورة امامها ، وباعتبار ان هذا الموقف لا يساعد على قطع الطريق على م.ت.ف واستبعادها كممثله للفلسطينيين . اضافة الى ذلك فان عددا من المعلقين الاسرائيليين يرى ان دولة فلسطينية مجردة من السلاح ، وتقوم على اساس الاعتراف باسرائيل ، لا تشكل هذا الخطر الكبير الذي تعكسه تصريحات المسؤولين الاسرائيليين «١٠» . ويرى يهوشوع تدمور « انه لا يجوز التهرب من امكان ان توافق اسرائيل على شكل من الدولة الفلسطينية اذا جاء يوم ورفضت فيه جميع الامكانات الاخرى » «١١» . ولكن كما يقول تدمور ان امكانا كهذا « ليس امكانا واقعيا في المستقبل القريب ، ومن المؤكد ان ذلك لا يعني دولة بقيادة م.ت.ف » «١٢» ولهذا فان الحكومة الاسرائيلية ، لا تزال تدور في اطار الحلول الاخرى او الخيارات الاخرى ، وهي التي تقوم في جانب منها على مشروع آلون المقلص ، اي اتفاق اسرائيلي — اردني مرفق بحل وسط اقليمي يمنح حكما ذاتيا معينا للفلسطينيين ، كما تقوم في جانبها الاخر على مشروع المملكة العربية المتحدة الذي طرحه حسين في آذار « مارس » ١٩٧٢ . ولا يبدو في الافق ما يشير ادنى اشارة الى ان الحكومة الاسرائيلية ستخرج عن هذا الاطار خلال هذه السنة او السنتين القادمتين . بل على العكس من ذلك فان جميع الدلائل تشير الى استمرار النهج الاسرائيلي في المراهنة على الخيار الاردني وفي ايجاد قيادة بديلة او موازية لـ م.ت.ف. داخل الاراضي المحتلة . فرابين عاد واكد في اكثر من تصريح له خلال الشهر الماضي عن استعداد اسرائيل للتفاوض مع الاردن ، وجاءت خطوة حسين الاخيرة في العودة عن سياسة الاردنة ، وتأجيل اجراء انتخابات نيابية الى اجل غير محدد ، لتتلاقى مع التحرك الاسرائيلي على ارضية الخيار الاردني . على الرغم مما اعلنه زيد الرفاعي « من ان الاردن غير مستعد لاجراء مفاوضات مع اسرائيل حول الضفة الغربية ، وان اي مفاوضات حول الضفة الغربية يجب ان تتم بين اسرائيل والمنظمة » «١٣» . ان النظام الاردني وقد استعاد — الى حد كبير — مكانته السياسية لدى معظم الدول العربية ، يحاول الآن ان يوظف هذه الاستعادة في تأكيد دوره الفلسطيني ، والزيارة الاخيرة التي سيقوم بها حسين الى الولايات المتحدة تأتي بمثابة خطوة كبيرة يقطعها النظام الهاشمي في هذا المجال ، لا سيما ان هذه الزيارة تأتي في ظل ما اعلن عن اتفاق اميركي — اسرائيلي على تنشيط الدور الاردني، واعادة الاردن الى الحلبة السياسية. **ان التحرك الاسرائيلي في دعم الدور الاردني ، لا يقوم على اساس الدفع بعقد اتفاق او اجراء فك ارتباط مع الاردن** ، فهذه خطوة لا زالت سابقة لاوانها ، بل يقوم على اساس تقوية نفوذ النظام الاردني داخل الضفة الغربية عبر ما تسميه اسرائيل « **تسوية عملية مع الاردن** » باعطاء الاردن مكانة في الحياة اليومية في الضفة الغربية، واعداد الاردن كعامل له وزنه في الضفة الغربية على حساب م.ت.ف بتشجيع الاستثمارات الاردنية في المنطقة ونقل اموال الاردن الى الضفة الغربية ، وبالتنسيق بين الاردن واسرائيل في موضوع انتخابات المجالس البلدية القادمة «١٤» . وتعطي اسرائيل اهمية كبيرة للنتائج التي ستسفر عنها هذه الانتخابات لانها تأمل في ان تشكل المجالس البلدية الجديدة اطارا يمكن تنميته كبديل او موازٍ لـ م.ت.ف. او اطارا ممثلا لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، يكون اقرب الى حسين منه الى المنظمة .

ان اسرائيل تحاول ان ينطوي تحركها باتجاه الاردن وباتجاه المجالس البلدية

الجديدة خلال هذه السنة ، والسنة القادمة ، على قيمة عملية ، تتيح لها التحرك بحرية اوسع لدفع الخيار الازدني المطعم باشتراك ممثلين من داخل الضفة الغربية وقطاع غزة ، خطوة كبيرة الى الامام ، وهي خطوة ترى فيها انها وان كانت لا تؤدي الى قطع الطريق كليا على م.ت.ف ، فانها قد تدفع — على اقل تقدير — لايجاد معادل للمنظمة ، يمكن استخدامه كأداة ضغط عليها ، او كوسيلة للمناورة وابتزاز التنازلات السياسية . وتبني اسرائيل بعض حساباتها بهذا الخصوص على اساس ان النظام الاردني في نظر بعض الدول العربية لم يعد « نظام » مجزرة ايلول ، ولا « النظام » المستنكف عن الاشتراك الفاعل في حرب تشرين . كما تبني حساباتها الاخرى على اساس انها تتلاقى في خطوتها هذه مع الولايات المتحدة التي لا تزال تراهن ايضا على الخيار الاردني .

المناورة بسياسة انهاء حالة الحرب

لقد جاء اعلان اسرائيل بالموافقة على ما سمته « مبادرة اميركية » لعقد مباحثات مع الدول العربية بصدد انهاء حالة الحرب بين الدول العربية واسرائيل «١٥» ، ليخدم الخط العام لتحركها السياسي بصدد المسألة الفلسطينية . فسياسة الحكومة الاسرائيلية في هذه الفترة تقوم على اساس عدم اقحام المسألة الفلسطينية في صلب محادثات التسوية الجارية الآن، لانها **اولا** ، غير مستعدة لاتخاذ قرار محدد بالانسحاب من اجزاء من الضفة الغربية سواء لصالح الاردن او لصالح اي طرف آخر ، فحكومة رابين التزمت ببرنامج حكومة مئير السابقة ، والتي ربطت اي انسحاب من الضفة الغربية باجراء انتخابات جديدة للكنيست او باجراء استفتاء عام. **وثانيا** ، لان الخلاف داخل الحكومة الاسرائيلية حول هذه المسألة لم يتبلور ويتأطر بما فيه الكفاية ، اضافة الى ان رابين سيعمل كل جهده على ان لا يشكل الخلاف حول هذه المسألة نقطة او قضية تفجر الحكومة من الداخل وتفرط التآلف الهش الذي تقوم عليه . **وثالثا** ، لان كثيرين في الاوساط الاسرائيلية الحاكمة يعتقدون ان الخيار الاردني لم يستنفد امكاناته كلها بعد ، اضافة الى ان هذا الخيار لم يجر اختباره بطريقة عملية بعد ، وان امكاناته ستكون اوضح بعد دراسة النتائج التي ستسفر عنها انتخابات المجالس البلدية الجديدة .

ان التحرك الاسرائيلي باتجاه البحث عن تسوية شبه شاملة تقوم على اساس انهاء حالة الحرب مقابل انسحابات كبيرة — نسبيا — من الاراضي العربية المحتلة باستثناء الضفة الغربية وقطاع غزة ، يقوم على الاسس التالية : (١) استبعاد انعقاد مؤتمر جنيف خلال الفترة القريبة القادمة ، بسبب ربط الاطراف الاخرى — باستثناء اسرائيل والولايات المتحدة — بين عقد المؤتمر ودعوة م.ت.ف للمشاركة به كطرف في حال انعقاده . وحيث ان استمرار زخم الاندفاع الاميركي في المنطقة يقوم على اساس عدم احداث جمود واضح في السعي نحو التسوية، فان مسألة انهاء حالة الحرب ودراستها ومعرفة مواقف الاطراف المختلفة منها ، تشكل مادة تتيح لاسرائيل والولايات المتحدة ، امكانية جيدة للتحرك ، كما توحي للعديدين ان جهود « السلام » لم تتوقف. (٢) ان البحث في مسألة انهاء حالة الحرب ودراسة ردود الفعل المختلفة حولها ، ستستغرق وقتا ليس قصيرا ، وهو وقت تشعر اسرائيل انها بحاجة اليه لتنظيم وضعها الداخلي، ولحسم بعض خلافات اقطاب الحكومة الاسرائيلية حول المسألة الفلسطينية ، اضافة الى انها بحاجة لهذا الوقت ، لاعطاء الخيار الاردني بعد انتهاء انتخابات المجالس البلدية في الضفة الغربية وقطاع غزة، فرصة اكبر لاختباره

عمليا . (٣) يهم اسرائيل جدا ان تختبر بشكل كاف امكانات صمود اتفاق عربي — اسرائيلي على غرار اتفاق سيناء الاخير في وجه المعارضين له . كما يهمها ان تدرس بشكل كاف ، مدى العمق الذي سيأخذه مثل هذا الاتفاق في السياسة العربية ازاء اسرائيل ، قبل ان تقدم على خطوة اخرى من هذا النوع او خطوة اخرى اكبر منها . ان اختبار ودراسة نتائج وردود فعل هذا الاتفاق تتطلب فترة زمنية ليست قصيرة ، من سنتين الى ثلاث سنوات على اقل تقدير . وترى اسرائيل ان الغوص في مسألة انهاء حالة الحرب قد يعطيها مثل هذا الوقت . اضافة الى ذلك فان اسرائيل حتى تعمق الاتجاه المصري في السياسة العربية كما عبر عنه باتفاق سيناء ، ترى ان لا يظل الموقف المصري يعيش بعزلة او شبه عزلة عربية تقلل من قدرته على الفعل في السياسة العربية ، وفي نفسية الجماهير العربية . ولذا فانها ترى ان الغوص في مسألة انهاء حالة الحرب ، قد يؤدي الى « **تعويم الموقف المصري** » وفك جانب كبير من العزلة المفروضة على مصر ، في ظل توجه سياسي عربي عام نحو البحث في مسألة انهاء حالة الحرب مع اسرائيل . (٤) تعطي التصريحات الاسرائيلية منذ شهرين انطباعا قويا ان اسرائيل باتت تتحرك على اساس ان التسويات الجزئية استنفدت اغراضها وامكاناتها . فالتسوية الجزئية على الجولان تصطدم بموقف اسرائيلي غير راغب في الانسحاب من اجزاء محسوسة من الجولان ، كما تصطدم بتعقيدات الترابط بين الانسحاب من اجزاء من الجولان والمسألة الفلسطينية . اضافة الى ان اسرائيل ليست مهيأة رسميا لعقد اتفاق جزئي مع الاردن . فحصول التسويات الجزئية صرح رابين « ان اسرائيل لن تقدم في المستقبل على عقد اي اتفاق مؤقت مع جيرانها » واضاف « ان اسرائيل تريد الآن البحث عن تسوية شاملة في الشرق الاوسط » واشار الى انه بحث في هذا الموضوع في المحادثات التي اجراها مؤخرا في واشنطن مع فورد وكيسنجر «١٦» . وحول الاردن ، ذكر رابين في لقائه الشهري مع كتلة المعراخ بعد عودته من الولايات المتحدة ، « ان الادارة الاميركية تركت لاسرائيل دراسة احتمال الغاء حالة الحرب كبديل لمؤتمر جنيف ، وان هذه الادارة تعي ان اسرائيل معنية بالاشتراك في مؤتمر جنيف ،ولكن عقده الآن مقرون باشتراك م.ت.ف ، لذلك اقترحت الادارة الاميركية موضوع امكان انهاء حالة الحرب » واضاف انه كان في استطاعته « ان يرد بالايجاب بالنسبة لموقفنا في هذا الموضوع فيما يتعلق بمصر وسوريا ، اما بالنسبة للاردن فقد اردت ان اجري مشاورات مع الحكومة «١٧» » ونفى في الكنيست ان يكون قد جرى اي بحث اقليمي بصدد اتفاق مع الاردن خلال زيارته للولايات المتحدة فقال « لم اجد نفسي مأذونا للرد على الولايات المتحدة بشأن الموافقة او عدم الموافقة على مفاوضات مع الاردن بشأن الغاء حالة الحرب ... ومن البديهي انه اذا لم يتفق على مفاوضات مع الاردن ، فبطبيعة الحال لم تجر المفاوضات حول موضوع اقليمي «١٨» » .

استنادا على هذه الاسس ، فقد بادرت اسرائيل الى اعلان موافقتها على البحث في مسألة انهاء حالة الحرب وبحث امكانيات عقد تسوية شبه شاملة ، وهو اعلان سيشكل الاساس في التحرك السياسي الاسرائيلي خلال هذه السنة على اقل تقدير اي الى حين انتهاء انتخابات الرئاسة الاميركية ، ولا ينتظر ان يطرأ تغيير يذكر على السياسة الاسرائيلية خلال هذه الفترة ، لا سيما ان الولايات المتحدة بحاجة الى وقت ايضا حتى تنتهي من مسألة الانتخابات الرئاسية .

الموقف الاميركي من المسألة الفلسطينية

لقد كان الموقف الاميركي منسجما — الى حد كبير — مع الموقف الاسرائيلي ، وقد

جرى التأكيد على هذا الانسجام او التوافق بين الموقفين الاميركي والاسرائيلي في الملاحق السرية لاتفاق سيناء ، حيث تعهدت الولايات المتحدة لاسرائيل بعدم الاعتراف بـ م.ت.ف ، او التفاوض معها اذا لم تعترف باسرائيل ، كما تعهدت لها ايضا بعدم اشراك م.ت.ف في مؤتمر جنيف الا باتفاق كل الاطراف التي دعيت اصلا للمؤتمر بما فيهم اسرائيل «١٩» اما وثيقة ساوندرز التي اثارت بعض الضجيج في الاوساط الاسرائيلية عند صدورها ، فقد اعتبرت شبه معدومة ، بعد التوضيحات التي ادلى بها كيسنجر عقب صدور الوثيقة اضافة الى ان الوثيقة لم تأت بجديد فيما يتعلق بالموقف الاميركي الا اشارتها الى اهمية ومركزية المسألة الفلسطينية في تسوية النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وهي اشارة لا تثير ذلك القدر من التفاوت او التباين بين الموقفين الاسرائيلي والاميركي . اما الحلول التي تذكرها الوثيقة للمسألة الفلسطينية ، فهي الحلول اياها التي تحبذها اسرائيل ، والتي يقف على رأسها الاستمرار في اعتبار الاردن الطرف المفاوض المعقول والممكن بصدد تقرير مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة «٢٠» .

ان الاتفاق الاسرائيلي ـ الاميركي بصدد تنشيط الدور الاردني كما اعلن عنه رابين بعد زيارته للولايات المتحدة ، يؤكد أن لا افتراق بين الموقفين ، وان السياسة الاميركية لا تزال تسير بمحاذاة السياسة الاسرائيلية ومعها فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية . ومعظم الدلائل تشير الى ان اي افتراق ولو ضئيل لن يحدث خلال الفترة القريبة القادمة . وبالتالي تصبح اي مراهنة على امكان احداث تغيير في الموقف الاميركي ازاء المسألة الفلسطينية مراهنة خاسرة ولا تقوم الا على فراغ .

لقد فشلت محاولة بعض الدول العربية في الحصول على قرار فلسطيني معتدل من مجلس الامن بدون فيتو اميركي عندما جرى بحث المسألة الفلسطينية في مجلس الامن في شهر كانون الثاني « يناير » الماضي . ولقد جاء الفيتو الاميركي ضد مشروع القرار الذي قدمته دول عدم الانحياز ، ليؤكد بالملموس ، ان الموقف الاميركي من المسألة الفلسطينية لا يزال هو هو ولن يتغير ، ولا يختلف عن الموقف الاسرائيلي المعلن كما يعبر عنه رابين .

الاحتمالات والامكانيات

يتضح مما تقدم انه على الرغم من بروز اهمية المسألة الفلسطينية في التسوية ، فان هذه الاهمية لم يجر التعبير عنها بما يتناسب واهميتها ، وان مجموع الحلول التي طرحت لحل هذه المسألة في نطاق مساعي التسوية الجارية الآن ، لا زالت تدور خارج اطار الحل الوطني لها ، وان اقصى ما يمكن ان تصل اليه هذه الحلول ، في ظل موازين القوى القائمة الآن ، هو القبول بدولة فلسطينية مجردة من السلاح ، لا تشكل نفيا للنظام الهاشمي او اسقاطا له ولدوره السياسي في المنطقة ، وتقوم على اساس الاعتراف باسرائيل والقبول بالتعايش السلمي معها . ان مثل هذا الحل لا يرضي حتى الحد الادنى والضئيل جدا من الطموحات الوطنية الفلسطينية ، وبالتالي فانه سيكون مرفوضا من جميع القوى الوطنية الفلسطينية والعربية . ان امكانات احباط مثل هذا الحل في هذه المرحلة لصالح تأمين الحد الادنى من الطموحات الوطنية للشعب الفلسطيني ، تظل مرهونة بما يمكن ان يحدث من تغيير على مواقع اطراف الصراع المختلفة خلال مباحثات التسوية . وما جرى خلال السنتين الماضيتين من محاولات بهذا الاتجاه ، يؤكد ان مثل هذه الامكانية ضعيفة ، **فأي تغيير يمكن ان يحدث في ظل موازين القوى السائدة الآن ، وبعد عقد اتفاق سيناء سيظل تغييرا له امكانية تأثير**

في حدود الحركة التكتيكية لاطراف الصراع ، وليس في حـدود احداث نقله او تغيير اساسي يقلب معادلة التسوية التي يجري اعدادها . فأي تسويـة هي بالنهايـة انعكاس لمواقع القوى الداخلة في هذه التسوية والمشاركة بها ، ان ما حققته الثـورة الفلسطينية من انجازات على الصعيد الدولي بالحصول على قرارات من الجمعيـة العامة للامم المتحدة « قراري دورتي ٢٩ و ٣٠ » تستجيب لبعض الطموحات الوطنية للشعب الفلسطيني ، تظل انجازات محدودة ولا تكتسب قوة الفعـل واحداث التأثير الفاعل الا اذا اسندت بانجازات عملية موازية لها على صعيد الواقع وعـلى ارض المعركة ، تقلب معادلة التسوية الجارية الآن ، وتحـدث تغييرا اساسيا في مواقـع الاطراف المشاركة بها . وبكل ثقة اقول ان الثورة الفلسطينية لم تصل بعد الى تحقيق مثل هذه الامكانية ، وان كان المجال مفتوحا امامها لامكانية كهذه باستمرار قدرتهـا النضالية ، وباستمرار البندقية الفلسطينية اداةفاعلة لحسم الصراع وتأكيد الشخصية الوطنية الفلسطينية . وما تشهده الضفة الغربية الآن ومنذ فترة من تحرك جماهيري واسع اخذ يتسم ببعض مظاهره بطابـع الانتفاضة الشعبية ، وما اكدته الاحداث الدامية في لبنان ، من قدرة الثورة الفلسطينية على التصدي لايقاف مؤامرة اعـادة تحجيمها ، كلها شواهد ودلائل تؤكد ان الثورة الفلسطينية تملك القدرة على تحويـل الامكانية الى فعل . ولكن مثل هذه القدرة ، لن تتبلور بقفزة ، وخلال فترة قصيرة ، بل لا بد لهذه القدرة من ان تعبر عن نفسها من خلال النضال الشاق والمرير الذي قـد يستمر عدة سنوات . وعليه ، فان ما تواجهه الثورة الفلسطينية الآن ، ضمن مـا يجري من محاولات لفرض تسوية قسرية بخصوص المسألة الفلسطينية ، يجعل مـن الممكن القول **ان امكانات الخروج بحل وطني للمسألة الفلسطينية من معادلة التسوية في هذه المرحلة ، تبدو امكانات ضعيفة جدا ان لم تكن معدومة كليا** . وبالتالي فـان مرحلة من النضال القاسي والمرير ستفرض نفسها على الحركة الوطنية الفلسطينيـة قبل ان نصل الى امكانية كهذه . وهي مرحلة ستكون اقسى واشد من اي مرحلـة نضالية سابقة ، فعلى الثورة الفلسطينية ، ليس فقط ان تستمر في كفاحها المسلـح الفاعل ضد العدو الصهيوني والامبريالية الاميركية ، ولكن ان تواجه ايضا وبفعالية ، مجمل التوجهات السياسية العربية وغير العربية التي تسعى لاعادة تحجيم الثـورة الفلسطينية حتى تنسجم مع معادلة التسوية التي يجري اعدادها . ان ما جرى فـي لبنان خلال الاشهر العشرة الماضية ، وما يمكن ان يجري ايضا خـلال هذه الفترة ، تشكل كلها ، الحلقة الرئيسية في سلسلة المحاولات الجارية لافقاد الثورة الفلسطينية مواقع فعلها وتأثيرها في الاحداث . ان الثورة الفلسطينية بجميع اطرافها وفصائلها ، لا زالت تشكل عنصرا غير قابل للذوبان في المعادلة . ومن هنا فان ما قاله بيغال آلون، من ان الصراع في المرحلة القادمة سيتمحور حول الفصل بين المسألة الفلسطينيـة و م.ت.ف ، اي اداتها الوطنية ، يجب ان لا يؤخذ ببساطة ، فهو قول سواء جاء عبر آلون او غيره ، يشكل عنوانا كبيرا للصراع في المرحلة القادمة . وعليه فان احبـاط مخططات ايجاد البدائل او القوى الموازية للثورة الفلسطينية ، يجب ان يشكل جانبا اساسيا من البرنامج العام للثورة الفلسطينية في هذه المرحلة . وليس من شك في ان اعادة النظر في مجمل علاقات منظمات المقاومة الفلسطينية فيما بينها ، وفي مجمـل السياسات التي وضعت موضع التنفيذ والتجربة خلال السنتين الماضيتين ، يشكـل مدخلا لا بد منه لاعادة النبض القوي الى الوحدة الوطنيـة الفلسطينية . ان عـودة الحرارة الى العلاقات بين منظمات المقاومة الفلسطينية ، وعودة بعض السخونـة

الفاعلة الى الحوار الفلسطيني ، امران من الضروري ان يعطيا الامكانية والفرصة ، من دون تشنج ومن دون المترسة وراء مواقف مسبقة . ذلك ان الوحدة الوطنية الفلسطينية ، الفاعلة والمبنية على وضوح كامل في العلاقات ، تشكل احد شروط النجاح في خوض الصراع بفعالية وتأثير خلال المرحلة القادمة من نضالنا الوطني .

١ - في ١٩٧٦/٢/٢٠ ، صرح رابين « على رغم ان المشكلة الفلسطينية لا تشكل قلب النزاع العربي - الاسرائيلي فمن المؤكد انه لا يمكن الوصول الى تسوية سلمية نهائية في الشرق الاوسط ما لم تسو هذه المشكلة » - انظر النهار بتاريخ ١٩٧٦/٢/٢١ .

٢ - اكد ييجال الون في جلسة الحكومة الاسرائيلية عشية سفر رابين لواشنطن «ان المشكلة الاساسية ستكون الفصل بين المسألة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية وان الصراع سيدور حول هذا الموضوع - هآرتس ١٩٧٦/١/٥ . كذلك فقد ثبتت وثيقة ساوندرز الاميركية مثل هذا التصور ، عندما اشارت الى اهمية المسألة الفلسطينية في ازمة الشرق الاوسط ، ورفضت اعتبار م.ت.ف. طرفا مفاوضا مقبولا وممكنا .

٣ - السفير بتاريخ ١٩٧٦/٢/١٦

٤ - هآرتس بتاريخ ٢٠-٢-١٩٧٦

٥ - دافار بتاريخ ١٩٧٦/١٢/١٢

٦ - المصدر نفسه

٧ - هآرتس ١٩٧٥/١٢/٩

٨ - المصدر نفسه

٩ - نشرة رصد اذاعة اسرائيل ر.ا العدد ٩٨١ .

١٠ - انظر تعليق ماتي غولان ، حول مواقف حكومة رابين ازاء التطورات السياسية في المنطقة هآرتس ٧٥/١٢/٩ وكذلك تعليق يهوشوع تدمور ، حول الخلاف بين رابين والون دافار ١٢-١٢-١٩٧٥ .

١١ - دافار ١٩٧٥/١٢/١٢

١٢ - المصدر نفسه

١٣ - النهار ١٩٧٦/٢/١١

١٤ - ر.ا العدد ٩٨٥

١٥ - النهار ١٩٧٦/٢/٢٣

١٧ - ر.ا العدد ١٠٠٥

١٧ - ر.ا العدد ١٠٠٥

١٨ - ر.ا العدد ١٠٠٤

١٩ - انظر النص الكامل للملاحق السرية لاتفاق سيناء ، تقارير القدس برس ، تقرير رقم «٥» بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٢٠ .

٢٠ - انظر النص الكامل لوثيقة ساوندرز ، فلسطين الثورة ، العدد السنوي، بتاريخ ١٩٧٦/١/١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣

صراع من اجل الوحدة

ملاحظات على برنامج الجبهة الديموقراطية

محجوب عمر

البرنامج السياسي الذي اعلنته الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في ذكرى تأسيسها السابعة، مضى دون ان يحظى بالانتباه الواجب ولا الاهتمام الذي يستحق..

فمن جهة ، انشغل الناس عنه بالاقتتال الدائر في لبنان والتطورات المتسارعة التي تحدث على ساحته . ومن جهة اخرى فان الناس البعيدين عن لبنان ، القريبين من فلسطين شدت ابصارهم واسماعهم واذهانهم وقلوبهم انتفاضة جماهيرية عنيفة ، فلم يلتفتوا الى « البرنامج السياسي » المعلن ولم ينتبهوا الى اهمية ما ورد فيه من افكار ..

اما الذين هم في « الداخل » ، في الوطن المحتل (ونقصد به فلسطين كلها وليس مجرد قسم منها) فهؤلاء طبعا لم يعرفوا « بالبرنامج » وان عرفوا به لم يناقشوه « فان ممارسة الثورة خير من الحديث عنها » كما قال لينين معلقا على كتابه « الدولة والثورة » .

ومع ذلك .. ورغم الانشغال بما يجري ، فان « البرنامج السياسي » للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين يستحق التنبيه والمناقشة وان اقتصرت على ملاحظات وتساؤلات اولية سريعة ، لعل رفاق الجبهة الديمقراطية تتسع صدورهم لها ، **فدوافع الاستعجال** هي نصائحهم المكررة بان « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » والبرنامج المطروح هو « نظرية » فصيل من فصائل الساحة الفلسطينية (بل يطرح نفسه قيادة لها) ، لذا لا بد من استعجال الفهم والوضوح تدعيما لوحدة الصف والنضال .

اما دوافع الحوار نفسه فهي كون « البرنامج السياسي » يتعلق بقضية فلسطين وهي قضية مقدمة على كل قضية اخرى . وكما لا يجب ان تنحرف بنادقنا عن اتجاهها نحو فلسطين المحتلة ، فالاولى الا تنحرف افكارنا عنها ايضا .

ان رفاق الجبهة الديمقراطية يقدمون برنامجهم **السياسي** من منطلق **فكري** يشيرون انه الفكر الاشتراكي العلمي ويتحدثون في برنامجهم عن « الطبقة العاملة بقيادة حزبها الطليعي العظيم » (١) ويوجهون النقد الى « التنظيمات التي تنتمي ايديولوجيا الى الطبقة العاملة » (٢) ، ويقيمون القوى والعوامل بالفاظ وعبارات « كتلك التي يستخدمها الماركسيون عادة » ، اي اننا يمكن ان **نستنتج** ان رفاق الجبهة الديمقراطية

يتبنون او يتسلحون بالماركسية اللينينية عند قيامهم « بانتحليل الملموس للواقع الملموس » حسب عباراتهم في تقارير سابقة لهم .

استنتاج .. الى ان يعلنوا غير ذلك ، وعذرنا انهم اتبعوا في **هذا** « البرنامج السياسي » ما لم يتبعوه من قبل في برامج سياسية اخرى لهم ، اذ فضلوا العبارات والالفاظ غير الواضحة والمغماه الغامضة تاركين للقارىء ان يستنتج .

فاذا كان هذا الاستنتاج صحيحا فان حوارنا لن يتعرض في هذا المقال الى صحة تطبيق الافكار الماركسية اللينينية كما اجتهد رفاق الجبهة الديمقراطية ، لاحتمال اختلافنا على فهم الماركسية اللينينية وهو الارجح ، وايضا حتى يعلنوا هم انهم يطبقونها فلا يكون حوارنا قائما على استنتاج وافتراض .

ان استيضاحاتنا وملاحظاتنا ستتركز حول « **البرنامج السياسي** » باعتبارها « واقعا ملموسا » اي وثيقة مكتوبة نحاول ان نفهمها « بالتحليل الملموس » ايضا ..

ولا شك ان رفاق الجبهة الديمقراطية يوافقون على ان نهج « التحليل الملموس للواقع الملموس » لا بد أن يستند الى تطور هذا الواقع ، وهو امر ليس صعبا عند تناول « البرنامج السياسي » المعلن مؤخرا (الربع الاخير من ١٩٧٥ حسبما جاء في مقدمة البرنامج المطبوع) ذلك ان لـه شقيقا اعلن في الربع الاخير ايضا من عام ١٩٦٩ انه :

« البرنامج الاكثر تقدما وتقدمية مما هو قائم ، البرنامج الذي يشق طريقا جديدا للمقاومة يعتمد على الذات والجماهير « بافق وطني » جذري يقود المقاومة على طريق الانتقال من الحرب الفدائية المحدودة الى حرب البؤر الثورية المتنقلة الى حرب العصابات ويدفع بالمنطقة للأخذ ببرنامج حرب التحرير الشعبية الطويلة الامد لالحاق الهزيمة الكاملة بالصهيونية والامبريالية والرجعية » (من مقدمة الرفيق نايف حواتمه لتقرير « حركة المقاومة الفلسطينية في واقعها الراهن ») .

« منشورات الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين »

من هنا تبدأ ملاحظاتنا :

اولا : استيضاحات ضرورية :

الذي يقرأ البرنامج المنشور في ايلول ١٩٦٩ و « البرامج السياسية المتضمنة في البرنامج السياسي » المنشور في ١٩٧٥ له الحق ان يتساءل ما اذا كانت الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين صاحبة البرنامج الاول هي نفسها الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين صاحبة البرنامج الثاني ، فان اجيب بالايجاب فان اول سؤال يتبادر للذهن هو السؤال عن مصير شعارات اساسية كان البرنامج الاول مليئا بها وبالتأكيد عليها من المقدمة حتى آخر سطر ، بل وصل الامر باصحاب التقرير الاول الى تحديد :

« ان حركة المقاومة الفلسطينية **ترفض وتستنكر بشدة هذا المنطق الخياني** (منطق المطالبين بازالة اثار العدوان والتسوية السلمية مع اسرائيل ، اي منطق الذين كانوا وقتها يطالبون بدحر الاحتلال من الاراضي العربية التي احتلها العدو الصهيوني بعد ١٩٦٧ — م.ع) وتعلن ان **الكفاح المسلح** الذي يخوضه شعب فلسطين **لن يتوقف الا**

بتحرير فلسطين وتدمير الكيان الاسرائيلي واسترجاع كل شبر من الارض المغتصبة ».
ص ٩١ من برنامج ١٩٦٩

هذا الحسم والجزم والوضوح غاب تماما من البرنامج الجديد .. ربما كان في الامر حكمة لا ندريها ولكن من حقنا السؤال بل الاسئلة :

ا) لماذا خلا برنامج ١٩٧٥ **تماما** من اي ذكر **لشعار الكفاح المسلح**(٣) حتى ولو على سبيل التقييم لما كان قائما ومدعوا له من قبل ؟.

ان البرنامج الاول والذي اوردنا فقرة واحدة من مقدمته (تضمنت هذه الفقرة كلمة الحرب اربع مرات مع التأكيد بأنها شعبية وطويلة الامد) وما الحق به من برامج ومشاريع برامج ، كرر مئات المرات ، وبتشديد وتأكيد ، شعار الحرب الشعبية طويلة الامد ، والكفاح المسلح الذي لن يتوقف حتى **تحرير آخر شبر من فلسطين واسترجاعه** واعتباره الطريق الوحيد للتحرير (ص ١٣٧) .

« ان التناقض بين حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية وبين الامبريالية واسرائيل هو تناقض **يستحيل** حله بالطرق السلمية بل فقط بالكفاح المسلح عن طريق حرب تحرير شعبية طويلة الامد تساهم فيها جميع الجماهير العربية المسلحة لتدمير الكيان الصهيوني واستئصال الوجود الامبريالي على امتداد الارض الفلسطينية والعربية » .

(التشديد من عندنا)

« من مشروع قرار مقدم للمؤتمر السادس ــ ملحق برنامج ١٩٦٩ ص ١٠٥ »

بل ان رفاق الجبهة الديمقراطية قدروا في ذلك الوقت ان مستلزمات النصر الوطني الحاسم كانت تتطلب ايضا :

« ٥ ــ شن حرب شعبية طويلة الامد تشارك فيها الجيوش النظامية الثورية الى جانب قوات المقاومة الفلسطينية وكتائب الميليشيا الشعبية المسلحة » .

ص : ٨٣ ــ المصدر السابق .

ان كلمة **الكفاح المسلح** لم ترد ، بل ان كلمة **« الفدائي » ومشتقاتها لم يشر اليها ، فضلا عن حرب التحرير الشعبية طويلة الامد ..**

لماذا ؟... هل كانت شعارات خاطئة ؟ ام حدث ما جعل « المستحيل » ممكنا ؟ ام لم تعد حرب الشعب والفدائيين والكفاح المسلح ضرورية ؟..

ب) البرنامج السياسي الجديد (١٩٧٥) يحمل اسم الجبهة الديمقراطية **لتحرير فلسطين** . وباستثناء هذه الاشارة الى مهمة الجبهة فان جملة واحدة **لم ترد** عن هذه المهمة بهذا التعبير على طول البرنامج . بل ان جملة **« تحرير فلسطين »** وردت في موقعين مرة بكونها الشعار الذي تحركت تحته الرجعية العربية في١٩٤٨ ،واستخدمت « شعارات جوفاء » بشأنه(٤) والمرة الاخرى وردت بالنص التالي :

« ان الغاء الصهيونية على الارض الفلسطينية يعني بالضرورة تحرير فلسطين من فلك الامبريالية العالمية »

ص : ٣٠

ورغم تعدد البرامج الاستراتيجية والمرحلية « والمرحلية المتنوعة » في البرنامج المنشور فان مهمة « **تحرير فلسطين** » لم توضع في اي منهم كهدف وشعار محدد .

اليس هذا الغياب الواضح مثيرا للتساؤل والدهشة ؟

برنامج ١٩٦٩ لم يكن يتردد في ذكر هذا الهدف بشكل محدود واضح بل وان يقرنه على الدوام بما سنسأل عنه فيما بعد ، بانقضاء على الكيان الصهيوني (ص ٢٣ — ص ٨٥ — ص ٩١ — ص ١٠٣ — ص ١٣٧ — ص ١٦٧ — على سبيل المثال لا الحصر ، من برنامج ١٩٦٩) . لماذا اذن خلا البرنامج الجديد من هذه العبارات الواضحة ؟ لماذا اغرقت ضمنا في مسلسل متتال من الشروط **اللازمة** ، والتي **بدونها لا يمكن** (!!) والتي حتى لو تحققت تؤدي فقط الى « ضمان حقه (اي الشعب الفلسطيني) في تقرير مصيره على كامل ترابه الوطني » (برنامج١٩٧٥ ، ص : ٣٢) — سنعود فيما بعد الى مسألة حق تقرير المصير — ولكننا نتساءل الان عما اذا كان **اغفال** تحديد أن مهمة النضال الاستراتيجية هي **تحرير فلسطين** ، هو بمثابة تخلي عن شعار « استرجاع كل شبر من الارض المغتصبة » كما بشر وطالب برنامج ١٩٦٩ . لماذا ؟.. وهل ما يزال الرفاق مصرون على شعارات ١٩٦٩ ؟..

ج) وهل تخلى رفاق الجبهة الديمقراطية ايضا عن شعارات « القضاء على الكيان الاسرائيلي » و « تدمير الكيان الاسرائيلي » ، و « ازالة الكيان الصهيوني» ، و «الغاء الدولة الصهيونية العنصرية التوسعية » و «تصفية الكيان الاسرائيلي ممثلا بمؤسساته العسكرية والسياسية والادارية » وكلها شعارات وردت بالنص في برنامج ١٩٦٩ ؟..

ان البرنامج الجديد **لم يذكر ولا مرة واحدة** مهمة « القضاء على الكيان الصهيوني او تصفيته » ولا تكلم عن « تدمير الكيان الاسرائيلي » واستبدل تلك الشعارات الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض بالقول بأن التوصل الى الحل (!!) يتطلب النضال من اجل سلسلة من التدابير السياسية (!!) الملموسة التي تكفل **الغاء** الصهيونية وكافة تعبيراتها السياسية ، وتتمثل في :

١ — فرض **الاعتراف** العملي بالوجود الوطني المستقل للشعب الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره بحرية في اطار **دولة وطنية مستقلة** .

٢ — اقرار حق **جميع** اللاجئين الفلسطينيين العرب في **العودة** الى ديارهم الاصلية وارض وطنهم واستعادة ممتلكاتهم .

٣ — **الغاء قانون العودة** الصهيوني ووضع حد للهجرة اليهودية الى فلسطين وتصفية سائر المؤسسات الصهيونية العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

٤ — الغاء كافة مظاهر التمييز القومي والعنصري والديني **وتوفير الضمانات الدستورية والسياسية** للتعايش والمساواة في ظل الدولة الديمقراطية الموحدة .

برنامج ١٩٧٥ ص : ٣٢
(والتشديد من عندنا)

والبرنامج يصف « الحل » بانه « الحل الجذري لمعضلة التبديد والاقتلاع القومي للشعب الفلسطيني » .

ونلاحظ ان المطلوب في البرنامج الجديد ليس هو **تدمير الكيان الاسرائيلي** كما سبق ان طالبوا ، بل سلسلة من التدابير السياسية (اتفاقات مثلا ؟!) تكفل :

١ ــ الاعتراف بدولة فلسطينية (ترى ما حدودها ؟)

٢ ــ الاقرار بحق اللاجئين في العودة (مقر منذ زمن ولكن المشكلة في التنفيذ) .

٣ ــ الغاء قانون العودة الصهيوني !! (ان الغاء القانون لا يعني الغاء الدولة) وتصفية سائر المؤسسات الصهيونية (هناك مؤسسات غير صهيونية في الكيان الاسرائيلي) .

٤ ــ الغاء مظاهر التمييز .. وتوفير ضمانات دستورية (ضمانات ممن ؟ ودستور من ؟)

ان هذا البرنامج الجذري « الاستراتيجي » المطروح **لا يعاقب عليه** « القانون » في الكيان الاسرائيلي ، وهناك تنظيمات « اسرائيلية » ذات برامج تطالب بأكثر مما يطالب به برنامج الجبهة الديمقراطية . ان اتحاد الشيوعيين الاسرائيليين مثلا يطالب بتطبيق قرارات التقسيم ١٩٤٧ (اي الانسحاب من اكثر من ثلثي المساحة المحتلة قبل ١٩٦٧) وايضا الانسحاب من المثلث والجليل (لان اغلبية السكان عرب) ، وحق الانفصال للعرب المقيمين في (اسرائيل) (٦) .

د) يتحدث البرنامج السياسي عن « الدولة الديمقراطية **الموحدة** » (التشديد من عندنا) يتعايش فيها العرب (واليهود) (٧) في ظل المساواة **القومية** الكاملة ..

هل هي الدولة « **المتعددة القوميات** » التي يطالب بها بعض « الاسرائيليين » الان ؟ وكيف يمكن الجمع بين العرب « **وهم قومية** » وبين (اليهود) « **وهم ليسوا قومية** » في معادلة واحدة اسمها « المساواة القومية » ؟ أوليست « **المساواة القومية** » تعني في الواقع العملي حق كل « قومية » في تقرير مصيرها ، بمعنى **حقها في الانفصال ؟..** وماذا لو قرر (اليهود) الانفصال لاسباب « غير صهيونية » وقد تكون لاخطاء من الجانب العربي ؟ ان الغموض الذي صيغت به هذه العبارات مثير للتساؤل خصوصا اذا قرأناها في سياق القول بأن الدولة الديمقراطية « الموحدة » سترتبط **بعلاقات وحدوية** مع سائر اقطار الوطن العربي ص ٣٢ . مجرد علاقات وحدوية وليست « جزءا من دولة الوحدة العربية التقدمية الكبرى » كما هو مصطلح على وصفها باعتبارها دولة « عربية » حتما .. ام ان الرفاق يرون انها لن تكون **دولة ديمقراطية عربية** ؟.. الاغلب انهم لا يرون ذلك والا لذكروه صراحة وتحديدا منعا للبس والغموض ..

ثانيا : حق تقرير المصير ــ متى واين ومن ؟

يتحدث البرنامج السياسي الجديد (١٩٧٥) عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في اكثر من مكان وبأكثر من معنى في نفس الوقت . (٨)

فقد ورد الحديث عن حق تقرير المصير في المقدمة التاريخية ، وفي البرنامج العام وفي « البرامج المتنوعة المرحلية » ، والفقرة الوحيدة التي لم ترد فيها اشارة له هي تلك الخاصة « بالارض المحتلة ١٩٤٨ » على حد تسمية البرنامج .

اول ذكر لحق تقرير المصير ورد عند الحديث عن اثر اقامة (دولة اسرائيل) « الهلالين لنا » اذ يقول البرنامج :

« ان اقامة (دولة اسرائيل) وضم فلسطين الشرقية الى الاردن يضعان المسألة الوطنية الفلسطينية في اطار جديد محوره النضال من اجل استعادة الهوية الوطنية المتميزة لشعب فلسطين ، واعادته الى ارضه ، **وضمان حقه في تقرير مصيره ، بما يكفل اعادة توحيد وطنه في ظل دولة ديمقراطية مستقلة** » . ص : ١٥

(التشديد لنا) ...

لنلاحظ اولا ان الفقرة لم تورد اي شيء يشير الى النضال من اجل **استعادة الارض** المغتصبة التي اقيمت عليها (دولة اسرائيل) ، واقتصر على استعادة الهوية الوطنية المتميزة لشعب فلسطين وهو امر كان من الممكن تحقيقه قبل ١٩٦٧ باعلان حكومة فلسطينية على ما بقي من فلسطين بعد اقامة (دولة اسرائيل) . كما **أن العودة الى الارض** لم تقترن بأي اشارة الى من يحكم ويتحكم في هذه الارض وما هو موقفنا منه : هل هو « تدميره » و « القضاء عليه » ام مجرد **اجباره** على ان يعطي للشعب الفلسطيني العائد الى ارضه حق تقرير المصير ؟ حتى لو قبلنا بذلك خضوعا للواقعية وخوفا من الاتهام بالطوباوية والجمود والعاطفية وما شابه ذلك من صفات يمكن ان يخلعها علينا الرفاق .. حتى لو قبلنا بذلك فان البرنامج **يجرد** الشعب الفلسطيني من حق تقرير المصير في الجملة التالية اذ يضيف :

« **بما يكفل** اعادة توحيد وطنه في ظل دولة ديمقراطية مستقلة »

معنى ذلك ان البرنامج يحدد الهدف من حق تقرير المصير ، ورغم انه من المعروف ان حق تقرير المصير يعني في الاساس حق **الانفصال** ، اي حق **الاستقلال** عن البلد او الامة او الدولة القاهرة المستعمرة، الا ان البرنامج يطالب بأن يؤدي استخدام الشعب الفلسطيني له الى ما يكفل **اعادة توحيد** وطنه في ظل دولة ديمقراطية مستقلة ..

توحيد مع من ؟؟ واستقلال عن من ؟؟

هناك قوتان في المعادلة التي طرحها البرنامج (اسرائيل) و (الاردن) ، ويفهم من سياق الحديث ان الاستقلال سيكون عن الاردن « لاستعادة الهوية الوطنية المتميزة لشعوب فلسطين » .. فهل ستكون « الوحدة » مع (اسرائيل) في ظل دولة ديمقراطية مستقلة (بعد ذلك اضاف البرنامج كلمة موحدة) سؤال .. مجرد سؤال ، نرجو ان يتسع له صدر الرفاق .. خصوصا وان البرنامج يعود للحديث عن « حق تقرير المصير » في اطار **استراتيجي مرحلي** (؟) **جديد بسبب** نتائج حرب ١٩٦٧ ..

يقول البرنامج :

«مرة اخرى وضعت الحرب الثالثة المسألة الوطنية الفلسطينية في اطار استراتيجي مرحلي جديد يملي كمهمة مباشرة النضال من اجل تحرير المناطق المحتلة وانتزاع الحق في الاستقلال الوطني وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة للشعب الفلسطيني . ونتيجة لذلك توطد الترابط اكثر فاكثر بين نضال الشعوب العربية في الاقطار المحيطة، الهادف الى استعادة ارضها المحتلة واحباط المساعي التوسعية الاسرائيلية ، وبين نضال الشعب الفلسطيني الرامي كخطوة مرحلية الى احباط المخطط التصفوي الامبريالي ــ الاسرائيلي ودحر الاحتلال واعادة تأسيس الكيان السياسي الوطني لشعب فلسطين على ارضه في اطار دولة مستقلة ذات سيادة تكون الخطوة الاولى على طريق الدحر الكامل للمشروع الصهيوني » . ص : ٢٠

نعتقد ان الكلمات واضحة ... حق تقرير المصير لشعب فلسطين ستكون نتيجته

دولة مستقلة لهذا الشعب على جزء من ارض فلسطين يسميها البرنامج « المناطق المحتلة » .. او « الاراضي العربيـــة والفلسطينية المحتلـــة » وهي خطوة **اولـــى ومرحلية .**

وقد اكد البرنامج هذا الفهم عند الحديث عن نتائج حرب تشرين اذ نص على انه :

« لقد انتجت حرب تشرين تعادلا نسبيـــا في ميزان القوى في المنطقـــة وارســـت الامكانية الموضوعيه لانهاض النضال **من اجل اجبار العدو على الانسحاب الكامل من** الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة وانتزاع حق تقرير المصير والاستقلال الوطني للشعب الفلسطيني في اطار دولة وطنية مستقلة ذات سيادة » ص ٢٧ من البرنامج .

ثم اكد البرنامج هذا الفهم عند الحديث عن البرنامج المرحلي المحلي للضفة الغربية وقطاع غزة اذ قال :

« ان النضال من اجل طرد الاحتلال الاسرائيلي عن المناطق المحتلة وانتزاع حـــق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير مصيره في اطار دولة وطنية مستقلة ، يشكـــل الآن المحور المركزي لهذا البرنامج المرحلي » .

هذا هو رأي الرفاق .. وقبل ان نقول اننا مختلفون معهم يجب ان نفهم رأيهم كما **يقصدون** هم لا كما **نفسره نحن ،** لذلك فالسؤال يظل قائما ، خصوصا عندما يؤكـــد البرنامج في حديثه عن **الثورة** الفلسطينية :

« ان الحل الجذري لمعضلة التبديد والاقتلاع القومي للشعب الفلسطيني ، يكمن في ضمان حقه في تقرير مصيره بحرية على كامل ترابه الوطني . ان هذا الهدف يتطلب انجاز الاستقلال الوطني الشعب الفلسطيني والغاء الضم والالحاق الهاشمي والنضال من اجل قيام دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين » ص ٣٢ من البرنامج .

اذا ، فالبرنامج يقترح ، او يطالب بالنضال من اجل ان يمارس الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره **مرتين .. الاولى** بعد دحر الاحتلال عن الاراضي الفلسطينيـــة المحتلة **والثانية** كحل جذري لمعضلة التبديد والاقتلاع القومي للشعب الفلسطيني .. الاولى على **جزء** من التراب الفلسطيني والثانية على **كـــل** التراب الفلسطيني وفـــي **المرتين** فان **كـــل** شعب فلسطين له الحق في ممارسة « حق تقرير المصير » .. كـــل شعب فلسطين : اللاجئون في بلاد اللجوء ، واللاجئون في (المناطق المحتلة) واللاجئون في شرق الاردن ، اما اللاجئون في فلسطين المحتلة قبـــل ١٩٦٧ (يسميها البرنامـــج اسرائيل) **فلـــم** يرد عند ذكرهم (وقد ذكرهم التقرير في فقرة خاصة في ص : ٦٠) ان من واجباتهم النضال من اجل « حق تقرير المصير » كما لم يشرح التقرير كيف يمكن ان يمارسوا وهم جزء من شعب فلسطين «حق تقرير المصير » مرحليا، وهم يعيشون الان لاجئين على ارضهم في ظل الاحتلال الصهيوني والقهر الاسرائيلي الذي فرض عليهم جنسية غير جنسيتهم . **ام انهم مستبعدون من عملية « حق تقرير المصير » المرحلية هذه ؟ ومن غيرهم مستبعد** ؟ ام ان كل الباقين مدعوون الى الانتقال من اقطار اللجوء الحالية الى **« لجوء مرحلي »** في الضفة والقطاع . وماذا عن « اللاجئين » الذين هم في الضفـــة والقطاع الان ؟ هل سيشملهم « حق تقرير مصير » (الضفة وغزة) ؟

ان نصيب « الارض المحتلة ١٩٤٨ » اي فلسطين المحتلة قبل ١٩٦٧ في برامـــج العمل المرحلية هو فقرة وردت في « البرنامج » ص : ٦٠ تقول :

« ٤ ــ الارض المحتلة ١٩٤٨ :

في الارض المحتلة ٤٨ نجابه جماهير الشعب الفلسطيني مهمات مباشرة تتلخص في صيانة شخصيتها القومية المستقلة ومحاربة محاولات الصهر والتذويب والاستيعاب الصهيوني والدفاع عن الحقوق الديمقراطية والقومية المباشرة ، ومكافحة اجراءات التهجير والاقتلاع والاستيلاء على الارض ، الى جانب الانخراط المنظم في الحركة الوطنية للشعب الفلسطيني ومقاومة كافة سياسات الاحتلال والتوسع الصهيوني ».

ص : ٦٠ من البرنامج

ونشهد ويشهد العالم كله انهم يفعلون اكثر مما يطالبهم به البرنامج ، وربما خرجوا ــ بدافع من الوطنية ــ عن شرط « الانخراط المنظم » فنظموا من انفسهم وعفويا مجموعات تمارس « الكفاح المسلح » ضد العدو الصهيوني ، بالاضافة الى كافة اشكال النضال الاخرى العلنية والسرية .

★ ★ ★

ومنذ اكثر من عامين ادلى الرفيق نايف حواتمه بحديث لمجلة « الحرية » (٩) كان هو الحديث الاول الذي يتناول فكرة حق تقرير المصير في الضفة الغربية وقطاع غزة تحديدا والذي اجاب فيه بوضوح ان النضال في « هذه المرحلة » يستهدف : « طرد الاحتلال واقرار حق تقرير المصير لشعبنا بنفسه وسيادته الوطنية على اراضيه المحررة بعد طرد الاحتلال من دون اي وصاية عربية ومن دون ان تنوب عنه حكومة الاردن او اي دولة عربية اخرى في ذلك » .

ثم تابع الرفيق حواتمه فأكد في حديثه انه :

« ومن مواقع تقرير المصير يناضل شعبنا لتصحيح العلاقة وتجديدها بين الشعبين الفلسطيني والاردني في ظل سلطة وطنية ديمقراطية تستند الى المساواة الاقليمية بين الشعبين وتعترف بالحقوق الوطنية الراهنة للشعب الفلسطيني **لمتابعة نضاله المسلح والجماهيري ضد دولة اسرائيل على درب تحرير كامل التراب الوطني** » .

(التشديد من عندنا)

وفي تلك الايام رفضنا **تقسيم** الارض **ولم** نرفض **مراحل** النضال . ذلك اننا لا نفهم ان « حق تقرير المصير » يمكن ان يمارسه شعب فلسطين الا على كل ارض فلسطين وبعد **طرد** الاحتلال عن كل ارض فلسطين ، اي بعد **استعادة كل شبر من الارض المغتصبة** على حد تعبير الرفاق انفسهم ، اي بعد القضاء على « الكيان الاسرائيلي » وتحرير فلسطين .

ذلك ان حق تقرير المصير لا يمكن ان « **يمرحل** » وانه في اللحظة التي يمارس فيها « الفلسطيني » من اي قطر من اقطار اللجوء « حقه في تقرير مصيره » على قطعة ارض من فلسطين فانه بذلك يسلم بباقي الارض « للمستوطنين » صهاينة كانوا او غير صهاينة ..

اما القول بأن « حق تقرير المصير » انما « يستهدف التخلص من الاضطهاد الاقليمي والسياسة الالحاقية التي تنتهجها الطبقة الحاكمة » (١٠) في الاردن فانه قول مردود لأن ذلك لا يتطلب « ممارسة حق تقرير المصير » بل يتحقق بالنضال مباشرة لالغاء

الضم **وقد تقرر ذلك في « مؤتمر الرباط » ولم تقبل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ولا يمكن ان تقبل** باجراء **استفتاء** بين سكان الضفة الغربية . كما اقترح ذلك فعلا الملك حسين . اي ان قيادة م.ت.ف. **لم تقبل بقاعدة « حق تقرير المصير » بعد دحر الاحتلال عن الضفة الغربية وغزة . وكان موقفها هو الصواب .**

وواجبنا الان هو تشديد النضال من اجل **تثبيت** قرارات الرباط وعدم السماح لاحد بالالتفاف عليها او الغائها مهما كانت الحجج والمبررات حتى وان كانت محاولة انجاح عقد مؤتمر جنيف .

ترى هل فهمنا « البرنامج » كما يقصد كاتبوه ؟ هل نكرر السؤال عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني .. متى وعلى اي قطعة ارض .. ومن ؟؟ ولنضف ، وكم مرة سيمارس الشعب هذا الحق على « الارض الفلسطينية » ؟؟

★ ★ ★

ثالثا : البرامج والمراحل ونسبة القوى :

بين برنامج ١٩٦٩ ، الذي نترحم عليه الان وبرنامج ١٩٧٥ الذي نستوضح لكي نفهمه تطور النضال القومي العربي ضد الاستعمار ودولة العدو الصهيوني تطورا كبيرا الى الامام . وانجز النضال القومي العربي **باستخدامه اسلوب الكفاح المسلح** (وحرب تشرين شكل من اشكاله) انجازات زلزلت الكيان الصهيوني وهزت مؤسساته ..

ولعل احدا لا يختلف على ان اهم **انجاز الكفاح المسلح** العربي الفلسطيني كان هو **استعادة وابراز الشخصية الوطنية الفلسطينية** وفرضها مرة اخرى على العالم كله مما اثمر قرارات الرباط وقرارات الامم المتحدة واخيرا وليس آخرا قرار ادانة الصهيونية وهو القرار الذي بدأ حربا ايديولوجية عالمية هي الثانية في هذا القرن بعد الحرب الايديولوجية العالمية ضد النازية .

ولقد اثمرت هذه الانجازات تسارعا ملحوظا في النهوض القومي النضالي لعرب الارض المحتلة (قبل وبعد ١٩٦٧) وتتابعت الانتصارات والانتفاضات الجماهيرية العربية ضد العدو الصهيوني ومؤسساته ..

اي باختصار ان « نسبة القوى » تتحول لصالح الثورة العربية بشكل عام والثورة الفلسطينية بشكل خاص .

ومن المنطق والحال هكذا ان يشدد المستعمرون والصهاينة من مؤامراتهم وان يغيروا من اشكالها ويبدلوا ساحاتها .. ولكن متى كانت هناك ثورة لا تتعرض للتآمر ولا تواجه الصعاب ..

لا نعتقد ان هناك من يختلف على ما اسلفناه .

كما اننا نتفق تماما على ان « سياسة حرق المراحل » « تؤدي باصحابها الى حرق انفسهم » (١١) ، ونعرف ان هناك اهدافا مرحلية واهدافا استراتيجية . كما اننا نوافق تماما على ان من حق اي تنظيم ان يضع **برامج عمل** تفصيلية للساحات المختلفة التي يمارس فيها نشاطه .. ولكن المشكلة تواجهنا عند محاولة « التحليل الملموس للبرنامج الملموس » الصادر في الربع الاخير من عام ١٩٧٥ والمقارنة بينه وبين ما سبقه من برامج ومقالات وتصريحات ... فكلما تقدم النضال الفلسطيني وتغيرت

موازين القوى لصالحه كلما « تراجع » البرنامج عن شعارات اساسية كان يطرحها ... لمـــاذا ؟

ان من حق اصدقاء الجبهة الديمقراطية قبل المختلفين معها ان يتساءلوا : ما الذي غير الشعارات الاستراتيجية الخاصة بالقضاء على الكيان الاسرائيلي و « تدميره » ، والخاصة « بحرب الشعب طويلة الامد » ونشرها بين كل العرب ؟

ما الذي تغير في طبيعة المرحلة وسماتها ونسبة القوى لكي « **يخفي** » الرفاق هذه الشعارات والاهداف ويستبدلوها بعبارات طويلة معقدة عـــن « الغاء الصهيونية » الذي يتطلب سلسلة من التدابير السياسية . (ص : ٣٢)

نحن نفهم ان يتعمق البرنامج الاول ، وتصحح بعض افكاره الخاطئة ، وان يزداد تفصيلا او تلحق به برامج تفصيلية مرحلية محلية ..

ولكن ان يتغير كلية شكـــلا ومضمونا فهو امر يتطلب التفسير ، خصوصـــا وان « المرحلة التاريخية » لم تتغير باقرار البرنامج الجديد (١٩٧٥) نفسه اذ يقـــول الرفاق : « ان الثورة الفلسطينية هي في مرحلتها الراهنة ثورة وطنية ديمقراطيـــة تتحدد مهمتها في انجاز حل ديمقراطي جذري للمسألة الوطنية للشعب الفلسطيني » (ص : ٣٠) . وبدلا من ان يزداد « البرنامج » تعمقا عن برنامج ١٩٦٩ ، نرى ان انجاز الحل يتلخص في جملـــة « **ان تصفية الصهيونية تشكل المهمـــة الاستراتيجية الرئيسية لثورتنا الوطنية الديمقراطية** » (ص : ٣٤)

(التشديد لنا)

ان هناك فارقا جوهريا بلا شك بين « **تصفية الصهيونية** » و « **وتصفية الكيـــان الصهيوني ومؤسساته** » ، كما ان هناك فارقا لا يجب التغافل عنه بين « **تحريـــر فلسطين تحريرا كاملا** » وبين « **تصفية الصهيونية** » وقد تناولنا هذا الجانب من قبل ونضيف ماسبق ان ذكرته الجبهة الديمقراطية نفسها في مشروع برنامج الجبهة الوطنية المقدم منها الى « كل مقاتل ومناضل في صفوف المقاومة الفلسطينية وحركة التحـــرر الوطني العربية » (١٢) .

تقول الجبهة الديمقراطية في تلك الايام : « ان الحركة الصهيونية حركة عنصريـــة موالية للامبرياليـــة قامت علـــى اساس اضطهاد قومـــي وعرقي للشعب العربـــي الفلسطيني واجلائه من ارضه بالقوة » .

«ان مصير الحركة الصهيونية مرتبط عضويا بمصير الامبريالية ونشاطها الاقتصادي والسياسي والعسكري على مستوى العالم هو جزء من حركة الامبريالية العدوانية ».

وتضيف بعد ذلك ايضا : « ان نضال الحركة الوطنية الفلسطينية يهدف **الى تحقيق التحرير الكامل لفلسطين** وتطهيرها من قيادة ونفوذ الحركة الصهيونية واجهزتهـــا ومؤسساتها .... »

ثم تؤكد : « ان نضال الحركة الوطنية الفلسطينية يهدف الى اقامة دولة فلسطين (الموحدة) بعد ازالة الكيان الاسرائيلي » .

(التشديد لنا)

(من مشروع برنامج للجبهة الوطنية الفلسطينية الموحدة ص : ١٣٠ من برنامج ١٩٦٩)

كان ذلك رأي الجبهة الديمقراطية منذ ست سنوات فقط ، ولم تتغير المرحلة التاريخية بعد ، وتحسنت موازين القوى بالنسبة للثورة الفلسطينية ... وتقهقر برنامج الجبهة الديمقراطية .. تقهقر حتى عن مقررات الدورة الرابعة للجنة المركزية للجبهة الديمقراطية في آب ١٩٧٣ .. على الاقل بدأت تلك القرارات بذكر « **حرب الشعب** » باعتبارها ليست مسألة تكتيك عسكري فقط (من الذي قال انها تكتيك فقط ؟؟) . ثم ان تلك القرارات التي « كانت فاتحة التراجعات كررت عدة مرات الحديث عن « الحق التاريخي » و « الحل التاريخي » واعتبار ان النضال المرحلي «من اجل دحر الاحتلال وحق تقرير المصير لا يشكل حلا نهائيا للمشكلة الوطنية للشعب الفلسطيني التي هي بالاساس مشكلة تبديده واقتلاعه القومي على ايدي (دولة اسرائيل) ... خطوة هامة على طريق انتزاع الحق التاريخي في العودة » بل ان الملحق رقم «٢» المنشور في نفس الكتيب ص : ١٢٥ وهو البلاغ الصادر عن الاجتماع الموسع الطارىء للجنة المركزية ومندوبي منظمات الجبهة المنعقد في تشرين الثاني ١٩٧٣ » ، تضمن تلك العبارة التي بحثنا عنها في البرنامج الجديد ولم نجدها اذ قال : « وكذلك حقه (اي الشعب الفلسطيني) **في استرداد وطنه وبناء دولة ديمقراطية على كامل ترابه الوطني** » .

(التشديد لنا .. والهتاف ايضا)

لماذا تراجع البرنامج الجديد ، استراتيجيا ومرحليا ؟ لم تتغير المرحلة التاريخية ، ونسبة القوى تتحسن لصالح النضال القومي العربي والفلسطيني على وجه الخصوص ، فلماذا تغير البرنامج ..؟

يقول برنامج ١٩٧٠ : « ان البرنامج الوطني المرحلي للثورة والشعب والقائم على حق شعبنا في العودة وتقرير المصير والاستقلال وبناء دولته الوطنية على جميع الاراضي الفلسطينية التي يتم تحريرها ودحر الاحتلال عنها ، هو البرنامج الذي يمكن من تحقيق اقصى درجات التعبئة والوحدة الوطنية لشعبنا ، ويوطد نضاله المشترك **مع حلفائه الطبيعيين ، عربيا ودوليا** . »

(التشديد لنا) ص : ٥٠ من البرنامج

لو اقتصر امر التغيير على البرنامج الوطني المرحلي او برامج العمل المرحلية المحلية لكان اقل خطورة ، ذلك ان البرامج المرحلية والمحلية تتعلق مباشرة بالقوى الذاتية وبالظروف الواقعية المنظورة ، **وان كانت لا تخفي ولا يجب ان تخفي الشعارات الاستراتيجية الواضحة** ، ولكن الامر متعلق بالبرنامج الاستراتيجي الذي تخلى عن شعار **استرداد الارض و « تحريرها كاملة »** والذي تخلى عن شعار « حرب الشعب» سبيلا « قائدا » او « رئيسيا » او حتى احد السبل ، ولم يرد ذكره اطلاقا . ترى لماذا تغير البرنامج الاستراتيجي ؟.. هل لنفس الاسباب التي من اجلها وضع البرنامج المرحلي اي « توطيد النضال المشترك **مع الحلفاء الطبيعيين عربيا ودوليا** . »

لئن كان هذا هو الدافع والمبرر فاننا نعتقد ان الرفاق قد جانبوا الصواب، فاكتساب الاصدقاء والحلفاء وتطوير المواقف الصديقة لا يمكن ان يتم بالتنازل عن الاهداف الرئيسية وانما بتشديد النضال ، كل اشكال النضال ، وفي مقدمتها طبعا النضال المسلح على ارض فلسطين .

ان الاقرار بواقع « الوجود الاسرائيلي » لم ينجح من قبل في كسب « الحلفاء الطبيعيين » وانما الذي نجح كان هو **الرفض المسلح** لواقع هذا الوجود .

★ ★ ★

ختاما .. نؤكد من جديد ان هذه الاستيضاحات جميعا هي في سبيل فهم اعمق لما طرحه الرفاق ، كخطوة ضرورية لمزيد من الوحدة في النضال ..

ولقد تجنبنا الدخول في نقاش فكري للاسباب التي ذكرناها في المقدمة وايضا حتى لا يتشعب الموضوع لكثرة ما في « البرنامج » من قضايا فكرية تتطلب حوارا طويلا نأمل ان يتم على طول درب المسيرة .. مسيرة حرب الشعب طويلة الامد من اجل تحرير فلسطين .

وحتى مع اختلافنا حول ما فهمناه من برامج سياسية معلنة فان ذلك لا يمنع ولا يجب ان يمنع من وحدة النضال الفلسطيني ضد العدو الصهيوني والاستعمار ومن اجل تحرير كل ما يمكن تحريره من ارض فلسطين معا .. وعندما يرى الرفاق ان برامجهم قد تحققت بالطريقة التي اختاروها فاننا سنواصل القتال ، سنستمر بالكفاح المسلح حتى تحرير كامل التراب الوطني وازالة الكيان الصهيوني وتصفية مؤسساته واقامة دولة فلسطين الديمقراطية التي هي جزء من دولة الوحدة العربية التقدمية الكبرى .

بقيت ملاحظة قد تبدو ثانوية ولا محل لها في مثل هذا المقال .. ولكنها هامة ومفيدة ..

يقول البرنامج السياسي ١٩٧٥ مقيما دور القوى الوطنية الفلسطينية بعد النكبة لانما اياها لانها تكيفت مع الواقع الاقليمي الجديد وفقدت هويتها الفلسطينية المميزة ، بقول البرنامج انه :

« وبالرغم من ضرورات هذا التوجه من حيث المبدأ ، فقد عجزت تلك القوى الوطنية الفلسطينية ، بما فيها التنظيمات التي تنتمي ايديولوجيا الى الطبقة العاملة ، عن ادراك الضرورة المقابلة للحفاظ على شخصيتها الفلسطينية ، وتضمين برنامجها حلولا للمسألة الوطنية الفلسطينية ، بما هي اولا صراع ضد الغزو والاستيطان الصهيوني الى جانب الانخراط في النضال ضد الرجعية الهاشمية كجزء عضوي من الحركة الوطنية الموحدة في الاردن » .

بعض النقد صحيح .. ولكن النقد ينكر على تلك التنظيمات التي تنتمي ايديولوجيا الى الطبقة العاملة انها كانت طوال الوقت مناضلا عنيدا وصلبا ضد « السياسة التوسعية » (لدولة اسرائيل) و « السياسات العدوانية (لدولة اسرائيل) ، وكون (اسرائيل) مخفرا اماميا للامبريالية » الى آخر الشعارات التي كانوا هم اصحابها والتي دفعوا في سبيل الدعاية لها وتعبئة الجماهير حولها التضحيات الجسام . كما انهم كانوا ايضا وعلى الدوام ضد النظام الملكي الهاشمي وهم اصحاب تعبير « الحكم الوطني الديمقراطي في الاردن » .

ومع كل ذلك ، ورغم كل التضحيات ، وخلو ساحة النضال الوطني الا منهم تقريبا .. الا انهم لم ينجحوا . والاسباب لا بد يعرفها رفاق الجبهة الديمقراطية فقد اشاروا

لها في برنامج ١٩٦٩ ، وكتاباتهم الاولى . السبب الاول هو انهم **وافقوا على قرار التقسيم في ١٩٤٨ ، وعلى قيام واستمرار (دولة اسرائيل)** وان ناضلوا ضد توسعها .. والسبب الثاني انهم لم يقولوا بالعنف الثوري **(بالكفاح المسلح) ولم يمارسوه .**

لذا لم ينجحوا في قيادة الجماهير ، بل لم تغفر لهم الجماهير هذا الموقف التاريخي..

تبدو ملاحظة بسيطة .. ولكنها هامة .. اذا اراد الرفاق في الجبهة الديمقراطية ان يجعلوا من خبرة التاريخ دليلا للمستقبل ..

---

١ ـ البرنامج السياسي ص : ١٢٢

٢ ـ البرنامج السياسي ص : ١٦

٣ ـ للدقة وحتى لا نتهم بالتزييف فان المرة الوحيدة التي ورد فيهاذكر للكلمة هي عند الحديث عن انجازات حركة المقاومة الفلسطينية بعد حرب تشرين فجاءت كما يلي : « كما تصاعد الكفاح الفلسطيني المسلح والنضال الجماهيري الذي اتخذ في في بعض الاحيان طابع الانتفاضة الشعبية الشاملة » .
« من البرنامج السياسي ١٩٧٥ ص : ٢٨ »

٤ ـ البرنامج السياسي ١٩٧٥ ص : ١٤

٥ ـ للامانة ورد ذكر كلمة مسلحة في برنامج العمل المرحلي المحدد لداخل المناطق المحتلة (الضفة وغزة) عند ذكر « ان الجبهة الديمقراطية تناضل داخل المناطق المحتلة لتعبئة وتنظيم الجماهير وقيادة نضالها بكافة اشكاله الجماهيرية والسياسية والقتابية والمسلحة » .

٦ ـ من منشورات مجموعة الماهفاك ـ برنامج النضال ١٩٧٤

٧ ـ الهلالين لنا .

٨ ـ ورد ذكر عبارة حق تقرير المصير في البرنامج المطبوع والموزع في الصفحات : ١٥ ، ٢٠ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٣ .

٩ ـ الحرية عدد ٦٣٣ تاريخ ١٩٧٣/٨/٢٠

١٠ ـ البرنامج ١٩٧٥ ص : ٥٨

١١ ـ الحرية عدد : ٦٣٤ تاريخ ١٩٧٣/٨/٢٧

١٢ ـ من مقدمة الرفيق نايف حواتمه لبرنامج (١٩٦٩)

اتفاقية سيناء كشكل من اشكال سياسة الاحتواء الاميركية

الدكتور نصير عاروري

يجري الاعلان عن اتفاقية سيناء في الولايات المتحدة ، على انها خطوة دبلوماسية بارعة من شانها احلال السلام الدائم في منطقة الشرق الاوسط التي يمزقها الصراع . لكن فحص محتويات هذه الاتفاقية عن كثب ، ودراسة مزاعم الذين صنعوها، يكشفان ان العكس هو الصحيح في الواقع . ان الشيء الجديد والمشؤوم في اتفاقية سيناء ، انها زرعت بذور الخلاف بين العرب ، في الوقت الذي يحتاجون فيه الحد الاقصى من التعاون فيما بينهم لدحر المخططات الامبريالية والصهيونية اللئيمة الموجهة اليهم ، دحرا نهائيا . وفيما عدا هذا فان اتفاقية سيناء ليست غير حلقة جديدة في الفلسفة التقليدية للسياسة الخارجية الاميركية ، التي انتهجتها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بتبني دور القوى الامبريالية الاوروبية .

ينبغي النظر الى اتفاقية سيناء في سبتمبر ١٩٧٥ في سياق سياسة الاحتواء التي اختطتها الولايات المتحدة لنفسها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية . ويؤكد مبدأ كيسنجر عناصر فكرة الاحتواء التي اوضحتها من قبل مبادىء ترومان وايزنهاور وكندي وجونسون ، وهي ان الاتحاد السوفياتي و / او القوى الاشتراكية في العالم الثالث ، يهددون بتقويض اسس « نظام عالمي شرعي » يتألف من الولايات المتحدة وعدد وافر من حلفائها ووكلائها في انحاء مختلفة من العالم . مرة اخرى ، يرى هذا المذهب ، انه لا بد من طرد الوجود السوفياتي من اية بقعة يمكن ان يوجد فيها في العالم ، وذلك لانه يمثل سياسة توسعية ، في حين ينبغي ان تدفن الثورة الاشتراكية في المهد ، لانها تهدد بتقويض ما يحب هنري كيسنجر تسميته « اساس السلام » . واذا لم يحدث هذا ، فان انصار هذا المذهب يعتقدون بأن العالم سوف يواجه التهديد من جانب صفقات شبيهة بتسوية ميونيخ . وان قدرة اميركا على مقاومة « الشيوعية» سوف تتلاشى الى حد بعيد . ففي هذا الاطار اذن انبثق المبدأ الاستراتيجي الاميركي الذي كان محرك الحرب الباردة على امتداد مسيرتها . ولقد سعت سياسة الاحتواء الاميركية لتحقيق غايتها الشاملة بتطبيق سيطرة اميركية متفوقة تقوم على شبكة من الاحلاف العسكرية تحيط بحدود العالم الصيني — السوفياتي .

لقد كانت سياسة الاحتواء في الشرق الاوسط منذ اول عهد العمل بها ، جهدا خائبا . وبقي حديث الغرب عن « التهديد العسكري السوفياتي » امرا خارج الموضوع وغير مفهوم من جانب الجمهور العربي الذي يتصدى فعلا لتهديد واضح

وملموس ومائل امام العيون ، ليس من جانب الاتحاد السوفياتي ، بل من جانب اسرائيل .

ان ادوات تطبيق سياسة الاحتواء : منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ، وحلف بغداد ، والحلف المركزي (السنتو) ، ومبدأ ايزنهاور ، جميعها واجهت الرفض والادانة ، ويتبين بكل جلاء من دراسة مجمل التطورات والاحداث التي اعقبت الحرب العالمية الثانية في منطقة الشرق الاوسط ، ان الوفاق بين مجهودات ومساعي الولايات المتحدة من جانب ، وسياسات الانظمة العربية المحافظة ، قد اخفق في كبح الشعبية المتنامية للقومية العربية .

وامام التآكل التدريجي في وضع الدول العربية المحافظة في اواخر الخمسينات ، وجدت الولايات المتحدة انه لا بد لها من استحداث بعض التعديلات والتكيفات التكتيكية في سياستها ازاء القومية العربية الثورية والنفوذ السوفياتي في العالم العربي . وحاولت ادارة كندي التفاهم مع القومية العربية على افتراض انها تشكل حاجزا فعالا يتصدى للشيوعية . لقد كان المقصود ، تطبيق سياسة الاحتواء عن طريق جمال عبد الناصر ، الامر الذي يذكرنا بمحاولة دين اتشيسون في العام ١٩٥٠ لاحتواء الاتحاد السوفياتي عن طريق ماوتسي تونغ . على ان خليفة كندي في البيت الابيض لم يستطع مواصلة سياسة التقرب من الناصرية . ذلك لانه كان ميالا للاعتماد على التقنية العسكرية في تحديد علاقة الولايات المتحدة الاميركية بالعالم الثالث . ووضعت النخبة السياسية في مجلس الامن القومي الاميركي في عهد الرئيس جونسون تقييما لمصر عكس فهما محدودا على الاقل ، ان لم يكن الخوف والفزع من الثورة الاجتماعية. وكانوا ينظرون الى نشاط الحكومة المصرية في سبيل الوحدة العربية والتحول الاشتراكي ، على انه تهديد حقيقي للمصالح الاميركية الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة ، بالاضافة الى ما يحمله من اخطار مؤكدة على اسس الانظمة العربية المحافظة . وكان تقديرهم ان الضرورة تقتضي تدخلا اميركيا رئيسيا لكبح تلك الحركة .

وكان مقررا احتواء تأثيرات القومية العربية الثورية التي تعاضدها كل من مصر وسوريا ، في منتصف الستينات ، بدون اللجوء الى القوة العسكرية الاميركية . وكان عملاء اميركا من المحافظين العرب قد اصبحوا في حالة عجز نوعا ما بعد ان تلقوا ضربات قاسية في ١٩٥٦ (الاردن) و ١٩٥٨ (العراق) و ١٩٦٢ (اليمن) . واصبحوا يظهرون قابلية متضائلة للبقاء . ومن هنا انطلقت اسرائيل باعتبارها الوكيل الرئيسي للولايات المتحدة ، وجاءت الحرب الخاطفة في العام ١٩٦٧ بمثابة الاسلوب الجديد للاحتواء . فان حرب يونيو ١٩٦٧ ، التي خاضتها الايدي الاسرائيلية بالعتاد الاميركي والدعم الاميركي الكامل ، كانت تنفيذا مسبقا لمبدأ نيكسون — كيسنجر ، وهو المبدأ الذي جرى توضيحه بصراحة وجلاء في عدة خطابات رئاسية بدءا من خطاب « جوام » في نوفمبر ١٩٦٩ ، الذي ابان ان اميركا لا تستطيع تحمل الثمن الاجتماعي والاقتصادي للتدخل ، ولذلك « فان الآخرين يمتلكون الآن المقدرة والمسؤولية للتعامل مع النزاعات المحلية التي كانت تقتضي تدخلنا من قبل » ولقد شرحت نيويورك تايمز في يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٦٩ تعهد نيكسون في حملته الانتخابية بأن يضمن لاسرائيل « هامشا من التفوق التقني والعسكري » على الدول العربية ، بأن في وسع « قوة اسرائيل ان تحول دون الهجوم ، وان تمنع الداعي لتدخل عسكري اميركي مباشر » . والواقع ان اسرائيل كانت قد تقبلت هذه المفاهيم قبل وقت طويل من اعلان مبدأ نيكسون —

كيسنجر . فلقد صرح ناطق بلسان الخارجية الاسرائيلية في ١١ يونيو ١٩٦٦ بأن :

« الولايات المتحدة توصلت الى الاستنتاج انه ليس في وسعها بعد الآن الاستجابة لكل حادثة في انحاء العالم ، وان عليها تبعا لذلك الاعتماد على قوة محلية ، على عائق تمثله قوة صديقة كخط اول ، وذلك لتجنب التورط الاميركي المباشر . وان اسرائيل تشعر بأنها ملائمة لهذا التعريف . » (خط التشديد من عندنا) .

ولقد انجزت حرب ١٩٦٧ تحويل اسرائيل الى رأس جسر لاستراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الاوسط ، والى حامية تقف على اهبة الاستعداد لاحباط جميع اشكال الثورة الاجتماعية في المنطقة . وعلى هذا النحو كان البعد الجديد لسياسة الاحتواء الاميركية في الشرق الاوسط .

وفي اعقاب قبول العرب بوقف اطلاق النار غير المشروط في العام ١٩٦٧ ، اصبح الهم الرئيسي لصانعي السياسة الاميركية هو صعود حركة المقاومة الفلسطينية . وتمثل رد الفعل الاميركي على هذه الحركة ، في خطة روجرز (١٩٧٠) التي تسببت في النهاية بخلق انقسام خطير في الصفوف العربية ، وهبوط في تأثير حرب العصابات الفلسطينية . وعلاوة على ذلك كانت خطة روجرز بعدا جديدا في سياسة الاحتواء ، ذلك انها كانت سبيلا لاستخدام المبادرة الدبلوماسية كبديل للمجابهة العسكرية ، بغية اخماد تلك الظاهرة السياسية (المقاومة الفلسطينية) .

ويغدو بعد الاحتواء هذا اكثر جلاء مع طرح خطة كيسنجر في الشرق الاوسط . وعلى الرغم من ان بعض خصائص سياسة دالس في الاحتواء غير موجود في صيغة كيسنجر ، فان الجوهر واحد في مفهوم الرجلين الى حد بعيد .

ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، والحظر النفطي اللاحق ، زودا الخارجية الاميركية باستراتيجية كاملة في الشرق الاوسط شهدت اوجها في الاتفاقية المصرية — الاسرائيلية المؤقتة الموقعة في سبتمبر ١٩٧٥ . لقد خلقت الحرب جوا ملائما لحوار مصري — اسرائيلي . فبالنسبة لمصر ، مثلت الحرب نصرا عربيا ، هو الاول من نوعه . وانطلاقا من هذا تحركت مصر في اتجاه مفهوم كيسنجر لتسوية سياسية تجري فيها مقايضة الاعتراف بشرعية وديمومة اسرائيل ، باستعادة مصر لاراضيها المحتلة . اما بالنسبة لاسرائيل ، فان الحرب كشفت لها مدى اعتمادها على الولايات المتحدة ، كما بينت لها التأثير المدمر الذي يحمله النزاع الدائم مع العالم العربي ، على الاقتصاد الاسرائيلي الواهن الضعيف . ولقد وجدت الخارجية الاميركية هذا الموقف على جانبي خطوط وقف اطلاق النار ، بما يحمله من عناصر « نموذجية » ، موقفا مثاليا انطلقت على الفور لاغتنام الفرصة والتحرك في ظله . ولم يكن كيسنجر صانع معجزات ، انه بكل بساطة اكتشف الظروف « الصحيحة » في اللحظة « الصحيحة ». ويبين تكشف استراتيجيته منذ اكتوبر ١٩٧٣ ، مجموعة من الاهداف التي يسعى لتحقيقها بعد الهزيمة السياسية والعسكرية التي لقيتها الولايات المتحدة في صراعها مع الاتحاد السوفياتي والفيتناميين . ومن الواضح ان جهود صنع السلام التي يبذلها كيسنجر ترمي الى تحقيق ثلاث غايات :

اما الغاية الاولى فهي الانهاء الكامل للنفوذ السوفياتي في المنطقة . ولقد تحقق من هذه الغاية حتى الآن ، وبمساعدة المملكة العربية السعودية ، طرد الوجود السوفياتي من مصر . وان عملية اعادة توجيه السياسات المصرية الداخلية والخارجية ، تهدد بتحويل المرحلة الناصرية الى مجرد فاصل زمني بين عهدين .

واما الغاية الثانية فهي احراز تسوية سياسية تكون قادرة على خلق تحول جذري فيما يسمى بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي ، يتناول حتى طبيعة هذا النزاع نفسها . تسوية تستبعد من هذا النزاع اية اعتبارات ايديولوجية وتجعله بكل بساطة مجرد نزاع على الحدود ، وعلى حقوق الملاحة ، وشؤون الامن . وفي حال تحقيق التسوية الاقليمية للنزاع العربي ــ الاسرائيلي ، فان العرب والاسرائيليين والايرانيين سيتصرفون بتوافق وانسجام باعتبارهم رهطا متآلفا من العناصر المرتبطة بالغرب ، ويلعبون دورهم في تهدئة المنطقة ، وقمع جميع اشكال الخروج السياسي عن « الخط» المرسوم . ومن المؤكد ان اندماج مصر السادات في هذا الائتلاف الذي يضم حلفاء امريكا ووكلاءها ، يمثل نجاحا كبيرا للسياسة الخارجية الامريكية ، ويضيف لحساب فورد وكيسنجر اعظم انقلاب دبلوماسي عرفته السياسة الدولية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

واما الغاية الثالثة ، والتي تنبع من الغاية الثانية السالفة الذكر ، فهي تزويد مصر بمصلحة ثابتة في الاستقرار (وذلك بالمساعدة الاقتصادية والتعديلات الاقليمية) ، بغية استبعاد دورها المؤثر من المجابهة العربية ضد اسرائيل . وهذا بدوره يمنح الولايات المتحدة القدرة على توجيه ضغط الى سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية لدفعهما نحو تقديم تنازلات بارزة الى اسرائيل . والهدف النهائي الذي ترمي اليه هذه الاستراتيجية ، هو وضع حل نهائي لقضية الفلسطينيين وتوصيل سوريا الى التسليم عمليا على جبهة الجولان .

اتفاقية سيناء المؤقتة التي جرى التفاوض بشأنها تحت رعاية هنري كيسنجر ، كانت مدبرة ومحسوبة لتحقيق هذه الغايات . فالواقع ان مصر اعطت اسرائيل ما يلزمها من وقت لتدعيم احتلالها للاراضي ولاعادة بناء قوتها العدوانية . وان الجبهة الشرقية تصبح اكثر قابلية « للترتيب » . وستتحرك اسرائيل في ظل شروط ملائمة تتزايد ملاءمة بالنسبة اليها .

ان مصر لم تكتف بالتخلي عن اصرارها السابق على استعادة ممري المتلا والجدي، لكنها بالاضافة الى ذلك وافقت على جعل اتفاقية سيناء المؤقتة مستقلة وقائمة بذاتها، وبمعزل عن اية ترتيبات مع سوريا والاردن والفلسطينيين ، وكذلك بمعزل عن اي جدول زمني للانسحاب الاسرائيلي . والحقيقة ان مصر وافقت على ثلاث سنوات اخرى من الاحتلال الاسرائيلي للقسم الاعظم من سيناء ، ذلك ان ٥ر٨٧٪ من سيناء سيبقى تحت الاحتلال الاسرائيلي . وفيما تدير الامم المتحدة ٥ر٧٪ من مساحة سيناء ، فأن « مكسب » مصر هو ٥٪ لا غير من هذه المساحة . وان الوجود المصري المنتشر على امتداد شريط ضيق بين خليج السويس وبين المواقع الاسرائيلية ، هو وجود مدني . وستبقى حقول النفط في ابو رديس رهينة لاسرائيل ، وكذلك الطريق الذي يربط هذه الحقول بخليج السويس ــ وهو الطريق نفسه الى شرم الشيخ ــ لن يكون مفتوحا الا امام السير المدني المصري . واكثر من ذلك ، وافقت مصر على وجود اميركي في ممري متلا والجدي ، بمعزل عن الامم المتحدة . والواقع ان مصر تخلت عن حقها في تقرير انتداب هيئة الرقابة على الهدنة التابعة للامم المتحدة ، بتعهدها بتجديد هذا الانتداب سنويا ، وان « تعمل بالتنسيق النشط » مع الولايات المتحدة لجعل الجمعية العامة للامم المتحدة تجدد ذلك الانتداب ، في حال قيام « فريق ثالث » كالاتحاد السوفياتي او الصين مثلا ، باستخدام حق النقض ضد التجديد في مجلس الامن . وبالاضافة الى ذلك ، سمحت مصر بعبور جميع شحنات البضائع الاسرائيلية عبر قناة السويس ، كما تبنت المبدأ القائل ان

حرية الملاحة تتضمن حق السفن الاسرائيلية في استخدام مضائق باب المندب . وتلقت الولايات المتحدة من مصر تعبيرا عن عزمها على التقليل من الدعاوة المعادية لاسرائيل، بما في ذلك وقف المساعي الدبلوماسية الرامية الى تعويق دول العالم الثالث عن استئناف علاقاتها مع اسرائيل ، ووقف الجهود المبذولة لطرد اسرائيل من الامم المتحدة .

اما بالنسبة لاسرائيل ، فلقد وافقت على اعادة حقول النفط في ابو رديس ، مقابل تعهد اميركي بامداد اسرائيل بحوالي ٣٥٠ مليون دولار سنويا ثمنا لشراء النفط من السوق العالمي . ولقد سلمت مصر مثلا والجدي للامم المتحدة ، مقابل اعلان مصري بالتخلي عن استخدام القوة . ومقابل هذه التنازلات الاسرائيلية المتواضعة ، كسبت اسرائيل ما يمكن اعتباره ضمانا اميركيا لامنها : لقد وافقت الولايات المتحدة على اجراء « مشاورات » مع اسرائيل في حال اقدام فريق ثالث ، والمقصود هو الاتحاد السوفياتي ، على التدخل عسكريا . وعلاوة على ذلك كله ، وافقت الولايات المتحدة على ان « تكون مستجيبة تماما ... وعلى اساس مستمر وبعيد المدى » لتلبية احتياجات اسرائيل العسكرية . وان الصفقة الاولى انطلاقا من هذا الالتزام الاميركي بالدعم ، هي مساعدة متوقعة بحوالي ٢٫٥ مليار دولار ، ستكون كفيلة بتمكين اسرائيل من الحصول على احدث التجهيزات في ترسانة الاسلحة الاميركية ، والتي قد تشتمل على صواريخ بيرشيبخ (وهو صاروخ ارض — ارض ذاتي الدفع ذو مدى يتجاوز ال ٤٥٠ ميلا على الاقل) . وهناك اعتدة اخرى بينها الطائرتان المقاتلتان اف — ١٥ واف — ١٦ ا ، وصواريخ لانس التي يبلغ مداها ٦٠ ميلا ، و « القنبلة الذكية » الموجهة بأشعة ليزر .

وينبغي لنا ان نلاحظ في هذا الصدد ، ان هذا الامداد الكثيف بالاسلحة الاميركية ، والذي ينبغي النظر اليه في اطار سياسة الاحتواء ، يمثل تصعيدا مدمرا للعدوان الاميركي في المنطقة . وكما كان قرار ادارة جونسون تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم اف — ٤ هو الذي اتاح لها ان تضرب عميقا في داخل الاراضي العربية ، فان استراتيجية فورد — كيسنجر ترمي الى جعل كل مدينة عربية رئيسية في الشرق الاوسط تحت رحمة وكيل اميركا القوي في المنطقة . ويمكن تعريف استراتيجية فورد — كيسنجر بانها احكام السيطرة على ، والوصول الى ، اهم الثروات من الناحية الاستراتيجية ، وهو النفط العربي . لكن الزمن الذي كانت فيه القوات الاميركية تتدخل عسكريا باسم المصالح الاميركية الحقيقية او المزعومة ، قد ولى واصبح من الماضي. اما اليوم ، فان الولايات المتحدة تحدد دورها في تزويد وكلائها في « المناطق — المفاتيح » في العالم بالعتاد العسكري اللازم الذي يمكنهم من ابقاء الميزان في صالح الولايات المتحدة .

وبالاضافة الى جعل اسرائيل القوة العسكرية المتفوقة في المنطقة ، فان الولايات المتحدة الزمت نفسها في « مذكرة الولايات المتحدة للاتفاقية » الموقعة في سبتمبر ١٩٧٥ ، بأن تواصل رفضها الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية او التفاوض معها، الى ان تعترف المنظمة بمبدأ حق اسرائيل في الوجود . وما يعنيه مضمون هذا الشرط، ليس اقل من التسليم بترك القول الفصل لاسرائيل في كل ما يتعلق بالارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني . واكثر من هذا ، فان اذعان مصر ، المفهوم ضمنا بقبولها اتفاقية سيئاء ، يجعل انور السادات اول حاكم عربي يصادق على مبدأ تصريح بلفور سواء على مستوى التفكير او على مستوى **العمل** . اضف الى ذلك ان

الاتفاقية جعلته اول حاكم عربي يقوم بتسهيل الامور ومساعدة الوجود الاميركي المادي على الارض العربية ، والاقرار بالحكم المشترك الاميركي — الاسرائيلي .

ان مرابطة من يوصفون بانتقنيين المدنيين الاميركيين في سيناء ، بالاضافة الى ما تعنيه من ربط الولايات المتحدة بالاحتلال الاسرائيلي ، تمثل « وصلة » في سلسلة القواعد الاميركية ونظامها البعيد المدى للاتصالات والمواصلات الذي تحتفظ به في منطقة المحيط الهندي — شرق افريقيا . وعلى هذا فان سيناء ستضاف الى شبكة متسعة بلا انقطاع، تتألف من ديجوجارسيا ،وعمان ، والبحرين ، وجزر موريشيوس، واثيوبيا ، لتوازي وتزيد من عدد وكلاء الولايات المتحدة في منطقة تمتد من جنوب آسيا الى شرقي البحر الابيض المتوسط .

ان اتفاقية سيناء عبارة عن لوحة ايضاحية لمفهوم كيسنجر في الاحتواء مرتديا ثوب التسوية السلمية . وبعد عامين من « دبلوماسية المكوك » ، مستخدما ضمانا عمليا لامن اسرائيل ، والتهديد باعادة تقويم السياسة الاميركية في المنطقة وانفاق عشرة بلايين دولار ، فان وزير الخارجية الاميركي الداهية ، اعاد الى مصر اقل من خمسة بالمائة من مساحة سيناء . وبناء على ذلك ، من حقنا ان نستنتج ان ثمن الانسحاب من مرتفعات الجولان ، والقدس ، والضفة الغربية ، ربما كان فوق قدرتنا على الاحتمال .

لا يصح النظر الى مشروع كيسنجر على انه استثمار في خدمة السلام ، بل ينبغي النظر اليه على ضوء استراتيجية الولايات المتحدة العالمية ، ذلك لانها تنطلق في اسسها من روح الحرب الباردة . ويأمل كيسنجر ان تنجح خطة « الفتنمة » في الشرق الاوسط ، على الرغم من اخفاقها في فيتنام نفسها . لكن القوى التي اتحدت لهزيمته في الهند الصينية ، ليست غائبة كليا عن مسرح الشرق الاوسط . ان خلق حصن عسكري في اسرائيل وكأنها ستكون قادرة الى الابد على مقاومة حل المشكلة الاساسية ، اعني قضية فلسطين ، هي في افضل الاحتمالات سياسة غير واقعية . وان رعاية النظام المصري وغيره من الانظمة الرجعية في الوطن العربي ، لن تكون ذات نتائج افضل من احتضان جنرالات سايغون ، والزمرة العسكرية في اليونان ، والعملاء الآخرين حول العالم .

الفاشية الصغيرة

دراسة في صحف ونشرات القوى الانعزالية

انور خالد

لقد افرزت الحرب الاهلية في لبنان العديد من الظواهر الاجتماعية ، التي كانت مخفية في قعر الواقع الاجتماعي والسياسي . وضعت المسألة الوطنية في مكانها الصحيح المركزي ، بوصفها محركا للتوازنات اللبنانية بأسرها ، وكشفت عن عمق وترسخ المسألة الطائفية بوصفها احدى الظواهر الاجتماعية الرئيسية المرافقة لرأسمالية الوساطة الاقتصادية . فتقدم لبنان ، كان يعني ترسيخا لمسألة الانتماءات الطائفية . في دولة كانت اصلا جهاز توازن بالغلبة ، ولم تكن تتشكل كجهاز للهيمنة (١) .

ان المسألة الطائفية ، ليست مسألة جامدة . فهي ككل الظاهرات الاجتماعية ، تخضع لتحولات في داخلها كبنية اجتماعية تخوض صراعات معينة ، من جهة . كما تؤثر عليها سلبا أو ايجابا مجريات الصراع وتوازناته الجديدة من جهة اخرى . لذلك ففي داخل الطائفة هناك اكثر من اتجاه واحد ، يعبر عن افق التوازن المفترض . كما ان اتجاهات الطائفة ليست بمعزل عن مجريات الصراع الاجتماعي الوطني ، بل هي احدى تعبيراته الرئيسية .

ان احدى اهم الظواهر التي افرزتها الحرب الاهلية ، كان انتشار صدور الصحف غير المرخصة في الطرف الانعزالي . وربما يعود هذا الى ضعف الجهاز الاعلامي الانعزالي في ظل سيطرة الاطراف الوطنية العربية او الاطراف الوسطية المعتدلة على الاكثرية الساحقة من صحف بيروت . فكانت الصحيفة غير المرخصة جهاز اعلام صغير ، يفيد على نطاق الحي او المدينة او ربما على نطاق المناطق المسيحية بأسرها الخاضعة للسيطرة الانعزالية . غير ان السبب الاعلامي ، لا يبدو كافيا لتفسير هذه الظاهرة ، فقد تكفي صحيفة « العمل » ، واذاعة صوت لبنان ، في تغطية المسألة الاعلامية . لكن المسألة تعبر عن ظاهرة جديدة :

١ ــ النمو الهائل للشعور الطائفي ، الذي اصبح بحاجة الى قنوات فكرية وايديولوجية تستوعب تعدديته .

---

١ ــ خالد جابر : السلطة والتوازن في لبنان في شؤون فلسطينية ، ت ٢ ١٩٧٥ .

٢ ــ نمو قوى جديدة متطرفة في الشارع الماروني ــ حراس الارز ، التنظيم اللبناني ..

٣ ــ عدم قدرة الحزبين الطائفيين الكبيرين : الكتائب والاحرار ، على استيعاب المد الطائفي الذي يصب في نهاية التحليل في خطهما السياسي وارتباطتهما الخارجية ، دون ان يعني قدرتهما على توظيفه تنظيميا . فحزب الكتائب يبقى رغم تطرف طروحاته ضمن مشروعه الاساسي ، التحول من حزب طائفي الى حزب الطائفة . وهذا يفترض ارتباطا وثيقا بالسلطة ، وشبه توازن ضمن طرحه الطائفي المتطرف . اما الاحرار فهو كهيكلية حزبية تبقى دون القدرة على تحويل كوادره وعناصره من ازلام شمعون او ازلام شخصياته الى عناصر حزبية فعلية .

٤ ــ صاحب هذه الظواهر الثلاث ، اتجاهات ايديولوجية صارمة ، كانت تتسلل منذ سنوات ، في اطار الفكر الذي يطرحه دعاة من امثال سعيد عقل ، كمال الحاج ، شارل مالك ، امين ناجي ... وهي في جوهرها تيارات فاشية شبه عقلانية ، تعبر عن اتجاه رد الفعل تجاه الامتداد العربي في لبنان ، فتقع في دعوة القومية اللبنانية ، التي هي التسمية المهذبة « العلمانية » لدعوة القومية المارونية . لقد افلتت هذه الاتجاهات من عقالها . لتتحول الى لغة ايديولوجية تتعامل بالرصاص وتفعل وسط المتاريس . مما ادى الى ظاهرة **ردفية** هي انضمام اعداد من المثقفين الموارنة الحياديين او شبه الليبراليين اليها ، في وجه العرب فوبيا التي انتشرت وسط نيران الحرب الاهلية .

فدراسة هذه النشرات او الصحف ، رغم قلة اهمية بعضها وحرفيته ، تصبح ضرورية ، اذا اردنا اكتشاف الاتجاهات الايديولوجية العامة المؤثرة في الوسط الانعزالي ، والتي لا تفصح عن نفسها في الصحف الرسمية (المتوازنة او شبه المتوازنة) . ان هذه الاتجاهات باللغة الخطورة ، لانها تعبر عن تيارات فعلية ، تيارات شابة تنمو على ايقاع طبول تقرع تحية «لشهداء لبنان » وهي رغم انها لا تعبر عن جميع عناصر الايديولوجية الانعزالية ، انما تعبر عن جانب اساسي منها ، يكشف الكثير من النقاط في مسار الحرب الاهلية المستمرة منذ اغتيال معروف سعد (١) .

---

١ ـ الصحف التي تتناولها هذه الدراسة هي :

١ ـ **لبنان** • يصدرها حراس الارز • نشرة اسبوعية صدر عددها الاول في ٢٤ تشرين الاول ١٩٧٥ • ثم تحولت لتصدر مرتين في الاسبوع • يشرف على تحريرها سعيد عقل ومي المر •

٢ ـ **اللبناني** • تصدر كل نهار اثنين • نشرة اسبوعية • صدر عددها الاول في ٥ ـ ١ ـ ٧٦ • وهي نشرة لها علاقة بالكتائب •

٣ ـ **الانصار** • يصدرها التجمع اللبناني لانصار الكتائب • اسبوعية • صدر عددها الاول في ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٥ •

٤ ـ **ملحق العمل** • يصدرها اقليم زحلة الكتائبي •

٥ ـ **صوت زحلة** • لسان حال التجمع الزحلي العام • صباح كل اربعاء وسبت • صدر عددها الاول في ٣ ـ ١ ـ ٧٦

٦ ـ **جبل لبنان** • تصدرها الحركة الجبلية اللبنانية • صباح كل خميس • صدر العدد الاول منها في ٢١ ـ ١ ـ ٧٦

٧ ـ **الفداء** • اسبوعية صدر العدد الاول منها في ٢٦ ـ ١ ـ ٧٦

عدنا ، الى عدد كبير من النشرات والصحف التي تصدرها القوى الانعزاليـــة . ورغم اننا استطعنا الحصول على مجموعات كاملة أو شبه كاملة لجميع هذه النشرات ما عدا اربع منها هي : الاولى ، الجلاء ، المردة ، الحركة ، وهي نشرات قليلة الاهمية وحرفية ولا تحمل قيمة خاصة ، استطعنا الحصول على نماذج منها ، عدد واحـــد او عددان . غير ان الصعوبة المنهجية التي اعترضتنا تعود الى جملة اسباب :

١ ـــ عدم القدرة على دراسة مدى جدية توزيع النشرة وانتشارها . فالارقام التي تشير اليها هذه النشرات هي ارقام خيالية ، لا تصدق .

٢ ـــ عدم القدرة على التحديد الدقيق لجمهور النشرة ، فالنشرة توزع غالبا بقـــوة السلاح ، وكتبرع لاحد الاطراف المقاتلة .لذلك فلا مجال لتحديد جمهورها الفعلي .اي الذي يقرا ويتأثر بما يقرأ .

٣ ـــ عدم القدرة على المعرفة الدقيقة للطرف الفعلي الذي يصدر النشرة . رغم اننا استطعنا تحديد الاتجاهات في غالب الاحيان استنادا الى النص نفسه .

٤ ـــ عدم معرفة اسماء الكتاب والمحررين في اغلب الاحيان . فهم يوقعون باسماء مستعارة ـــ لها دلالة سياسية طبعا ـــ او بالاسم الاول دون اسم العائلة .

تعود هذه الصعوبات الى التقسيم الفعلي الذي فرضته الحرب الاهلية . والـــى الهستيريا الطائفية التي رافقتها ، حيث تمنع اجراء دراسة مدققة للمنشورات هذه .

لذلك تبقى دراستنا ناقصة . هذا النقص لا يقلل من اهمية استنتاجاتنا . لان مـــا نطمح اليه في هذه الدراسة ، هو الوصول الى كشف الارضية الايديولوجية التي تحرك او تساهم في تحريك الشارع الانعزالي وتوجيه ممارساته العسكرية .

فيدولة كالدولة اللبنانية، لا وجود لايديولوجية سائدة واضحة المعالم يمكندراستها . ونحن هنا لا ندرس اذن الايديولوجية السائدة . ففي لبنان ايديولوجية غالبـــة هي

---

٨ ـ الاولى ، يصدرها نادي لبنان المستقبل ، صدر العدد الاول في ١ ـ ١ ـ ٧٦ ،

٩ ـ الجلاء ، اسبوعية جامعة ، صدر العدد الاول في ١٤ ـ ١ ـ ٧٦

١٠ ـ الصمود ، اسبوعية ، تصدرها حركة الجامعيين اللبنانيين ، صدر العدد الاول في ١٢ ـ ١ ـ٧٦

١١ ـ المردة ، يصدرها مردة الجبل ، انصار الكتائب والرابطة ، العدد الاول بدون تاريخ ،

١٢ ـ المصير ، لسان حال الاكثريةالصامتة ، العدد الاول ٢٣ ـ ١٢ ـ ٧٥ ، تعبر عن اتجاهات معتدلة تقترب من طروحات ريمون اده ، وهي النشرة الوحيدة المعتدلة ،

١٣ ـ التحرير اللبناني ، تصدرها جبهة المساندة اللبنانية ، صحيفة يومية صدرت اوائل كانـون الثاني ١٩٧٦

١٤ ـ وطني ، تصدرها منظمة دعم الجيش ، صحيفة عادية ، وثيقة الصلة بالجيش ، صدرت في اوائل كانون الثاني ١٩٧٦

١٥ ـ الحركة اللبنانية ، تصدرها حركة التجمع اللبناني ، اسبوعية جامعة ، العدد الاول ١٨ ـ ١٢ ـ ٧٥

١٦ ـ لبنان ـ ابدي ـ ازلي ـ سرمدي ، تصدرها الرابطة اللبنانية ،

١٧ ـ صوت عين الرمانة ، يصدرها ابناء عين الرمانة ، اسبوعية ، سياسية ، جامعة ،

ايديولوجية الطرف الغالب ، التي تتنازع الحيز الايديولوجي مع ايديولوجيات اخرى . فالحقل الايديولوجي هو حقل صراع وتوازن . كما ان داخل الايديولوجية الغالبة هناك اكثر من اتجاه . هناك تحديدا اتجاهان رئيسيان :

١ ــ الاتجاه المتطرف . هو كلاسيكيا الاتجاه الماروني المرتبط بالغرب . والذي يبرز على السطح كاتجاه عام يوحد الطائفة ، عندما تشعر الطائفة بالخطر يتهددها ، فتحمل السلاح دفاعا عن النفس او عن مصالحها او ما تعتقده مصالحها .

٢ ــ الاتجاه المعتدل الذي يمسك بطرف خيط التوازن . يكبر حجمه او يصغر حسب اتجاهات التوازن. وهو الذي يدعي التعبير عن المصلحة العليا المسيحية. ومنذ احداث ١٩٥٨ يتخذ من بكركي مقرا ثابتا له .

ان تمايز هذين الاتجاهين ليس واضحا ، يختلطان ويفترقان كجواب على المرحلة التاريخية . لكنهما يتوحدان عند فهم مشترك لدور لبنان الوسيط وعلاقاته العربية المتحفظة . وحين يختل هذا الفهم المشترك تختل المعادلة ويغلب احد هذين الطرفين .

ان دراستنا للصحف والنشرات الانعزالية ، هي اساسا ، دراسة لايديولوجية الاتجاه المتطرف الذي يقاتل او يدعي القتال . فجميع هذه النشرات ما عدا ــ المصير ــ تدعي المشاركة في القتال ، او تتبنى اطرافا مقاتلة. فاهمية دراسة العنصر الايديولوجي فيها ، هو محاولة كشف عناصر ومحاور واتجاهات ايديولوجية الاطراف المقاتلة (١) . سوف نقسم دراستنا الى ثلاثة اقسام :

١ ــ **العناصر الايديولوجية** حيث نقوم بتفكيك عناصر ايديولوجية هذه الصحف والنشرات في عناصرها الاولى : **نحن وهم** ونلجأ هنا الى الصفات . صفات **نحن** وصفات **هم** . هنا نكشف العنصر الايديولوجي الاولي ، الذي تقف على ارضيته هذه النشرات ، دون ان ندرس تنظيم هذه الصفات . اي نقوم بتفكيك الايديولوجية الى عناصرها الاولية .

٢ ــ **المحاور الايديولوجية** . هذه الصفات ، او العناصر الاولى ، هي جزء من اتجاه عام . من وجهة سياسية شاملة . هنا ندرس كيف توظف هذه العناصر في اطر محورية ثابتة .

٣ ــ **التوجه العام** حيث نعود مرة اخرى الى تفكيك الايديولوجية الانعزالية الى ثوابت . ندرس اللغة الخاصة ، المسبقات ، الاطر المرجعية ، العلاقة بالتاريخ . فنعيد تركيبها من داخلها وخارجها ، لنصل الى لوحة علمية عن توجهات عامة تحكم الايديولوجية الانعزالية .

ان هذا التقسيم لا يهمل الفروقات بين الصحف والنشرات هذه ، بل يأخذها بعين الاعتبار ، دون ان يوليها الاهمية المركزية . فهذه الصحف تشكل في نهاية التحليل تيارا واحد تتعدد اصواته نتيجة عاملين :

---

١ ــ لا ندرس في هذا المقال جريدة « العمل » ، الناطقة باسم حزب الكتائب ، لانها بقيت تعبر عن طموحات الحزب المتوازنة في اغلب الاحيان او اخلت بالتوازن في محاولة اعادة تركيبه . ولقد عوض الكتائبيون على هذا النقص باصدار نشرات اخرى او المساهمة فيها .

١ ــ عامل ايديولوجي صرف ، يعبر عن اتجاهات ونزعات متعددة تختلف فيما بينها في درجة فاشيتها ، او فهمها للفاشية نفسها .

٢ ــ عامل سياسي : هو سير المعارك والاحداث الذي يفرض تمايزا في المواقف ، وتغييرات في موقف الجريدة او النشرة الواحدة .

١ ــ العناصر الايديولوجية

سوف نأخذ في سياق « نحن ــ وهم » . سبعة موضوعات : ــ لبنان . المقاتل اللبناني . المسيحية (المارونية) . الفلسطينيون . المقاتل الفلسطيني . العرب ، المسلمون . ان اتساع هم في اربع موضوعات على حساب نحن ، يأتي في الدرجة الاولى ، من بلبلة هذه الصحف في تحديد عدوها . فهو الفلسطيني في غالب الاحيان ، لكن قد يصبح العربي او المسلم اللبناني في احايين اخرى .

ا ــ لبنان

- وطن الله . (لبنان عدد ١)
- لبنان هو منبع الحضارة . (لبنان عدد ١)
- هنا ، منذ مليون سنة عقلنت المادة . (لبنان عدد ١)
- آدم وحواء لبنانيان . (لبنان عدد ١)
- قدم لبنان الى البشرية عطاءات خمسة لا تزال الى اليوم ثلثي الحضارة : اله محبة ، الابجدية ، القول بالذرة ، حكم الشعب بالشعب ، الهندسة الافليديسية . (لبنان عدد ١)
- ومرة اخرى تشرق الشمس على لبنان الاعجوبة . (لبنان عدد ٢)
- وطن السلام والمحبة . (لبنان عدد ٣)
- لبنان من دول الجودة لا الكثرة . (لبنان عدد ٤)
- لبنان مستقلا ، لم يكن يكتفي بتقرير مصيره ، كان يقرر ايضا مصائر الكون . (لبنان عدد ٥)
- لبنان امة سيدة ، وجودها قائم بها وبرسالتها . (لبنان عدد ٦)
- لبنان ثلثا الحضارة (لبنان عدد ٨)
- لبنان واحد كالله غير متعدد الا بذاته (لبنان عدد ٩)
- بلد مضيف وقف الى جانب قضيتهم ما استطاع (الانصار عدد ٢)
- وجه حضاري مشع (صوت زحلة عدد ٢)
- صامد امام كل تدخل اجنبي (صوت زحلة عدد ٢)
- لبنان يساوي صيغة حضارية فريدة (صوت زحلة عدد ٥)
- الله لن يتخلى عنا (صوت زحلة عدد ٦)
- في البدء كان لبنان ، ولبنان كان وطن الله ، والله حفظ لبنان . (الفداء عدد ٥)
- ان جبل لبنان سيظل صامدا ، وانه وجد ليبقى ، وسيبقى رغم انف كل الطغاة ، ورغم انف سوريا قبل الجميع (جبل لبنان عدد ١)
- لبنان باقي غصب عن كل الدني وما دام في انتو معو الله معو (الفداء عدد ٢)
- لبنان السيادة والكيان ، ولبنان الحضارة والثقافة . لبنان القيم الانسانية والتاريخ الطويل في الدفاع عن الحرية والديمقراطية وكرامة الانسان . لبنان واضع شرعة حقوق الانسان . ولبنان غير المنكمش على نفسه ، بل المنفتح على العالم بأسره . (لبنان ، ابدي ازلي ، سرمدي . العدد ٢)

ـ لبنانا كما نفهمه تربة ان زوبعتها الريح لتبعدها عن جذور الارز ، ترسم في وسط السماء ارزة تتحدى الارض والسماء (الصمود عدد ١)

ـ سيكون اسم لبنان مرادفا للقوة والمحبة . (الفداء عدد ١)

هذه الصفات التي اخذناها من بعض الصحف والنشرات موجودة او مضمرة فيها جميعا . ماذا نستنتج امام هذا العدد الكبير من الصفات ؟ نلاحظ اربع نقاط تركيز : **الحضارة . الله . القوة . المحبة والسلام** . فما هي دلالات هذه الصفات المركزية ؟ انها تخدم توجها عاما . تؤكد على نقاط تنفي بها اخرى لترسم لوحة رباعية .

١ ـ **فالحضارة** : تعني التفوق . لبنان بلد متفوق . وهي تفترض حكم قيمة . الحضارة في مواجهة البربرية . وهي تعني كذلك درجة من التقدم في مواجهة التأخر . فحين يوصف لبنان بالحضارة فهذا يحمل ضمنيا ادانة للآخرين سوف تظهر واضحة بعد ذلك .

٢ ـ **الله** : حين تقول لبنان وطن الله بصيغة علمانية ، فهي تخفي صيغة طائفية ثيوقراطية . فحين يكون لبنان وطن الله ومكتشف الله ، او هو كالله ، فهذا يقود حتما الى صيغة طائفية ، سوف تفصح عنها العجائب . العذراء تفتقد لبنان . او اشياء اخرى . وهذا مجرد رديف او تذكير بصراع المسيحية مع الاسلام . الحروب الصليبية مثلا .

٣ ـ **القوة** : هي رديف الحضارة . لا حضارة بلا قوة تحميها . لبنان وجد ليبقى وسيبقى بالقوة . فهو يقرر مصائر الكون (نزعة استعمارية) او الله سيحفظ لبنان ويعطيه القوة .

٤ ـ **المحبة والسلام** : هي الرمز الآخر ، الذي يغطي رموز العنف . فالصيغة الحضارية الفريدة ، هي صيغة تفرض نفسها بالقوة ، ثم تنفتح على الحب والسلام . فالمحبة والسلام هي وجه الخدمات والوساطة ، التي لا بد منها . المحبة في خدمة الوساطة حين يكون هذا ممكنا .

القاسم المشترك الذي يوحد هذه الصفات ، هو نزعة قومية ، عنصرية ، تتعالى على الآخرين باسم قيم الحضارة والله . وهما رمزان فاشيان قديمان .

ب ـ المقاتل اللبناني

ـ بطولات شبابنا الثائر وراء متاريس الصمود (اللبناني عدد ٣)

ـ المقاومة اللبنانية (اللبناني عدد ١)

ـ اعداد قليلة تغلب اعدادا كبيرة من العدو (اللبناني عدد ٣ ، مقابلة مع احد القادة الكتائبيين الذين احتلوا الكرنتينا)

ـ الخسائر لا تصدق . قليلة جدا (اللبناني عدد ٣)

ـ لبنان اليوم قبضة يدك ، هو جزء من بندقيتك (الانصار عدد ٢)

ـ اسم حراس الارز اصبح فزيعة الغرباء . (لبنان عدد ١)

ـ حراس الارز هم المردة الجدد (لبنان عدد ١)

ـ اهم ما قيل في المردة انهم كانوا جدار النحاس في وجه الغزو الصحراوي (لبنان عدد ٢)

ـ احفاد قدموس (لبنان عدد ٥)

- اننم في خط الحضارة الامامي (لبنان عدد ٥)
- حملة مشعل الحقيقة واصحاب الارض (لبنان عدد ٨)
- لا يمكن ان يصدق احفادنا اننا تجرأنا ان نخوض هذه الحرب ضد عدد يتفوق علينا بهذا المقدار عددا وعدة ، وان نتغلب عليه في جميع المعارك . (لبنان عدد ١٤)
- اسود يدافعون عن عرينهم حتى آخر نقطة من دمهم (صوت زحلة عدد ٢)
- شرفاء الفرق بينهم وبين المقاتلين الآخرين انهم لا يتقاضون اجرا (صوت زحلة عدد ٢)
- نسبة الذين استشهدوا في المتاريس كانت قليلة جدا بالنسبة للابرياء المذبوحين (صوت زحلة عـــدد ٢)
- اصاباتهم كثيرة الدقة (صوت زحلة عدد ٣)
- عدد اقل من الزحالنة يتغلب على اعداد كبيرة من الاخصام (صوت زحلة عدد ٣)
- ان المقاتل الزحلي اخذ يتميز بقدرته الخارقة على الصمود رغم كثافة النار وحداثة الاسلحة التي بحوزة الخصم (صوت زحلة عدد ٥)
- التمثل بقائد اسباني فرنكوي افدى بحياة ابنه وزوجته ولم يستسلم (صوت زحلة عدد ٣)
- مشاعرنا ملك الانتقام (المردة عدد ١)
- نحن ابناء الله الحقيقي . فنحن لهم بالمرصاد ، لندق اعناقهم ، ما دامت لنا اقدام . (المردة عدد١)
- ان اللبناني الذي ركب الجبال منذ القدم وحارب الغزاة وقهرهم ، لن يقف في طريقـه بعـض الجبناء الذين فروا من بلادهم وتركوها للغرباء (التحرير اللبناني عدد ٨)
- المعركة مستمرة والنصر لنا . لماذا ؟ لان الله هو قائد المعركة . (وطني عدد ٥)

تتكرر هنا موضوعة الله ، والحضارة . **الله** هو قائد المعركة ، نعود هنا الى الرمز الصليبي . فانتشار عادة لبس الصلبان الخشبية في اوساط المقاتلين الانعزاليين ليس عبثا . لكن الاضافة الجديدة هي التركيز على ثلاثة عناصر : القوة ، البطولة والشرف، الرمـــوز .

١ ــ **القوة** هي نقيض الضعف . والقوة هنا هي قوة فكرية ، متقدمة ، متحضرة . العدد القليل يغلب العدد الكثير ، الكيف ينتصر على الكم .

٢ ــ **البطولة والشرف** هي مؤشر المعركة . معركـــة دفاع عن الارض ، عـــن الشرف . لذلك فالمقاتل اللبناني شريف وبطل ، ولا يخاف الموت .

٣ ــ **الرموز** اشارات الـــى التاريـــخ ، قدموس ، هنيبعل ، المردة . او التمثـــل بالفاشيين الاسبان . هذه العودة الرمزية ، هـــي مؤشر تاريخي ، يعبىء فراغـــات كبيرة في لوحة القوى الانعزالية .

تبقى نقطة اساسية لم نشر اليها حتى الآن : الشهداء . فبينما لا تقول نشرة **لبنـــان استشهد ، بل تقول قتل ، لاسباب دينية طائفيـــة** ، فان النشرات الاخرى تستعمل عبارة استشهد .

تتفق جميع النشرات في تكريم « الشهداء » « ماتوا لنحيا » باب ثابت في اللبناني . « استشهد بعد ان زرع الرعب في صفوف المرتزقة اعداء بلده لبنان » . (اللبناني عدد ٣) . وجوزف الغصين هو « السيف الذي انكسر » (لبنان عدد ٣) . اصيب شارل في متراسه . شارل الذي عمره ريحان (لبنان عدد ٦) . « لا تبكوا فـــي يوم

عرسه . ان مات فليحيا لبنان » (صوت زحلة عدد ٢) . « استشهد وهو يغرس علم لبنان فوق ارض اراد الاخوان اللئام ان يدنسوها بوجودهم عليها» (الحركة عدد٢) تكريم الشهداء . والاسماء قليلة جدا ، ولا تعبر عن الرقم الحقيقي ، هو جزء من تكريس قيم القوة والبطولة التي ينعت بها المقاتل اللبناني .

ج ــ المسيحية (المارونية)

لا تظهر الكتابة واضحة جلية في تحديد الانتماء الماروني ، المسيحي ، في جميع النشرات ، بل تبقى مضمرة في غالب الاحيان . لكنها حين تكشف عن نفسها ، تظهر رهيبة ، وبالغة الصرامة :

ــ ان احتضار المسيحية في لبنان ، يعني تخلي المسيحيين عن دورهم الحضاري (اللبناني عدد ١)

ــ في مقابلة مع تريز التي قتل زوجها وهجرت من ضهر الجمل :

ــ بتفتكري قتلوا زوجك لانو كتائبي او لانو مسيحي ؟

ــ الاثنين ، ما بفرقوا بين الكتائبي والمسيحي ؟ (اللبناني عدد ١)

ــ اذا بسبب الصليب لازم موت هيدا فخر الي ؟ (اللبناني عدد ٣) ؟

ــ هذا هو جوهر تراث المارونية ؟ فاحترام الانسان يفترض ايضا ان لا يشوب حرية المعتقد خوف من فقدان هذه الحرية (اللبناني عدد ٥)

ــ الايديولوجية المارونية هي شريكة اساسية في توجيه تاريخ الشرق الديني (اللبناني عدد ٥)

ــ الايديولوجية المارونية ، جسدت اللاهوت ، وجعلت منه ايديولوجيا اجتماعية ناهضت حتى الآن اقوى ايديولوجيات العصر ؟ وولدت عند الموارنة الروح القتالية التي اضفت عليها طبيعة لبنان صلابة (اللبناني عدد ٥)

ــ مذبحة ١٨٦٠ التي تعرض لها المسيحيون ما زالت اخبارها تتناقل حتى اليوم ؟ بالله قولوا لي اخبار مذبحة او محنة ١٩٧٥ كم سيتناقلها المسيحيون في هذه المنطقة (الانصار عدد ٢)

ــ يعيشون في العالم العربي اشبه بمواطنين من الدرجة الثانية بسبب الحكم الثيوقراطي المتخلف، الناتج عن عدم فصل الدين عن الدولة ؟ (جبل لبنان عدد ١)

ــ تمثلت زحلة في القمة المارونية ، والقمة الكاثوليكية ولولا بعض عوائق طارئة لتمثلت في القمة الارثوذكسية وقمة الاقليات ؟ بذلك حققت زحلة مبدأ الوحدة في التنوع ووحدة الموقف ضمن تنوع الطوائف (صوت زحلة عدد ٥)

ــ ان لبنان ليس ملكا للدروز ، بل هو لنا ، وهم ملتجئون الينا ؟ (الصمود عدد ١ ؟ وثيقة تاريخية في كتاب اهالي زحلة الى المسيو بوجاد ١٨٤٥)

ــ سيظل المسيحيون في لبنان حماة الحرية من مستنقع البعوض ؟ ستبقى المسيحية في لبنان رائدة الحضارة (الصمود عدد ٣)

ــ ماذا فعل لبنان والمسيحي في لبنان ليتلقى الغزوات الهمجية البربرية على القرى المسيحية النائية (وطني عدد ٥)

المسيحية المارونية هي اذا هوية حضارية . تعاني عقدة الخوف من الذوبان في البحر الاسلامي العربي . وهي هوية انتماء ، قد تصبح قومية او شبه قومية كما سنرى في نشرة (جبل لبنان) او هي ايديولوجية كاملة متكاملة .

ان هذا الطابع الطائفي ، الديني الصارخ ، يكشف زيف الانتماء اللبناني الى لبنان الكبير ، ولا جدواه . كما انه يحمل جميع انواع الحقد والاحتقار للطرف الديني الآخر .

(مستنقع بعوض) ويحمل بالمقابل جميع اشكال افتخار الانتماء المصحوبة بالخوف من المذابـــح .

د ـــ الفلسطينيون

- فاذا بهم كالجراد اتوا . (الفداء عدد ٢)
- ارحل ايها الغريب عن لبنان فلن يكون لك (الفداء عدد ٢)
- ... يشرب من بئر لبنان ويرمي قعره بحجر (الحركة عدد ٢)
- اتقوا شر من احسنت اليه (صوت زحلة عدد ٥)
- استضفناهم فاستعذبوا الطعن في الظهر (صوت زحلة عدد ٤)
- آويناكم فحاولتم تشريدنا ! (صوت زحلة عدد ٤)
- الفلسطيني على ارض فلسطين فدائي ، على ارض لبنان هربان (لبنان عدد ٢)
- داسوا على كل القيم وتصرفوا كأسفل ناكري جميل عرفهم التاريخ (لبنان عدد ٢)
- الفلسطينيون ، وهم اعداؤنا المباشرون ويتميزون بالحقارة والجحود (لبنان عدد ٣)
- حيث يدفع اولادنا الجنود ضريبة الدم بسبب تحرش الفلسطينيين باسرائيل (لبنان عدد ٥)
- الاغراب جعلوا العالم يمج لبنان (لبنان عدد ٢٠)
- تشربوا التخريب والهدم منذ نعومة اظفارهم ، هم كالحية الرقطاء التي لسعت من انقذها من الموت (التحرير اللبناني عدد ٤)
- لولا الغرباء لكان المسلمون والمسيحيون بألف خير (الجلاء عدد ١) .

الصفات التي تلصق بالفلسطينيين تتحدد في مسألتين اساسيتين :

ـــ **الغريب** : الذي لا علاقة له بالارض التي يسكن عليها ـــ لبنان ـــ والذي بـــاع وطنه . وهو **لاجيء** . اللاجيء عرفات . الغريب يهدد الحضارة . يهدد امن البـــلاد وسيادتها .

ـــ **العدو** : الذي تلصق به جميع صفات التحقير . فهم فاشلون ، جاحدون ، سبب الشقاء والخلافات بين اللبنانيين . يطعنون في الظهر . يحتلون لبنان ...

تؤكـــد هاتان المسألتان علـــى نقطة مركزية هامة ، تقذف المشكلة الى الطـــرف الفلسطيني ، وتقذف هذا الطرف الى الخارج ، فهو غريب . اذا جميع مشاكلنا هـــي من الخارج . ويمكن حلها بطريقة واحـــدة ، طرد الفلسطينيين ، طالما يرفضـــون المحافظة على سيادة لبنان .

الغريب او الطريف هنا ، هو ان الطرف الصهيوني ، لا يعامل كعـــدو ، دون ان يذكر كصديق او كحليف الا تلميحا وبشكل غير مباشر . امـــا العدو الاساسي فهـــو الغريب ، الفلسطيني ، المتحالف مع العرب .

هـ ـــ المقاتل الفلسطيني

- اعداؤك اقزام ، انهم كافرون خبثاء . يغتالون لبنان كل يوم (ملحق العمل عدد ٢)
- كل من يعمل على تهديم هذا البلد هو شهيد للثورة (اللبناني عدد ٢)
- هاجم الغرباء زحلة بستة آلاف مأجور (صوت زحلة عدد ٢)

ـ في خبر عن المسلحين الغرباء ان تسعماية يمني قدموا الى لبنان ، عادت نفوس ٥٠٠ منهم الى ربها (صوت زحلة عدد ٥)

ـ حضر ليقاتل الكفار (صوت زحلة عدد ٢)

ـ غدروا بشبابنا في السهل ، مثلوا في جثثهم (صوت زحلة عدد ٥)

ـ لا يفوق جبانة الغرباء في المعارك سوى بطولتهم عندما يخطفون انسانا بدون سلاح ! ففي المعركة ارجلهم ارجل غزلان اما مع المخطوفين فهي ارجل بغال (لبنان عدد ١)

ـ استغرب احد مراسلي الصحف الاميركية كون زمر الاربعين منظمة لم تتمكن من احتلال ولا شبر من معاقل الامبريالية الكتائبية والرجعية الحراس ارزية ، ورغم كثافة الاسلحة الثقيلة والخفيفة الدم التي يملكها ابطال الوفا ، فافاد احد المراقبين ان السلاح في يد بعض الناس ما بيجرح (لبنان عدد ٤)

ـ معركتنا بين عملقة وقزمنة (لبنان عدد ٥)

ـ اما الفلسطيني فقد هرب من فلسطين بعد ان باعها ، وهنا يدعي الكفاح المسلح ، للتهريب وسلب الاعراض في احراج عرامون ، والتجسس وحرق المحلات وتفجيرها ونهب الممتلكات (لبنان عدد١)

تبدو هذه الصفات ، النقيض المباشر لصفات المقاتل الانعزالي . فالمقاتل اللبناني ، شريف ، شهم ، لا يسرق يدافع عن قضية ، اما هؤلاء فمرتزقة ، لصوص ، لا قضية لهم ، يحبون التخريب .

ان النقطة الاساسية التي تجمع عليها جميع النشرات والصحف والانعزالية ، هي جبن الفلسطينيين ، يستعينون بالكثرة ، لا يقاتلون جيدا ، واخيرا يفشلون في تحقيق اهدافهم . هذه الصفات هي في الواقع جزء من التعبئة الاعلامية . فالاحساس بالعجز او التراجع ، يترجم عمليا بالكذب ، وبادعاءات الانتصارات . لا ينشرون شيئا عن الدامور ، سوى انها استبحت وذبح سكانها ، بينما يتحدثون عن نتائج وتفاصيل معركة المسلخ .

د ـ العرب

ـ غدا ، اذا ابتدأت السنة الدراسية ، سأكون مجددا في موقف حرج امام طلابي ، فاول درس اجبرتني وزارة التربية على تلقينهم اياه يدور حول مناسبة معلقة امرىء القيس وهي قصة دعارة (لبنان عدد ٢)

ـ منذ سنة ١٩٤٨ يردد معلم لبنان في خطاباته ومقالاته : حذار حذار يا لبنان ذات يوم ماتت روما غرقا في خضم الاغراب (لبنان عدد ٢)

ـ دول الحضارة ، لن تتخلى عن وطن الحرية الوحيد في الشرق (لبنان عدد ٢)

ـ يوم كانت الارض حولنا صحراء قاحلة ، كان لبنان يختال على دروب الكون يزرعها جمالا وخيلاء (لبنان عدد ٤) .

ـ الوساطة القائمة ، هي تدخل من سوريا في شؤون لبنان (لبنان عدد ١٤)

ـ جامعة الدول العربية هي حائط مبكى ، جمعية خيرية (صوت زحلة عدد ٧)

ـ وصل مؤخرا الى مرفأ اللاذقية في سوريا خمسة آلاف جندي ليبي تمهيدا للدخول الى لبنان للمشاركة في الهجمة الاسلامية على المسيحيين (اللبناني عدد ٥)

ـ ضغوط عربية على الولايات المتحدة عن طريق سياسة حظر النفط لمنع اميركا من التدخل لمصلحة المسيحيين في لبنان (اللبناني عدد ٥)

- المؤامرة فلسطينية سورية ، ليبية (لبنان ، ابدي - ازلي - سرمدي) .
- الانتداب السوري على لبنان يفرض التقسيم (جبل لبنان عدد ٢)
- كذابون من المحيط الى الخليج .. هل هذه شعوب تستحق هذه التسمية (الصمود عدد ٣)
- المستفيدان من خراب لبنان : اسرائيل وسوريا (التحرير اللبناني عدد ٤)

ان السمة العامة التي توحد المواقف من العرب تتحدد بموقفين متكاملين : ـــ

١ ـــ الاحتقار : واحة الحضارة تحتقر الغرباء ، المحيطين بها . فلبنان ، هو مركز حضاري ثابت مهدد . لذلك يأخذ موقفه او الموقف الذي يعطى له ، اطار الاحتقار للشعوب « الهمجية » المحيطة به ، يحتقر غناها وثروتها ويوجه اصبع الاتهام لهـا جميعا ، ويتمسك بلبنان بوصفها نقيضا فعليا لها . ويجري التركيز هنا على انحطاط الثقافة العربية ، وتدهور اوضاع المنطقة العربية وتمزقها .

٢ ـــ الخوف : الذي هو الوجه الآخر للاحتقار ، فالخوف يتركز اساسا من اتساع المدى العربي الذي يدعم المقاومة ، وضيق رقعة الدعم الذي تلقاه القوى الانعزاليـة من الدول الامبريالية التي تصل الى حد اللامبالاة . كذلك يجري التركيز على الـدور السوري ومهاجمته ، باعتباره احتلالا ! هنا تتقي (المصير عدد ٥) مع رفض التدخل السوري والتركيز على خطره ، انسجاما مع مواقف اده .

هـ ـــ المسلمون

- لنقل بصراحة ، بأن النزاع يدور حول السلطة وبيد من يجب ان تكون : بيد المسيحيين الذين يفهمون لبنان وطنا نهائيا متميزا ، ام بيد المسلمين الذين يريدونه عربيا (ملحق العمل عدد ٢)
- ان المعركة ليست لحماية الثورة الفلسطينية ، واسترجاع فلسطين ، بقدر ما هي صراع مـن اجل الحكم لادخاله في دار الاسلام . (اللبناني عدد ٣)
- ان عصبية المسلمين رجعية بذاتها وممارستها ، فالدول الاسلامية والمفكرين المسلمين لـم يفهموا الاصلاح والتقدم الا بالعودة الى جذور الاسلام في عصوره الاولى ، رافضين الاخذ بمعطيات الحضارة الحديثة لانها من صنع الكفرة . (اللبناني عدد ٣)
- المسيحيون هم الوطنيون الحقيقيون ، وغالبا ما ينسى المسلمون هـذه الوطنية لانهم دائمـا يتكئون على الخارج (صوت زحلة عدد ٦)
- في منطقة بعلبك هاجم « المسلمون التقدميون » القرى المسيحية . (صوت زحلة عدد ٧)
- في لبنان شعبان متميزان حضاريا . مسلمين عرب ومسيحيين لبنانيين . (جبل لبنان عدد ١)
- حرب السيادة هذه التي نخوضها ، هي حرب يخوضها لبنان بمسلميه ومسيحييه . يخوضها بمسيحييه علنا وبمسلميه سرا (التحرير عدد ٤)

المسألة الاساسية حول قضية المسلمين ، انهـا تبقى غامضة في اكثر الصحف والنشرات التي تصدرها القوى الانعزالية . لكنها تكشف عنها في لحظات الضعف ، حيث يبدو التقسيم هو المخرج الوحيد لمسألة السيادة ، او حين تشتد عليها الضربات. لكن المسألة المركزية تبقى في اعتبار المسلمين من صفات الاعداء ، وتحقرهم كما فـي (اللبناني) او تسميهم اسلام ، جمع مسلم . وهي صيغة دارجة هدفها التحقير . وتحاول بعض النشرات (لبنان) او الصحف (وطني) اعتبار مسلمي لبنان الـى جانبهم ولكنهم واقعون تحت الاحتلال الفلسطيني (لبنان) .

ان بحثنا التفصيلي عن العناصر الايديولوجية اخـذ نموذج ، نحن وهم كاطار لهذه

العناصر . يكشف هذا النموذج النقاط الاساسية لتحريض القوى الانعزالية الطائفية لجماهيرها . فهي تدافع عن موقعها في السلطة ، وتعيد التذكير بالمذابح التي تعرض لها المسيحيون . تتوقف اساسا عند الغريب (الفلسطيني ، العربي) بوصفه عنصر الفتنة ، وتدعو الى تصفيته وطرده من لبنان . وهي تستعمل الاساليب الفاشية التقليدية في عناصرها الايديولوجية : —

١ — تركز على موقعها « الحضاري » المتقدم .

٢ — تركز على بطولات مقاتليها وشرفهم القتالي .

٣ — تقاتل بأسم التقدم ضد التأخر .

٤ — تهاجم الغريب وتلصق به جميع اسباب مشاكل البلاد .

٥ — تثق بنفسها وقدرتها اكثر من اللازم .

٦ — جبهة حلفائها هي الدول الاوروبية المتحضرة والولايات المتحدة ، اما الاعداء فهم العرب المتخلفون .

٧ — تستغل العنصر الديني ، الرموز الدينية ، في معركتها .

٨ — تعود الى رموز تاريخية تشحن بها الحاضر ، وتدعو الى تبديله .

ان بحثنا عن نقاط الـ نحن وهم ، يعطي فقط صورة الاساس التي تحرك الايديولوجية الانعزالية الفاشية . لكن هذا لا يكفي . فهذه العناصر تنتظم في محاور ايديولوجية ، تحاول صياغة برنامج سياسي .

٢ — المحاور الايديولوجية

لا تأخذ هذه العناصر الايديولوجية ، الا في سياق سياسي موحد او شبه موحد . فعناصر الاختلاف التي تبرز بين هذه الصحف والنشرات، تتركز حول الموقف السياسي النهائي : قبول الوساطة السورية او رفضها الدعوة الى التقسيم علنا ، او الاكتفاء بالدعوة اليه بشكل مبطن او رفضه الاعتراف بشبه الهزيمة العسكرية او تحويلها الى انتصار . غير انها تلتقي في جوهر العلاقة بالقارىء ، فهي تتوجه اساسا الى **المسيحي البرجوازي الصغير** الناقم على الاوضاع ، تقنن نقمته في ثلاثة اتجاهات : —

الاتجاه الاول : وهو الاتجاه الاساسي ، الذي يقنن ، الحقد والكراهية على الغريب — الفلسطيني ، العربي ، المسلم ... يرتكز هذا الاتجاه اساسا ، على عقدة الخوف المسيحية ، ويدفع بها الى اقصى مداها ، فيندمج الخوف بالكبرياء والحقد والاحتقار . هذا العنصر ، او الاتجاه يمكن اكتشافه من دراسة نحن وهم ، حيث تأتي الصفات لتدفع باتجاه واضح ، هو جزء من « الايديولوجية الشعبية المسيحية » في لبنان . فالنشرات والصحف الانعزالية ، لا تخترع الطائفية وتمايزاتها الاجتماعية . تنقل الكلام الشعبي البرجوازي الصغير الى الكتابة بدون خجل هذه المرة . فتحمل جميع رواسب الخوف والكراهية الطائفية ، وتصبها في قالب جديد . فهي تنطلق من موقع ازمة النظام السياسية العامة ، وانعكاساتها الاجتماعية ، لتعيد صياغة اسباب الازمة ووضعها على كاهل العرب والفلسطينيين ، باعتبارهم سبب توريط لبنان في ازمات . فهم فتحوا النار على اسرائيل ليورطوا لبنان في معركة لا يريدها ،

وهم الذين يريدون تهديم السلطة والنظام ، في سبيل نزع هوية لبنان الخاصة ودمجه بالمنطقة العربية .

الاتجاه الثاني : يبقى الاتجاه الاول ، في اطار كلاسيكي ، لا يضيف جديدا . لذلك تأتي النشرات لتصب نقمتها على القيادات التقليدية . ان النقمة على القيادات التقليدية هي تعبير عن بروز قيادات جديدة « حربية » في الشارع المسيحي . فلم تعد القوى التقليدية تستطيع الادعاء بأنها تمثل الشارع المسيحي بأسره . فهي قوة رئيسية في داخله ، تنمو على جوانبها ، او في ظلالها قوى مارونية جديدة شابة ، مثقفة ، متعصبة . لذلك لا تشترك النشرات والصحف في صب نقمتها على السياسيين التقليديين . فالنشرات التي لا علاقة لها بالاحزاب المارونية الاساسية : الكتائب ، الاحرار ، الكتلة ، هي التي تركز على انتقاد السياسيين التقليديين ومهاجمتهم . (لبنان ، صوت زحلة ، الفداء) ، بينما تبقى صحف اخرى لها علاقة بالكتائب : (اللبناني ، الانصار ، ملحق العمل) ، صامتة حول الموضوع ، في الوقت الذي تركز فيه صحيفة (التحرير) المديح للزعامة المارونية الجميل ، شمعون ، ويصل الامر ببعض النشرات غير الجدية (الاولى) الى تخصيص ثلاثة ارباع صفحاتها لحياة الشيخ بيار الجميل الخاصة ، وصوره وصور عائلته .

ان اتجاه رفض الزعامة التقليدية ، هو في الواقع اتجاه شعبي ، له جماهيريته . فنظام العلاقة الطائفي ، بين الزعيم وانصاره هو نظام معقد ، ولاء ورفض لهذا الولاء في آن ، رغم ان الولاء هو الذي يغلب في التحليل الأخير . لذلك يأتي الهجوم المركز الذي تشنه نشرة (لبنان) ليعبر عن ظاهرة قديمة ــ جديدة ، تعبر عن اتجاه جديد في واقع الشارع الماروني . فهي ظاهرة قديمة ، لانها تعبر عن تململ قطاعات المثقفين والتكنوقراطيين من الزعامات التقليدية ، لكن جدتها هو في تحولها الى ظاهرة اجتماعية ، تهاجم وتتعايش مع الزعامات التقليدية . ترفضها وتنمو الى جانبها . لذلك يأخذ الهجوم اشكالا ملطفة ــ ما عدا في نشرة سعيد عقل ــ ويركز على مسألتين :

أ ــ تحميل القيادات التقليدية والزعامات السياسية مسؤولية ايصال لبنان الى الكارثة . « عمالقه وقت الكراسي واقزام ساعات الرؤى » (الفداء عدد ٢) ، « فما دام هؤلاء سيظلون فوق فسيظل لبنان ، تحت » (لبنان عدد ٨) .

ب ــ التركيز على بروز زعامات سياسية مارونية جديدة ، جادة في تحمل مسؤوليتها . (صوت زحلة عدد ٥) (لبنان عدد ١٣) تلتقي هذه النشرات على التبشير بولادة قوى جديدة ، هي وحدها القادرة على انقاذ لبنان .

الاتجاه الثالث وهو اتجاه تجمع جميع الصحف والنشرات على تبنيه ، على اختلاف انتماءاتها السياسية . وهو التركيز ضد الاغنياء واحتقارهم ، واحتقار الذين غادروا لبنان منهم الى اوروبا. ان هذا التركيز ، هو الوجه البارز لنوع المخاطبة الايديولوجية، ولنوع التوجه الى القارىء . فهذه النشرات تتوجه اساسا الى قاعدة شعبية برجوازية صغيرة، تشحنها بالحقد على عدو مفترض ــ الفلسطيني العربي ، الغريب، لكن لهذا القارىء ، او لهذه النزعة متطلبات اخرى . اولها هو الهجوم على الاغنياء فهم اعداء لبنان ، وساهموا في خرابه بسبب بخلهم وغباوتهم وجبانتهم (لبنان عدد ٣) وهم اشد جحودا من الغرباء (لبنان عدد ٤) كما يجري التركيز ضد المحتكرين (صوت

زحلة عدد ٣ ، اللبناني عدد ٣ ، الانصار عدد ٣ ، الحركة عدد ٢ الخ ...) هـذا الرفض للاغنياء وكراهيتهم ، هو جزء من عمليتين مزدوجتين :

١ ــ تبرير فرض الخوة بالقوة المسلحة ، وهذا ما جرى في جميع المناطق التي تقع تحت سيطرة الانعزاليين .

٢ ــ اتجاه برجوازي صغير ، شعبي ، يصب حقده على الراسماليين ، بطريقة جديدة . فهو يحمل السلاح ليدافع عن مصالحهم الاقتصادية والسياسية ، لكنه ينال تعويضا سيكولوجيا ، عبر هجومه عليهم . ان هذا الاتجاه البرجوازي الصغير ، هو الاساسي في الهجوم على الاغنياء . لانه يجيب فعليا ، على واقع التشكيلة المقاتلة في الصف الانعزالي ، التي تشكل البرجوازية الصغيرة قاعدتها الرئيسية .

ان هذا الحقد والاحتقار الموجه الى الاغنياء ، يوظف في المقابل ، ضد الفقراء . ضد اهالي المسلخ ــ الكرنتينا ، ضد سكان بيوت التنك . فالنزعة الفاشية توجه كذلك ضد عدوين آخرين ، الفقراء ، واليسار . فاذا كان الاغنياء جرذان كما تقول نشرة لبنان ، فان النعوت التي يوصف بها الفقراء هي اكثر تحديدا ، فهم « **تنكيون** » كما تقول نشرة (لبنان) اي يعيشون في بيوت التنك ، وفقرهم هو نتيجة مؤامرة شيوعية كما تقول نشرة (اللبناني) اما الاملاك فستعود الى اصحابها الاساسيين ، ولن يسمح للمهجرين بالعودة اليها . تبدو هذه النزعة الفاشية ، غريبة ، اذا ما قورنت بالفاشية الاوروبية . فالفاشية الاوروبية تنظم البروليتاريا الرثة ، وتستخدمها في صراعها ضد الديمقراطية وضد حركة الطبقة العاملة . اما هنا ، فان النزعة الفاشية الظاهرة في الطرف الانعزالي ، هي فاشية طائفية . تتحدث عن لبنان ، وتعني به الموارنة او اكثرية المسيحيين في افضل الحالات، من هنا حقدها على التنكيين، وسكان الاكواخ والفقراء . وهذا يعود ايضا الى الموقف الوطني لسكان المسلخ والكرنتينا والنبعة والشياح وجميع الضواحي الفقيرة .

يأتلف هذا الموقف ، مع موقف مشابه من القوى اليسارية . فرغم ان اغلبية هذه النشرات ، تعتبر عدوها هو اللاجيء المقاتل الفلسطيني ، وترفض الاعتراف بالبعد الداخلي للازمة ، فانها تركز بعض الهجوم على اليسار . فنشرة (لبنان) ترفض وجود الفقراء في لبنان : « ليس مخروما في بلد اجير العامل فيه يزيد على ٢٠ ليرة » والشيوعية خدعة تفقر الناس ، وهم الذين يبدأون المشاكل (صوت زحلة) والشيوعية هي العدو الاول للمسيحية (الانصار) . وجنبلاط هو رئيس الفولكلور التقدمي الرجعي ، الاشتراكي ، الراسمالي ، الاقطاعي المأجور كما تقول نشرة (لبنان ، ابدي ازلي ، سرمدي) ، والشيوعية هي الفساد (التحرير) ... يلاحظ هنا هجوما على اليسار والشيوعية ، لكنه ليس هجوما مركزا ، حتى حجمه في النشرات ليس اكبر من حجم الهجوم على الاغنياء الفارين من بلادهم . ان عدم التركيز على الخطر اليساري ــ الذي يلاحظ مثلا في جريدة العمل ــ هو تعبير عن المحاور الايديولوجية الفعلية التي تحرك الشارع الماروني . فالخطر الاساسي هو الخطر العربي ، الفلسطيني ، الذي قد يكون اسلاميا . ورد الفعل ضده هو رد مسيحي « حضاري او طائفي » لا فرق .

توظف هذه الاتجاهات الثلاثة في تحديد خط سياسي ، او خطوط سياسية ، للدعوة الانعزالية . فالموقف الاجتماعي ــ الفاشي ، الذي تكشفه هذه النشرات ، هو اللون الخلفي من لوحة سياسية . فالطرف الانعزالي ، يقاتل دفاعا عن مجموعة من **الرموز السياسية** والمواقف العملية ، التي تصب في النهاية في عنوان واحد كبير :

الدفاع عن مصالح القوى المتسلطة على السلطة . اي الدفاع عن امتيازات الطائفة المارونية في السلطة . ويأخذ هذا الدفاع عدة تعابير : الاستقلال ، السيادة ، رفض التدخل الخارجي العربي ، انتظار التدخل الخارجي الامبريالي او الصهيوني . . . .

ان اهم الرموز السياسية ، التي تدافع عنها هذه الصحف والنشرات ، هو رمز **الجيش** . فالجيش هو الجواد الاخير ، حصن الدفاع الاخير والاساسي عن الاستقلال والسيادة . فالجيش لم ينقسم ولا مرة (لبنان) وهو امل لبنان (لبنان) . وحين يدخل الجيش طرفا في القتال الى جانب الانعزاليين ، فهو يقوم بواجبه ولم يتجاوز حده (صوت زحلة) ، ويجب انزال الجيش ، لان عدم انزاله جريمة (الفداء) . . . فالجيش هو رمز السلطة ، الذي تتمسك به النشرات الانعزالية ، وتدعوه الى مزيد من المشاركة في حربها ضد الفلسطينيين والمسلمين . الى جانب الجيش ، تأتي رموز اخرى اقل اهمية : **الدستور** ، الذي لن يمس . فالجيش هو حامي الدستور ، ويجب عدم تعديل الدستور لجهة اجراء اي اصلاح ، فالخطأ ليس في النص بل في التطبيق . ثم تأتي رموز اخرى اقل اهمية : **الجبل** ، **المردة** ، **هنيبعل** ، **قدموس** . . . تلعب هذه الرموز دور شد لحمة العناصر الايديولوجية الانعزالية ، وربطها في توجه سياسي اساسي . رفض كل محاولة للتغيير ، والتمسك بالموجود باعتباره افضل الحلول ، ثم الانطلاق من هذا الواقع في سبيل شن هجوم مضاد هدفه تكريس السيادة . يمكننا وضع المحاور الايديولوجية التي يجري التركيز عليها في اتجاهين متكاملين :

١ ــ **السيادة اللبنانية** : هذه السيادة تخرق من قبل الغرباء ، الفلسطينيين . اما تبرير اختراقها من قبل العدو الصهيوني فسببه « تحرش الفلسطينيين باسرائيل » . ان اعادة السيادة تعني تحطيم الثورة الفلسطينية ، وحتى ترحيل الفلسطينيين من لبنان . اما شروط السيادة او الاستقلال ، فهو رفض اتفاقية القاهرة ، وهذا ما تجمع عليه جميع النشرات ، في فترات عدم توجيه ضربات عسكرية مؤلمة للقوى الانعزالية . اما عندما توجه هذه الضربات ، فان اللهجة تتغير . وتصبح سوريا شقيقة ، ويدعي الجميع الحرص على الاتفاقيات . ان موضوعة السيادة ، هي في الواقع محاولة لرسم هدف محدد . فالهجوم الذي تشنه القوى الانعزالية ــ الفاشية ، يحمل هدفا محددا ، هو تصفية الوجود الفلسطيني ، لذلك قوبل اسقاط مخيم الضبيه ، وضرب الكرنتينا ــ المسلخ ، وفرض الحصار على تل الزعتر ، بمانشيتات متفائلة جدا ، وعنيفة ، وتبشر بالنصر . ثم عندما سقطت الدامور ، عادت اللهجة الطائفية لتحتل المقام الاول ، ففي فترات التقدم ، تأخذ القوى الانعزالية ، بحلم احكام سيطرتها على الوضع ، اما في فترات التراجع والهزيمة ، فانها تعود الى اللهجة الطائفية : « فلقد احتلت الدامور ، تحت شعارات اسلم تسلم » ، كما تقول نشرة اللبناني . والمبادرة السورية ، ودخول جيش التحرير تعني احتلالا فلسطينيا ــ سوريا للبنان ، يجب مواجهته . هنا تأخذ المواجهة اكثر من شكل :

ــ الرضوخ للواقع الجديد ، واعتبار سورية شقيقة . ثم محاولة الالتفاف على الواقع الجديد ، والاستمرار في عملية احكام التقسيم ، عبر السيطرة الكاملة على المناطق الانعزالية .

ــ رفض هذا الواقع ، جملة وتفصيلا ، ضمن موقفين :

أ ــ الدعوة الصريحة الى التقسيم . فمانشيت نشرة (جبل لبنان العدد الاول) يقول : « نعم لتقسيم لبنان ، التقسيم اصبح امرا واقعا » . هذا الاتجاه الواضح ،

يجد تبريره في اعتبار الطائفة شبه قومية مستقلة ، لها الحق في تقرير مصيرها بشكل مستقل ، وهو في الواقع تعبير عن هزيمة القوى الانعزالية في تحقيق فهمها للسيادة والاستقلال .

ب ــ رفض الواقع الجديد جملة وتفصيلا ، والاستمرار في الدعوة التصعيدية . وهو اتجاه ضعيف ، يصب في نهاية التحليل في دعوة التقسيم ، دون ان يصرح بذلك .

٢ ــ **التدخل الخارجي** : فيما تجمع النشرات الانعزالية ، على رفض التدخل السوري ، واعتباره جزءا من مخطط اجنبي لاحتلال لبنان وضرب استقلاله ، فانها تجمع على طلب تدخل الدول الامبريالية لمصلحتها . ينطلق هذا الموقف من الحنين القديم الى الانتداب او الى الجيش الاميركي كما في ١٩٥٨ . هذا الحنين هو تعبير عن واقعين : واقع ايديولوجي ، هو الاحساس بالارتباط بالعالم الرأسمالي الغربي المتحضر . فالحضارة الغربية حين لا تنقذ المتحضرين اللبنانيين، فانها ترتكب خطأ اكبر من خطيئتها في فيتنام . وواقع موضوعي يتعلق بسير المواجهة العسكرية لغير مصلحتها ، وبروز اصوات مارونية ــ بكركي ، اده ــ لا توافق على خطة القوى الانعزالية ، وتمهد لشق الصف الماروني في مرحلة لاحقة . لذلك كانت الدعوة الى التدخل الاوروبي ــ الاميركي ، مصحوبة بفجيعة كبيرة من لا مبالاة هذه الدول بالواقع اللبناني ، او وقوعها تحت ضغط العرب . لذلك ركزت جميع النشرات على المغتربين ودورهم المفترض . فاحتلت اخبار تظاهراتهم المؤيدة موقعا هاما في الصحف الانعزالية ، واعطيت حجما اكبر من حجمها الفعلي ، فهي ستضغط على الرئيس فورد . وجرت محاولة لاعطائها دورا مشابها لدور الصهاينة في الولايات المتحدة .

هكذا تفهم السيادة والاستقلال . فلبنان ، المعقل الحضاري ، المهدد ، لا ينقذه الا عمل مزدوج : نضال اللبنانيين وقتالهم ضد الغرباء المحتلين ، وقيام العالم « الحر » بواجبه في دعم هذا القتال .

الطريف ، ان جميع النشرات تجمع على الموقف هذا ، وتأسف لعدم تدخل دول اجنبية في الازمة او تنتظر تدخلا اسرائيليا لا يأتي ، لانقاذ وضع الانعزاليين ، الذي بدأ انحداره الشامل بعد معركة الدامور .

ان المحور الايديولوجي-المركزي ، الذي تحاوله هذه النشرات يتلخص في ٧ عوامل :

ا ــ التأكيد على الانتماء اللبناني ــ الحضاري .

ب ــ العمل للتقسيم ، دون التصريح بذلك .

ج ــ الدعوة لتصفية الوجود العربي في لبنان ، ورفض انتماء لبنان العربي .

د ــ بعث الروح القتالية في المردة الجدد .

هـ ــ التأكيد على انتماء لبنان للغرب ، وللحضارة الحديثة التي لم يستطع العرب والمسلمون استيعابها .

و ــ العدو الرئيسي ليس الصهاينة بل الثورة الفلسطينية .

د ــ التمسك بالامتيازات الطائفية ، التي تكرسها التركيبة اللبنانية .

يقودنا هذا المحور الى استنتاج اساسي ، هو ان هذه النشرات هي تعبير عن

محاولة خلق اطر فاشية مسيحية ، تتصدى للمد العربي في لبنان ، دون ان تأخذ في عين الاعتبار بشكل دقيق لتغير ميزان القوى الدولي والعربي لغير صالحها . او هي محاولة لرفض معنى تغير ميزان القوى ، الذي عبرت عنه حرب تشرين ، واحتلال الثورة مواقع متقدمة عربيا ودوليا .

٣ ــ التوجه العام

ان دراسة المحاور الايديولوجية ، ووضعها في اطارها السياسي ، يقود بالضرورة الى محاولة اعادة دراسة تفصيلية جزئية للنشرات الانعزالية . تخدم هذه الدراسة التفصيلية في كشف توجه عام ، هو قاعدة الخط السياسي الذي يقود ممارسة سياسية وعسكرية معينة . فعندما ندرس طبيعة التوجه نحو القارىء ، واللغة الخاصة ، والمسبقات والاطر المرجعية ، فاننا نستطيع صياغة التوجه التفصيلي في قاعدته . اي ان اعادة دراسة التوجه الايديولوجي ، تهدف الآن الى اكتشاف ثوابت النص في النشرة الانعزالية .

أ ــ طبيعة التوجه نحو القارىء

ان جميع هذه النشرات تتوجه الى قارىء ماروني مسيحي تحديدا . فهي بحكم حقائق الحرب الاهلية اللبنانية . لا تستطيع ان تتوجه الى قارىء في الطرف المقابل . لذلك فلا وجود لاعلام مضاد في صفوف العدو ، او لا تضطر لاخفاء طابعها الصارخ وتغليفه بلغة ملطفة . نستطيع ان نكشف هذا التوجه من خلال مجموعة من التوجهات :

١ ــ **الرموز المسيحية** الدينية والاجتماعية التي تجري العودة اليها دائما . فالعجائب ، والصليب ، والله هي مجموعة من الرموز الدينية او شبه الدينية ، لا يمكن ان تكون موجهة الا لقارىء مسيحي تعني له هذه الرموز اشياء محددة . غير ان الشيء الاساسي في الرمز الديني هو الرمز الاجتماعي . اي الافكار المشتركة ، او العناصر الايديولوجية الخاصة ، التي تميز الطوائف المسيحية عن غيرها . فجميع الرموز **التاريخية** المستعملة : المردة ، هنيبعل ، قدموس ، هي رموز مارونية . تستعمل عادة كاطار تاريخي لمجموعة من سكان لبنان . لا تعترف بها المجموعات الاخرى . كما ان رمز **الجبل** الذي يتكرر تقريبا في جميع النشرات ، اصبح فعليا ، وفي الايديولوجيا الشعبية رمزا مسيحيا . اما الرموز السياسية الاساسية التي يجري انتركيز عليها ، وخاصة **الدستور** لجهة عدم مسه او تعديله ، هي في الواقع قناعة الخوف المسيحية من اي تغيير فعلي .

٢ ــ **التحريض ضد المسلمين** . يأخذ التحريض ضد المسلمين ، طابع الطعن في لبنانيتهم وانتمائهم الى الصيغة اللبنانية . من هنا ، يأتي التشبث بلبنان وبالصيغة اللبنانية ، وكأنه موجه ضمنيا ، ضد المسلمين ، والعرب الذين ينعتون بصفات محددة ، همج ، شعوب لا تستحق هذه التسمية ، كذابون ... وهي تسميات مأخوذة من قاموس شبه شعبي متداول . وعندما يجري التحريض ضد الفلسطينيين والعرب، فهناك تعابير مشتركة تستعمل للدلالة عليهم ، الغريب ، اللاجيء ... اما التعابير التي تشير الى المسلمين فانها اخف وطأة . **الاخوان** ، هي الكلمة التي تستعمل عادة للاشارة الى المسلمين .

٣ ــ **التحريض ضد الفقراء** . هنا ، يأخذ الطابع الطائفي وجها عنصريا . فالتركيز ضد المسلمين والعرب والفلسطينيين ، يبقى ضمن القاموس الاجتماعي الطائفي . اما هنا، فيجري استعمال تعابير عنصرية ، فاشية ، تحمل الاحتقار الى جانب الكراهية. والخلفية الواضحة التي تختفي خلف هذا الشكل من التعابير هي احتقار المسلمين ، وخلق راي عام طائفي معاد لاسباب عنصرية طائفية .

ب ــ اللغة الخاصة

تحاول هذه النشرات ، صياغة لغة خاصة بها اي صياغة مجموعة من التعابير والجمل التي تشير الى معان متفق عليها . واذا استطاعت ان تخلق مجموعة من الكلمات ذات المعاني الموحدة والتي تشير الى الفلسطينيين اساسا ، فانها فشلت في صياغة لغة ايديولوجية ، تخرج عن اطار لغة ايديولوجية مفتتة . وهذا يعود الى الطابع الحرفي الذي لهذه النشرات . فهي ليست صحفا ، بالمعنى الحقيقي ، انها مجرد محاولات لتغطية نقص اعلامي بالتي هي احسن . لذلك فهي تحاول وعبر النشرتين الاكثر جدية (اللبناني ، لبنان) التركيز على مسالة اكتشاف لغة خاصة ، تتمثل اساسا في محاولة ادخال اللهجة العامية ، في سياق النشرة . ورغم ان هذه المحاولات تبقى غير منسقة . ففي (اللبناني) هناك المقاييلات مع الذين اصيبوا او تضرروا بالاحداث الدامية ، تستخدم اللهجة العامية ، وبعض مقالات لموريس عواد (شاعر باللغة العامية) تنشر في النشرتين على حد سواء . اما في لبنان ، فتأخذ المحاولة طابعا جزئيا ، ويتخلى سعيد عقل مؤقتا عن « لغته اللبنانية وحرفه اللاتيني» ولا يلجأ الى اللهجة العامية ، الا حين ينشر نص قسم حراس الارز . ثم يستعمل تعابير اصبحت هي التعابير المستعملة في جميع النشرات ، غرباء ... او تلجأ نشرة لبنان الى كلمات مفبركة على طريقة كمال الحاج ، دون ان تستطيع هذه التعابير ان تشكل وجها خاصا للنشرة او لنشرات اخرى . وهناك تعبير ثابت يستعمل للدلالة على المسلمين في جميع النشرات تقريبا وهو الاسلام كجمع لكلمة مسلم ، وهو تعبير يقصد به الاحتقار اساسا .

في المقابل ، تستخدم تعابير مستعارة من القاموس الوطني ، اي من قاموس القوى الوطنية ، لم تكن القوى الانعزالية تستعملها : النضال ، الفداء ، الشهداء ... وهي تعابير تشحن هنا بنبرة فاشية واضحة ، وبتمجيد القتال . هنا تجري صياغة لغة خاصة متكاملة تتعلق بالبطولات التي يقوم بها المقاتلون الانعزاليون ، وتحث على الالتحاق بالقتال .

ج ــ المسبقات

ان اللغة الايديولوجية الفجة ، التي تستعمل في غالبية هذه النشرات ، تفترض قارئا مقتنعا سلفا ، لذلك لا تلجأ إلى حيل اللغة ، لفرض مسبقات معينة بشكل معين. فاذا راجعنا بعض مانشيتات هذه الصحف ، فاننا نعثر على فجاجة من نوع :

- نار وغير نار على جبهات عشر (لبنان عدد ١٣)
- وجدها مصارف لبنان ستنهض بلبنان (لبنان عدد ٢٠)
- ماذا تنتظر يا سليمان لانزال الجيش (وطني عدد ٤)
- جوانب مثيرة من حياة الشيخ بيار الجميل (الاولى عدد ١)
- خريش : سنقاتل حتى آخر ماروني (الصمود عدد ٣)

- مشاعرنا ملك الانتقام (المردة عدد ١)
- مذابح في الجبة والدامور والمشرف (التحرير عدد ٨)
- غباء دول النفط يدفع لبنان الى الشيوعية (الانصار عدد ٢)
- بعد اتفاقها على اقتسام العالم الى مناطق نفوذ : مخطط اميركي سوفياتي ينفذ على ارض لبنان . (اللبناني عدد ٣)

تشير هذه النماذج المختارة بشكل عشوائي تقريبا من عناوين عشرات النشرات ، التي تصدرها القوى الانعزالية ، الى حقيقتين :

١ ــ الشكل غير الجدي والبالغ الوضوح في النص الايديولوجي ، الذي يأخذ عنصره الغالب في الكلام الشعبي البرجوازي الصغير ، الذي يفترض مؤامرات دولية غير موجودة او تطرح بشكل كاريكاتوري ، او بالتصعيد اللفظي ، والكذب في بعض الاحيان .

٢ ــ العودة الى مسبقات « شعبية » ، تفترض الطائفة هي الوحدة الاساسية ، ولبنان ضمن فهم معين ، طائفي له . لذلك ، تقدم هذه الصحف بوظيفة اعلامية مباشرة ، تحريضية . ويأخذها تحريضها شكلا مباشرا ، يتركز حول تمجيد القتال ، والتبشير بالنصر .

من هنا ، تتركز الاطر المرجعية في هذه النشرات بابعد الطائفي . لكنه بعد طائفي حديث . الطائفية التي يجري التبشير بها ، ليست طائفية طائفة مستضعفة . انها طائفية تعي تماما اهدافها ، لذلك تستخدم تعابير جديدة ، وتركز على مفاهيم ، لا يلعب العنصر الديني فيها الا دورا غير مباشر .

اما التواقيع ، او اسماء كتاب المقالات ، فانها بالغة الطرافة والدلالة . فهناك القليل من الاسماء الصريحة : سعيد عقل ، موريس عواد ، مي المر ، ميشال فضول ، بشارة برشا رينه عبدالملك . او نصف الصريحة : سامية ، اما بقية الاسماء فتحمل دلالات طريفة . ففيما تصدر نشرة (لبنان) على اسماء تاريخية ايل ، اليسا ، فخر الدين ، سليل المردة ، تأخذ تواقيع نشرة لبنان معنى آخر . اسماء مستعارة فقط : النهر ، الحكيم ، اللبناني . اما في (الانصار) فهنا كمحاولة لانتحال اسماء اسلامية وفلسطينية : فلسطيني ، طارق . مع اسماء لبنانية صرفة : عملاق الجبل ، مناصر . واكثرية المقالات تنشر غفلا من اي توقيع في اكثر النشرات . لكن هناك ملاحظة اساسية ، فاغلبية هذه النشرات تحرر من قبل عدد قليل جدا من المحررين ، قد يصل الى محرر واحد فقط . وهذا يدلل على طبيعتها الحرفية غير الجدية ، وعدم قدرتها على الاستقرار ضمن خط سياسي واضح . لذلك يأتي التحريض السياسي يحمل رواسب ايديولوجية عامة ، اكثر مما يحمل توجيها سياسيا برنامجيا . لذلك بقيت السيطرة السياسية للحزبين الكبيرين ، مع محاولة حراس الارز ، دون كبير نجاح اختراق هذا التوجه ضمن دعوة علمانية ، عوملت كما تعامل دعوة مثالية ، لا ضرر منها ، طالما توظف في خدمة الهدف السياسي العام .

لقد حاولنا ، ان نقرأ هذه النشرات ، ثلاث قراءات متكاملة . والاستنتاج الاساسي الذي نخرج به يتحدد اساسا في ثلاث نقاط .

١ ــ محاولة خلق اتجاه فاشي مسيحي . يستعير جميع عناصر الايديولوجية الفاشية . يركز مسألة الاخلاص لوطن مفترض وضرورة المحافظة على استقلاله .

٣ ــ الدعوة الى نسق شبه قومي ، مسيحي ماروني ، يقود في النهاية الى ضرورة التقسيم ، باعتباره الحل الجذري .

ان هذه النقاط ، هي آخر نقاط الدفاع عن مواقع الامتيازات الطائفية ، الذي يأتي المد الوطني ، الممثل بالثورة الفلسطينية ، ليزعزع اسسها ، حين يستقطب الاغلبية الساحقة من الجماهير . فالدعوة الفاشية « المارونية » ، هي آخر خشبة خلاص تحاولها الفئات المتسلطة لتحافظ على تسلطها . لكن هذه الفاشية هي فاشية صغيرة. فاشية لا تأخذ بعين الاعتبار انقلاب ميزان القوى بشكل جذري ضد مصالحها . فتأتي فاشية صغيرة ، فاشلة منحطة . تلجأ الى احقر الاساليب واشدها غباء لتمارس سيطرة يزعزعها الواقع ، ولتفرض ايديولوجية ، لا تزيد الا في قوقعة الاقليات ودفعها الى الهاوية .

مجرد فاشية صغيرة ، لا خوف منها على المدى الاستراتيجي ، لانها خارج حقائق الواقع الموضوعي . لكنها في المقابل ، خطرة على المستوى التكتيكي ، تستطيع جر البلاد الى حرب اهلية . لكنها لا تستطيع ان تحقق النصر .

حول الازمة اللبنانية : عرض وتقييم للمسار السياسي للاحداث وخطوط سير القتال
(الحلقة الاولى)

نواف عبد الله

منذ معركة كفرشوبا ★ (كانون الثاني ١٩٧٥) واحداث صيدا (شباط ــ اذار١٩٧٥) والثورة الفلسطينية تواجه مؤامرة استعمارية ــ رجعية في لبنان ، بدأت تكشف عن نفسها فيمسلسل مذكرات بيار الجميل وتحرك بعض جيوب القوى المضادة اللبنانية ، لتتفجر في صراع مسلح بعد مجزرة عين الرمانة (١٣ نيسان ١٩٧٥) . **وقد اتي تحرك القوى المضادة للثورة هذا من ضمن الخط العام لسياسة الاستعمار الاميركي الهادفة الى اخضاع المنطقة العربية للهيمنة الاميركية وتصفية القضية الفلسطينية وتمرير مشاريع التسويات الاستسلامية وذلك من خلال :**

ا ــ اخراج مصر العربية من دائرة الصراع العربي ــ الصهيوني وانتزاع اقصى التنازلات الوطنية والقومية منها .

ب ــ ((تعريب)) (على غرار الفتنة) الصراع العربي ــ الصهيوني ، اي دفع العرب الى ضرب بعضهم البعض وذلك بتعزيز وانعاش الجيوب الاميركية .

ج ــ محاولة تحجيم وعزل الثورة الفلسطينية سياسيا وتوجيه الضربات العسكرية المتتالية لها بهدف ارغامها على الرضرخ لمنطق التسوية وشروطها الاميركية ــ الصهيونية القاضية بالتعامل مع القضية الفلسطينية من خلال النظام الاردني العميل وعبر مقترحات « حلول » لا تخرج في محصلتها عن جوهر مشروع **((المملكة العربية المتحدة)) .**

ومع النجاحات التي اخذت تحرزها سياسة الخطوة ــ خطوة الكسنجرية وما ينتج عنها من تنازلات وطنية عربية على حساب الحقوق القومية في فلسطين وسائر

★ ترتكز هذه المقالة ، في حلقتيها ، على عدد من الكتابات التي وضعتها خلال بعض مراحل الازمة اللبنانية وذلك من ضمن الجهود العامة التي بذلت للوقوف على حقيقة الصراع الدائر على الساحة اللبنانية وطبيعة اطرافه . كما ان هذه المقالة تشكل خلاصة ما قدمته في ندوتين عقدتا في مركز التخطيط خلال النصف الثاني من شهر كانون الاول ١٩٧٥ .

الاراضي العربية المحتلة ، راح الاستعمار الامريكي يدفع لان تتحول الساحة اللبنانية الى مسرح لتصعيد المواجهة مع الثورة الفلسطينية بهدف تضييق الخناق عليها واحداث تغيير حاسم في السلطة السياسية اللبنانية لمصلحة الخط الاميركي .

وسنحاول في عرضنا هذا استرجاع الاحداث الرئيسية التي شهدتها الساحة اللبنانية خلال الاشهر الممتدة من معركة كفرشوبا (كانون الثاني ١٩٧٥) الى زيارة الرئيس فرنجية الى دمشق (شباط ١٩٧٦) . ولعل هكذا مراجعة تحليلية لتتبع الاحداث بما توفره من عناصر تسمح ببناء رؤية شاملة للمراحل المختلفة التي قطعتها المؤامرة الاستعمارية في لبنان ، تقودنا الى :

ا ــ تحديد اكثر دقة لعقد ترابط الاحداث ودلالاتها .

ب ــ فهم اعمق لعلاقات الصراع والتحييد والتحالف التي تحكم القوى السياسية المختلفة للتشكيلة اللبنانية وذلك عبر اعادة قراءة التكتيكات والمناورات السياسية التي اعتمدتها هذه القوى في كافة حلقات الصراع .

ج ــ استكشاف العلاقة القائمة بين الخطوط العريضة لسير القتال والمسار السياسي للاحداث من خلال العودة الى الاهداف والمهمات التكتيكية التي وضعتها لنفسها كل من القوى المتصارعة في المراحل المختلفة التي عبرتها الازمة .

ونقسم الحقبة الممتدة من معركة كفرشوبا الى زيارة الرئيس فرنجية الى دمشق واعلانه الوثيقة الدستورية الى ثماني مراحل سياسية دنيا ، وذلك وفقا لحدوث متغيرات سياسية تؤدي الى ادخال تعديلات على الاهداف التكتيكية واسلوب ادارة الصراع لدى كل من القوى المتصادمة . وهذه المراحل الدنيا الثماني هي :

١ ــ من مسلسل الاعتداءات الصهيونية على جنوب لبنان الى مجزرة عين الرمانة .

٢ ــ مجزرة عين الرمانة : نتائجها المباشرة وابعادها السياسية .

٣ ــ اشتباكات تل الزعتر ــ الدكوانة واعلان الحكومة العسكرية .

٤ ــ من تجدد الاشتباكات المسلحة وصولا الى تشكيل الحكومة السداسية .

٥ ــ من تشكيل الحكومة السداسية الى احداث زحلة ــ السهل وطرابلس ــ زغرتا .

٦ ــ احداث زحلة ــ السهل وطرابلس ــ زغرتا .

٧ ــ اتفاقية سيناء وتجدد القتال في العاصمة او مرحلة اكتساب الحرب الاهلية ابعادها الداخلية والخارجية . (من منتصف ايلول ١٩٧٥ الى نهاية كانون الثاني ١٩٧٦) .

٨ ــ الوساطة السورية وسقوط حلقة جديدة من حلقات المؤامرة الاستعمارية ــ الانعزالية .

١ ــ من مسلسل الاعتداءات الصهيونية على جنوب لبنان الى مجزرة عين الرمانة:

شكلت معركة كفرشوبا (كانون الثاني ١٩٧٥) قمة التصعيد في مسلسل الاعتداءات

الصهيونية المتواصلة التي شهدها الجنوب اللبناني على امتداد النصف الثاني من عام ١٩٧٤ ، حيث تميزت هذه الاعتداءات بالسمات التالية :

١) قصف مدفعي مستمر لقرى الجنوب الامامية دونما تعليل ذلك القصف بعمليات الفدائيين .

٢) قصف مدفعي بعيد المدى لبعض المناطق البعيدة نسبيا عن الحدود .

٣) اللجوء الى القصف الليلي للمناطق الداخلية في الجنوب (النبطية ، الرشيدية).

٤) استخدام الزوارق البحرية في القصف وبشكل اوسع مما سبق .

٥) اقتحام بعض القرى الامامية ونسف عدد من المنازل وخطف بعض المواطنين اللبنانيين »

وان كانت كل هذه العمليات ، من وجهة **اهدافها العسكرية المباشرة** تنضوي تحت تحرك تكتيكي واحد يرمي من خلال القصف شبه اليومي لخطوط السير وتحرك الدوريات او محطات العبور وقرى التجمع الى تأخير عمل وحدات المقاومة العسكرية وارباكها كأحد جوانب محاولة العدو لاتمام اغلاق الحدود الشمالية للارض المحتلة (علاوة على سلسلة الاجراءات والاستعدادات المتخذة داخل المناطق المحتلة المتاخمة للحدود : السياج الامني ، تعزيز الدوريات تشكيل الحرس المدني داخل المستوطنات، الاسلاك المكهربه ، حقول الالغام ، مراصد المراقبة ...) فان **الوجه الرئيسي** لسياسة الاعتداءات المتواصلة هذه بما ارتكزت عليه من اشكال ارهابية كالخطف والنسف والتدمير (عمليات يارين ، الطيبة ، عيترون ، مجدل زون ، كفرشوبا) **هو الابقاء على ضغط سياسي يومي على السلطات اللبنانية** من خلال وطأة النزوح الناجمة عن الاعتداءات والنتائج الداخلية التي راحت تترتب على تعرض مدن ومواقع سكانية لبنانية للقصف المستمر . فيبدو اذن ان مسلسل الاعتداءات المتواصلة الذي بلغ ذروته في معركة كفرشوبا ، قد مثل الركن الاساسي في سياسة « **الردع المتدرج** » التي يمارسها العدو الصهيوني تجاه لبنان ، حيث ان الخط الاستراتيجي العريض لحرب العدو مع الثورة ارتكز دوما (حرب الايام الاربع ، اعتداء ١٦ — ١٧ ايلول ١٩٧٢ ، عمليات الكوماندوس المستمرة) على النقطتين التاليتين :

أ — استعداء السلطة في لبنان على الثورة . (مثال الاردن) .

ب — خلق التناقض بين فئات من الشعب في لبنان وبين الثورة الفلسطينية وتصعيد هذه التناقضات الى مرحلة الصدام المسلح .

وكان كل من قادة العدو الصهيوني والاستعمار الاميركي قد اعربوا مرارا طوال الاشهر التي سبقت احداث صيدا وجريمة عين الرمانة عن قلقهم من الانفراج الذي يسود علاقات السلطة اللبنانية بالثورة ونمو الارتباطات السياسية العربية (خاصة السورية ، لقاء فرنجية — الاسد في شتورا) للبنان الرسمي ، وذلك اثر التراجع الذي فرضته حرب رمضان على القوى اللبنانية المضادة وبعد تكليف مؤتمر الرباط الرئيس فرنجية التحدث باسم المجموعة العربية اثناء عرض قضية فلسطين على الجمعية العمومية للامم المتحدة . واخذ العدو الصهيوني يواكب اعتداءاته المتواصلة على جنوب لبنان بسلسلة من « التهديدات » و « التحذيرات » التي اطلقها بوجه السلطات اللبنانية داعيا اياها الى ممارسة « **سيادتها** » والمحافظة على « **استقلال**

لبنان » والتمثل بالدور الذي لعبه الملك حسين في ايلول ١٩٧٠ . وقد اشار بيرس ، وزير حرب العدو ، صراحة الى هذه السياسة ، خلال معارك كفرشوبا ، اذ قال : « **ان الاردن فهم المسألة عام ١٩٧٠ ، ولذلك فعلى لبنان ان يفهم هو الاخر ، ويستخلص النتائج** » . ويضيف بيريس نفسه في تصريح اخر : « ان معظم العمليات التي نقوم بها هي بالتأكيد عمليات محسوبة ، الى الحد المطلوب ، لضمان امن مستوطنات الشمال والى حد دفع لبنان للتصرف كدولة ذات سيادة . » (ر.ا.١٥/١/٧٥) .

فاذا كانت هذه هي الاهداف الفعلية للاستعمار والعدو الصهيوني ، فما هي القوى اللبنانية التي يراهن العدو الصهيوني على رضوخها **لابتزازه السياسي** او ما هي اساسا المواقع التي تسعى السياسة الاميركية الى التحرك منها ومن خلالها للتأثير على الوضع العام في لبنان ؟ سيما ان التشكيلة السياسية اللبنانية تمثل **عقدة** تتجمع فيها التناقضات الدولية والعربية فضلا عن تناقضاته المحلية والتي هي بدورها تعكس الى حد ما مصالح وامتدادات سياسية خارجية ، خاصة عربية .

يتحرك الاستعمار الاميركي من خلال ربطه لمجموعة من العلاقات **الاقتصادية والسياسية** ــ القائمة اساسا على قاعدة تبعية التشكيلة اللبنانية ــ مع مراكز وقوى اجتماعية وسياسية متنوعة ومتفاوتة في آن ، ولكنها تلتقي ومصالحه على اكثر من صعيد ، وان كان ذلك يتم بدرجات متفاوتة ايضا . وفي مقدمة هذه الروابط نجد :

١ ــ علاقات واسعة بمجموعة من القوى والشخصيات السياسية حيث يتميز نمط العلاقة ومقدار التبعية وشكلها بحسب مستوى تطابق مصالح هذه القوى وخط الاستعمار من ناحية وبأمكانية الاستعمار الاميركي على تلبية متطلباتها المحلية ووضعها ضمن عجلة سياسته من ناحية اخرى . ومن بين هذه القوى ، نجد تلك التي ورثها الاستعمار الاميركي عن حالة تقلص المصالح والروابط البريطانية في المشرق العربي (مثال شمعون وحزب الوطنيين الاحرار) وحالة انحسار النفوذ الفرنسي في لبنان . (وقد يكون هذا الوضع هو الذي قاد البعض الى التصور خطأ بان شمعون يمثل خطا « اوروبيا » في السياسة اللبنانية) .

ويحتل حزب **الكتائب اللبنانية** المرتبة الاولى بين هذه القوى حيث انه يلتقي تاريخيا ومصالح الاستعمار سواء من حيث **بنيته الطائفية** الصرفة وتجنيده الجماهير المسيحية على **قاعدة الدفاع عن الامتيازات السلطوية المارونية** ، او من جهة **نهجه السياسي الانعزالي** الطائفي المعادي للعروبة ولتواجد الثورة الفلسطينية على الاراضي اللبنانية . اذ ان الكتائب بما تمثله من سياسة محافظة ــ رجعية تنعكس اول ما تنعكس في « **فاشية** » تنظيمها ونمط استقطابها الحزبي ، ولما تروج من **افكار شوفينية** ترتكز على تنمية عقدة الخوف عند المسيحيين ، وصولا الى تبني موضوعة « **الامة اللبنانية** » والدعوة الى « **الحياد اللبناني** » ، فهي ترى في تواجد الثورة الفلسطينية على الاراضي اللبنانية **اخلالا بموازين القوى الداخلية** لصالح الاتجاهات الوطنية والعروبة كما ترى في الكفاح المسلح الذي تقوده الثورة ضد دولة الاحتلال الصهيوني نقضا ماديا للانعزالية اللبنانية التي راحت تتستر وراء شعار « **قوة لبنان في ضعفه** » ، ودفعا للبنان باتجاه الارتباط بالمصير العربي الموحد والالتزامات القومية التي طالما حاولت الانعزالية اللبنانية الانفلات منها . وتتعزز قاعدة المصالح المشتركة هذه التي تجمع الكتائب بالدوائر الاستعمارية ، « باكتساب » الكتائب (كما هي حال حزب الاحرار) **تمثيلية سياسية متنامية لاوساط الكومبرادور اللبناني ، ذات الصفة**

المسيحية الغالبة اصلا (وتتضح هذه السمة في مراجعة سياسة التحالفات النيابية لعامي ١٩٦٨ و ١٩٧٢ .) وهو العامل نفسه الذي ادخل القسم الاكبر في اركان الكتائب كشركاء صغار (اعضاء مجلس ادارة ، محامين) في عدد من شركات الاستثمار والمؤسسات المصرفية . ومنذ بداية نشاط منظمات الثورة الفلسطينية في لبنان وحزب الكتائب يمارس التعبئة والتحريض والدعوة الى الحزم تجاه العمل الفلسطيني . (دعوات الحلف الثلاثي الى التحييد والتدويل ، بيان ٦٢ ايلول ١٩٦٩ ، بيان ٤ نيسان ١٩٧٠ ، تصريح الجميل الى العمل بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٧٠ ، مذكرة الجميل الى مجلس الوزراء حول العمل الفدائي بتاريخ ٥ حزيران ١٩٧٠) . اما من جهة الاستعمار الاميركي فانه قد بنى لحسابه عملاء مباشرين من بين قادة الكتائب ، كما عمل ومنذ احداث ايار ١٩٧٣ على تطوير علاقته بهذا الحزب عموما عبر امداده بالمال والسلاح والعتاد والخبراء والمدربين من خلال كل من **ايران والنظام الاردني بشكل** رئيسي .

٢ ــ مقدرة الاستعمار الامريكي من خلال التقاء مجمل هذه المصالح السياسية وتضافرها على التأثير في القرارات السياسية للسلطة التنفيذية في لبنان نتيجة اكتساب النفوذ لدى **رئاسة الجمهورية** .

٣ ــ نفوذ الاستعمار الاميركي داخل مؤسسات النظام اللبناني : القطاع المصرفي ، اجهزة التربية والتعليم ... **وخاصة الجيش** (اسكندر غانم) .

هذا من حيث مراكز النفوذ والهيمنة الاميركية داخل لبنان، اما من حيث توجه القوى المضادة اللبنانية فبعد انتكاسها في حملة ايار ١٩٧٣ ومن ثم التراجع الذي فرضته عليها حرب رمضان ، فانها اخذت تتراوح بين رفع مستوى القوى **الذاتية (جيش + ميليشيات) ارتكازا على الدعم الاميركي ــ الاردني للدخول في معركة الحسم مع الثورة الفلسطينية ، وبين التعويل على مقدرة الانظمة العربية على الوصاية على الثورة الفلسطينية وطلب التنازلات منها لحساب السلطات اللبنانية.** وبالرغم من الدور المتنامي الذي اخذت تكتسبه الميليشيات الطائفية ــ بعد احداث ايار١٩٧٣ ،فان النهج الذي اخذ يسلكه «عرب التسوية» في مصر خاصة ، (بعد اكتوبر ١٩٧٣) جعل الانعزالية اللبنانية تبقي رهانها على كلا الوجهتين ، حيث برزت ، والى جانب **الاستعدادات** العسكرية المستمرة ، برزت تلك الدعوة الرسمية اللبنانية (خطاب نصري المعلوف في مجلس الدفاع العربي ، تموز ١٩٧٤) الى ضرورة اعتماد « استراتيجية عربية موحدة » وان « تشارك بها المقاومة وتلتزم بها » ، بمعنى ان تجمد الثورة الفلسطينية عملياتها من جنوب لبنان وان تبدأ مسيرة التنازل عن مكتسباتها العسكرية والسياسية **في لبنان تمشيا مع صمت المدافع على الجبهات العربية ومع ازدياد « الثقة »** بخطوات « الساحر كيسنجر » . (وهو ما درج البعض على اعتباره خطأ ، تغييرا لغير صالح الانعزالية فيما اسموه «المحصلة السياسية للسلطة السياسية في لبنان متمثلة اساسا برئاسة الجمهورية حيث حالت هذه المحصلة بعد حرب تشرين وحتى الان الى انتهاج **سياسة انفتاح عربي واسع** » .) وبقي هذا الرهان المزدوج قائما دون حسم لصالح سياسة على اخرى حتى معارك كفرشوبا وانتهاء مجلس الدفاع العربي الاخير (شباط ١٩٧٥) الى الفشل . وكان الجميل قد ناشد المجلس المذكور بأن يبدأ النظر «في الدفاع عن لبنان والمقاومة من نقطة الفيضي التي يتخبط فيها هذا الدفاع ...واي دفاع سيكون هذا اذا بقيت الجبهة هكذا سائبة . » (٣٠/ ١/ ٧٥) .

فمن هذا المنظار بالذات ، **شكلت معركة كفرشوبا نقطة فاصلة في معطيات الصراع**

الدائر ، وراحت بعدها معالم المؤامرة الانعزالية ــ الاستعمارية تتضح اكثر فأكثر .

فمن جهة اولى ، عزز الانتصار المنتزع من العدو الصهيوني في معركة كفرشوبا ، الوضع العام للثورة الفلسطينية بوجه الضغوط اللبنانية الرسمية التي كانت تمارس عليها ، كما **فجر حالة وطنية عارمة على الساحة اللبنانية ، تجسدت في الزخم** الذي حصلت عليه المبادرات السياسية المختلفة التي تمت تحت شعار « **دعم كفرشوبا وصمود الجنوب** » هذا الزخم الذي فاق كل تقدير والذي قاد الى فتح ملف السياسة الدفاعية اللبنانية على كافة المستويات الشعبية والرسمية .

وبالمقابل شكلت نتائج معركة كفرشوبا ، وخاصة لجهة انعقاد مجلس الدفاع العربي وفشله ، بداية تحرك جديد للقوى المضادة اللبنانية بدأت تتضح معالمه مع الوقائع التالية : ــ محاولة دخول الجيش اللبناني بلدة كفرشوبا خلال المعارك للحلول مكان قوات الثورة ، وثم طلب بعض التنازلات من الثورة الفلسطينية على حساب تمركزها وحرية حركتها في بعض مناطق الجنوب .

ــ المذكرة التي رفعها الشيخ بيار الجميل بتاريخ ٧٥/١/٢٤ الى رئيس الجمهورية اللبنانية ، داعيا فيها الدولة اللبنانية الى « استرداد سيادتها على كامل الاراضي اللبنانية ... وتطبيق القانون .. ووقف التساهل مع المقاومة . ــ واعتبار اسرائيل الرابح الاكبر من التنازلات التي تقدمها السلطة اللبنانية للمقاومة» .وقد اعلن كميل شمعون عن تبنيه للمذكرة المعنية كما انه رافق الجميل في زيارته الى القصر لتقديمها .

ــ الاعلان عن مذكرة اعدها كامل الاسعد ونوابه بغية رفعها الى مجلس الدفاع العربي للمطالبة بما يسمى « تجميد العمل الفدائي في لبنان » . (وقد وضعت المذكرة ولكنها لم تنشر علنية .

ــ افتعال حادثة مدبرة عن حاجز صف الهوا بين الجيش ودورية من قوات الثورة، واستثماره للاعلان عن عزم الدولة على ضبط الامن وحالة الانفلات في البلاد بهدف ابتزاز بعض التنازلات من الثورة ، كما ان بعض الجبهات المتامرة حاولت استغلال الحادثة نفسها لجهة الايحاء بأن الصدام حصل بين احدى المنظمات التابعة « لجبهة الرفض » والجيش من اجل تكرار صيغة « الفدائي الشريف» و «الفدائي غير الشريف» بلباس « الفدائي المنضبط » و « غير المنضبط » اي التابع « لجبهة الرفض » .

وقد حاولت القوى اللبنانية المضادة في بداية تحركها هذا الاستفادة من العوامل التالية :

ــ دقة التوازنات التي كانت تحكم وزارة رشيد الصلح ، **وضعف الصلح داخل موازين القوى العامة في السلطة** (مثال ذلك اضطراره للتراجع عن عدد من التصريحات التي كان قد ادلى بها بشأن السياسة الدفاعية .)

ب ــ **تردد الزعامات الاسلامية التقليدية في التصدي للكتائب وتغليبهم لاعتباراتهم التكتيكية الهادفة الى الاطاحة بحكومة الصلح** على اي عمل اخر ولو اقتضى ذلك وبشعوذة فريدة استخدام مذكرة الجميل نفسها للتشهير بشخص رشيد الصلح كرجل « صف ثاني » !

ج ــ غلبة الترقب والصمت في تحرك الامام موسى الصدر عشية انتخابات المجلس الشيعي الاعلى مما سمح ببروز صوت شيعي كصوت المفتي الجعفري الممتاز في مؤتمر

البوريفاج يطالب بحصر نشاط الثورة في احدى مناطق الجنوب وعودة الجيش الى القرى الحدودية وانشاء « حرس حدود » باشراف الجيش .

وفي سياق هذه المؤشرات الاولية على اهداف التحرك الانعزالي الجديد ، اتت « احداث صيدا » (من التصدي لمظاهرة الصيادين واصابة المناضل معروف سعد في ٢٦ شباط الى استقالة مالك سلام وطلبه اقالة اسكندر غانم حتى استشهاد معروف سعد في ٦ اذار ومن ثم تجميد الصراع) لتسمح بالجزم حول هوية التحرك المضاد واهدافه وابعاده . وقد سعت القوى المضادة في حقبة الصراع التي عرفت بأسم « احداث صيدا » الى تحقيق ما يلي :

ـ ارهاب الحركة الوطنية في الجنوب والتضييق عليها خاصة بعد تنامي المد القومي باتجاه الثورة الفلسطينية اثر معركة كفرشوبا وازدياد الضغط الشعبي من اجل انتهاج سياسة دفاع وطني .

ـ ارهاب الحركة الشعبية ودفعها للتخلي عن النضال من اجل حقوقها ، وتشديد قبضة الدولة على المناطق التي اخذت تتفلت من تحت سلطتها .

ـ جر الثورة الفلسطينية الى صراع داخلي مفتوح نظرا للتشابك الفلسطيني ـ اللبناني في صيدا .

الا ان الانقسام الذي اصاب الحكومة خلال احداث صيدا وما قاد اليه الصراع الدائر من طرح لمسألة التوازن الوطني في الجيش ودور هذه المؤسسة ، زيادة على فشل الجهات التي افتعلت الصدام في تحقيق اي من اهدافها المباشرة ، كلها عوامل اعادت الكتائب اللبنانية الى صدارة التحرك الانعزالي .

فالى جانب التركيز على اعلان مواقفها في قضايا التواجد الفلسطيني المسلح في لبنان من خلال المذكرات المتكررة (٢٤/ ١/ ٧٥، ٣٠ / ١/ ٧٥) والدعوة الى استفتاء (٢٠/ ٢/ ٧٥) والتصريحات الصحفية شبه اليومية لبيار الجميل ، عملت الكتائب عبر افتتاحيات وكتابات جريدة « العمل » وتحركها العام في لبنان على شحن الاوساط المسيحية طائفيا اثر حوادث صيدا والمضاعفات التي نجمت عن احتمالات يوم المولد النبوي في طرابلس . وفي خطها التصعيدي ومن اجل رفع التعبئة بين صفوف مناصريها لجأت الكتائب الى احداث **الصدامات المحلية المحدودة** حيث اعتدت عناصرها على قوى مناصرة للثورة الفلسطينية في عدد من الكليات والمعاهد الدراسية في بيروت ، وتوجت خطها الارهابي ـ التعبوي هذا بتنظيم ما اسمته ((**يوم دعم الجيش**)) فنصبت الحواجز والمتاريس وقطعت الطرقات في بيروت وضواحيها ورفعت اللافتات والشعارات الاستفزازية . وكان اخر ما لجأت اليه الكتائب في هذا المجال قبل ١٣ نيسان هو الادعاء عن كشف محاولة اختطاف لامين الجميل . (وهو اسلوب اثارة استخباراتي معروف ، ولكنه يكتسب اهمية مضاعفة نسبة لسوابق شبيهة : الرسائل السبع الملغومة التي اكتشفت في دوائر البريد بتاريخ ١٣ اذار ، وكانت موجهة الى عدد من قادة الصف الوطني اللبناني) .

وفي سياق هذا الخط العام لتحرك القوى المضادة اللبنانية ، وعلى قاعدة المصالح المشتركة التي بناها اعلاه والتي تجمع كل من الاستعمار الاميركي ودولة الاحتلال الصهيوني بالكتائب اللبنانية ، اخذت المؤامرة الانعزالية تكشف عن نفسها حتى انفجرت على شكل صراع دام اثر جريمة عين الرمانة بتاريخ ١٣/ ٤/ ٧٥ .

٢ ـ جريمة عين الرمانة ونتائجها :

شكل تدبير عملية الباص ، وبالتالي جريمة القتل الجماعي التي نفذت ممارسة

اجرامية تولدت من داخل التعبئة الحاقدة المعزولة بقرار حزبي قيادي ، يمثل الخط العام لسياسة الكتائب ضد الثورة الفلسطينية ولكن هذه الواقعة لما مثلته من استفزاز واجرام مكشوف بالنسبة للثورة الفلسطينية فقد سمحت لها بانتزاع **المبادرة الهجومية** مرحليا ، سياسيا وعسكريا بالرغم من كل عناصر الارتباك والعفوية التي شابت التحرك العام للثورة ، بينما فرضت من خلال التجسدات التكتيكية للمعركة وضعا من الانقسام داخل جبهة القوى المضادة اللبنانية **حيث لم يتمكن الصاعق الكتائبي المعبر عنه في شروط الصراع الملموسة بحادثة الباص — الجريمة ونتائجها الفورية ، من توحيد المعسكر المعادي للثورة وزجه ككتلة متماسكة في الصدام بسعر من تناقضاته وتفاوت قواه .** وهذا اساسا ما جعل كميل شمعون يسعى منذ اللحظة الاولى الى تجميد الصراع وطرح الوساطة والالحاح عليها رغم استنفاره السريع لكامل قوى حزب الوطنيين الاحرار منذ نهار الاحد ١٣/ ٤ ، وذلك ادراكا منه للمخاطر السلبية التي يحملها هكذا انفجار للصاعق الكتائبي . ومن ناحية اخرى ، فقد انعكس الاستقطاب السياسي العام الذي تولد عن حادثة الباص، بشكل **فرز قوى داخل مؤسسة الجيش** مما عطل احتمال اعلان حالة الطوارىء وشل المؤسسة نسبيا عن اية مبادرة مواجهة ممكنة .

وكان رد الثورة الفلسطينية على الصاعق الكتائبي يتسم **بحصر نطاق المعركة مع حزب الكتائب** دون سواه مما ادى بوجه عام الى توسيع جبهة الاصدقاء والمحايدين ، وقد تجلى ذلك منذ اليوم الاول للمؤامرة حيث سلطت النار سياسيا واعلاميا وعسكريا على الكتائب وحدها كما رافق ذلك تحرك واسع النطاق قامت به قيادة الثورة باتجاه مختلف القوى السياسية اللبنانية ، على اساس ادانة المجزرة الكتائبية في عين الرمانة والدفاع عن حقوق الثورة . وقد ترجمت قوى ميليشيا الثورة هذا الخط عسكريا ، حيث قادت سلسلة من العمليات الهجومية ضد مواقع ومؤسسات وعقارات كتائبية شملت غالبية المناطق اللبنانية ، وخاصة مدينة بيروت . وبموازاة الثورة الفلسطينية، اتى موقف الاحزاب والقوى الوطنية عنيفا في شجبه واستنكاره للمجزرة الكتائبية المجرمة . ومؤيدا بشكل واضح للثورة وداعيا للدفاع عنها وحمايتها . كما ان القوى الشعبية في الاحياء قد تحركت بقوة نحو المشاركة في القتال ودعم الثورة الفلسطينية ، فأقامت التجمعات الوطنية الحواجز والمتاريس في الاحياء الوطنية كما شاركت في عدد من العمليات العسكرية تحت قيادة الثورة الفلسطينية .

ومن جهة اخرى ، ساهمت الوساطة التي قام بها محمود رياض ، الامين العام لجامعة الدول العربية ، كمندوب للرئيس السادات في الحد من تدهور الاوضاع سعيا الى تجميد الصراع واللحيلولة دون الوصول الى الانفجار السياسي العام لما يترتب عن ذلك من نتائج على الساحة العربية تهدد وضع الرئيس السادات في مفاوضاته المتجددة (بعد فشل كيسنجر في اذار ١٩٧٥) مع الادارة الاميركية سيما انه خرج من قمة الرياض مجددا مبايعة « التضامن العربي » لسياسته في المفاوضات .

وتوقفت المعركة عسكريا ، بانتهاء الجولة الاولى ، لتبدأ سياسيا ، من خلال بقاء وزارة رشيد الصلح او سقوطها ، فعمد حزبا الكتائب والاحرار الى زيادة الدفع باتجاه سقوط الوزارة مستفيدين من التناقض القائم بين جنبلاط والحلف الثلاثي، بينما جنبلاط والقوى الوطنية باتجاه المحافظة عليها . وبدأ الحديث في الاوساط الوطنية عن ضرورة اجراء تعديلات اساسية في هيكل النظام بينما اصرت الكتائب على الاستعانة بالجيش . واخذت الازمة السياسية تتفاقم باستقالة وزيري الكتائب والامير مجيد ارسلان من الحكومة الصلحية وتضامن كل من كميل شمعون وكامل الاسعد وجوزيف سكاف وطوني

فرنجية معهم ، حتى انفجرت باعلان رشيد الصلح استقالة حكومته امام مجلس النواب يوم ٥/١٥ موضحة اكثر فاكثر الاتجاهات التي راحت تستقر عليها التحالفات السياسية اللبنانية ومبددة كثيرا من الاوهام التي انبنت على امكانية كسب بعض القوى الانعزالية الى الجبهة المناهضة للتحرك « الكتائبي » وقد اتهم الصلح في بيان استقالته الكتائب بافتعال ازمة عين الرمانة وطالب بتعديلات اساسية في النظام السياسي اللبناني هي : تحقيق اصلاح سياسي ديمقراطي من خلال تعديل قانون الانتخاب ، الالتزام بمقتضيات المعركة العربية المشتركة ومساندة القضية الفلسطينية ، تعديل قانون الجيش ، اقرار قانون التجنس ، معالجة الوضع المالي والاقتصادي وفق سياسة ضريبية جديدة .

ويتلخص موقف الثورة الفلسطينية خلال هذه المرحلة بالنقاط التالية :

١ ــ عدم السماح للكتائب بتوتير الوضع وتصعيده ، والعمل من اجل التهدئة بعد توجيه الرد عملا بسياسة تفويت الفرصة على الكتائب التي تريد التصعيد وعدم اعطائها الوقت الكافي لاستقطاب قوى سياسية الى جانبها وتكريس بقائها منفردة ، معزولة . وكذلك للمحافظة على معنويات ثوارنا وجماهيرنا الفلسطينية واللبنانية من جهة اخرى .

٢ ــ التحرك بقوة مع مختلف القوى الوطنية والشعبية اللبنانية .

٣ ــ العمل النشط بين اوسع الفئات السياسية اللبنانية من اجل كسب تأييدها وادانتها لمجزرة الكتائب ومحاولة تحييد رئيس الجمهورية والجيش واوساط من اليمين اللبناني .

اما « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية » فعلاوة على المواقف السياسية التي اعلنتها في شجب المجزرة الكتائبية فانها طرحت مطالب عديدة تتسم بجملها بطابع هجومي « حل حزب الكتائب » مثلا و « طرد وزراء الكتائب من الحكم ومقاطعة هذا الحزب وطنيا وسياسيا ، وقطع كل حوار معه » وهي المطالب التي تلخصت فيما بعد في شعار **« عزل الكتائب »** . وقد بينت التكتيكات السياسية التي سارت عليها **«الاحزاب والقوى** الوطنية » ان مرامي سياسة « العزل » هذه كانت اولا واخيرا السعي لاستثمار تنامي الدور السياسي الذي راحت تكتسبه هذه القوى بعد احداث صيدا **داخل موازين القوى في السلطة اللبنانية** ، مما يرفع الابهام عن نقطتين :

ا ــ تحول الدعوة من « طرد وزراء الكتائب في الحكم » الى منح حكومة الصلح الدعم الكامل وكيل الاتهامات للكتائب والاحرار لانسحابهم من الحكومة وتهديدهم بالتالي مستقبل الوزارة الصلحية بالانفراط .

ب ــ انحسار شعار العزل في مرحلة لاحقة الى وجه وحيد ومهمة وحيدة الا وهي : عدم اشراك حزب الكتائب في الحكومة المقبلة .

وقد تكون هذه **الممارسة « الحرفية »** هي التي جعلت بعض الدوائر الوطنية تندفع بقوة في معارضة « شعار العزل » وطلب استبداله بشعار يحافظ على وحدة الصف اللبناني المناهض للمؤامرة الكتائبية ــ الاستعمارية ، **وايجاد صيغة وحدوية** لا تستعدي الزعامات الاسلامية التقليدية واطراف سياسية كحركة المحرومين واتحاد قوى الشعب العامل وحزب البعث وغيرهما من القوى .. الا ان هذه الدوائر نفسها ظلت عاجزة عن الارتقاء الى الصيغة الوحدوية المنشودة والانتقال الى ممارسة سياسية ايجابية : **تحقيق اوسع جبهة لبنانية لنصرة الثورة الفلسطينية والدفاع عن مكتسباتها ودحر المؤامرة** ، بل على العكس ارتكبت هذه الدوائر جرم « المحظور »

نفسه ، ودخلت من الباب العريض ، باب الدعوة الى « الوحدة » ، معركة اخرى ، معركتها هي السياسية والايديولوجية مع تيار « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية ».

ويبقى ان « العزل » ، وبالرغم مما انتهى عليه كخط سياسي ، فانه من احد اوجهه قد تحول الى **ارادة وطنية عارمة في اقصاء الكتائب عن الحكومة المقبلة كثمن لادانتها** ولكنه ايضا ، ونتيجة لكل الاخطاء التي شابت الممارسة السياسية ، فان الكتائب قد تغذت منه لتنمي عقدة الخوف عند المسيحيين وتكسب زخما مرحليا في عملها لتجييش جمهور المسيحيين باسم مواجهة الاخطار الداهمة « الفلسطينية » ، « واليسارية » و « الاسلامية » **ذلك ان شعار « العزل » لم يوضع في موضع التطبيق الصحيح ، اي داخل الجماهير اللبنانية المسيحية** ، فلم تعزل الكتائب عن الجماهير المسيحية ، ولم تتكشف ابعاد المشروع الانتحاري ــ الكتائبي لهذه الجماهير .

٣ ــ اشتباكات تل الزعتر ــ الدكوانة واعلان الحكومة العسكرية :

بعد استقالة حكومة رشيد الصلح ، اخذت الكتائب تصعد من الموقف السياسي وفجرت الوضع عسكريا من جهة تل الزعتر الدكوانة ، واتهمت المخيم باقتعال الفتنة وطالبت بنقله وذلك من اجل **اغلاق كل منطقة بيروت الشرقية ووضعها تحت قيادتها** . وقد حوصر المخيم وتعرض لقصف مستمر واطلاق نار دائم ، واستمر الهجوم الكتائبي بهدف تعطيل الاستشارات النيابية ، والتي بدا انها كانت تميل باتجاه تكليف رشيد كرامي ، وفرض جو من الحرب الاهلية الذي بلغ قمته في تشكيل الحكومة العسكرية برئاسة نور الدين الرفاعي ليل ٢٣ ايار . وقد شكلت الحكومة العسكرية **ذروة وحدة المعسكر الانعزالي وعزلته السياسية في آن** . وان كان هذا التصعيد يهدف الى ارهاب الحركة الوطنية اللبنانية وابتزاز المقاومة الفلسطينية بوضع البلاد على شفير الهاوية ، علاوة على ما يدلل اليه من تصميم القوى المضادة اللبنانية على المضي في مخططها متجاوزة مكان الرئاسة الثالثة في اعمدة التوازن الطائفي و شروط اللعبة « الديمقراطية » اللبنانية ، فانه قد امكن تجنب احتمال الصدام المفتوح الذي يحمله مشروع الحكومة العسكرية في طياته لاسباب موضوعية هي :

١ ــ قوة الردع الذي شكله التلاحم الوطني العام مع الثورة الفلسطينية والذي تمثل في التحرك السريع داخل الاحياء الوطنية من بيروت وفي الاحياء المحيطة بالمخيمات باقامة المتاريس والحواجز واغلاق هذه المناطق بوجه السلطة والتهديد بثقل القوة الجماهيرية المسلحة .

٢ ــ اتحاد جبهة لبنانية عريضة ، ضمها اجتماع دار الافتاء المنعقد بتاريخ ٢٤/٥ ووضع السلطة امام خيارين : **اسقاط الحكومة العسكرية فورا او الشروع بحرب اهلية شاملة** .

٣ ــ انتقال الموقف الاسلامي الواحد الى داخل الجيش، بما يهدد وحدته ويشل من قدراته القتالية .

٤ ــ بروز تيار مسيحي ذي جذور جماهيرية (اده ،فرعون ، الاوساط الارثوذكسية البطريرك الياس الرابع) معارضا لاتجاهات السلطة . وان كان الامر واضحا بالنسبة للزعامات السياسية والروحية الارثوذكسية فان جذور مواقف اده وفرعون تعود الى العوامل التالية :

أ ــ بالنسبة لاده :

ــ حساباته المرتبطة بمعركة رئاسة الجمهورية (عام ١٩٧٦) والدوافع التي قادته

الى تشكيل الحلف الثلاثي مع القطبين السنيين سلام وكرامي .

ـ نهجه الديمقراطي الليبرالي المعادي للعسكر ولتدخلهم في السياسة اللبنانية (وهو موقف يعود الى اوائل العهد الشهابي والدور المتنامي الذي راح يلعبه جهاز الشعبة الثانية آنذاك .) ـ نتائج انفراط التحالف الثلاثي (اده ـ الجميل ـ شمعون) ودخول اده في صراعات عنيفة على الزعامة المارونية مع شمعون والجميل من جهة ومع سليمان فرنجية من جهة ثانية ، ولعل الامر نفسه يشرح خلفية العلاقة الخاصة التي اخذ العميد اده يبنيها مع البطريرك خريش .

ب ـ بالنسبة لفرعون :

ارتباطه وعلاقاته بالزعامات البيروتية من جهة كونه يشكل الزعامة الكاثوليكية والمرجع السياسي الكاثوليكي الرئيسي وطبيعة تاريخ علاقات الطائفة الكاثوليكية في بيروت بالسنة والارثوذوكس (ظاهرتا فرعون والمطران حداد) .وقد يساعد استرجاع مواقف فرعون الشبيهة عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٩ في فهم طبيعة معارضته للحكومة العسكرية ودعمه لكرامي .

٥ ـ الموقف العربي الضاغط ، والذي تمثل بوضوح في الموقف السوري وقدرته على الحركة السريعة ، مؤكدا من جديد ثقل الوزن العربي داخل لبنان واثره الحاسم على قرارات السلطة ، وخاصة بعدما حاول الرئيس فرنجية استفزاز السفراء العرب وتصوير نفسه طليق اليد في لبنان و « سيدا » في « لبنان السيد المستقل » .

٦ ـ تردد جبهة القوى المضادة وبلبلتها ، وعدم قدرتها على المبادرة نتيجة عزلتها ، فكلما ترددت بأخذ المبادرة ، وهي تشكيلة هجومية من حيث جوهرها وشروطها التكتيكية ، كانت جبهة الحكومة العسكرية تزداد ارتباكا وتبدأ عناصر التفسخ تظهر خلالها .

وقد ادى تضافر هذه العوامل الستة الى احباط المؤامرة من جديد وفي احدى ابرز حلقاتها وذلك من خلال :

أ) توجيه ضربة حقيقية للمخطط الاميركي ، خاصة بعدما كان كيسنجر قد اعتبر في تصريح له عن الازمة اللبنانية ان الوضع شبيه بوضع الالمان ابان الحرب العالمية وان احتمالاته تتراوح بين تدخل « اسرائيلي » وحدوث تصفية للثورة على الطريقة الاردنية وصولا الى تهديد الوضع العالمي بحرب كونية . (٢٥ ايار ١٩٧٥)

ب) فرض استقالة الحكومة العسكرية بعد يومين من تشكيلها .

ج) كسر شوكة الرؤوس المتآمرة داخل الجيش اللبناني وتوجيه صفعة قوية اليهم.

د) بروز جبهة لبنانية واسعة ومتحدة للدفاع عن الثورة الفلسطينية ولبنان بوجه المؤامرة الاميركية . حيث لعبت الثورة الفلسطينية دورا اساسيا في جمع شمل القوى والشخصيات الوطنية اللبنانية والتقريب بين جنبلاط وكل من كرامي وسلام .

هـ) نجاح الصف الوطني اللبناني في طرح قضية المشاركة من خلال فرض رئيس الوزراء من قبل اجتماع عام للمسلمين في دار الافتاء لاول مرة في لبنان .

٤ ـ تجدد الاشتباكات والانتهاء الى الحكومة السداسية :

لم ترضخ القوى المضادة للنتائج التي اسفرت عنها الجولة الثانية من الاشتباكات

وانتهت باسقاط الحكومة العسكرية وتكليف رشيد كرامي تأليف وزارة جديدة . فأخذت تصعد في الموقف السياسي ، وتطرح شروطا تعجيزية امام مهمة كرامي **في محاولة للابقاء على الحكومة العسكرية** بعد تأمين الشرعية السياسية والشعبية **الضرورية لها** . وقد ساعد هذا التوجه آنذاك على ازدياد احتمالات تمرير المخطط الاميركي من خلال انقلاب عسكري يضع البلاد على شفير الهاوية . وقد ازداد هذا الاحتمال قوة بعد تدخل الجيش في السياسة اللبنانية كطرف (تشكيل حكومة من الاركان) اي كمؤسسة تفقد آخر بقايا هيبتها ، وانتعاش وضع القيادات المرتبطة داخلها والتي لعبت سابقا دورا بارزا في دعم وتطوير الميليشيات الانعزالية وفقا لاستراتيجية الارتكاز المزدوج : جيش + ميليشيات . كما راحت القوى المضادة تكثف من هجومها على الثورة الفلسطينية متهمة اياها بالتدخل المستمر بالشؤون اللبنانية وبالتحول الى فريق سياسي لبناني ، مما حدا بقيادة الثورة الى القيام بسلسلة جديدة من اللقاءات السياسية مع مختلف القوى اللبنانية ، كان ابرزها لقاء الاخ القائد العام بالرئيس شمعون بتاريخ ٦/١٥ ومن ثم اجتماعه مع الرئيس فرنجية يوم ٧٥/٦/٢٣ ، والذي وجه على اثره رسالة هامة الى اللبنانيين ، تضمنت النقاط البارزة التالية : ــ

ــ ان المقاومة الفلسطينية في لبنان ليست فئة سياسية تنتمي الى هذه الجهة او تلك ، ولا طرفا في الحلبة الداخلية اللبنانية ، ولا طائفة ولا رديف لطائفة .

ــ ان التعايش بين الطوائف هو ما تسعى الثورة الى تحقيقه في فلسطين الغد ، وان الثورة الفلسطينية تحمل السلاح فقط من اجل التحرير ومن اجل الدفاع عن الوجود « فهذان صنوان لا ينفصمان ، فلا تحرير بلا ثورة ، ولا ثورة بلا ثوار » .

ــ اعتبار ان لب الموضوع للحفاظ على معادلة الاخوة اللبنانية ــ الفلسطينية تكمن في احترام الثورة الفلسطينية للسيادة اللبنانية احتراما لا تحفظ فيه ولا ابهام وفي اقرار لبنان بحق الثورة فيالتواجد على ارضه ضمن الالتزام نصا وروحا بالاتفاقات المعقودة.

ومع صدور رسالة الاخ ابو عمار ، ولما لاقته من تجاوب ايجابي عند معظم القوى السياسية اللبنانية ، وخاصة اثرها العميق داخل الاوساط المسيحية ودورها في الحد من التعبئة الطائفية المعادية للثورة الفلسطينية ، اخذت الكتائب توسع من الاشتباكات المسلحة بين عين الرمانة والشياح من اجل تطويق النتائج الايجابية المتولدة عن رسالة الاخ القائد العام ، وتهديد مساعي التهدئة في محاولة اخرى لفرض شروطها السياسية . ونجحت الكتائب في مد الاشتباكات الى مواقع اخرى ، شملت معظم انحاء بيروت كما نجحت في انتزاع موقف ماروني متضامن معها في طلب صيغة حكومة الاتحاد الوطني خلال الاجتماع الذي عقد بدار الرهبانية المارونية اللبنانية . الا ان تماسك الموقف الوطني والاسلامي والتحرك العربي الذي تجلى ثانية في تجديد مهمة الوزير عبد الحليم خدام ، كلها عناصر ساهمت في دحر الهجوم الكتائبي وسمحت لرشيد كرامي بتشكيل الحكومة السداسية والاعلان عنها يوم ٦/٣٠ .

واهم ما تميزت به هذه المرحلة هو :

ــ **احباط كافة محاولات انعاش الحكومة العسكرية** ، سيما ان الكتائب حاولت استثمار اتساع الخلافات الفلسطينية ــ المصرية ، اثر لقاء سالسبورغ وما واكب ذلك ايضا من اشتداد الصراع الليبي المصري ، لتضاعف من تصلبها ازاء الوساطة السورية ومساعي كرامي لتشكيل الحكومة مستفيدة من رسالة السادات الى الجميل ومن ان الدوائر الرسمية والاعلامية المصرية اخذت تحمل ليبيا قسطا كبيرا من**مسؤولية** الاحداث اللبنانية .

٢ ــ اسقاط الشعارات المعادية للثورة الفلسطينية والتي بدأت القوى المضادة هجومها تحت راياتها : **اعادة النظر باتفاقية القاهرة ، نقل مخيم تل الزعتر ، الحد من حرية حركة الثورة الفلسطينية .**

٣ ــ خلق الشروخ داخل المعسكر المعادي للثورة بتنازل فرنجية وشمعون عن الاصرار على حكومة الاتحاد الوطني ، وفرض عدم اشتراك الكتائب في الوزارة الجديدة تثبيتا لادانتها ومسؤوليتها عن مجزرة عين الرمانة .

٤ ــ نجاح رسالة الاخ ابو عمار في افشال المحاولات الرامية الى زج الثورة الفلسطينية في صيغة **الصراع الطائفي** اللبناني واعادة العلاقات اللبنانية الفلسطينية الى نصابها من خلال مركز القوة الذي واجهت به الثورة التحركات المتآمرة .

٥ ــ خاضت الثورة الفلسطينية معركتها الدفاعية **« في مناطق جديدة »** ، اذ شكلت مناطق الشياح والنبعة والمسلخ والكرنتينا وغيرها مواقع جديدة من الاحياء الوطنية اللبنانية التي تولت حماية الثورة والشعب ومنعت الكتائب والقوى المضادة من امكانية احراز اي اختراق او تقدم عسكري ، مجسدة في ذلك صورا خالدة من التلاحم الوطني اللبناني والفلسطيني .

٦ ــ انكشاف دور قيادة الجيش اللبناني الى جانب الكتائب (التسليح ، التدريب، تسهيل التحرك ، توفير الذخيرة الامداد بالعناصر المجازة وغير المجازة .. وضرب العناصر المتعاطفة مع الثورة) ، **وهو اسلوب يتوخى منه تجنيب قوات السلطة الانقسام ، وتجنيد امكاناتها في المعركة في آن معا .**

٥ ــ من تشكيل الحكومة السداسية الى احداث زحلة وطرابلس ــ زغرتا :

ومع نجاح الثورة الفلسطينية في تلاحمها النضالي مع الحركة الوطنية اللبنانية من احباط المؤامرة الرجعية في اكثر من حلقة من حلقاتها القوية ، فان مجرى الاحداث في في صيف ١٩٧٥ اخذ يشير الى ان القوى المضادة اللبنانية والكتائب في مقدمتها قد خرجت من تقييمها للجولات الاولى بالدرسين التاليين : ــ

١ ــ ان القوة العسكرية والعمق السياسي ــ الجماهيري لتلاحم الثورةالفلسطينية والصف الوطني اللبناني اعظم بكثير بما قدرت الدوائر الاستعمارية والكتائب وحلفائها كما انه ليس من السهل احداث الشروخ داخل صفوف الثورة وفي تلاحمها مع الصف الوطني اللبناني العريض .

٢ ــ ان مدى اي تحرك مضاد للثورة الفلسطينية والقوى الوطنية في لبنان ، امر مرهون **بظرف عربي مؤات تكتيكيا** اي بحالة تصدع فعلي في العلاقات الفلسطينية ــ العربية . (حيث نجد ان المؤامرة كسبت دفعا جديدا مع لقاء سالسبورغ ، وبلغت اوجها بتوقيع اتفاقية سيناء) .

ومن هنا نرى ان التحرك الذي واجهت به الكتائب اللبنانية المرحلة الجديدة التي تولدت من تشكيل الحكومة السداسية قد ارتكز على المحاور التالية : ــ

١ ــ مضاعفة العدد والعدة في « القوى النظامية للحزب » حيث برز هذا الاتجاه جليا من الامور التالية : ــ

أ ــ وصول عدة شحنات جديدة من الاسلحة المتنوعة للحزب .

ب ــ توزيع الاسلحة الخفيفة على اعضاء ومناصري الحزب في اقاليمه واقسامه

المختلفة بشكل واسع .

ج ــ اقامة معسكرات التدريب في كافة انحاء المتن وكسروان ، واهمها في ضهور بعبدات ، ميروبا ، بحرصاف ، عين الصفصاف زحله .

د ــ التركيز على رفع الكفاءة العسكرية للفرق الخاصة المنظمة في كتيبتي الصخرة والمـــردة .

هـ ــ الاستعانة بالمرتزقة الاجانب وباعداد كبيرة منهم .

٢ ــ الاستمرار في الرهان على تصدع العلاقات الفلسطينية العربية ، حيث عكفت جريدة العمل على تبشير قرائها طـــوال الاسابيع التي سبقت نجاح مهمة كيسنجـــر باقتراب موعد الازمة المنتظرة على جبهة سيناء وبالتالي موعد الازمة المتوخاة فـــي العلاقات المصرية الفلسطينية وخـــلال الفترة نفسها **شهدت الساحة اللبنانية نشاطا مكثفا من جهة العدو الصهيوني الذي اخذ يصعد من عملياته بغية الابقاء على حالـــة التأزم الداخلي في لبنان ودفع القوى المضادة اللبنانية للاستفادة المباشرة من الاشغال العسكري الصهيوني لقوى الثورة العسكرية ومن الوضع العربي الجديد الناجم عن تقدم مهمة كيسنجر** . اما نمط تجاوب القوى المضادة المحلية ، فنقراه في لسان حال الكتائب « جريدة العمل » التي اخذت تتساءل : « الى اي حد يمكن ان يسمح الوضع القائم (اي تصعيد الاعتداءات الصهيونية) بالابقاء على حالة التفاهم بين السلطـــات اللبنانية والمنظمات الفدائية » ومضت العمل تقول : في حقيقة ما يجري في الجنوب نجد ان كل هذا ، الذي يخدم مرة واحدة .. وقد لا يخدم المقاومة الفلسطينية ، لكنـــــه بالمقابل يخدم اسرائيل الف مرة .. **امـــا ان يطلق بعض المحسوبين على المقاومـــة « فتاتيشهم » من داخل الحدود ، وتخوض اسرائيل حرب استنزاف من طرف واحد ، فيما تسعى مصر ثم سوريا والاردن الـــى تجميد كل الجبهات ، بانتظار المساعـــي السلمية ، فان في هذا دفعا للبنان والمقاومة معا الى الانتحار « العمل ١٩٧٥/٨/٨ »**. (بينما في الحقيقة ان الثورة ممتنعة ومنذ حرب تشرين عن عمليات الحدود القريبة من الاراضي اللبنانية وعملياتها في العمق) .

٣ ــ الابقاء على جبهتي تحريض ثابتتين :

الاولى : التركيز المستمر على ضرورة « استعادة » السيادة اللبنانية كاملة على كل الاراضي اللبنانية واتهام الثورة بالتدخـــل في الشؤون اللبنانيـــة وحماية المخربين وسيطرة الفكر الماركسي على اجهزتها الاعلامية ، والتشكيك بانضباطيتها ومقـــدرة قيادتها على السيطرة على كل مسائل الثورة والتواجد الفلسطيني في لبنان .

الثانية : الهجوم على كامل الصف الوطني في لبنان ، والربط بين الوطنية والتخريب، والوطنية والسلب والنهب ، الوطنية « والشيوعية الهدامة » وذلك بالتركيز عـــلى كمال جنبلاط والاحزاب التقدميـــة والهجوم على البرنامـــج المرحلي للاحزاب والقوى التقدمية ، حتى الامام الصدر ورعايته لمعسكرات التدريب الخاصة بمنظمة المحرومين لـــم تسلم منهم ، وكذلك المواقف النقدية التـــي تتخذها الزعامة الاسلامية التقليدية الاخـــرى .

وعلى هذا الصعيد فان الكتائب اخذت تنهج نهجا جديدا في تركيز محاور دفاعهـــا

وهجومها السياسيين . **فهي من جهة الدفاع عملت تحت اليافطات التالية :**

ا ــ طرح قضية السيادة اللبنانية من زاوية عدم السماح بانفلات مناطق جديدة كالشياح والمسلخ والنبعة من تحت سيطرة الدولة .

ب ــ التركيز على طلب تعيين حدود التواجد الفلسطيني في لبنان اكثر من التركيز على اثارة مسألة هذا الوجود نفسه .

ج ــ الاصرار على تبرئة نفسها من حادثة عين الرمانة .

د ــ تحميل ما يسمونه الصحافة « المأجورة » و « المرتبطة » مسؤولية الدس على الكتائب وتشويه مواقفها .

هـ ــ تركيز بيان الجميل في اعقاب تشكيل الحكومة السداسية على مصير « منطقة المسلخ اللبنانية » وتحذيره من « الانزلاقات » التي وقعت بها الثورة وقيادتها .

و ــ اتخاذ مواقف دفاعية في كل ما يتعلق بمسائل تعديل الدستور او اعادة البحث بالميثاق الوطني .

اما من حيث التكتيكات الهجومية فقد ركزت الكتائب على المسائل التالية :

ا ــ انه من اجل نزع السلاح ، فعلى الدولة ان تتواجد بسلطتها فوق الاراضي اللبنانية (تصريح للجميل ، العمل ٧٥/٨/١٢ ، مقابلة وليم حاوي للانوار ، مقابلة بشير الجميل للبيرق) .

ب ــ « انه ليس من المعقول ان تطالب احدا الا يدافع عن نفسه عندما لا يجد من يدافع عنه » (العمل ٧٥/٨/١٢) .

ج ــ اعتبار تصاعد عمليات الثورة ضد دولة الاحتلال زج للبنان في معركة اذا خاضها « وهو ليس قادرا عليها تكون جريمة اكبر لان لبنان يكون بذلك كأنه يحقق ارادة اسرائيل (الجميل للعمل الصادرة بتاريخ ٧٥/٨/١٠) .

د ــ « ان المصطادين في الماء العكر » آخذين اكثر فأكثر في « اقحام المقاومة الفلسطينية فريقا في صراع ضد اللبنانيين ، وقد وفقوا حتى الآن في تحويل المخيمات الفلسطينية الى معسكرات تدريب لبنانية ــ فلسطينية ، باسم التضامن اللبناني مع القضية » (العمل ٧٥/٨/٢٨) .

هـ ــ تحريك عقدة الخوف عند مسيحيي لبنان ، من خلال تصوير قضايا الصراع على الساحة اللبنانية وكأنها مسألة « حرمان المسيحيين من الضمانات دون تقديم اية ضمانات اخرى ، معنوية او مادية » (من سلسلة من الافتتاحيات التي صدرت في جريدة العمل ابتداء من ٧ آب ١٩٧٥ تحت عنوان : لماذا لبنان قضية ؟)

اما من جهة اخرى ، وخلال هذه المرحلة نفسها ، (من تشكيل الحكومة السداسية الى احداث طرابلس ــ زغرتا) **ونتيجة عناصر الاستقرار المرحلي الذي كانت تحمله التوازنات التي قادت الى تشكيل الحكومة السداسية ، اخذت تبرز على السطح السياسي « هموم » الانتخابات النيابية والرئاسية اللبنانية** (المقررة لنيسان وآب ١٩٧٦) فيما بدا حينها على شكل اعادة صياغة للتحالفات السياسية اللبنانية : القصر

وتحالفاته ، كرامي ــ جنبلاط ، العلاقات داخل التحالف الثلاثي ، الدور الذي راح يلعبه شمعون ، تصدر شارل حلو مختلف حلقات ولجان وهيئات « الحوار » ، مظهر الاعتدال والانفتاح الذي لبسه طويلا شاكر ابو سليمان .

وفي هذا السياق نفسه ، اطلت « الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية » على المسرح السياسي « ببرنامج مرحلي » اعلنت عن بنوده في يوم ١٨ آب ، وهو البرنامج الذي ستشكل مطالبه الرئيسية ، في المرحلة اللاحقة ، **قاعدة ارتكاز للمناورة السياسية القائمة على طرح الصراع ، كصراع لبناني ــ لبناني ، وبالتالي السعي لنقل ارضية المعركة واستعادة المبادرة السياسية من الطرف الانعزالي للحيلولة دون تمكنه ــ على الصعيد السياسي على الاقل ــ من المضي في طرح مسألة التواجد الفلسطيني المسلح في لبنان** وذلك من خلال طرح مسألة النظام السياسي اللبناني في تخلفه وطائفيته على بساط البحث . وبالتأكيد فان البرنامج يندرج اولا ضمن سياسة « الهجوم المتواصل » التي اتبعتها الاحزاب من ١٣ نيسان والتي تناولناها في معرض تقييمنا لشعار «العزل» ،كما انه شكل محطة رئيسية من ضمن توجه «الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية » الى اثبات وجودها السياسي المستقل في الصراع الدائر ، كطرف متمايز عن الزعامات الاسلامية التقليدية ، وهو الخط الذي سيتضح في الدعوة المنفردة التي ستوجهها هذه القوى ، فيما بعد للاضراب العام يوم ١٥ ايلول .

غزال يبشر بزلزال...

محمود درويش

● يصدر قريبا المجلد الثالث من الاعمال الكاملة للاديب الكبير الشهيد غسان كنفاني ، ويضم هذا المجلد دراسات غسان عن الادب في الارض المحتلة ، وقد كتب مقدمته الزميل محمود درويش :

من الطبيعي ان يكون دمه قد جف . ومن الطبيعي ان يكون اصدقاؤه قد عادوا الى لغتهم . ومن الطبيعي ان نستعيد قدرة الكلام عنه كما نتحدث عن الانهار التي اخترقتنا وذهبت .

وهذا ما يحدث لي : ايام وايام احاول فيها ان اعتاد هذا « الطبيعي » لاكتب عنه في هدوء . ولكنه يطردني عن الورق ، فان حبره لم يجف . هو الذي يمنعني من ان أفي بوعدي ، هو الذي يمنعني عن الكتابة .

الكتابة ! كم نتساءل : ما هي ؟ ونتعثر . ذباب كثير يحط فوق الكلام الجميل . وكأنه الفلسطيني الوحيد الذي اعطى الجواب القاطع الساطع ، وكانت الشهادة شهادة ، وكأنه احد النادرين الذين اعطوا الحبر زخم الدم . وفي وسعنا ان نقول : ان غسان كنفاني قد نقل الحبر الى مرتبة الشرف ، واعطاه قيمة الدم .

فيه حسم لتعدد اشكال سوء الفهم والتفاهم . وفي كتابته سطوة اليقين . من تيقن قراءته يطرح الاسئلة على مستويات مختلفة .

هنالك من يعتبر الحياة اتهاما وخيانة ، فيثني الكتابة عن فعاليتها لان الحرية لا تاتي بغير الموت !.. ومن هنا ، يتحول الموت لدى هؤلاء الى هدف في حد ذاته . « انت متهم الى ان تثبت موتك » . داء شاع في حياتنا الفلسطينية ، فاتخذ الفاشلون فينا جثث الشهداء متاريس وخنادق وقاعات محاكم . اطلقوا النار على الذات مرة ، وانتظروا رصاص الاعداء ، مرة اخرى ، ليكون معيار الجدارة . هذا الطراز ذاته من

النظر الى الحركة والى الاشياء يحول جثة غسان كنفاني الى قاعدة لاغتيال الكتابة . وهي ، بذلك ، تجرد كاتبنا الكبير من اية قيمة خلاقة عدا الموت .

وهنالك ، هنالك من يعطي الكتابة قدسية الانفصال ، وشرعية الطلاق عن المغامرة، والاحتيال على الحياة والخطر . هنالك من يعتبر الكتابه غاية في حد ذاتها .

ولكن غسان كنفاني هو كاتب الحياة . كان يكتب لانه يحيا . وكان يحيا لانه يكتب ويحيي ذاكرة الفلسطيني لتكون مكان المستقبل . لم يكن الموت هدفه لانه لم لم يكن عاجزا عن الحياة في الكتابة ، ولانه لم يكن بعيدا عن حركة الفعل الفلسطيني الثوري التي تبلور حياتها في الصراع . وكان توحده في الفعل الكتابي ، والذي يبلغ حد التصوف ، نوعا من استرداد حياته في حياة شعبه وصياغتها في مسرى الحلم العظيم.

لقد سقط غسان كنفاني فيميدان الصراع . سقط وهو يسيطر على موقعه الكتابي. وقد اغتاله الاعداء لانه حمل فاعلية الكتابة التي تصنع جيلا سيعثر على اداة التعبير عن فاعليته في السلاح . ولذلك ، فان الدفاع عن غسان كنفاني ، امام اخطاء من لا يرى فيه غير موته ، هو دفاع عن الكتابة وعن الحياة .

ويعرف الكاتب الثوري ان اداة التعبير عن فاعليته الاجتماعية تأخذ شكل الكتابة لانها تميزه وسلاحه . وليس بوسع الكتابة ان تحقق اثرها النضالي الا اذا كانت كتابة ناجحة . فالفن الرديء الذي يروج له الصغار في حياتنا الآن ، تحت اي شعار كان ، لا يقل ضررا عن السلاح الرديء . وقد كان غسان كنفاني فعالا ومؤثرا باتقانه مهنة الكتابة ، بخصوصيته الفنية الجميلة ، وبطريقة توظيفه هذا الجمال . وليس بانقلاب المعادلة .

لن نلتقي به بعد ... لن نسمع مزيدا من تعليقاته الساخرة على الذين يأتون الى الكتابة بفضيلة القضية . ولكنه يقتحمنا دائما بقوة كلماته التي لا تموت . كم كتب الفلسطينيون وماتوا . ولكن حبرهم كان يجف مع دمهم . كتابته هو قد تكون هي النادرة التي تصلح للقراءة بعد العودة من جنازة كاتبها . وتاريخ تبلور النثر الفلسطيني الجديد يبدا من غسان كنفاني .

لماذا هو .. لا سواه ؟ تلك هي الهدية . ذلك هو النجم . هو الموهوب الذي عرف كيف يربي موهبته وفي اي نهر يضعها .

لقد تمكن غسان كنفاني من اداء دوره ، لان له دورا ، ولانه مؤهل ، فنيا ، للقيام بهذا الدور . كان نتاج رحلة العذاب الفلسطيني من السقوط المتمثل في وعاء المخيم حتى الصعود المتمثل في واقعية البندقية . وفي عمله الكتابي الذي مارس من خلاله دوره الاجتماعي والوطني تأريخ الحركة الفلسطينية في تلب فنان . لقد كان ثوريا من حيث هو كاتب ثوري . لم تنتزع هذه الصفة من لحظة الاستشهاد .

كان يعرف لماذا يكتب ولمن يكتب . ولكنه كان يعرف ايضا ان قيمة هاتين المسألتين مشروطة ، لانتاج الفن ، باتقان تطبيق المسألة الاخرى : كيف يكتب .

لم تسلم كتابة غسان من الاتهام حين ارتقى بشكله الكتابي من حالة السكون الوصفي الى حالة ارقى واصعب بتأثير تعقد القضية التي تحتويه . ولم تسلم من مواجهة هذا السؤال الابدي : من يفهم هذا الاسلوب ؟ لم يكن غسان كنفاني سهلا

كما يبدو لقرائه السطحيين . صحيح انه كرس كل طاقته الخلاقة ونشاطه الاجتماعي في خدمة قضيته الكبرى . وصحيح ان هذه القضية ، بجماهيرها واشكال صراعها ، كانت هاجسه العظيم . ولكن الكتابة ، كقضية ، كانت ايضا هاجسه . وان التعامل مع سؤال مثل « قضية الكتابة » جعله قادرا على التطور الدائم وحيا الى هذا الحد .

لم يستطع غسان كنفاني ان يكون مؤثرا وفعالا الا لانه كان كاتبا محترفا .. حتى في كتابته الصحفية او اليومية كان شديد الخصوصية والتميز والاتقان . رشيقا ومتوترا كغزال يبشر بزلزال .

كان ممتلئا بحيوية نادرة في هذا الجيل . كان مسكونا بكهرباء لا تنضب . ولم يترك لنشاطه الواعي مجالا واحدا للراحة . لم يقض اجازة لاستعادة قواه بين رواية واخرى ، او عمل وآخر . لم يذهب للامتلاء بالتأمل من اجل تنفيذ عمل كتابي جديد . كان يجدد وقوده الابداعي بتبذير قواه . كان يتزود بالطاقة تلقائيا ، فالذاكرة الجماعية لا تستنزف . وكان يستعيد ملء طاقاته بعمليات تفريغها الدائم .

هل كان حقا يشعر بموته المبكر ، فاطلق ينابيعه الى هذه الدرجة من الاسراف ؟ هل كان هاجس الموت يستدرجه لصب طاقاته في وقت قصير ؟ هل كان استشرافه لهذه النهاية — البداية دافعا لتناول كل اشكال التعبير من قصة ورواية ومسرحية ودراسة وبحث ونقد ، ليسجل دمه على اصابعنا وذاكرتنا ؟ وهل كان يسبق الموت الى الحياة في الكتابة ؟

ربما . وربما كان هذا السباق احد اجمل تجليات « الانانية » الخلاقة والتفاني في آن واحد . انها شكل نادر من اشكال تحقيق حياته في سياق تبذيرها في حياة الآخرين . وهكذا تتحول انانية الفنان الى نهر كريم .

ان الذين عرفوه ، عن كثب ، كانوا يعرفون مدى حيويته وقدرته الثمينة على العمل . وكانوا يعرفون ايضا حرصه المرهق على تحقيق ذاته الفنية . كان يقوم بكل الاعمال العامة طيلة النهار . وفي آخر الليل ... في اول الفجر كان يذهب الى كتابته « الخاصة » ، الى كتابته الفنية ، فلم يكن متاحا له ان يتخصص بشكل علني . كان يحترف الكتابة سرا . لماذا ؟ لانه فلسطيني ... ببساطة لانه فلسطيني .

لم يقل احد ان الفلسطينيين لا يرحمون ادباءهم . سأقول : ان الفلسطينيين لا يرحمون ادباءهم . ذلك من فرط ايمانهم بفاعلية الادب الذي قدم لهم، ومنهم ، تعويضا عن مهانات ، عندما فقدوا كل شيء ولم يملكوا الا كلمات . وذلك لانه استمد منهم القوة ليؤسس لهم العلاقة . نادرا ما يسطو الوطن ، كما يسطو على ادب الفلسطينيين . ولذلك ، يدرك الفلسطينيون ، وبحق ، انهم هم الذين خلقوا ادباءهم .. ولذلك ايضا يطالبونهم دائما بالمواطنية المثالية وبالطاعة الفولاذية ، ولا يسمحون لهم في ان يكونوا اقل من جنود او قديسين . ومن هذه العلاقة الصارمة ، من هذه المطالبة التي تشمل كل شيء يجد الاديب الفلسطيني نفسه « يسرق » حرفة الادب سرا . وفي النهار عليه ان يمارس اشكالا اخرى للتعبير عن التزامه بسلطة الوطن !

هكذا كان غسان كنفاني يغتصب كتابته الفنية من الساعات المخصصة لنومه . ولم تكن تلك الكتابة الا نتاج علاقته بفلسطين — الوطن والحلم والصراع والجماهير والمنفى . كان اكثر من كاتب . ولكن ما افدح الخطأ الذي يرتكبه صغار النقاد والصحفيين ويخدعون به الناس حين يضعون واو العطف [للتمييز] بين الكاتب والمناضل . كأن يقولوا : كان كاتبا ومناضلا . ليس الامر في مثل هذا التفصيل ، فقد كان غسان كنفاني كاتبا مناضلا .

كثيرا ما يجابه الكاتب الفلسطيني باسئلة تأتيه من البراءة او الاتهام : هل انت كاتب ام مناضل ؟. في مرحلة تاريخية معينة يحدد انكاتب المناضل بأنه الكاتب الذي يعبر عن حركة القوى الثورية .. عن حركة الجديد . وغالبا ما تكون اداة تعبير الكاتب عن اندماجه بقوى الثورة هي الكتابة . وقد بقي غسان كنفاني مطاردا بهذا السؤال الى ان بلغ الشهادة ، فهزم السؤال وانتصرت كتابة غسان .

كان نشاطه الكتابي متعددا . والطريقة التي سفك فيها دمه محرومة من الوصف . لقد رسم جسده المزق حالات القضية الفلسطينية .. لقد حقق الاسطورة .

كم من صديق رثيت . ولكن لم احس بانني ارثي نفسي ، فاعيد صياغة حياتي ، الا عندما حاولت الامساك بطرف هذا البركان : غسان كنفاني . ماذا بوسعك ان تفعل ؟ حقا ، ماذا بوسعك ان تفعل ؟ هكذا ينقض الكاتب على نفسه في حضرة الكارثة التي لا يردها قلم . ولعل مثل هذه الحالات التي تنتقص من جدوى الكلمة وقوتها في سياق المقارنة مع عناصر الطبيعة او الفعل الهائل هو الذي خلق ، منذ القدم ، تقليد عقد المقارنة الظالمة بين الكلمة والفعل . ليس الخطأ ، دائما ، ان نقدم اجابة مخطئة . احيانا وفي مثل هذه الحالة بالذات يأتي الخطأ من مجرد طرح هذا السؤال .

وان الموت حادث . ولكن هنالك نوعا من الموت يأخذ شكل الاجابة على معضلة او مقارنة . وهكذا يتحول مصرع الكتاب المناضلين الى دلالات ورموز . وهكذا كان مصرع غسان كنفاني شهادة على فاعلية الكتابة لا نفيا لها كما يتصور الميكانيكيون والعاجزون امام حركة العلاقات ، كهؤلاء الصبية القادمين الى اسم الثورة من اقاليم العجز والاحباط والقبح ، ليعمموا عاهاتهم على الورق وعلى نفسية البشر ، فيتهمون الفن بالردة ، ويتهمون الحياة بالخيانة .

صديقي غسان ! كم من صديق ودعت ، ولكن لم اودع مرحلة من حياتي الا في وداعك الاخير . كان آخر ما انتظر من كوابيس هو ان اقدم لاعلانك السابق عن وجودي منذ عشر سنين . لقد ولدت قبل ذلك ، ولكنك انت الذي اعلن ميلادي . لم اقل لك : شكرا ، فقد كنت احسب العمر اطول .

الآن نقول: ادب الارض المحتلة .. ها ..ها ! ولكن الحالة كانت تختلف عامئذ.فقد كنا مجموعة من شباب دون الثلاثين نفتقر الى ادنى مقدمات الرد العملي على الهزائم التي يعاصرها وعينا وعارنا . وكنا نحاول كتابة الشعر دون ان نعي انه شعر . كنا نصرخ ، نتوجع ، نحتج ، فلم نملك اداة تعبير اخرى . وكانت اغلبية مواطنينا تسخر منا ، لانها تعرف طفولتنا ومراهقتنا وصبانا معرفة لا يليق بها الاعجاب . صبيان

يكتبون شعرا . وكان لقب « شاعر » طموحا قاسيا يعذب . وفي احسن الاحوال كان بعض المعلمين يقول : مبتدئون لهم مستقبل . حتى العدو نفسه لم يكن يكترث بنا بشكل جاد . وفي الامسيات الشعرية التي كنا نقيمها في القرى كان الفضول والاعتبار السياسي وبنات المدرسة هي التي تشجعنا . فقد كان الشعر « المعتبر » .. الشعر المقبول ، آنئذ ، لدى الناس والصحف هو الشعر القادم من الخارج .. هو الشعر المصنوع خارج الارض المحتلة .

وكانت النجوم الشعرية الرائجة في العالم العربي هي ذاتها الرائجة لدى صحف العدو باستثناءات قليلة . ولم نسأل يومها : كيف يملك الشعر كل هذه القدرة على الاحتيال فيكون مطرب الاضداد ؟

وبقينا مجهولين ...

الى ان قام غسان كنفاني بعمليته الفدائية الشهيرة : الاعلان عن وجود شعر في الارض المحتلة ، فانقلبت العلاقة داخل الارض المحتلة وخارجها . ومشى التطرف الى نقيضه المتطرف : لا شعر الا في الارض المحتلة !!.

الفضيحة معروفة . ولا اضيف هنا جديدا . وسأعترف بأن شهادتي لا تتمتع بأية قيمة عدا قيمة الاعتراف : نحن الذين كنا نكتب ما سماه غسان « شعر المقاومة » لم نكن نعرف اننا نكتب « شعر مقاومة » وقد دهشت ، قبل سواي ، بهذا الشغف السياسي بما نكتبه . كل شيء قابل للتفسير كأن نقول : مرحلة تاريخية معينة انفتحت فيها النفسية العربية الجريح على تقديس كل ما يرد من ارض فلسطين . ولكن ... ولكن بعضنا داخ من اللذة ، وبعضنا صار يصمم القصائد لحناجر المذيعين ، وبعضنا خاف المسؤولية وقلق . وبعضنا ادرك انها موجة وتنكسر ولا يبقى من هذا الزبد غير الشعر الحقيقي . ويومها .. يومها كتبت : « انقذونا من هذا الحب » ..

ولكننا نعرف جيدا ان محاولات انقاء الشعر العربي الثوري كله بواسطة خطب حماسية او بكائيات يكتبها شباب في الارض المحتلة ، قيمتهم الفنية الاساسية هي انهم يعيشون في الارض المحتلة ، ليست من صنع غسان كنفاني .

ان ما فعله غسان هو كسر الحصار المضروب حول اوضاع العرب في الارض المحتلة ، واضاءة كل موقع صمود يمارسه ابناء الشعب الفلسطيني هناك . وكان الشعر ، ولا يزال ، احد وسائل التعبير عن هذه المواقع وعن هذا الصمود .

وكان اكتشاف العرب بأن العرب في فلسطين المحتلة يتكلمون اللغة العربية ويحبون بلادهم ويكرهون الظلم اكتشافا مذهلا .. مذهلا حتى الخزي . ومع ذلك ، اتاح هذا الاكتشاف للصوت العربي القادم من هناك سعادة الاحساس بالانتشار والتغلب على الاسوار . وكان وعي اصحاب هذا الصوت بوجود من يستمع اليهم حافزا لنموه وتطويره لدى البعض ، وعقبة امام تطويره لدى البعض الآخر الذي اكتفى بالجغرافيا موهبة غير قابلة للمناقشة .

لقد دل غسان كنفاني الراي العام العربي على ادب الارض المحتلة . واما المبالغات واختلال الموازين فتلك مسألة تخص الذين درسوا ما قدمه غسان . لم تكن لفظة « مقاومة » رائجة في الشعر هناك قبل ان يطلقها غسان عليه . وهكذا ايضا دل المسمى على اسمه ...

واذا كان غسان كنفاني قد شمل ، بهذه الصفة ، كل من كتب باللغة العربية في الارض المحتلة ، فلأن افراحه بما يجد كانت تشمل الكتاب واشباه الكتاب ، والمقاومين واللامقاومين لان افراحه كانت تشمل اللغة العربية في فلسطين المحتلة . ولذلك ، يمكن لفت الانظار الآن الى ان بعض الاسماء الواردة في مقالات غسان كنفاني عن الادب في الارض المحتلة لا تحتل اكثر من فاصل هامشي في حياة العرب هناك، وبعضها يحتل هامشا سلبيا يتناقض مع تقدير الوهلة الاولى .

وفي الوقت الذي كان يكشف فيه غسان كنفاني غطاء السر عما يكتبه كتاب الارض المحتلة العرب ، كان يدرس نقيض هذه الكتابة واحدى مواد مجاوراتها : الكتابة الصهيونية ، ودورها في تشكيل الوعي والكيان الصهيونيين . وبكلمات اخرى : كان يدرس فاعلية الكتابة لدى العدو . فقدم بذلك اول دراسة عربية عن واحد من اخطر الموضوعات الصهيونية . وكان بذلك جديدا وكاشفا ورائدا كعادته .

واذا كانت الصورة التي قدمها غسان عن الادب الصهيوني تفتقر الى تصوير بعض الجوانب المهمة فذلك يعود الى اعتماد غسان على النصوص الانكليزية المختارة من الادب العبري . واذا كانت هذه النصوص المنتقاه وحدها كفيلة بالتدليل على الدور التدميري للثقافة الصهيونية ، فكم ستكون الصورة حالكة حين نطلع على الاصل العبري الصريح الذي لا يراعي متطلبات الحرص على الرأي العام خارج الوطن المحتل !

ان دراسة غسان تتمتع بقدرة كبيرة عن التقاط الجوهري وادراك الخصائص الاساسية للادب الصهيوني ، وتشكل حافزا لدى دارسي اللغة العبرية لمواصلة خط الكشف الذي اسسه غسان كنفاني .

وقد يكون من المفيد ان نعرف ان الادب الصهيوني هو احد وسائل غسيل الدماغ الذي يتعرض له طلبتنا العرب في الارض المحتلة . ولذلك فانه يحمل امكانية تشكيل المكونات الثقافية للشاب العربي الواقع تحت الاحتلال ، بغض النظر عن اتجاه رد فعله عليه . فهو قد يؤثر في شده الى مقدمات التعايش مع نمط الحياة الاسرائيلية ومن ثم الى التخاذل او التساهل تجاه ادعاء الحق الصهيوني على ارض فلسطين . ومن ناحية ثانية يؤثر فيشده الى موقع الرفض لكل جوانب الحياة والفكر الصهيونيين.

★ ★ ★

ويا صديقي غسان !

ان البياض امامي كثير . ودمك الذي يجف ما زال يلون . لقد ودعت مرحلة من حياتي حين كنت اودعك . جئت ورأيت . ورأيتك كيف تذهب . لقد اتسعت مساحة الارض المحتلة ولم يعد ذلك ميزة . ودورة السجون تدور .. تودع وتستقبل . وكل ارض ترى استشهاد ابناء شعبي . ونحن مطاردون في كل مكان . والكاتب ملعون ومتهم بالحياة والكتابة . والوطن هو الوطن ولم تكتب فيه حرفا واحدا . واين هي الارض غير المحتلة في السكون ؟ واين هي الارض المحتلة في الثورة ؟

ويا صديقي غسان !

لم نتناول طعام الغداء الاخير . ولم تعتذر عن تأخرك . تناولت سماعة التلفون لالعنك كالمعتاد : « الساعة الثانية ولم تصل ! كف عن هذه العادة السيئة » .

ولكنهم قالوا لي : قد انفجر !

والآن ، اكتب اليك دون ان اخشى يد كمال ناصر التي خطفت رثائي لك . وقال مازحا : لا تنشر هذا الكلام عن غسان كنفاني . هذا الكلام يليق بي .. وسأقتل قريبا.

كان يمزح ؟ نعم . ولكنه انفجر ايضا .

لا احد يحيا لنفسه كما يشاء .

ولكننا نراك في كل مكان .. تحيا فينا ولنا . وانت لا تدري ، ولا تعلم .

دور العلم والتكنولوجيا في المعركة

الدكتور الياس زين

عندما اطلق الاتحاد السوفياتي ، اول قمر صناعي وحلق فوق الارض ، عام ١٩٥٧ ، راحت ملايين الناس في العالم تتساءل : « لماذا وصل الروس بالذات الى الفضاء الكوني قبل غيرهم ؟ »

وفي الواقع ، حاول مئات من العلماء والتكنولوجيين والمهندسين والعسكريين والديبلوماسيين والمعلقين الصحافيين وغيرهم ، ان يجيبوا على هذا السؤال وما شابهه . ولا ريب في انهم عرضوا مختلف التفسيرات والتحليلات لاسباب « نجاح روسيا العجيب » . الا ان الباحث المدقق ، عندما يحاول ان يجمع شتى التفسيرات، لا يمكنه الا ان يخرج بنتيجة واحدة وهي : ان نجاح الاتحاد السوفياتي في ارتياد الفضاء، اولا ، هو نتيجة حتمية لانجازات الروس في ميادين العلوم والتكنولوجيا . وفي اعقاب نجاح اطلاق « سبوتنك » الاول ، كتبت جريدة « يورك شاير بوست » ، البريطانية ، قائلة : « ان تحول روسيا خلال جيل واحد تقريبا ، من بلد الفلاحين الاميين والمثقفين الحالمين ، الى دولة ذات علم طليعي ، ينبغي اعتباره واحدة من اعجب حقائق التاريخ » (١). واعلن العالم الاميركي ، ادوارد تيلر ، اول صانع قنبلة هيدروجينية في العالم ، قائلا : « ينظر الروس الى العلم ، كما لو كان دينا لهم ، وينظرون الى علمائهم باقصى درجات الاحترام » (٢) .

والسؤال الآن : ماذا كانت ردود فعل الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من الدول الغربية ، لهذا الانتصار ، بل التحدي العلمي والتكنولوجي السوفياتي هذا ؟ لا نغالي اذا قلنا انه اجتاحت الولايات المتحدة آنذاك ، حالة شبه ذعر ، وارتبكت الاوساط العلمية والتربوية والسياسية، واعتبرت النجاح العلمي السوفياتي من ناحية ، وفشل المحاولات الاميركية الاولى لوضع جرم فضائي مماثل من ناحية ثانية ، نكسة كبيرة للولايات المتحدة ، تحمل في طياتها ابعاد ومضاعفات عسكرية ودولية خطيرة . الا ان الموضوع الذي يهمنا ، في هذا البحث ، هو: ماذا فعل الاميركيون للتغلب على « النكسة » وتصفية آثارها ؟

ان هذا الانتصار العلمي ، قد حمل كثيرين من مختلف الهيئات والمؤسسات الاميركية على الاعتقاد بان التعليم السوفياتي للعلوم ، كان متفوقا على نظيره الاميركي . فراحت تلك الهيئات تطالب المعاهد التعليمية في اميركا ، باعداد العلماء والباحثين والمخترعين ، الذين يتوقع ان يتم على ايديهم رفع الولايات المتحدة الى المكانة الاولى ، في ميادين العلوم والتكنولوجيا الحديثة .

وعلى اثر ذلك ، كان اول ما قام به الاميركيون ، تأليف لجان مختصة في طول البلاد وعرضها ، لدراسة المناهج التربوية والبرامج التعليمية ، المعمول بها آنذاك ، في المستويات التعليمية جميعها (ابتداء بالمدارس الابتدائية حتى الجامعية) ، وكذلك حتى اضخم مختبرات

الابحاث النووية ، لتحديد مواطن الضعف فيها، ولتقديم طرائق التدريس والاساليب المتبعة في المراحل التعليمية المختلفة ، لمعرفة مدى فعاليتها في تهيئة العدد الكافي من العلماء والباحثين والمخترعين وتدريبهم . وكانت الغاية من ذلك ، تطوير العلوم وتعزيزها لتواكب التطورات العلمية الحديثة ، ومتطلبات التحدي العلمي والتكنولوجي والعسكري ، التي اخذت تواجه البلاد الاميركية .

ونتيجة للدراسات والابحاث والنقد الذاتي والتمحيص الدقيق ، التي قامت بها اللجان المختصة ، فقد تم اتخاذ خطوتين اساسيتين ، هما : (١) تعزيز البحث العلمي ، النظري والتطبيقي، في البلاد ودفعه الى الامام ،بسرعة وخاصة في المجالات الحيوية التي تخلفت فيها اميركا وراء الاتحاد السوفياتي . (٢) اجراء اصلاح جذري في مناهج العلوم والرياضيات واساليبها التربوية ، لتعزيزها ولتجديدها ، بما يتفق والاهداف القومية ، للنمو على المستويات كافة ، في حياة الامة الاميركية . وقامت الحكومة الاتحادية الاميركية بتحويل مشروعات كثيرة للمناهج العلمية ، التي تركز على قيمة البحث الاصيل والتجربة الذاتية ، كوسيلة لحث الشباب على الالتحاق بالفروع العلمية في المدارس والمعاهد . وقد سلكت هذا السبيل ايضا ، بعض البلدان في اوروبا الغربية ، كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبلدان الاسكندينافية (٣) .

اهداف البحث واطاره العام

ان الغاية من هذه الدراسة ، ان نظهر ، بالارقام والحقائق ، دور العلم والتكنولوجيا ، في خدمة المعركة ضد التخلف بوجه عام ، وفي خدمة الدفاع والامن والحرب بوجه خاص . فجميع الدلائل تشير الى ان العلوم والتكنولوجيا تمثلان دورا بارزا في بناء امة قوية ، تستطيع ان تواجه التحديات الاقتصادية والعسكرية . وعليه ، فاننا ننطلق ، في هذا البحث ، من الافتراض القائل بان المعارف العلمية والتقنية، قوة استراتيجية فعالة من الدرجة الاولى . ولا يمكن لاي امة ان تصبح قوة اقتصادية وعسكرية ، الا بالاعتماد ، اولا ، على العلم والتكنولوجيا ، كما سنبين في هذا البحث ، بعد قليل . ومما يجب الاشارة اليه ، هو ان المعركة التي تخوضها الامة العربية في الوقت الحاضر، ضد اسرائيل والصهيونية والامبريالية ليست مواجهة عسكرية فحسب ، بل مواجهة علمية وتقنية ايضا . ولا ريب في ان المعركة العلمية والتقنية هذه ، لا تقل خطورة عن المعركة على الجبهات الاخرى . بل والاهم من كل ذلك ، ان النجاح في المعارك العسكرية ، على ما يبدو يعتمد الى حد بعيد ، على العلوم والتكنولوجيا ، وما يجري في المراكز والمختبرات من بحوث واختراعات واكتشافات علمية . ويظهر ، مع الاسف ، ان الاقطار العربية عامة، لم تعتن بالعلوم والتكنولوجيا ، كما يجب . لذا نجد ان ثمة فجوة علمية وتقنية بين الامة العربية وبين اسرائيل ، وان هذه الهوة آخذة في الاتساع ، كما سنرى . واسرائيل اذا ماضية في كسب الحرب العلمية والتقنية غير المعلنة في الشرق الاوسط (٤) .

سنبدأ بحثنا بتحديد مفهوم العلم والتكنولوجيا والمعركة ، ثم نذكر دور العلم والتكنولوجيا واهميتهما في المعركة ، وبعدها نعرض الوضع الراهن لواقع العلم والتكنولوجيا في الاقطار العربية ، ثم نقدم عرضا موجزا يوضح كيف تسخر اسرائيل وقواتها المسلحة العلم والتكنولوجيا في خدمة الحرب ، واخيرا نقترح اهم الخطوات الواجب اعتمادها في البلدان العربية لوضع العلوم والتكنولوجيا في المعركة ، وكذلك وسائل التنفيذ .

مفهوم العلم والتكنولوجيا والمعركة

قبل ان نسترسل في بحثنا ، يجدر بنا ان نحدد بعض المفاهيم الاساسية التي تتكرر هنا، وهي العلم والتكنولوجيا والمعركة . فالعلم والتكنولوجيا مظهر من مظاهر الحياة البشرية، ونشاط من النشاطات الانسانية الواسعة النطاق ، وسلعة من السلع الكثيرة ، التي يستخدمها الانسان المعاصر ويستهلكها في كل يوم من حياته . ويضم هذا النشاط ، كل ما تجمع لدى الانسان من معارف وابحاث ومعلومات ونظريات ، في الحقول والمواضيع العلمية كافة، الممتدة من العلوم البحتة ، الطبيعية والاحيائية

(البيولوجية) من جهة ، الى العلوم التطبيقية (التكنولوجية) من جهة اخرى • وفي ضوء ذلك ، يمكن للعلم ان يتنبأ او يستعمل للتنبؤ ، بحوادث المستقبل • وبالاضافة الى ذلك ، فان العلم لا يقتصر على ذلك ، بل هو روح ومنهجية علمية ، اكثر منه مجموعة معارف عامة او نظريات تجريبية • فهو في الواقع طريقةونمط معين لحل المشاكل ـ ليس ربما كل المشاكل ، بل قسم كبير من المشاكل العلمية ، وخاصة تلك المشاكل الخاضعة الى قوانين المنطق الاساسية ، وخاصة المادية في طبيعتها• فالعلم اذا هو طريق تنظيم المعرفة حول مثل هذه المشاكل ، بالتركيز عليها ، لتحليلها ولتقويمها ولفحص الافتراضات • وبكلمة ، ان العلم روح ومنهجية علمية وطريق في التفكير والتجربة ، اكثر منه مجموعة معارف عامة ، او نظريات تجريبية ، تتغير وتتجدد ساعة بعد الاخرى •

واما التكنولوجيا (التقنية) ، فهي تطبيق المعرفة والنظريات العلمية ، اذلك تسمى ايضا العلوم التطبيقية • وجدير بالذكر ان التكنولوجيا لا تعني شيئا ، الا اذا وجدت لها مجالا في المجتمع • ويمكننا ان ندرك تطورات التقنية فقط ، عندما نجد تأثيرها على الطريقة التي نعيش فيها ، سواء في مجالات الصحة او الصناعة والزراعة او التعليم او الدفاع والحرب • وتشمل الوسائل التكنولوجية مثلا ، وسائل النقل الحديثة ، والالات الزراعية الحديثة ومبيدات الحشرات ، وادوات التعليم والتقنيات التربوية ، وكذلك المعدات الحربية الحديثة ووسائل الدفاع والدمار من طائرات وصواريخ ومدافع وقنابل ودبابات وبنادق وغير ذلك من وسائل الحرب والمواد اللازمة لذلك (٥)•

ونقصد بالمعركة ذلك الصراع الدائر حاليا بين الامة العربية ، وبين العدو الاسرائيلي والصهيونية والامبريالية العالمية • ولا يقتصر هذا الصراع على النزاع العسكري فحسب ، بل على التحديات التي تواجه الامة العربية في المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية والاعلامية ايضا •

دور العلم والتكنولوجيا في الحروب

والآن نقدم عرضا للدور البارز الذي مثله العلم والتكنولوجيا ، عبر التاريخ ، منذ ايام اليونان القدماء حتى يومنا هذا • ولا يمكن ان نذكر سوى بعض النماذج فقط لضيق المجال • ويعود استخدام العلم والعلماء في المعارك منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، عندما سأل ملك اليونان انذاك العالم الرياضي ، ارخميدس ، كي يخترع اسلحة للدفاع وللهجوم ، تكون اكثر فعالية من اي شيء عرف في ذلك الزمان • وكان ارخميدس قد قال للملك في احد الايام : « اعطني عتلة ومكانا ، لاضعها ، لكي اهز العالم » • ووجه ارخميدس مواهبه الى الالات الحربية ، فاستخدمت معلوماته عن العتلات في بناء المنجنيقات •

وفي العام ٢١٥ قبل الميلاد ، حاصر الاسطول الروماني مدينة سيراكيوز (سرقسطة) اليونانية ، فرست سفن العدو الروماني في الميناء وبعضها وصل الى الشاطىء وربط بالصخور هناك • وفي اثناء الحصار ، ابتدع ارخميدس نوعا من العدسات المصقولة ، استطاعت اشعال النار في الاسطول الروماني ، وذلك بعد تركيز حرارة الشمس على مراكب العدو • فارتعب الرومان من اعمال العالم اليوناني وفكوا الحصار • فاصبحت جميع الاسلحة غير فعالة امام اختراع ارخميدس هذا• وكان اختراعه سلاح الدفاع والهجوم للمدينة • ويقول المؤرخ بوليوس : « ليس من شك في ان الانسان الواحد ، والعقل الواحد ، اذا كان يملك المؤهلات الجيدة للعمل ، الذي كلف به ، يقوم في ذاته مقام جيش • ولا نزال نحن ، في العصور الحديثة ، نعتقد بان هذا القول صحيح • فان فرقة صغيرة من العلماء ، هي التي تمكنت وحدها من صنع الاسلحة النووية الرهيبة (٦) •

وبعد القرن الثاني عشر للميلاد ، ارتبط العلم وصناعة الحرب ارتباطا وثيقا ، ولم يكن ذلك وليد الصدفة • وكان احياء فن الحرب القديم مرتبطا ارتباطا وثيقا بالانتعاش والتطور في المعرفة العلمية القديمة • لقد كان القليلون من العلماء الاوروبيين الاولين جنودا ،

ولكن في القرون الاخيرة ، عمل الكثيرون من العلماء كمستشارين ومعاونين فنيين في الجيوش . لقد سجل عدد كبير من الجراحين العسكريين اسماءهم في سجلات الجيش . وكان عددهم اكبر بكثير من عدد المهندسين ، لان هؤلاء ركزوا ، في مساهمتهم في الحرب ، على اختراع الآلات الحربية ، فضلا عن مساهمتهم في العلم النظري للحرب . وكان ليونارد دا فنشي اول اصحاب العقليات الفذة الاصيلة ، في تاريخ العلم الحديث ، الذي عمل في الهندسة العسكرية . هذا ولقد وجه الكثيرون من اعظم العلماء في ايطاليا وفرنسا وانكلترا ، في اثناء القرن السادس عشر ، واغلب سنوات القرن السابع عشر ، انتباههم الى القضايا ذات الطابع الفني العلمي من صناعة الحرب .

وفي ابان الحروب الايطالية الفرنسية ، في عصر مكيا فيللي ، استخدم الفرنسيون المدافع لتدمير تحصينات القرون الوسطى ، ذات الجدران العالية ، التي كانت حول المدن الايطالية . وكان رد الايطاليين على ذلك ، اختراعهم نموذجا جديدا للقلاع ، ادخلت عليه التعديلات ، فيما بعد ، وظل يستخدم في اوروبا كلها ، حتى فجر القرن التاسع عشر . وهكذا اصبح تخطيط هذه القلاع فنا يتطلب دراية حسابية وهندسية . وكان عدد من العلماء الاختصاصيين ، هم وحدهم ، الذين يعملون في هذا الميدان . ولقد اشتهر من بينهم العالم الرياضي الايطالي ، « تارتاليا » ، والعالم الهولندي الكبير ، « سيمون ستيفن »، وبقيت شهرتهما قائمة بسبب ما اسهما به في الرياضيات والميكانيكا . هذا وكان الكثيرون من العلماء يقومون بتدريس فن التحصينات . وكان من ابرز اولئك العالم الايطالي المعروف، جاليليو ، الذي كان يقوم بتدريس هذا العلم في بادوا . وتجدر الاشارة الى ان هندسة القلاع امتدت الى فرنسا ، حيث علم ملكها انذاك ، فرنسيس الاول ، بمهارة المهندسين الايطاليين ، فاستخدم عددا منهم في جهوده الاولية ، لتحصين حدوده الشمالية والشرقية ، ضد تهديد شارل الخامس .

ونلاحظ في دراسة تطورات المدفعية ، طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، التعاون الوثيق بين المهارة الفنية والمطالب العسكرية، وقد الف العالم ، بير هجوتشو ، كتابا في علم الكيمياء ونشر عام ١٥٤٠ ، وظل هذا الكتاب لوقت طويل المرجع الرسمي للمستحدثات النارية العسكرية ، ولاعداد البارود ولاستخلاص المعادن التي تصنع منها المدافع .

وفي قرابة نهاية القرن السابع عشر ، كان تقدم العلم والمعرفة عاملا دافعا لايجاد التجارب الاولى في التعليم العسكري الفني ، كما كان دافعا لان تتولى حكومتا انكلترا وفرنسا ، رعاية العلم في بلديهما . ونالت الاكاديمية الملكية في لندن قانونها على يد الملك شارل الثاني عام ١٦٦٢ . وبعد اربع سنوات ، انشأت الاكاديمية الملكية الفرنسية للعلوم . وفي هاتين الهيئتين ، اللتين اوجدتا اصلا من البداية للمعرفة النافعة ، اجريت بحوث عدة ذات فوائد عسكرية لكل من الجيش والاسطول . ولقد شغل اعضاء الاكاديميتين ، باجراء دراسات وبحوث في حركة المقذوفات والمفرقعات ، وخواص ملح البارود ، والوسيلة الصحيحة لقياس خطوط الطول في البحر ، وغير ذلك من الموضوعات الاستراتيجية الهامة للجيش وللبحرية (٧) .

وشهد القرن الثامن عشر ثورة في فن الحرب، وذلك بادخال سلسلة من التحسينات في الاسلحة النارية . فما وافت سنة ١٧٢٠ ، حتى كانت بندقية الجندي ، في فرقة المشاة ،تصلح لاطلاق اكثر من طلقة واحدة ، في الدقيقة . ثم اخترع مدفع للميدان خفيف الحمل سهل الاستعمال ، ثم جاءت المدفعية التي تجرها الخيل ، اي « المدفعية الراكبة » (٨) .

وقد بينت الحرب العالمية الثانية اهمية العلم في الصناعة الحربية ، وفي الدفاع القومي، والدور الحيوي الذي يمثله العلم في انتاج الاسلحة الحديثة . ففي سنة ١٩٣٩ تولى العلماء البريطانيون وظائف عالية في الحكومة وفي الصناعة ، لعل قدر كبير من القضايا التي تواجه البلاد من جراء الحرب . وقام ، في الولايات المتحدة الاميركية ، مكتب البحوث العلمية بنفس المهمة ، فوفق الى اختراعات ساعدت على كسب الحرب . ولعل اهم ما يذكر

عن ذلك ، مشروع « مانهاتن » ، الذي نسق بين عدد من مواهب الاختصاصيين ، للكشف عن القنبلة الذرية . وكان الوقت هنا هو العنصر الحيوي ، فتوحدت الجهود للوصول اليها ، وهكذا كان (٩) .

ويمكن القول ان الحرب العالمية الثانية كانت حرب علماء ، الى حد بعيد . فاصبح هؤلاء حماة الامة والمدافعين عن امنها . فالعلماء في مختبراتهم ، الى حد ما ، قد حلوا محل الجيوش والاساطيل ، بفضل اكتشافاتهم واختراعاتهم وابتكاراتهم ولا ريب في ان التطور العلمي والتقني المذهل ، الذي يشهده العالم المتقدم ، بعد الحرب العالمية الثانية ، قد قلب الاوضاع والمفاهيم في مختلف نواحي الحياة العصرية ، سواء في قدرة الامة الدفاعية ، او في قدرتها الاقتصادية والتربوية والسياسية والاجتماعية . ويمكن القول بثقة ، ان ارتفاع مستوى المعيشة ، ومستوى القوة العسكرية ومستوى الصحة في مجتمع ما ، يرتبط ارتباطا مباشرا بمستوى تطور العلوم والتكنولوجيا في ذلك المجتمع (١٠) . ويقول وزير الدفاع الاميركي الاسبق والرئيس الحالي للبنك الدولي ، السيد روبرت ماكنمارا : « ان الدفاع الوطني ، والامن ، في العالم المعاصر ، هو ، في الحقيقة ، الازدهار الاقتصادي والعلمي (١١) » . فلا غرابة ان نجد ان البلدان المتقدمة والبلدان النامية ، على السواء ، تتسابق ، الى انشاء المؤسسات العلمية والمختبرات للبحوث العلمية ، والى ادخال المزيد من المواد العلمية في مناهج التدريس ، والى اعداد المزيد من العلماء وتدريبهم ، اما في جامعاتها ومعاهدها ، او عن طريق البعثات العلمية في الخارج . لان هناك ادراكا متزايدا بين شعوب العالم كافة ، ان مصيرها يتوقف ، في الدرجة الاولى ، على اكتشافات علمائها وتكنولوجييها واختراعاتهم ، وانتاج مصانعها من الالات والمعدات والمواد اللازمة لها (١٢) .

وفي ضوء ذلك ، فان الحل الوحيد ، الذي يضمن للعرب اسباب القوة الاقتصادية والعسكرية ، بالاضافة الى سلاح البترول ، هو الاخذ باساليب العلوم والتكنولوجيا الحديثة .

الوضع الراهن للعلوم والتكنولوجيا في الاقطار العربية

لا ريب في ان القاء نظرة فاحصة على الوضع الراهن للعلوم في الاقطار العربية ، يرينا وجهين : الاول مشرق اجمالا والاخر قاتم . كما نجد عناصر ايجابية يمكن ان نفتخر بها ونشجعها ، يقابلها عناصر سلبية ، لا يمكن السكوت عنها في الوقت الحاضر .

١ ـ الوجه المشرق للعلوم :

اذا القينا نظرة سريعة ، على احوال العلوم والتقنية في البلدان العربية عامة ، نجد بعض التطور ، وان لم يكن كافيا او في المستوى المطلوب . ولعل من ابرز مظاهر هذا التطور او بالاحرى الاهتمام بالعلوم النقاط الآتية :

١ ـ عقد مؤتمرات علمية بعد حرب ١٩٦٧ : من الملاحظ ان الاهتمام بالعلوم بدأ بشكل واضح في اعقاب نكسة حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ . ولعل من اكبر هذه المؤتمرات العلمية « المؤتمر الوطني السابع للانماء » ، الذي انعقد في بيروت في ٢٤ ـ ٢٥ / ١١ / ١٩٧٣ حول « استراتيجية الثورة العلمية والتكنولوجية العربية : تكوين البنية الاساسية للتقدم العلمي والتكنولوجي » . وقد نظم المؤتمر ندوة الدراسات العلمية بالاشتراك مع المركز التربوي للبحوث والانماء . وقد اشترك في المؤتمر مئات العلماء والباحثين وعدد غفير من رجال التربية والاعلام والقانون والانماء والسياسة والطب ، الخ . ولقد جمعت الدراسات التي قدمت في ثمانية اجزاء . ولا ريب في انها تعد مرجعا اساسيا لكل المهتمين بالعلوم والتكنولوجيا . هذا وعقدت ندوة الدراسات العلمية ايضا ، مؤتمرها الوطني السادس للانماء حول « لبنان وتحدي الثورة العلمية التكنولوجية » ، وذلك في بيروت في اواخر تشرين الاول / اكتوبر ١٩٧٣ .

وتعقد الجمعية اللبنانية لتقدم العلوم ، منذ عام ١٩٦٨ ، مؤتمرات علمية ، وبدأت مؤخرا تصدر ملخص البحوث لكل مؤتمر في كتاب ، يعد مرجعا مهما جدا للباحثين . وانعقد في بيروت ايضا ، مؤتمرا حول « العلم والتكنولوجيا

في البلدان النامية » في اواخر عام ١٩٦٧ ٠ وقد نشرت الدراسات في كتاب طبع باللغة الانكليزية ٠

ب ـ انشاء مؤسسات للتعليم الفني والتقني العالي : بدأ بعض الاقطار العربية ينشىء مؤسسات للتعليم الفني والتقني العالي، بشكل يتجاوز الجامعة التقليدية ٠ فهناك معاهد فنية عليا في الزراعة ، الصناعة ، وتدريب المعلمين وغير ذلك من التدريب ، وذلك خارج نطاق الجامعة التقليدي ٠ ففي مصر مثلا ، نجد ، بالاضافة الى مختلف الجامعات ، عددا كبيرا من المعاهد الفنية العليا ، كالمعاهد الصناعية والمعاهد الزراعية او المعاهد التجارية ومعاهد الاقتصاد المنزلي، ومعاهد الخدمات الاجتماعية، الخ ٠ كما نجد معاهد مماثلة في بقية الاقطار العربية (١٣) ٠

ج ـ توسع في الكليات العلمية : في اوائل الخمسينات ، لم يكن في الجامعة الاميركية في بيروت مثلا ، سوى كليتين : واحدة للاداب والعلوم والاخرى للطب ٠ وبعد ذلك بقليل ، اضيفت كلية العلوم الزراعية وكلية الهندسة٠ وهذا الوضع يطبق ايضا على بقية الجامعات في الاقطار العربية ، حيث يجري المزيد من انشاء كليات للعلوم ٠ وفي اوائل عام ١٩٧٥ تحولت كلية الهندسة في جامعة بغداد الى جامعة للتكنولوجيا (١٤) ٠

د ـ انشاء وزارات ومجالس واتحادات ومنظمات علمية : ومن مظاهر الاهتمام في العلوم ، تأليف وزارات خاصة بالعلم والتكنولوجيا (العلوم الصناعية) او بالبحث العلمي ، ومجالس علمية للاشراف على تشجيع البحوث العلمية وتنسيقها وتخصيص مبالغ مالية متزايدة من خطط التنمية الاقتصادية للانماء العلمي ٠ وعلى الصعيد العربي، انشىء اتحاد العلميين العرب ، واتحاد الفيزيائيين العرب ، ومنظمة التربية والعلوم والثقافة العربية ، الخ ٠

٢ ـ الوجه القاتم للعلوم :

ويقابل هذا الوجه المشرق للعلوم ، وجه آخر قاتم ٠ ومن ابرز مظاهر هذا الواقع المرير لاوضاع العلوم الآتي :

أ ـ نقص في الاعداد العلمي : تؤكد احدث الدراسات المتوافرة ، ان ثمة نقصا واضحا في الاعداد العلمي على الصعيد الجامعي ٠ فقد بلغت نسبة الطلاب المسجلين في الجامعات في الاقطار العربية في الحقول العلمية والتقنية ٣٩ بالمائة ، مقابل ٦١ بالمائة للملتحقين بالآداب والفنون (العلوم الانسانية ، الحقوق ، التربية، الفنون الجميلة ، العلوم الاجتماعية) ، في عام ١٩٧٠ ، بيد ان هذه النسبة تبدو ضئيلة بالمقارنة مع اوروبا ، حيث بلغت نسبة طلاب العلوم في الجامعات ٥٨ بالمائة مقابل ٤٢ بالمائة للاداب والفنون في عام ١٩٦٥ (١٥) ٠

ب ـ نقص في معدل خريجي العلوم : وهناك نقص كبير في معدل خريجي العلوم في الاقطار العربية ، حيث بلغ المعدل لكل ١٠٠ الف نسمة من السكان ٣ مقابل ٣٧ لاميركا الشمالية و١٣ لاوروبا ٠ بينما نجد المعدل ٤ لاسيا ، و٤ر١ لاميركا اللاتينية و٣ر٠ لافريقيا (١٦) ٠

ج ـ هجرة اصحاب الكفايات العلمية : تخسر الاقطار العربية اهم ثروة لديها ، اعني بها اصحاب الكفايات العلمية ، عن طريق الهجرة الى الخارج ، ويستفاد من دراسة مصرية ان اكثر من ٥٨ بالمائة من مجموع الذين هاجروا من مصر هم من العلماء والمهندسين و٥ر١٧ بالمائة من حملة شهادة الماجستير في العلوم ٠

وكشف بحث مخصص لخريجي الجامعة الاميركية في بيروت النقاب ، عن ان ٦٥ بالمائة من اللبنانيين ، الذين هاجروا الى بلدان متقدمة ، هم من حملة الشهادات في الهندسة، مقابل ٥ بالمائة فقط لحملة الشهادات في الاداب والفنون والادارة والعلوم ٠ واما بالنسبة لخريجي كلية الطب في الجامعة الاميركية في بيروت فبلغت نسبة الاطباء اللبنانيين ٣٣ بالمائة ، والفلسطينيين ٢٥ بالمائة ، والسوريين ١٨ بالمائة والمصريين ١١ بالمائة ٠ ويؤخذ من دراسة تناولت خريجي قسم الكيمياء في الجامعة الاميركية ، خلال ١٩٣٠ ـ

١٩٧٠ ، ان ٥٤ بالمائة من حاملي شهادة الدكتوراة في الكيمياء ، و٣٢ بالمائة من حاملي الماجستير في العلوم ، و٢٠ بالمائة من حاملي شهادة البكالوريوس في العلوم كانوا يعملون في الخارج خلال ١٩٧٠ - ١٩٧١ (١٧) • هذا وتخسر المملكة الاردنية الهاشمية تقريبا كل علمائها ومهندسيها واطبائها ، كما تخسر سوريا حوالي ثلثي مهندسيها (١٨) •

وهناك نوع آخر من الهجرة ، نطلق عليها « الهجرة الداخلية » • ونقصد بذلك عدم استخدام الطاقات العلمية او سوء استخدامها في المراكز المناسبة • ولا ريب في ان هذا النوع من الهجرة ، هو اسوأ من الهجرة الى الخارج ، كما انه عامل من عوامل دفع العلماء العرب للنزوح الى الخارج •

٣ ـ مقارنة بين الاقطار العربية واسرائيل :

قبل ان نأتي الى البحث ، في اوضاع العلوم في اسرائيل ، يجدر بنا ان نقارن الاحوال العلمية ، في الاقطار العربية وفي اسرائيل ، لنرى مدى التخلف العلمي في العالم العربي • فعلى الرغم من ان عدد سكان الاقطار العربية بلغ ١٣٥ مليون نسمة ، ومساحتها ١٣ مليون كيلومتر مربع ، مقابل اكثر من ثلاث ملايين اسرائيلي ومساحة ٢٠٧٠٠ كيلو متر مربع ، وعائدات بترول قدرت بحوالي ٧٥ بليون دولار، عام ١٩٧٥ ، فما زالت البلدان العربية متخلفة، في الابحاث العلمية والانتاج العلمي • والشيء المرير حقا هو ان الهوة العلمية بين العرب واسرائيل ، آخذة في الاتساع باستمرار ، لصالح اسرائيل ، كما سنبين •

١ ـ الموقف من العلوم : لا بد للدارس من ان يجد بوضوح الاهمال الزائد للعلوم في معظم الاقطار العربية ، بينما نجد اهتماما كبيرا ومواقف جدية تماما ، نحو العلوم في اسرائيل ، فيعتبر الاسرائيليون ان العلوم والتعليم العالي ، كوسائل للسياسة ، يجب حمايتها وتشجيعها بعناية •

ب ـ الانتاج العلمي : على الرغم من ان عدد العرب يفوق عدد الاسرائيليين بمعدل ٤٥ الى (، فان نتاج اسرائيل العلمي في الحقول العلمية يقدر بحوالي مرتين ونصف المرة لجملة نتاج العالم العربي في العلوم • ومعدل نتاج الفرد العلمي في اسرائيل يساوي معدل ١٠٠ فرد عربي • وهل تعلم ان مدينة واحدة صغيرة في اسرائيل ، تنتج ابحاثا علمية اكثر من معظم الاقطار العربية مجتمعة • وعلى صعيد البحوث العلمية ، تنتج اسرائيل وحدها ، حوالي ٣٠ ضعف ما ينتجه لبنان • واذا استثنينا الابحاث التي تقوم بها الجامعة الاميركية في بيروت ، فان النسبة تصل الى ٥٠ ضعفا • وكذلك تنفق اسرائيل على البحوث العلمية ٥٠ ضعف ما ينفقه لبنان •

ج ـ عدد العلماء الناشرين : ويفوق عدد العلماء الناشرين في اسرائيل العلماء الناشرين في العالم العربي • بلغ مجموع العلماء الناشرين في ١٣ قطرا عربيا (٥٥ عالما فقط، في عام ١٩٦٩ مقابل ١٥٤٢ عالما ناشرا في اسرائيل وحدها في العام نفسه • ويلاحظ ان عدد العلماء الناشرين ، في الدول العربية ، يتزايد ببطء بالمقارنة مع اسرائيل • ففي عام ١٩٦٧ ، بلغ عدد العلماء الناشرين في ١٣ قطرا عربيا ٤٦٥ ، وارتفع الى ٧٥٠ عالما في عام ١٩٧١ ،بينما ارتفع العدد في اسرائيل من ١١٢٥ الى ١٧٣٩ عالما ، خلال الفترة المذكورة •

د ـ ابحاث ذرية : تستثمر اسرائيل العديد من الابحاث في الفيزياء النووية والهندسة النووية • ويتزايد الحديث عن ان اسرائيل تملك الطاقة العلمية لانتاج اسلحة ذرية ، بيد انها لا تملك قنبلة الآن ، ولكنها تستطيع ان تنتج اسلحة ذرية في خلال ستة اشهر الى سنة واحدة • ولا يملك اي بلد عربي الامكانيات العلمية الاساسية في حقل الذرة •

هـ ـ انفاق على البحوث : ينفق العرب على البحوث العلمية حوالي ١٠٠ مليون دولار في السنة ، بينما تنفق اسرائيل ثلاثة اضعاف هذا الرقم • ويؤخذ من احدث الاحصاءات ان الابحاث العلمية آخذة في التوسع والنمو بمعدل ٢٦ بالمائة في السنة •

و ـ العلوم الصناعية : لقد ادى اهتمام

اسرائيل بالعلوم والابحاث العلمية ، الى تنمية الصناعة ، وخاصة في حقل صناعات الكهرباء والالكترون • وانشأت اسرائيل٢٠٤ر١ مؤسسات صناعية ، في هذا الحقل بين ١٩٦٣ و ١٩٧٠ • وبالاضافة الى القيمة الاقتصادية الكبرى لهذه الصناعة ، فانها مهمة وحيوية في المجال العسكري والحربي • ومقابل ذلك ، لا نجد اية صناعة كهربائية عامة ، يمكن مقارنتها ، بتلك في اسرائيل • كما لا يتوافر في اي بلد عربي دروس جامعية مناسبة ، في حقول الهندسة الكهربائية الملائمة لصناعة الالكترونيات •

ز ـ **الحاسبات الالكترونية** : وما زالت الالات الحاسبة الالكترونية (كمبيوترز) في البلدان العربية ضئيلة ، بالمقارنة مع اسرائيل • ويقدر عدد الالات هذه ، اكثر من عشرة الاف حاسبة، اي اكثر من جملة الالات الحاسبة في الاقطار العربية مجتمعة • وينتج المركز الالكتروني الواحد ، من المراكز الاربعة في اسرائيل ، عدة مرات ما تنتجه الالات الالكترونية في البلدان العربية مجتمعة (١٩) •

ح ـ **اصدار الكتب العلمية والتقنية** : تصدر سبعة اقطار عربية ، وهي : مصر والسودان وليبيا والمغرب والاردن والكويت وقطر ٥٨٤ كتابا في العلوم البحتة والتطبيقية ، من اصل ٣٢٥١ كتابا في المواضيع كافة ، اي بنسبة ١٥ بالمائة ، وذلك لعام ١٩٧١ او ١٩٧٢ ، مقابل ٣٠٣ كتب علمية لاسرائيل في الفترة نفسها ، مع العلم ان عدد سكان هذه الاقطار مجتمعة ، لا يقل عن ٢٥ ضعفا اكثر من عدد سكان اسرائيل • وتجدر الاشارة الى ان اصدار الكتب العلمية سمة من سمات الدول المتقدمة في العصر الحاضر • تبلغ نسبة الكتب العلمية لمجموع الكتب الصادرة مثلا في الاتحاد السوفياتي ٥١ بالمائة ، وفي فرنسا ٢١ بالمائة ، وفي اليابان ٢٢ بالمائة • وبكلام اخر طبع الاتحاد السوفياتي ٥٩٣ر٤١ كتابا علميا وتقنيا عام ١٩٧١ ، اي ٧١ مرة اكثر من جملة الكتب الصادرة في الدول العربية السبع المذكورة • وطبعت اليابان ٧ر٦٥ كتابا علميا وتقنيا ، اي اكثر بـ ١٣ مرة من الاقطار العربية المذكورة • وطبعت فرنسا ٤ر٣٥٤ كتابا علميا وتقنيا ، اي اكثر من الاقطار العربية المذكورة(٢٠) •

٤ ـ هل يخدم العلم العربي المعركة ؟

هناك علاقة وثيقة بين مستوى تطور العلوم والتكنولوجيا وتقدمها وبين مستوى القدرة العسكرية في اي بلد • فالامة القوية علميا وتكنولوجيا ، هي امة قوية عسكريا واقتصاديا وسياسيا واعلاميا ، الخ • والعكس صحيح •

وتجدر الاشارة الى ان قدرة البلاد العسكرية ، تأتي من الربط بين النشاط العلمي والتقني ، وبين متطلبات القوات المسلحة من اسلحة متطورة وحديثة • ونذكر هذه الحادثة لنبرهن على عدم ارتباط قواتنا المسلحة بالعلم وبالعلماء • اشترت احدى الدول العربية صواريخ ارض ـ ارض ، بمبلغ ٣٠ مليون دولار ، وذلك بعد حرب ١٩٦٧ • وتنطلق هذه الصواريخ بقوة دفع مائية ، لانها مصممة في الاساس للاستعمال في المناطق الباردة من الارض عامة • ونظرا لمناخ البلاد العربية الحارة ، لم تستطع استعمال هذه الصواريخ • وهكذا ذهبت الصواريخ هدرا (٢١) ، وان دلت هذه التجربة على شيء ، فانما تدل على مدى اهمية المواصفات العلمية والتقنية في اختيار الاسلحة الملائمة لكل بلد •

غير انه جرت محاولات عربية عديدة ، خلال الاربعين السنة الماضية ، لاقامة صناعات حربية ، الا انها لم تحقق سوى القليل من النجاح الجزئي ، والباقي باء بالفشل التام • ونذكر على سبيل المثال بعض هذه المحاولات • فقبل اكثر من ٤٠ سنة مثلا ، انفقت دولة عربية مبالغ باهظة على مشروع حربي لصناعة اسلحة صغيرة • بيد ان اول انتاجه كان قبل سنتين فقط ، وكان دون المستوى المنشود • وحصلت محاولة اخرى لانشاء مصنع حربي ، خلال الفترة المذكورة ، وما زالت حتى الان معداته في صناديقها ، مكدسة في عنابر مهجورة • وانفق قطر عربي اكثر من ١٦٠ مليون جنيه في صناعة الصواريخ ، ولكنه لم يطلق صاروخا واحدا من انتاجها في اي من الحروب العربية ـ الاسرائيلية الماضية • ولم يكن حال

صناعة الطائرات افضل من ذلك ، على الرغم من توافر الاحتياجات الرئيسية لها • ويذكر ان بعض المحاولات قد لاقت نجاحات جيدة في المراحل الاولى لها ، ولكن ما لبث العمل فيها ان تعثر وفشل كليا ، بسبب فرض الادارات الصناعية التي تفتقر الى الخبرة والشجاعة والنزاهة •

وفي المقابل ، نجد ان هناك مشاريع صناعية حربية ، قد نجحت ونمت ، ولا زالت تنتج حتى الان ، ومنها صناعة المسدسات والبنادق والذخائر وانواع اخرى • ويبدو ان الجزء الاكبر من انتاج الصناعة الحربية العربية ، تتركز في مصر وسوريا • ففي مصر مثلا تنتج الذخائر لكثير من انواع البنادق والمدافع ، مسدسات حلوان ، بنادق متنوعة ، القاذف « ار • بي • جي ٧ » ، المضاد للدروع ، ودبابات صغيرة • اما في سوريا ، فتنتج ذخائر للبنادق وبعض انواع المدافع •

وهكذا يتضح ان العلوم والتقنيات في الاقطار العربية ، لا تخدم المعركة ، لعدم وجود القاعدة الصناعية التقنية ، بكافة كوادرها الفنية المطلوبة ، بالاضافة الى عدم التخطيط الجيد وعدم جدية القائمين على هذه المحاولات في معظم الاحيان (٢٢) •

٥ ــ اسباب تخلف العلم العربي :

بعد عرضنا لهذه الصورة القاتمة للواقع المرير للعلم والتكنولوجيا ، السؤال الذي يطرح نفسه الان هو : ما هي الاسباب الكامنة وراء هذا الواقع العلمي الاليم ؟ ثمة عدة اسباب رئيسية يمكن ان تعتبر مسؤولة عن تخلف العلوم في الاقطار العربية في الوقت الحاضر •

ــ **انظمة التربية والتعليم** : يبدو ان انظمة التربية العربية ، التي تعتبر مسؤولة بالدرجة الاولى ، عن تطور المجتمع العربي وتقدمه ، اقتصاديا واجتماعيا وعلميا وسياسيا ، هي ، اعجز من ان تواكب حاجات المجتمع العربي المتطورة حاليا ، وكذلك حاجات المجتمع المحارب والمتقدم ، الذي يجب ان تسعى التربية الى تحقيقه • لذا ينبغي اجراء اصلاحات جذرية في انظمة التعليم لتطويرها وتحديثها ، كي تساهم في بناء مجتمع عصري ومتقدم ، يستطيع ان يواجه التحديات الصهيونية والامبريالية بالممارسة النضالية المسلحة وباستخدام العلم والتكنولوجيا في خدمة المعركة •

ــ **هجرة العلماء العرب** : ان افضل علماء العرب يعملون حاليا في الخارج ، حيث المناخ العلمي المناسب والتقدير والتشجيع المادي والمعنوي • ويعود السبب في ذلك الى انه لا يتوافر حتى الان ، اي مخطط عربي هادف ، يمكنه استقطاب هذه الادمغة العلمية في العمل العلمي العربي • وبذلك اصبح التعليم ، سواء تم في الاقطار العربية نفسها او في البلدان الاجنبية ، وسيلة للهجرة ، وليس اداة فعالة ، كما يجب ان يكون للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والعلمية ، الخ •

ــ **عدم حشد العلماء العرب** : ومن اسباب التخلف العلمي العربي ، عدم توافر مؤسسة علمية عربية عليا ، ذات مستوى رفيع ومتقدم تستطيع ان تقرب فيما بين العلماء وتنسق مجهوداتهم وتوحد امكانياتهم العلمية ، لصالح دعم المجهود العربي في سبيل التقدم الصناعي والعسكري •

ــ **وضع العالم في المكان غير المناسب** : ومن عوامل عدم مساهمة عدد كبير من العلماء العرب في الاقطار العربية ، في تطور العلوم والتكنولوجيا ، وضع هؤلاء في مراكز غير التي يجب ان يكونوا فيها • اي انهم اضطروا ان يقوموا باعمال ادارية بحته ، بدلا من القيام بابحاث علمية منتظمة للانماء والتطوير ، وذلك للنقص الفادح في المراكز والمختبرات العلمية المناسبة لاختصاصاتهم •

ــ **معاهد للبحوث بدون ابحاث** : ونلاحظ ان مراكز البحوث العلمية نفسها ، التي تنشأ عادة لتطوير العلم والتكنولوجيا هي نفسها بحاجة الى تطوير • فقد انشأت دولة عربية نفطية معهدا للابحاث العلمية عام ١٩٦٩ • ويقول احد العلماء الذي قضى عاما دراسيا فيه (١٩٧٤ ــ ١٩٧٥) ، ان المعهد لم ينتج حتى دراسة واحدة مناسبة ، للقضايا التي تعانيها البلاد ، كالتلوث وتحلية مياه البحر وتحضير

البدو وغير ذلك ، وتبلغ ميزانية المعهد ١٠ ملايين دولار ، تنفق معظمها على تمويل الرحلات للمؤتمرات التي لا ترتبط بالقضايا الملائمة (٤٣) .

- **العيش على هامش العصر** : لا تزال الاقطار العربية تعيش على هامش هذا العصر ، علميا وتكنولوجيا . ولم يعد يجوز لاية امة ، تريد الحياة الكريمة والقوة والتقدم ، في عصر الانطلاق العلمي والتقني الهائل ، ان تظل عالة ، على مفكري وعلماء البلدان الاجنبية و « مستعمرة » للعلماء الاجانب (٤٤) .

- **تراجع لدور العلم** : وربما تكمن اساس المشكلة في ان العرب - قادة وشعبا - لا يدركون تماما اهمية العلم والتكنولوجيا في تطور البلاد اقتصاديا وعسكريا وتقدمها . ويبدو ان العلم ما انفك ، بالنسبة للعرب ، شكلا من اشكال الزينة ، لا يستحق من المرء ان ينزعج في التفكير به ، او ان يعيره اي انتباه . فادراك معظم العرب ، لدور العلم ، في الوقت الحاضر، ليس بافضل من ادراكهم لدوره مثلا ، في عهد محمد علي في مصر عام ١٨٣٠ ، وفي عهد الامير عبد القادر الجزائري عام ١٨٤٠ . لذلك قلما نجد اشراك رجال العلم في الهيئات التشريعية، وكذلك قلما نجد اخبار العلم والعلماء ، تحتل مكانة بارزة في وسائل الاعلام الجماهيرية ،اللهم الا اذا كان الحادث خطيرا جدا ، كالهبوط على سطح القمر والتحام المركبتين الفضائيتين الاميركية والسوفياتية ، « ابوللو وسيوز » في عام ١٩٧٥ (٤٥) .

٦ — الثورة الفلسطينية والعلم :

والبحث عن العلم والتكنولوجيا ، في الاقطار العربية ، يقودنا بالطبع الى موقف الثورة الفلسطينية من العلم والتقنية . يبدو ان الثورة الفلسطينية تدرك دور العلم ، في بناء جيل ثوري وموضوعي ، يعتمد على التفكير العلمي ، وعلى استخدام العلم ، كسلاح حقيقي للارادة الثورية . فالثورة لا تحارب العدو الصهيوني بالكفاح المسلح او بالنشاط العسكري فحسب ، بل **بالعلم كسلاح** ايضا ، وذلك ايمانا منها ان التفوق ، العسكري والسياسي والاعلامي والاقتصادي ، يعتمد ، في الاساس ، على العلم والتكنولوجيا . فقد اسست منظمة التحرير الفلسطينية مراكز للابحاث والتخطيط من الدرجة الاولى . ويظهر ايمان الشعب الفلسطيني بالعلم ، من الشعار الذي اعتمده الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين ، في ندوته حول « دور المهندس العربي في معركة الصمود » ، والتي انعقدت في بغداد في نيسان / ابريل عام ١٩٧٥ . وكان الشعار : « **بالبندقية وبالعلم ننتصر** » .

ويلاحظ ان فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، التي اعدها قسم التخطيط التربوي في منظمة التحرير الفلسطينية ، تتمثل في « اعتبار التربية عملية دينامية ومتطورة ، ترتبط ارتباطا وثيقا بالتطور **العلمي والتكنولوجي** والاجتماعي » . وتشجع التربية والتجارب والابحاث التربوية من اجل العمل والتحسين على المستويات كافة. وتدعو التربية الفلسطينية ، في وضع المناهج والمقررات الدراسية ، الى اتباع « **الاسلوب العلمي** في البحث والتفكير والاستنتاج ، وفي تمييز المعلومات الصحيحة من الخاطئة » (٤٦) .

هذا ويقول الثائر والقائد الشهيد ، كمال عدوان : « ان العمل الثوري ، لا بد وان يكون مستندا الى تحليل **علمي** للواقع الملموس ... » (٤٧) .

كانت هذهبعض النماذج عن المكانة المرموقة التي يحتلها العلم الحديث في الثورة الفلسطينية ، التي تسعى الى تحرير فلسطين والعودة ، باستخدامها **البندقية والعلم معا** .

العلم في خدمة الحرب في اسرائيل

ادركت الحركة الصهيونية مدى دور العلم واهميته في « بناء الدولة » الصهيونية في فلسطين، فبدأت تخطط، في تطور العلوم البحتة والتطبيقية ، بهمة لا تعرف الكلل ، وبادراك موضوعي ، للمكانة الهامة التي يمثلها العلم في السلم وفي الحرب على السواء . وعلى هذا اتخذت الصهيونية العلم اساسا من اسس اقامة دولة اسرائيل في فلسطين . ويعود اهتمام الحركة الصهيونية ، في العلم وفي التعليم

العالي ، منذ بداية هذا القرن ، عندما اسست معهد اسرائيل التكنولوجي (التخنيون) ، في فلسطين عام ١٩١٢ ، ووضع حجر الاساس للجامعة العبرية ، في القدس عام ١٩١٨ (٢٨) . وكان حاييم وايزمان ، زعيم الحركة الصهيونية واول رئيس لاسرائيل ، عالما كيماويا وباحثة ، يحض دوما على غرس العلم في فلسطين على كافة المستويات .

وحددت الصهيونية طبيعة جامعاتها ، في فلسطين ، قبل الحرب العالمية الاولى ، ان تكون على غرار الجامعات الالمانية ،اي ان يمثل **البحث العلمي** دورا اساسيا في حياة تلك الجامعات . ويعود تعلق الصهيونيين بالعلم الى طبيعة الحركة الصهيونية ، في كونها حركة اوروبية في الاساس ، الامر الذي جعل العلم ، من حيث فهمه والايمان به ، اصيلا في نفوس الصهيونيين المستوطنين في فلسطين . وكان يهود اوروبا ، وخاصة يهود المانيا يدركون اهمية **الجامعات ومراكز البحوث** في عملية «بناء الدولة » ، وفي التفهم العميق للدور المصيري الذي تمثله الجامعات ومراكز البحوث في حياة الدولة الحديثة ، اية دولة (٢٩) .

ونتيجة لاهتمام اسرائيل بالعلم ، فلا غرابة ان نجد ، ان جامعاتها تمنح اكثر من ١٥٠ شهادة دكتوراه سنويا ، معظمها في العلوم ، اي بنسبة ٨٥ بالمائة من كل مرشحي طلاب الدكتوراه هم في العلوم البحتة والتطبيقية ، مقابل ١٥ بالمائة من المرشحين للدكتوراه في الانسانيات والحقوق والعلوم الاجتماعية (٣٠) .

١ ـ **تكنولوجيا الحرب الاسرائيلية** : مما لا ريب فيه ان التكنولوجيا ، وخاصة تكنولوجيا الحرب ، هي حصيلة العلم ، وكذلك التحسينات والتعديلات الصغيرة في تكنولوجيا الحرب ، لا يمكن ان تتم بغير **ابحاث** علمية . وتعتبر اسرائيل نموذجا مثاليا حقا ، لدولة صغيرة في هذا المجال . فلم تستطع فقط ، ان تستوعب المعدات التكنولوجية المتطورة ، التي تستوردها لجيشها ، ولكنها قامت بادخال **تعديلات** كثيرة على هذه المعدات ، كما سنرى ، مما مكنها من استخدام عنصر المباغتة في عملياتها التكتيكية (٣١) .

٢ ـ **الجيش والعلم** : يتمتع الجيش الاسرائيلي بنفوذ كبير في توجيه الابحاث العلمية ، وكذلك في مختلف اوجه النشاط الجامعي . ويبدو ان المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، قد بدأت اهتماما مبكرا بفنون الحرب الحديثة ، رغبة منها في تطوير قوة نووية مستقلة، لذا تفاعلت المؤسسة العسكرية، مع المؤسسة العلمية ، اي المجلس الوطني للبحوث والانماء ، الذي اسس في عام ١٩٥٩ ، كما ابدى المجلس اهتماما كبيرا بتطوير القطاع المدني ايضا . ويذكر ان اول مجلس للبحوث في اسرائيل ، كان قد اسس في عام ١٩٤٩ ، ثم قام بدوره بتأسيس معظم المختبرات الصناعية في اسرائيل . ولما كان الجيش يعتمد اعتمادا كبيرا على العلم ، لذا يمكن الاستنتاج ان القطاع العسكري يمثل الدور الرئيسي ، في وضع السياسة العلمية وتنفيذها (٣٢) .

٣ ـ **وزارة الدفاع والبحث العلمي** : وتبذل وزارة الدفاع الاسرائيلي جهودا كبيرة ، لتشجيع العلوم البحتة في البلاد كلها وتطويرها . فانشأت « هيئة الطاقة الذرية » ، التي تدير مركزين للابحاث النووية ،واثنتي عشرة صناعة ذات صبغة عسكرية في ميادين الالكترونيات والطيران النفاث . والقت الوزارة ، في الواقع، بكل ما لديها من ثقل سياسي ومادي في سبيل : (أ) تأمين الدعم الكافي للمعاهد العلمية في الارض المحتلة ، (ب) وانشاء معاهد ، ضمن اطار القطاع العسكري ، مهمتها تسخير العلوم والتكنولوجيا في خدمة آلة الحرب ، وكما يستطيع العاملون في هذه المعاهد تحديد المشاكل التقنية العسكرية ، وعرضها على العلماء والباحثين كافة في سائر انحاء فلسطين المحتلة، (ج) تأمين الدعم الاقتصادي والسياسي ،اللازم لانشاء صناعات تتعلق بشؤون الطيران والالكترونيات ، لسد حاجات القطاع العسكري الاسرائيلي (٣٣) .

٤ ـ **استفادة اسرائيل من جهدها العلمي** : استطاعت اسرائيل ، في المجال العسكري ، ان تسخر قاعدتها العلمية في تحقيق اهداف كثيرة، منها : (أ) امكانية انتاج القنبلة النووية . (ب) تطوير انظمة مواصلات آلية متقدمة ذات اهمية حيوية . (ج) تطوير معدات مناسبة

للحرب الليلية وانتاجها وشرائها • (د) بلوغ المقدرة على استعمال وسائل الحرب الكيماوية والتكنولوجية• (هـ) تطوير الصناعات العسكرية الاساسية والعمل للوصول الى مستوى الاكتفاء الذاتي ، خلال الربع الاخير من القرن العشرين• (و) انتاج المعدات العسكرية البصرية الضرورية وتطويرها ، ومتابعة احدث التطورات الخاصة باستعمال الاشعة الضوئية المركزة (Laser) في اكتشاف الاهداف وتحديد مداها ، الخ •

ومن الواضح ان القضايا التكنولوجية المذكورة ، تتطلب قاعدة علمية قوية • ويبدو انها متوافرة في الوقت الحاضر لدى اسرائيل • فاسرائيل تحتل مركزا علميا ممتازا ، اذا ما قورنت بالدول المتقدمة ، سواء تمت هذه المقارنة على اساس عدد السكان ، ام على اساس الناتج القومي الكلي • فهي تحتل المرتبة السابعة عشرة ، بين غيرها من بلدان العالم ، من حيث عدد العلماء الناشرين ، مثلا (٣٤) •

٥ ـ علاقة وثيقة بين الجندي والعالم : وثمة علاقة وثيقة جدا بين الجندي الاسرائيلي الذي يستعمل السلاح وبين المهندس او العالم ، الذي يعمل على تطويره • ويعمل الجميع سويه على اكتشاف الوسائل ، لجعل السلاح اكثر ملاءمة مع الحاجات الخاصة الاسرائيلية (٣٥) •

٦ ـ تعديل الاسلحة وتطويرها : تلقى انقطاع العسكري في عنصريه ـ البحث والانتاج ـ اهتماما كبيرا ، منذ قيام اسرائيل ، ولكنه اندفع دفعة قوية ، ولاقى دعما كبيرا بعد حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ • اذ حاولت اسرائيل ان تنفذ سياسة اكتفاء ذاتي ، خاصة في تصنيع الاسلحة الخفيفة وقطع الغيار ، بعد الحظر الفرنسي في اعقاب حرب الايام الستة • وفي هذا المجال ، اعتمدت اسرائيل ، على نتائج الابحاث والتطوير ، في البلدان المتقدمة ،وخاصة في الولايات المتحدة الاميركية ، فاستوردت المعلومات وبراءات الاختراع ، وعملت لتكييفها وتطويرها في مؤسساتها العلمية ، كي تخدم حاجاتها العسكرية • هذا وقد توصل رؤساء جهاز الامن الاسرائيلي ، بعد حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، الى استنتاج : انه من الضروري بذل جهد اكبر بكثير من الماضي ، في تطوير وسائل قتال ذاتية • وكان احد الاستنتاجات هو ، انه نظرا الى عدم قدرة الجيش الاسرائيلي على سد الثغرة الكمية بينه وبين الجيوش العربية ، يجب بذل الجهود لزيادة الفجوة النوعية • واحدى الطرق للمحافظة على نسبة ملاءمة ، كما ونوعا ، بين الجيش الاسرائيلي والجيوش العربية ، هي تطوير اسلحة حديثة ، وكذلك الانتاج المستقل لاسلحة متقدمة •

أ ـ تعديل الدبابات وتطويرها : يقوم العلماء والتكنولوجيون في اسرائيل ، بادخال تعديلات في الدبابات المستوردة وتطويرها • فلقد كشفت اسرائيل النقاب ، في ١٩٧٣/٢/١٢ ، انها ادخلت تعديلات مهمة ، على دبابات « سنتوريون » مارك ٥٠ • وكان ابرزها تغيير المدفع الاصلي ، عيار ٨٥ ملم ، بمدفع عيار ١٠٥ ملم ، وكذلك استبدال المحرك ، الذي كان يعمل على البنزين ، وقوته ٦٥٠ حصانا ، بمحرك ديزل اميركي ، بقوة ٧٥٠ حصانا • وزادت سرعتها من ٣٥ كلم في الساعة الى ٤٣ كلم في الساعة، وزودت باجهزة الرؤية الليلية •

وطورت اسرائيل الدبابات ت ـ ٥٤ و ت ـ ٥٥ ، السوفياتية الصنع ، التي استولت عليها في حرب ١٩٦٧ • ففيرت مثلا ، اجهزة الاتصال والتصويب واجهزة الانارة ، وركبت جهاز رماية كهربائيا ، كما استبدلت المدافع الاصلية بمدافع عيار ١٠٥ ملم ، البريطانية التصميم والاسرائيلية الصنع •

وبالاضافة الى ذلك ، فقد تم تصميم وصنع دبابة ، في اسرائيل ، دعيت « سابرا » وزودت بمدفع عيار ١٠٥ ملم الاسرائيلي • ويقال انها صممت خصيصا لتعمل في الصحراء •

ب ـ تصميم المدفعية وصنعها : وتنتج اسرائيل معظم المدافع ، وذلك عن طريق شركة سولتام الاسرائيلية التي تأسست عام ١٩٥٠ ، وتصدر الشركة الآن ٦٠ بالمائة من انتاجها ، الى حلف الاطلسي في اوروبا والى دول في افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية • وصممت الشركة مدفعا مضادا للمدرعات وصنعته بعيار

٩٠ ملم ، ويمكن ان يطلق النار في الاتجاهات كافة ٠ وهو نصف آلي ، وطوله ٧ر٢ قدم ، وطاقمه خمسة جنود ٠ وكشف الاسرائيليون عن مدفع جديد ، ل ـ٣٣ ، من عيار ١٥٥ ٠ يحمل هذا المدفع ٦٠ قذيفة ومزود بجهاز تلقيم نصف آلي ، ويسير ٢٠ ساعة متواصلة ، بسرعة قصوى تصل الى ٥٨ كلم في الساعة ٠ وتصل سرعة اطلاق النار الى ثلاثة قذائف في الدقيقة، كما يصل مداه الى ٢٠ كلم ٠

جـ ـ رشاشات وبنادق لسلاح المشاة : ويصمم الجيش الاسرائيلي ويصنع رشاشات وبنادق يستعملها سلاح المشاة ٠ ومن اهم الرشاشات هذه ، « اوزي » ، الذي يعتبره البعض احسن رشاش خفيف متوافر في العالم اليوم ٠ ويطلق ٦٠٠ طلقة في الدقيقة ٠ وقد صدرت اسرائيل هذا الرشاش الى المانيا الاتحادية ودول اوروبية اخرى ٠ وتصمم اسرائيل وتصنع بندقية « غاليل » ، عيار ٥ر٥٦ ملم ، تطلق نظريا معدل ٦٥٠ طلقة في الدقيقة ، ويمكن ان تستخدم لاطلاق القذائف المضيئة وقذائف مضادة للدروع ورمانات شديدة الانفجار ويقال انها افضل من بنادق الكلاشينكوف ومن م-١٦ الاميركية ٠

د ـ سلاح البحرية : واظهرت التقنية الاسرائيلية تقدمها في ابان حرب ١٩٧٣ ، في سلاح البحرية ٠ اذ وفق الاسرائيليون باعتراض صواريخ « ستيكس » السوفياتية ، بواسطة آلة الكترونية ، صممها العلماء في اسرائيل ، تستطيع تغيير وجهة سير صاروخ « ستيكس » في اثناء رحلته ٠ وتصنع اسرائيل ، منذ عام ١٩٦٩ ، حوامات تدعى « ليدي بارد » ٠ وهي من تصميم شركة اسرائيلية اميركية وانتاجها٠ ولعل اهم ما ينتجه العلماء ، في اسرائيل ، للسلاح البحري ، هو صاروخ « غبرئيل » ٠ وقد عرض لاول مرة عام ١٩٧٠ ٠ وهو صاروخ موجه من السفن الى السفن ، وتنتجه مؤسسة صناعة الطائرات الاسرائيلية ٠ ويستطيع هذا الصاروخ ان يعمل في جميع الاحوال الجوية ، ولا تؤثر فيه المعطلات الالكترونية ٠ ويتبع هذا الصاروخ ، في مساره ، خط طيران منخفض جدا فوق الامواج ويصيب الهدف بدقة بالغة ٠

هـ ـ تطوير سلاح الجو : تركز جهود العلماء والتكنولوجيين في اسرائيل على صناعة تطوير سلاح الجو ٠ وثمة عدة صناعات قد نمت وازدهرت ، لارتباطها ، بشكل مباشر او غير مباشر ، بالصناعة الجوية ٠ ويعمل الآن في مؤسسة صناعة الطائرات الاسرائيلية (ص٠ ط٠ أ٠) نحو الف شخص ٠ وتستوعب المؤسسة معظم خريجي معهد تخنيون ، في حقل العلوم الفضائية والجوية ٠

وتنتج اسرائيل طائرة « عرافا » ، وهي طائرة خفيفة معدة للاستخدامين العسكري والمدني ٠ وبدأ تصميمها منذ عام ١٩٦٦ ٠ وهي مصممة ، بحيث تتمكن من الاقلاع والهبوط على مدارج قصيرة (١٢٠ ـ ١٥٠ مترا) وغير معبدة ٠ وتستطيع ان تحمل ٢٠ جنديا بكامل اسلحتهم ، او حوالي طنين من الذخيرة ٠ وتم تجهيز طائرة عرافا الاولى لحساب المكسيك ، في حزيران / يونيو ١٩٧٣ ٠ ويبلغ المعدل الحالي للانتاج طائرتين في كل شهر ٠ وشاركت طائرة عرافا في حرب ١٩٧٣ ،وكانت مهمتها الاساسية نقل الجنود من الجبهة واليها ، وكذلك نقل الجرحى والقتلى ٠

واجرت اسرائيل تعديلات على طائرة « كومودور ـ جت » الاميركية ، التي اشترت حكومة اسرائيل الادوات الخاصة بصنعها في عام ١٩٦٧ ، فاستخدمت محركات اقوى ،وزادت طول هيكل الطائرة لتستطيع نقل ١٠ اشخاص، بدلا من ثمانية ، كما اضافت تحسينات اخرى على الاجهزة الكهربائية وغيرها ٠ ويذكر ان هذه الطائرة ، كانت مصممة اصلا ، لاستعمال رجال الاعمال ورؤساء الدول في رحلات قصيرة ٠ وقد اتمت ص٠ط٠أ٠ صنع النموذج العسكري الاول لطائرة « وست ويند ـ ١١٢٣ » لصالح قوات خفر السواحل الاميركية عام ١٩٧٣ ٠ ويقدر انتاج الشركة من « وست ويند ـ ١١٢٣» بأربع طائرات في الشهر ٠

وتصنع اسرائيل ايضا طائرة « باداك » المقاتلة النفاثة ، وهي اسرع من الصوت ، ربما بمرتين ونصف المرة ٠ وكشف النقاب لاول مرة عن هذه الطائرة ، ابان حرب ١٩٧٣ ، حين تبين ان حوالي ٢٥ طائرة ، من هذا النوع ،كان

قيد الاستعمال • ومن المعروف ان الطائـــرة المذكورة مشابهة جدا لطائـرة ميراج ـ ٣ • وكانت تصنع ، في الاساس ، تحت اســـم « سوبر ميراج » • وقد سرق مهندس سويسري تصاميم هذه الطائرة ، في صيف عام ١٩٦٩ ، وسلمها الى اسرائيل • واستعانت اسرائيل في تصنيع هـــذه الطائرة بالمعلومات وبالخبـرة التقنية ، التي حصلت عليها من شركة «داسو» الفرنسية ، عندما كانت العلاقات مع فرنسـا متينة • هذا واتفقت الحكومة الاسرائيلية ، في اوائل عام ١٩٧٣ ، مـع الحكومـة الاميركية ، لتساعدها في انتاج هذه الطائرة • وهكذا يتضح ان دور اسرائيل محدود في تصميم المعـــدات الحربية وصنعها (٣٦) •

و ـ تطوير « قنبلة الاسمنت المسلح » : ان العلماء المختصين والمهندسين العاملين في مراكز الابحاث العلمية ، هم وحدهم القادرون عـلى تزويد القوات المسلحة ، بكل ما تحتاج اليـه من مشورة ومساندة علمية وتقنية • فهـــم الذين يعينون رجال الاستراتيجية والتكتيك ، على تطوير العمليات العسكرية المبتكرة ،وذلك عن طريق ابداء الاراء الصائبة ، فيمـا يتعلـق بكل مـا يمكن عمله عـلى ضـوء المعلومات المتوافرة ، ثم عن طريق المساعدة العلمية فـي اختيار المعدات والاسلحة وتكييفها ، بحيـث تصبح قادرة على الايفاء ببعض متطلبـات القوات المسلحة الخاصة • ونذكر ، على سبيل المثال ، تطوير « قنبلة الاسمنت المسلح » فـي اسرائيل •

فقد اتخذ سلاح الجو الاسرائيلي قرارا بـأن تحلق طائراتـــه ـ لدى مهاجمتها للاهـداف العربية ـ على ارتفاعات منخفضة لا تتجـاوز السبعين مترا ، لكي تتجنب شبكات الرادار العربية • ويذكر ان الطريقة التقليدية المتبعة لتدمير المطارات المعادية هي ، ان ترتفع الطائرة المغيرة ، رأسيا ، فوق الهدف ، على ارتفـاع شاهق جدا ، ثم تلقي بحمولتها من القنابل والمتفجرات • الا ان هذه الطريقة تجعل مـن الطائرة هدفا سهلا للنيران المضادة ، كما انها قد تؤدي الى انزلاق القنبلة على ارض المطار بغير ان تخترقه • بيـد ان العلماء المختصين والمهندسين الباحثين الاسرائيليين ، طـــوروا « قنبلة الاسمنت المسلح » للتغلب على هـذه القضايا • ولقد صممت القنبلة ، التي يبلـغ طولها ثمانية اقدام وقطرها قدم واحد ووزنها ٢٠٠ كلغ ، بحيث تتناقص سرعتها تدريجيا اثر مغادرتها للطائرة ، التي تحلـق بسرعة ٦٠٠ ميل في الساعة • ويتم ذلك بفعل اربع عبوات موضوعة ، بين زعانفها ، تنفجر في اتجـاه الارض ، وتؤدي بذلك الى أن تتجه مقدمـة القنبلة الى اسفل • وفي هذه اللحظة بالذات ، يعمل محرك نفاث كائن في مؤخرة القنبلة ، مع قوة الجاذبية الارضية ، على تحسين مقـدرة القنبلة على اختراق ارض المطار (٣٧) •

ز ـ فوائد الصناعة الجوية : ولا بد مـــن الاشارة الـى الفوائد الكثيرة التـي يجنيهـا المجتمع الاسرائيلي ، من الصناعة الجويـــة الاسرائيلية • فهي تعود بفوائد كبيرة في مجال تنمية القدرة العلمية والتقنية في اسرائيل ، وكذلك في المجال الاقتصادي ، من حيث انهـا تزيد في حجم النشاط الاقتصادي في الداخل ، وتؤمن اعمالا جديدة للايـدي العاملة الماهرة ، فضلا عن انهـــا تخفف من عـــبء الاستيراد باستبداله بالانتاج المحلي ، وتعطي اسرائيل قدرة اكبـــر على تحمل الضغوط السياسيـة الخارجية • فاسرائيل لم تتاثر كثيرا مثلا ، نتيجة الحظر الفرنسي عليها ، بعد حـــرب ١٩٦٧ ، لا لان الولايات المتحدة فتحت سوقهـا امامها فحسب ، بل لان الصناعة الاسرائيلية قادرة على تلبية حاجات الجيش الاسرائيلي ، في معظم قطع الغيار ، التي كان يحتاج اليها• وبالاضافة الى كل ذلك ، تستغل اسرائيـــل الصناعة المحلية استغلالا اعلاميا كبيرا ، فـي محاولة منها ، لاكتساب اعجاب الدول المتقدمة وتقديرها ، وذلك للاستفادة من تبادل الخبرات بينها وبين الدول المتقدمة من جهة ، وفـي محاولة لتحسين علاقاتها بالدول النامية ،بعرض مساعداتها العلمية والتقنية من جهة ثانية • وفوق كل ذلك لاحداث آثار نفسية معينة فـي الشعب العربـــي ، من خلال اعلامه بهـــذه المنجـــزات العلميـة والتقنية التـي تحرزهـا اسرائيل (٣٨) •

ح ـ تطوير الصواريخ وصنعها : ولعل اهم

ما يبرز دور التقنية في اسرائيل في تطوير الصواريخ وصنعها ، بالاضافة الى صاروخ غبرئيل السابق ذكره ، تطوير عدة صواريخ اخرى . فهي تنتج صاروخ ارض - ارض ، اسمه « جريكو » ، الذي كان يصنع في فرنسا قبل عام ١٩٦٧ ، حين تقرر نقل المصنع الى اسرائيل ، لوضعه تحت مراقبة السلطات الاسرائيلية مباشرة . وكانت اسرائيل تنتج ٤ الى ٦ صواريخ في الشهر ، وتملك ٦٠ صاروخا اثناء حرب ١٩٧٣ . ويبلغ مداه ٣٠٠ ميل ويكلف مليون ونصف المليون من الدولارات .

هذا ويفاخر الاسرائيليون بصاروخ « شغرير » ، الذي تدعي اسرائيل انه من تصميمها وصنعها كليا . وقد كشف النقاب عنه ، لاول مرة ، في ايار / مايو عام ١٩٧٣ ، واستعملته في اثناء حرب الاستنزاف وفي المعارك الجوية التي تلتها ، في حرب ١٩٧٣ . ويمكن لهذا الصاروخ ، جو - جو ، ان يعترض طائرات تحلق على ارتفاع هائل ، يصل الى ٧٥ الف قدم ، ويبلغ مداه خمس كلم ، ووزنه ٩٣ كلغ ، ويحمل راسا حربيا وزنه ١١ كلغ ، ويعمل بالحرارة ما تحت الحمراء ، اي انه يتبع الحرارة الصادرة عن الطائرة المعادية . ويقال انه مزود باجهزة غير موجودة في الصواريخ الاخرى ، وان تكاليفه هي ثلث تكاليف صواريخ « ماترا » ، جو - جو ، المشابهة ، الفرنسية الصنع (٣٩) .

٧ - ادمغة الكترونية في خدمة الحروب : تستعمل اسرائيل في الحروب احدث الاساليب العلمية والتكنولوجية ، بالاضافة الى الاساليب الكلاسيكية المجربة . ويلعب العلماء دورا بارزا في ادخال التكنولوجيا في خدمة آلة الحرب . ونذكر دور العالم الاسرائيلي ، يوفال نعمان ، الذي نال جائزة البرت اينشتاين ، في عام ١٩٦٩ ،الذي مثله في مضاعفة اجهزة استخبارات الجيش الإسرائيلي . وعندما دخل في « جهاز استخبارات الجيش » ، المعروف تحت اسم « امان » ، في عام ١٩٥٤ ، كانت اساليب العمل ما تزال بدائية وحرفية ، ولكن « الخطر» كان يتفاقم من ناحية مصر ، حيث كانت تجري محاولات اعداد جيش حديث . واحدث العالم نعمان ثورة في « المكتب الثاني الكلاسيكي » ، اذ ركز ، منذ البدء ، على اهمية استعمال الادمغة الالكترونية ، في وزارة الدفاع الاسرائيلية . وقد اثبتت هذه الادمغة ، انها ذات اهمية جوهرية ، غداة عدوان السويس عام ١٩٥٦ ، اذ استطاعت استيعاب المعلومات التي اعطاها الاسرى العرب وتحليلها ،وترجمت هذه المعلومات الى اصطلاحات ، وضعت تحت تصرف مختلف اجهزة الجيش الاسرائيلي ، وساعدت فيما بعد على تحضير عدوان ١٩٦٧ . وقد اعد نعمان ملفا خاصا لكل ضابط مصري ، تضمن كل المعلومات والوثائق المتعلقة به .

ويستطيع الاختصاصي الاسرائيلي ، بمجرد ان يضغط على زر ، معرفة ما اذا كان الانسان العربي ، الذي يهمه ، من النوع اللين او الشرس ، من النوع المتحفظ او المغامر ، من النوع النزيه او الفاسد . وفي صباح المعركة مثلا ، يكون لدى كل قادة الوحدات الاسرائيلية «الصورة النفسية» ، لعدوهم المباشر ويتمكنون في كثير من الاحوال ، من التنبؤ واستباق بعض ردود فعله او خطواته .

وقد ساهمت ادمغة وزارة الدفاع ، بوضع مخططات حرب ١٩٦٧ جميعها ، والتي تطلبت حسابات شديدة التعقيد ، بسبب النمو المتزايد لمشاكل النقل والامدادات والتموين . كما استخدم الاسرائيليون ادمغة البحرية الوطنية الفرنسية في مدينة تولون ، وذلك بمعرفة وزير الحربية الفرنسية انذاك السيد بيار مسمير ، وبموافقته .

هذا واستعمل الاسرائيليون بعد حرب ١٩٦٧ ، الاساليب نفسها ، التي استعملوها بعد حرب ١٩٥٦ ، وبالاضافة الى ذلك خلق يوفال نعمان تراثا من المنجزات العلمية ، اضحت ذات فائدة كبيرة للجيش الاسرائيلي . وتعتبر مصدرا هاما من مصادر معلوماته . وراحت الدوريات الاسرائيلية ، التي كانت تتسلل الى صحراء سيناء ، قبل عام ١٩٦٧ ، تضع آلات تسجيل صغيرة موصولة بالخطوط الهاتفية المصرية . وكانت هذه الاشرطة تجدد بفترات دورية ،وقد وضع العالم نعمان ايضا ميكروفونات موجهة شديدة الحساسية ، تستطيع ان تلتقط

الاحاديث ، على بعد عدة مئات من الامتار من المعسكرات المصرية . وساهم نعمان ايضا في تطوير الاجهزة الفوتوغرافية ، التابعة لطائرات الاستطلاع والاجهزة الالكترونية المضادة ، التي تستطيع « اعماء » رادار « العدو » . وساهمت هذه الاجهزة الدقيقة مساهمة فعالة في انجاح الهجوم المفاجىء ، الذي شنه الطيران الاسرائيلي في صباح ٥ / ٦ / ١٩٦٧ (٤٠) .

نحو علم وتكنولوجيا عربية في خدمة المعركة

بعد كل ما تقدم من حقائق ومعلومات ، السؤال الكبير والمصيري ، الذي يطرح نفسه الآن ، هو : كيف يمكن للعرب ان يضعوا العلم والتكنولوجيا في خدمة معركة المصير والحياة معالصهيونية والامبريالية ومع التخلف؟ وماذا يجب علينا ان نعمل ؟ لا يخفى ان السبيل الى الاصلاح ، يجعلنا ننظر الى المستقبل ، والذي يبدو لنا بانه مشرق من جهة ، وقاتم من جهة اخرى . فاصلاح الاوضاع العلمية في الاقطار العربية وتعبئتها في خدمة المعركة يواجه احتمالين اثنين : الاحتمال الاول يتمثل في السير بالاوضاع الحالية ، ولكن باجراء اصلاحات جزئية وهامشية قليلة ، اي اصلاحات غير جذرية او ثورية ، كانشاء كليات ومعاهد جديدة للعلوم ، تسير على النهج التقليدي ، او اعتماد ميزانية اكبر للبرامج والبحوث العلمية، او خلق مناصب علمية جديدة في الجامعات والمراكز العلمية ، او اصلاح الكتب المدرسية ، او اصدار نشرات ومجلات علمية ، او عرض المزيد من البرامج العلمية على الاذاعة والتلفزيون ، وما شابه ذلك من الاصلاحات الهامشية ، لا تستطيع ان تطور فعلا العلوم والتكنولوجيا ، ولا يمكنها بالتالي ان تواجه تحديات العدو العلمية والمعركة معه . اما الاحتمال الثاني ، وهو الضروري والاهم والاصعب ، فيدعو الى اعتماد نظرة جديدة وموقف حديث من العلوم والتكنولوجيا ، يؤدي بالنتيجة الى اتخاذ خطوات جذرية لاصلاح الاوضاع الحالية للعلوم والتكنولوجيا في الاقطار العربية . ومن المعروف ، ان الاوضاع الراهنة للعلم والتكنولوجيا في البلاد العربية ، لا يمكن ان تخدم المعركة ، كما اوضحنا سابقا ، لانها ضعيفة ومتخلفة ، عن الاوضاع العلمية في الدول المتقدمة وفي اسرائيل . وعليه ، قبل ان نفكر في تسخير العلم والتكنولوجيا في خدمة المعركة ، فلا بد لنا ، اولا ، من تطوير القطاع العلمي والتكنولوجي وانمائه ، وذلك بتوسيعه، كما ونوعا ، كي يصبح بمستوى متقدم . ولقد اعتمدنا على تجارب الدول المتقدمة ، في الشرق وفي الغرب ، في رسم استراتيجيتنا العلمية هذه .

١ ــ تطوير العلم والتكنولوجيا :

لعل اول ما يجب القيام به ، في هذا المجال، هو تطوير العلم والتكنولوجيا وانمائهما في الاقطار العربية . ولا يمكن لجيش ، في اي بلد من البلدان ، ان يكون افضل من مستوى علم الفيزياء او الكيمياء او الاحياء ، التي تمارس في ذلك البلد . وبكلام اوضح ، فالعلم القوي يخلق قوة عسكرية قوية ، بينما العلم الضعيف او المتخلف ، لا يستطيع ان يخدم القوة العسكرية في البلاد . وعليه ، ما هي ابرز الخطوات الواجب اعتمادها لتطوير العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي وانمائهما ؟

لكي يخدم العلم المعركة ، ينبغي ان ينطلق من سياسة انماء علمية هادفة ، للدولة ، تكون محور الخطة الانمائية الوطنية الشاملة والمتكاملة . ولا يمكن تحقيق انجازات تذكر ، بغير اعتماد سياسة تنمية علمية قومية . وتتمثل السياسة العلمية ، في تحديد الاهداف العلمية والتقنية في كل بلد ، في زمن معين ، وعلى مستوى معين من التقدم العلمي والتقني، كما تبين الوسائل الكفيلة لبلوغ هذه الاهداف، وذلك في اطار خطة انمائية قومية عامة . وترتكز السياسة العلمية على القواعد والاسس الآتية :

أ ــ تعزيز تدريس العلوم : من الضروري العناية الوافية بتدريس العلوم وتعزيزها ، في مختلف مواضيعها وفي مراحل التعليم كافة . ويمكن بلوغ ذلك ، بواسطة اعداد المدرسين العلميين الاكفاء ، وتدريبهم ، وتأمين احدث الاساليب التربوية والادوات التعليمية ، وتزويد المدارس بالمشاغل والمختبرات والمتاحف العلمية

والاجهزة السمعية البصرية اللازمة ، اعداد مناهج علمية وبرامج حديثة ، تشجيع المتفوقين والنجباء من الطلاب في الحقول العلمية ، وذلك بالمساعدات والمنح واعتبار ذلك توظيفا ناجحا من الدرجة الاولى ، للاموال التي تنفقها الدولة والمؤسسات في هذا السبيل ، واتاحة فرص التخصص العلمي العالي للممتازين من الطلاب الاذكياء ، وتنظيم حملة اعلام علمية مدروسة في وسائل الاعلام الجماهيرية وغيرها من وسائل الاعلام (٤١) ٠

ب ـ **مسح الموارد البشرية العلمية** : ينبغي القيام بمسح شامل ، اساسي ثم دوري عام او خاص ، في كل بلد عربي ، ضمن المؤسسات العلمية وغيرها حول الطاقات البشرية العاملة في حقول العلم والتكنولوجيا وتوزيعها ، على قطاعات النشاط المختلفة والمهن والمستوى تدريبها واعدادها ٠

ج ـ **تشجيع البحث العلمي وتوسيعه** : ان البحث العلمي هو اساس كل تطور وتقدم في اي بلد متقدم ٠ لذا نجد الدول المتقدمة تهتم بالبحوث العلمية ، لانها تأتي بثمرات هائلة ، وخاصة في ميادين الكشف والاختراع ٠ فانماء البحوث العلمية اذا ، يعتبر عنصرا اساسيا في تحريك عجلة التنمية الاقتصادية والعسكرية ٠ ونذكر على سبيل المثال ان حكومة الاتحاد السوفياتي تنفق المال بغزارة وبسخاء ، على تطوير البحث العلمي ، لانها تعتبره العامل الضروري لتطوير البلاد وتقدمها ، في مجالات الاقتصاد والدفاع والسياسة والمكانة الدولية ٠ ويفتخر الاتحاد السوفياتي بانه يملك في الوقت الحاضر اكثر من مليون من الباحثين العلميين ، اي ربع العاملين في مجال العلم في العالم قاطبة ٠ واما الولايات المتحدة ، كما سبق القول في المقدمة ، فقد راحت تعزز البحث العلمي في المجالات الحيوية ، لمواجهة التحدي العلمي السوفياتي ، على اثر اطلاق اول قمر صناعي روسي عام ١٩٥٧ ٠

وعلى هذا ، فلا بد من تشجيع البحث العلمي في مختلف الفروع من علمية بحتة وتطبيقية والتركيز على الدراسات العسكرية ، وتعزيز الهيئات والافراد العاملين في مجالات البحوث ، وتسهيل نشر نتائج الدراسات العلمية وتخصيص الاموال اللازمة لذلك ٠ لذا ينبغي وضع سياسة واضحة لانماء البحث العلمي والافادة من نتائجه ، في تطوير قدرة البلاد الاقتصادية والدفاعية والانمائية ٠

د ـ **توسيع الدراسات العلمية وتعزيزها** : ان تطوير العلم والتكنولوجيا في البلاد يتطلب التوسيع في الدراسات العلمية وتعزيزها على الصعيد الجامعي ٠ فالامم المتقدمة والقوية تركز على توسيع التعليم العلمي في معاهد التعليم العالي ، بحيث تصل نسبة الطلاب الملتحقين بالدراسات العلمية اكثر من ٦٠ بالمائة ٠ ويجدر بنا ان نذكر تجربة الصين ، بعد انتصار الثورة عام ١٩٤٩ ، بحيث ركزت على الدراسات العلمية ٠ فقفزت نسبة الطلاب في العلوم الى ٤١ بالمائة عام ١٩٥٨ ، مقابل ١٠ بالمائة فقط ، في خلال ١٩٣٢ ـ ١٩٣٨ ، كما ان عدد الملتحقين بالاداب قد انخفض بشكل كبير جدا ، الى ٥ر٤ بالمائة ، مقابل ٣٢ بالمائة خلال الفترة نفسها (٤٣) لذا نقترح ان تصل نسبة طلاب العلوم والتكنولوجيا الى٥٥ بالمائة، مقابل ٤٥ بالمائة في الاداب والفنون ٠ ويمكن تطوير كليات العلوم بتزويدها باساتذة وعلماء وباحثين ، على مستوى رفيع من الكفاية العلمية ، وتطوير مناهج الدراسة لمواكبة التطورات العلمية الحديثة في العالم ٠

هـ ـ **توسيع التعليم المهني والتقني وتطويره**: ولا بد من عمل جدي في نوعية التعليم في المرحلة الثانوية ٠ فمن الملاحظ ان الغالبية الساحقة من الطلاب العرب في المرحلة الثانوية (متوسطة ، ثانوي) ، كانوا ملتحقين بالتعليم الاكاديمي العام (٨٨٪) ، مقابل ١٢ بالمائة فقط في التعليم المهني والتقني عام١٩٧٠ (٤٤)٠ ولا ريب في ان هذه النسبة تختلف باختلاف الاقطار العربية ٠ في حين نجد ان نسبة الطلاب في التعليم المهني في تشيكوسلوفاكيا تصل الى ٦٤ بالمائة ، وفي الاتحاد السوفياتي ٥٠ بالمائة وفي اسرائيل ٤٥ بالمائة (٤٥) ٠

وعلى هذا ،يجب اجراء تغيير في هيكل التعليم الثانوي العربي ، بحيث تتوازن ، على الاقل ، نسبة طلاب التعليم المهني والتقني بنسبة

طلاب التعليم العام • فالتعليم المهني والتقني يعد الفنيين من المستويات الوسطى للصناعة•

و ـ **اعتماد خطة انماء علمية** : لعل افضل الوسائل لتحقيق اهداف السياسة العلمية وتطوير العلوم تتمثل في اعتماد خطة تنمية علمية ، يمكن ان تمتد من ٥ سنوات الى ١٢ سنة • وهذا ما تقوم به معظم الدول في العالم التي حققت نجاحا في مجال العلم ومجال الاقتصاد • ونذكر على سبيل المثال ، تجربة الصين الشعبية ، في عام ١٩٥٦ ، عندما دعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني الى « **الزحف على العلم** » • وكان ذلك بناء على دعوة الرئيس ماوتسي تونغ ، في ٢٥ / ١ / ١٩٥٦ ، عندما دعا مجلس الدولة الاعلى الى خطة لمحو التخلف في المجالات الاقتصادية والعلمية والثقافية • فانشأ المجلس « لجنة التنمية العلمية » ، لاعداد خطة علمية لمدة ١٢ سنة • ولا يخفى ان النداء الداعي الى « **الزحف على العلم** » قد كان نقطة تحول في التنمية العلمية في الصين الشعبية • ومن جملة الانجازات ، التي تمت كان مضاعفة عدد الباحثين العلميين في اكاديمية العلوم الصينية في سنة واحدة ، كما شهد النشاط العلمي نموا كبيرا ، كما تغيرت اساليب التعليم بشكل جذري في الصين (٤٦) •

ز ـ **اقامة تعاون علمي عربي ودولي** : يتوقف تطور النشاط العلمي على التعاون بين الاقطار العربية نفسها ، وبين الاقطار العربية من جهة ، وبين البلدان الاجنبية • ويشمل حقل التعاون هذا ، التعارف والاتصال بين العلماء والعاملين في الحقل العلمي او التقني الواحد والحقول العلمية المتقاربة ، ضرورة تتبع مراحل التطور العلمي والتقني في الوطن العربي وفي العالم ، تبادل المعلومات والمنشورات العلمية ، توثيق العلاقات العلمية بين الاقطار العربية نفسها ، ثم بين البلاد العربية والبلدان الاخرى ، تبادل العلماء والخبراء ، الاستعانة بالعلماء والخبراء الدوليين في الدراسات والتخطيط ، تنظيم المؤتمرات والاجتماعات والحلقات العلمية في الاقطار العربية وكاداة اعلام لاثبات الوجود العلمي العربي ، تعاون مع اليونسكو ووكالاتها ، ومع المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، وغيرها من المنظمات العربية والدولية المعنية بالعلوم والتكنولوجيا • كما ينبغي التعاون والتنسيق في الاعلام العلمي والنشر العلمي والتوثيق العلمي ، فضلا عن التعاون العلمي والتكنولوجي العسكري (٤٧) •

٢ ـ العلم والتكنولوجيا في خدمة المعركة

بعد ان ذكرنا الخطوات الواجب اتخاذها لتطوير العلوم وتقدمها ، نأتي الآن الى صلب الموضوع ، ويمكن ان نضعه في السؤال الكبير : كيف يمكن للعلم والتكنولوجيا ان نضعهما في خدمة المعركة ، لمواجهة التحدي العدو العسكري الاسرائيلي والصهيوني والامبريالي؟

أ ـ **اعتماد العلم في التخطيط العسكري** : من المعروف ان السمة الاساسية لهذا العصر ، هي التطور العلمي السريع الشامل • وبات مؤكدا ان تقدم البلدان وقوتها العسكرية وبالتالي سلامتها ، يتوقف على مدى اعتمادها على العلم • لذلك نجد ان البلدان المتقدمة والمتفوقة ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، هي البلدان التي تعتمد العلم اساسا لكل نشاط ، وخاصة الافادة من تطبيقه في القطاع العسكري• لذلك ينبغي على الاقطار العربية ان تأخذ الحقائق والنظريات والمبادىء العلمية والتكنولوجية بعين الاعتبار، في التخطيط الامني والدفاعي والعسكري • هذا يعني ان قرارات التخطيط يجب ان ترتكز على المعطيات العلمية والممكنات التكنولوجية ، كي يصبح التخطيط العسكري اكثر واقعية وموضوعية • لذا تحتم الحاجة اعتماد التفكير العلمي في وضع الخطط العسكرية وتصميمها ، واشراك رجال العلم فيالتخطيط العلمي للقطاع العسكري والسياسي (٤٨) •

ب ـ **ربط بين السياسة العلمية والسياسة العسكرية** : ان السياسة العلمية المعتمدة في البلاد ، يجب ان ترتبط ارتباطا وثيقا، بسياسة البلاد العسكرية ايضا • ان السياسة العلمية ، التي تخدم المعركة ، هي التي تتلاحم بقوة بالسياسة العسكرية ولا تنفصل عنها • وعلى

هذه العلاقة ان تكون متبادلة ، اي دائرية ٠ فالسياسة العلمية تساهم في توجيه السياسة العسكرية ، وكذلك السياسة العسكرية توجه السياسة العلمية ٠

جـ ـ اقامة صلة بين وزارة الدفاع والتطورات العلمية : لعل افضل وسيلة ، لتهيئة اية مؤسسة عسكرية ، لمواجهة اي نوع من انواع الحرب او المعركة ، ان تؤسس صلة وثيقة بينها وبين التطورات العلمية والتقنية الحديثة وخاصة في تكنولوجيا الحرب ٠ واثبتت التجربة ان بلوغ مثل هذه الغاية ، لا يمكن ان يتحقق الا بانشاء (ضمن اطار وزارة الدفاع) العديد من مراكز الابحاث العلمية ، التي تقوم بتحويل العلوم البحتة الى اسلحة حربية ، كما تتونى ، كما هو الحال في الاقطار العربية حاليا ، مهمة استيراد الاسلحة الحربية من الخارج وادخال التعديلات المناسبة عليها ،وكذلك ينبغي اقامة معاهد علمية ، في القطاع العسكري ، يسعى لتسخير العلم والتكنولوجيا ، لاغراض الامن والدفاع والحرب ٠ كما يسعى العاملون فيها الى اجراء دراسات ، لتحديد القضايا التقنية العسكرية وعرضها ، للدرس والتحليل ، على العلماء والتكنولوجيين والباحثين في البلاد كافة ٠

ويمكن ربط نشاطات مراكز البحوث والمعاهد العلمية هذه ، في الشؤون العسكرية ، بجعلها مراكز لتزويد القوات المسلحة ٠ بكل ما تحتاج اليه من مشورة ومساعدة علمية وتقنية ٠ فالعلماء المختصون والمهندسون ، العاملون في هذه المراكز والمعاهد ، يعينون رجال الاستراتيجية والتكتيك ، على تطوير العمليات العسكرية المبتكرة ، وذلك عن طريق ابداء الآراء الصائبة ، المعتمدة في جوهرها على العلم ، في ضوء المعلومات والحقائق المتوافرة ، ثم عن طريق المساعدة في اختيار المعدات والاسلحة ، بناء على مواصفات مدروسة وتكييفها ، لتفي ببعض المتطلبات الخاصة (٤٩) ٠

د ـ توجيه النشاط العلمي من قبل الجيش : لا يمكن للعلوم والتكنولوجيا ان تخدم اهداف والامن والمعركة ، اذا ظلت منفصلة تماما عن حاجات الجيش الدفاعية ومتطلباته ٠ فعلى المؤسسة الوطنية ، بفضل نشاط العلماء وجهودهم ، ان توجه الدراسات والابحاث العلمية والتقنية ومختلف اوجه النشاط العلمي والتقني لصالح الدفاع ولتلبية حاجات الجيش الامنية والدفاعية ٠ فعلى الجيش اذا ان يعتمد اعتمادا كبيرا على العلم ، وان يمثل دورا بارزا في وضع السياسة العلمية وخطة التنمية العلمية والمساهمة في تنفيذهما (٥٠) ٠

هـ ـ اجراء تعديلات في الاسلحة وتطويرها : لعل ابرز ما يمكن ان تقوم به الاقطار العربية ، في الوقت الحاضر ، اجراء بعض التعديلات او التحسينات على المعدات الحربية المستوردة من الخارج وتطويرها او تكييفها ، كي تصبح مناسبة لاغراض الدفاع العربي ٠ وتجدر الاشارة الى ان التحسينات الصغيرة ، في تكنولوجيا الحرب ، لا يمكن ان تتم بغير ابحاث علمية ٠ هذا ما تقوم به اسرائيل ، كما ذكرنا سابقا ٠ ولا ريب في ان التكييف ، ليست عملية جديدة في تاريخ الامم ٠ فاليابان ، كما هو معروف ، تشتهر ، منذ القرن الماضي ، في تطوير السلع والاجهزة والمعدات المستوردة في الخارج ، وتجري عليها تعديلات واصلاحات وتحسينات جذرية ٠ وتقول عبارة مدونة في احد القواميس اليابانية ما يأتي : ان اليابانيين مقلدون اذكياء (ومقتبسون) ٠ وثمة شعار في اليابان يقول : « اقتبس ، وكيف ، وحسن » ٠ فعلى الجيوش العربية ان تستفيد من استغلالها الكامل ، لمراكز البحوث القادرة وحدها ، على تصميم المعدات الحربية وانتاجها ، وكذلك تحسينها وتكييفها لتفي بأغراض دفاعية وعسكرية معينة ٠ هذا يعني ، علينا الا نكتفي بنقل العلم والتكنولوجيا من الخارج ، دون اجراء عملية تكييف واستيعاب ٠

و ـ توحيد المصطلحات العلمية العسكرية والمواصفات العلمية للمعدات والاسلحة ، واساليب وطرائق واجهزة واشارات وقوانين الدفاع ، بين الاقطار العربية كافة ٠ ولا ريب في ان ذلك ، من شأنه ان يوحد الجهود وينسقها في خدمة المعركة (٥١) ٠

ز ـ استخدام الاساليب والاجهزة العلمية

الحديثة : من الافضل ان تستخدم القوات المسلحة العربية ، الاساليب العلمية والاجهزة والمعدات الحديثة في فرز الجنود والضباط وتحديد اختصاصاتهم ، وذلك حسب قابلياتهم الشخصية . وكذلك استخدام الاجهزة الالكترونية في شؤون التجنيد والتعبئة والاحصاء العسكري ، ورفع مستوى الاجهزة الالكترونية المستخدمة ، في كشف تقدم جيوش العدو ، ورفع مستوى المعدات الالكترونية اللازمة ، لدقة الرماية على العدو ، الامر الذي يرفع كفاية القوات العربية المحاربة . كما يجب استخدام المعدات الحديثة في التدريب العسكري (٥٢) .

ج - **تنمية الصناعة** : ان تعديل المعدات المستوردة او صنعها في الاقطار العربية يتطلب قيام صناعة عسكرية او ذات صبغة عسكرية في عدة ميادين . ولا يخفى ان انماء الصناعة يرتبط ارتباطا وثيقا بالقدرة العسكرية . ومعلوم ان توسيع الصناعة وتطويرها ذو قيمة اقتصادية ، كزيادة الانتاج والدخل القومي او رفع مستوى دخل الفرد العامل في الصناعة ، فضلا عن ان الصناعة مهمة وحيوية في الحقل العسكري ، وخاصة صناعة الالكترونيات . ودعما لذلك ، ينبغي استحداث دروس في الكليات والجامعات لتطوير الصناعة العسكرية ، وخاصة الكهربائية والالكترونية (٥٣) .

ط - **تنسيق بين الصناعتين المدنية والعسكرية**: من المعروف ان المؤسسات الصناعية، في الاقطار العربية ، لا تتعاون فيما بينهما ولا تنسق نشاطاتها . وهذا هدر للجهود المبذولة لانماء الصناعة . لذا يجب تنسيق التعاون بين الصناعتين ، المدنية والعسكرية ، وكذلك تنسيق التعاون بين الخبراء المدنيين والعسكريين ، في سبيل تطوير الصناعة بوجه عام ، وصناعة الاسلحة العربية واجهزتها بوجه خاص (٥٤) .

خطوات التنفيذ

بعد ان علمنا كيف يمكننا ان نضع العلم والتكنولوجيا في خدمة المعركة ، فأن الاسئلة التي تتبادر الى الذهن الان هي : كيف يمكن ان نحقق الاقتراحات الواردة سابقا ؟ ما هي الوسائل الواجب اعتمادها لتنفيذها ولانجاحها ؟ ما هي المستلزمات البشرية والفنية والمادية اللازمة لذلك ؟ فمن الملاحظ انه في بعض الاقطار العربية ، ليس المطلوب تقديم مشاريع واقتراحات للاصلاح ، بل المطلوب اكثر من ذلك - تنفيذها . فكم من مشروع او سلسلة اقتراحات بقيت حبرا على ورق ، لم تنفذ . وهناك قطر عربي لم ينفذ الا القليل من خطته الخمسية في خطته السداسية ، وعلى ذلك نعتقد ان انجاح اي مشروع يستلزم التشريع السياسي والتشريع العلمي اللازمين ، ثم يتطلب التوعية العلمية لفئات الشعب ، والطاقات البشرية العلمية والمدربة ، والمؤسسات والهيئات ، فضلا عن الاموال .

ا - **تأمين القرار السياسي** : لعل اول ما نحتاجه في تنفيذ اي مشروع ، هو تأمين القرار السياسي له ، وذلك لتنسيق المؤسسات العلمية والتقنية وتدعيمها وتعزيزها ، حتى تصبح متناسبة مع واقع التحديات العلمية الراهنة ، ومتهيئة لتقبل مستمر للجديد وللمتغير ، وتمكين العلماء والباحثين العرب ايضا من المساهمة الناشطة في مختلف انواع النشاط العلمي والتقني (٥٥) .

٢ - **اشراك رجال العلم في التشريع** : ان الحاجة تدعو الى اعتماد التفكير العلمي ، في كل تشريع تقوم به الدولة ، واشراك رجال العلم في هيئات ولجان التشريع كافة ، وعلى المستويات جميعها، وينبغي انشاء رابطة تضم رجال العلم على انواعهم ، تنبثق عنها هيئة علمية ، على اعلى المستويات ، لتؤمن الكفايات العلمية ، التي تحتاج اليها الهيئات التشريعية (٥٦) .

٣ - **التوعية العلمية** : لا يخفى ان انجاح اي مشروع يتوقف الى حد بعيد على كسب عطف المواطن العادي ، واثارة اهتمام رجل الشارع بشؤون العلم ، وذلك لتهيئة الجو الاجتماعي المواتي لتطبيق العلم في المجالات العسكرية والدفاعية . لان العلم لا ينجح ، الا اذا كان مفيدا ، وحتى يكون مفيدا ، ينبغي ان تتوفر لدى المواطنين العرب بعض الميول العلمية ، اي الثقافة العلمية للطبقة المتوسطة من

الشعب • فكم من دولة عربية الفت مجالس علمية ورسمت خططا او سياسات علمية ، ولكنها لم تحقق سوى نجاح هزيل • وذلك لان العلم لا يمكن ان يفرض من عل ، اي بقرار من السلطة ، او بخطة عالم او بلجنة من العلماء • لذا يتوجب تعميم المعطيات العلمية على فئات الشعب كافة ، وجعل الرأي العام يتفهم ان الروابط بين العلم والمجتمع ضرورة وطنية ، غايتها زيادة المعرفة بصورة مطلقة ، والافادة من تطبيق نتائج العلم على تحسين المستوى المعيشي لكل فرد • ويتطلب ذلك برامج علمية شاملة على مختلف المستويات والاعمار ، تسخر لها وسائل الاعلام ، لنشر المعلومات العلمية والتقنية ، وتفسيرها في القطاعين المدني والعسكري (٥٧) •

٤ ـ **اعلام علمي** : لعل افضل المحاولات لنشر التوعية او الثقافة العلمية ، تأتي عن طريق وسائل الاعلام الجماهيرية وغيرها • هذا ما قامت به الصين الشعبية ، لغرس حب العلم في نفوس الصغار والكبار على السواء • فقد وضعت الصين « **حب العلم** » مثلا ، واحدا من الشعارات الخمس في الصين الجديدة ، بالاضافة الى حب الوطن وحب الشعب وحب العمل والعناية بالاملاك العامة • واصبحت كلمتا علوم وتكنولوجيا تستعملان في الصحف الصينية ، يوميا • ويمكن كذلك غرس حب العلم في نفوس النشء والكبار ، بواسطة اعداد برامج علمية مبسطة على الاذاعة والتلفزيون ، واصدار مجلات علمية على كافة مستويات الشعب وتكتب بلغة مبسطة • ومن ابرز مهمات برامج الاعلام العلمي ، على صعيد الكبار ، مساعدة على توضيح منزلة العلم الحديث في التنمية الاقتصادية والعسكرية • وهذا الادراك يولد رأيا عاما يؤيد السلطة في مشاريعها العلمية (٥٨) •

٥ ـ **تأمين الطاقات العلمية البشرية** : يمكن تأمين الطاقات العلمية اللازمة بواسطة: (أ) حشد الادمغة العلمية العربية المتوافرة وتعبئتها ، (ب) دعوة العلماء العرب المهاجرين للعودة ، (ج) اعداد العلماء وتدريبهم في المدارس وفي الجامعات ، في داخل البلاد وفي خارجها •

أ ـ **حشد الادمغة العلمية وتعبئتها** : لعل اول مصدر لتأمين الطاقة العلمية البشرية ، لاي مشروع علمي ، تكمن في استخدام العقول العربية العلمية المتوافرة في الاقطار العربية وتعبئتها في خدمة المعركة • فمن المعلوم ان الوطن العربي يملك اكثر من ٥٦٠ الف خريج جامعة • وهذا جيش ضخم ، الا ان هذه العقول العربية الكبيرة ، وخاصة العلمية منها ، غير مجندة اليوم وغير مستخدمة ، الا بنسبة ضئيلة في خدمة المعركة • لذا يجب حشدها وتجنيدها فورا ، في اطار مؤسسات علمية وفكرية وانمائية وتخطيطية (٥٩) •

ب ـ **الحد من هجرة العقول العلمية الى الخارج** : ولعل استخدام العقول العربية المتوافرة ، يتطلب الحد من هجرة الكفايات العلمية الى الخارج • ويمكن الحد من هجرة الادمغة العلمية العربية ، باعادة النظر في تعديل الرواتب ، وانشاء معاهد علم متطورة ، ومراكز بحوث متقدمة ، وتطوير الكليات والجامعات الحالية وتوسيعها ، كما ونوعا ، ووضع سياسة علمية للبلاد ، تشمل رفع المستوى العلمي بين فئات الشعب • هذا وتحاول عدة دول عربية ، كسوريا والعراق ومصر والجزائر ، الحد من هجرة عقولها العلمية الى الخارج •

ج ـ **دعوة العلماء والمهاجرين للعودة** : ومن افضل الوسائل لتأمين العلماء المتازين تتمثل في العلماء العرب المهاجرين • فهؤلاء على اتصال واسع باحدث التطورات العلمية في البلدان المتقدمة • لذا ينبغي اتخاذ اجراءات جريئة لاعادة هؤلاء من الخارج ، للمساهمة في نهضة الامة العلمية والتقنية والانماء الشامل • هذا ما فعلته الصين الشعبية ، بعد انتصار الثورة الشيوعية في عام ١٩٤٩ • ونجحت التجربة ، فلبى عدد كبير من العلماء الصينيين النداء ، وكان منهم عدد كبير من كبار العلماء الذين شكلوا فيما بعد ، النواة التي تبني الصين حولها نهضتها العلمية الحديثة (٦٠) • ولقد اتخذت مؤخرا بعض الاقطار العربية ، كالعراق

وليبيا وسوريا والكويت والجزائر ، تشريعات خاصة لاعادة الادمغة العربية المهاجرة ٠

د ـ **اعداد العلماء وتدريبهم** : من المعروف ان تكوين العلماء وتدريبهم ليس بالامر السهل ، لان اعداد العالم الكفوء يستغرق فترة طويلة من الوقت ، من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية ، اي ما لا يقل عن ٣٠ سنة ٠ لذا يجب الاعتماد مباشرة ، اولا ، على العلماء العرب الكبار ، المقيمين والمهاجرين ٠ ويمكن اعداد العلماء في مدارسنا وجامعاتنا اولا ، ثم ارسالهم عن طريق البعثات العلمية الهادفة الى الخارج ، للحصول على المزيد من التخصص العلمي والتقني المركز ٠ ويجب توجيه عملية تخصص الطلاب في الخارج ، من قبل الحكومات والمؤسسات المعنية ، بحيث لا يؤدي ذلك الى هدر الاموال او استنزاف الطاقات العلمية ، او الى نزوح الكفايات العلمية العربية (٦١) ٠ لذا ينبغي ان يبدأ تدريس العلوم للاطفال في المرحلة الابتدائية، وذلك خلافا للاعتقاد السائد، بان تكوين العلماء يتم في المرحلة الجامعية(٦٢)٠ ومن هنا يجب توجيه الطلاب في المرحلة الثانوية الى الالتحاق بالفروع العلمية ، وذلك بنسبة اكثر من ٥٠ بالمئة من نسبة اولئك الذين يلتحقون بالفروع الادبية ٠

هـ ـ **رعاية الطلاب الموهوبين والمتفوقين** : من الملاحظ ان الاقطار العربية ، لا تهتم الاهتمام الكافي بالاطفال الموهوبين والمتفوقين علميا ، هذا على الرغم من ان هؤلاء يحظون برعاية خاصة في الدول المتقدمة ، وفي طليعتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ٠ لان الاطفال ذوي المواهب العلمية هم ثروة قومية اثمن من اية ثروة اخرى في الامة ٠ لذا ينبغي رعايتها بدقة ، لاستغلالها فيما بعد ، لتطوير البلاد ٠ ففي الاتحاد السوفياتي مثلا ، يحظى الاطفال الموهوبون علميا ، برعاية خاصة ، وذلك على اساس مناهج تعد لهم خصيصا ، لا تطبق عادة في المدارس العادية ٠ ويتم تدريسها على مستوى اسرع وارفع بكثير ، من مستوى البرامج الثانوية العادية ، بغية الحصول على اكبر عدد ممكن من العلماء المبدعين ، باقصر وقت ممكن (٦٣) ٠ وفي اعقاب نجاح اطلاق اول جرم صناعي سوفياتي عام ١٩٥٧ ، اعارت الولايات المتحدة فئة الاذكياء والموهوبين ، عقليا ودراسيا ، اهمية بالغة ٠ واجرى المربي الكبير ، جيمس كوننت، دراسة للمدارس الثانوية ، واقترح تقديم برنامج مدرسي خاص بهم ، وتوجيه خاص من قبل المرشدين التربويين ، وكذلك تقديم المساعدات والمنح المالية ، وتنظيم تعليم خاص بهم (٦٤) ٠

و ـ **تأمين مدرسين اكفاء للعلوم** : لا يخفى ان اعداد العلماء في المدارس الابتدائية ، يثير قضية نوعية مدرسي العلوم المرغوب فيهم ، في هذه المرحلة ٠ فعلى مدرسي العلوم ، في المرحلة الابتدائية ، ان يكونوا خريجي الجامعات ، وان ينالوا قسطا وافيا من التدريب الوافي على الاساليب التربوية الحديثة ، في تدريس العلوم للصغار ، وان يتحلوا بمزايا خلقية ونفسانية ، تتسم بالبشاشة وروح الصداقة والمودة ٠ وتجدر الاشارة الى انه لا يمكن اعداد الطاقات العلمية الوطنية ، بشكل يخدم المعركة ، بما فيها التحدي العلمي والتقني الاسرائيلي ، الا بمعالجة قضية اعداد مدرسي العلوم ـ كما وكيفا ـ معالجة مدروسة ومنسقة ، مستمرة (٦٥) ٠

ز ـ **اجراء دراسات علمية ميدانية** : ولعل في مقدمة الوسائل الواجب اتخاذها ، لتطوير العلوم في المدارس وتعزيزها ، القيام بدراسات ميدانية حول المدارس ،لتقييمها واظهار مواطن الضعف فيهاوتقديم اقتراحات بناءة واساسية، بغية رفع مستواها التربوي والعلمي والثقافي ، لتقوم برسالتها وبمسؤولياتها ،بشكل يتناسب والتحدي العلمي والاقتصادي والعسكري والسياسي ، الذي يواجه الامة العربية ٠ هذا ما قامت به الولايات المتحدة ، في اعقاب اطلاق اول قمر سوفياتي عام ١٩٥٧ (٦٦) ٠

ح ـ **تأمين البيئة العلمية المناسبة** : على الرغم من اهمية المناخ العلمي المؤاتي للعمل المنتج ، نجد ان البيئات العلمية غير مناسبة في الاقطار العربية عامة ٠ لذا تعاني هذه الاقطار من استنزاف افضل الكفايات العلمية ، عن طريق الهجرة الى الخارج ٠ فالعالم المنتج لا يمكن ان يعمل في فراغ ، بل في مناخ علمي

واداري واجتماعي مريح • ولعل ابرز الطرق لتأمين البيئة العلمية المؤاتية ، تتمثل في تزويد العالم بالاجهزة العلمية الحديثة في مركز عمله ، وتأمين حرية اكاديمية كافية ، ليتمكن من التنقيب والبحث ، وراتب محترم ، وعدد من المساعدين المؤهلين والمكرسين ، ادارة علمية مرنة او حديثة وبعيدة عن مقتضيات الادارة المتحجرة التي تعرقل الانتاج والابداع معا ، مساهمة دائمة في المؤتمرات العلمية الدولية ، وكذلك اتصال دائم بالجماعات العلمية في البلدان المتقدمة ، عن طريق دنح للسفر الى مراكز الابداع العلمي • وبالاضافة الى ذلك ينبغي تزويد مراكز عمل العالم باحدث المراجع والكتب والمجلات وغيرها من المطبوعات العلمية والتقنية (٦٧) •

ط ـ تأمين الاموال اللازمة : لا يختلف اثنان على ان تنفيذ اي مشروع يحتاج الى مال • ومن الملاحظ ان الاموال ، التي تنفقها جملة الاقطار العربية على المشاريع العلمية ، تعتبر ضئيلة جدا ، بالنسبة للاموال التي تنفقها اية دولة متقدمة ، وكذلك اسرائيل • ويعتقد ان نسبة الانفاق على العلوم والتكنولوجيا ، لاي مجتمع يريد النمو والاستمرار في النمو العلمي والاقتصادي ، ان تكون ما بين ٣ و ٤ بالمائة من الناتج القومي الاجمالي (٦٨) •

الخلاصة والاستنتاجات :

كانت الغاية من هذا البحث ، اظهار دور العلم والتكنولوجيا ، في الحرب بوجه عام ، وكشف مدى تقدم الخطر العلمي والتقني الصهيوني للامة العربية، ثم رسم استراتيجية لتطوير العلم والتكنولوجيا في الاقطار العربية ، واساليب وضعها في خدمة المعركة ، ضد اسرائيل والصهيونية والامبريالية • ولقد انطلقنا في هذا البحث من الافتراض القائل ، بان المعارف العلمية والتقنية المتقدمة ، قوة استراتيجية ايجابية ، في المواجهة العسكرية مع اسرائيل • كما نعتبر ان المعركة مع اسرائيل ، ليست عسكرية فحسب ، بل علمية وتقنية ايضا • ولا يقتصر العلم على مجموعة من المعارف والنظريات فحسب ، بل على روح ومنهجية علمية ونمط معين موضوعي، لحل معظم المشاكل والقضايا التي تواجه المجتمع • واما التكنولوجيا ، فهي تطبيق العلم • وتكنولوجيا الحرب هي حصيلة العلم ، اي الوعاء الطبيعي ، الذي يمكن فيه تحويل الاكتشافات والاختراعات العلمية الى صناعة ، خفيفة او ثقيلة •

ولم تعد فوائد العلم تقتصر على النواحي الاقتصادية والثقافية والعقلية فحسب ، بل على النواحي العسكرية والقتالية والدفاعية • فالعلم والتكنولوجيا اصبحا شرطان اساسيان للقوة العسكرية وللتنمية الاقتصادية • وهما السبيل الوحيد ، الذي يضمن للعرب اسباب القوة والتقدم ، وكذلك السلاح الحاسم الذي يحقق النصر في المعارك والحروب • ويشهد التاريخ للادوار البارزة التي مثلتها العلوم والتكنولوجيا في الحروب •

بعد كل ما تقدم ، كيف يمكن للعرب ان يضعوا العلم في خدمة المعركة ؟ قبل ذلك ، لا بد من تطوير العلم والتقنية في الاقطار العربية، ثم اعتماد سياسة انماء علمية وتطبيق العلم والتكنولوجيا في القطاع العسكري ، وكذلك تأمين الاساليب اللازمة لتحقيق ذلك •

وبالاختصار ، لعله من الخطأ الفادح ان نقيس ، بعد الآن ، قوة العرب وقوة اسرائيل، بعدد السكان او بعدد الجنود ، او تراكم الاسلحة الحديثة وحدها • لان مفتاح النصر يعتمد اليوم على التفوق العلمي والتكنولوجي ، وعلى التفكير العلمي والتخطيط العلمي •

الحواشي

١ ـ **الاتحاد السوفياتي : الانسان ، العلم ، التكنيك** (كتيب باللغة العربية من المركز الثقافي السوفياتي في بيروت ، بلا تاريخ) ، ص ١ـ٢ ٠

٢ ـ صادق جلال العظم ، « العلم الحديث والنكبة الاخيرة » ، **دراسات عربية** ، العدد ١٠ ، آب / اغسطس ١٩٦٧ ، ص ٤٦ ٠

٣ ـ (أ) ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ٠
(ب) مجلة « **قافلة الزيت** » ، مارس / ابريل ١٩٧٠ ، ص ٤٣ ٠
(ج) ـ جريدة « **صوت العروبة** » ، بيروت ، ١٩٧٠/١١/٢٢ ، ص ٧ ٠

٤ ـ
Monday Morning Magazine, Beirut, August 18-24, 1975, p. 24

٥ ـ (أ) ندوة الدراسات الانمائية ، المؤتمر الوطني السابع للانماء ، « استراتيجية الثورة العلمية التكنولوجية » ، بيروت ، ٢٤ ـ ١٩٧٣/١٢/٢٥ ٠

ب ـ انطوان زحلان ، « العلوم والتكنولوجيا والتنمية » ، مجلة « **قضايا عربية** » ، العدد ١ ، نيسان / ابريل ١٩٧٤ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ٠

٦ ـ (أ) فيليب كين ، **عمالقة العلم** ، ترجمة اديب يوسف ، ص ٣٤ القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٦٣ ٠
(ب) ـ
Bull J, *One Hundred Great Lives*. London : Amersham, Hulton Educational Publications Ltd., 1972.

٧ ـ ادوارد ميد ايرك ، **رواد الاستراتيجية الحديثة** ، ترجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ١١٢ ـ ١٢٢ ٠

٨ ـ هربرت فشر ، **نابليون** ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل ، دار المعارف بمصر ١٩٥٨ ، ص ٣٥ ٠

٩ ـ ليونارد سلك ، **ثورة البحوث** ، ترجمة عمر القباني ، القاهرة ، دار الكرنك ، ١٩٦٠ ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ٠

١٠ ـ (أ) ـ جلبرت هايت ، **جبروت العقل** ، ترجمة فؤاد صروف ٠ بيروت ، دار الثقافة ، ص ١٤٠ ٠
(ب) ـ المصدر الرقم (٥ ب) ، ص ٨٣ و ٩٠ ٠
(ج) ـ حسن صعب : « الانسان العربي وتحدي الانماء » ، محاضرة القيت في الدورة التدريبية لوزراء خارجية دولة الامارات العربية المتحدة في ابو ظبي في ٢٤ آذار / مارس ١٩٧٤ ، ص ٤ ـ ٦ ٠

١١ ـ مجلة « **هنا بيروت** » ، مجلة الاذاعة اللبنانية ، بيروت ، شباط / فبراير ١٩٧٠ ص ١٣ ٠

١٢ ـ مجلة « **اذاعة لبنان** » ، بيروت ، تموز / يوليو ١٩٧٤ ، ص ١٥ ٠

١٣ ـ
Costi Zurayk, «*The University in a Deveolping Arab World,*» *al-Kulliyah,* (Beirut, Summer, 1975), p. 13.

١٤ ـ المصدر نفسه ص ١٣ ٠

١٥ ـ (أ) ـ مجلة « **التربية الجديدة** » ، العدد الثاني ، بيروت ، نيسان / ابريل ١٩٧٤ ، ص ٣٤ ٠
(ب) ـ **تحليل البيانات الاحصائية المقارنة حول التعليم في الدول العربية** ، المؤتمر وزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، المغرب ١٢ ـ ١٩٧٠/١/٢٢ ، ص ٤١ ٠

١٦ ـ مجلة « **وقائع اليونسكو** » ، ايلول / سبتمبر ١٩٦٧ ص ١٥ ٠

١٧ ـ الياس زين ، **هجرة الادمغة العربية** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ٤٣ ـ ٥١ ٠

١٨ ـ المصدر الرقم ٤ ، ص ٢٧ ٠

١٩ ـ (أ) ـ المصدر الرقم ١٤ ص ٢٤ ـ ٢٧ ٠
(ب) ـ المصدر (٥ ـ ب) ، ص ٨٨ـ٩٢ ٠
(ج) ـ انطوان زحلان ، « الهوة العلمية والتكنولوجية بين اسرائيل ولبنان : اثرها على لبنان » ، دراسة قدمت في المؤتمر الوطني السادس للانماء ، باشراف ندوة الدراسات الانمائية ، بيروت ، ١٩٧٢/١٠/٢٧ ٠

٢٠ ـ
United Nations, *Statistical Yearbook 1973* (New York : United Nations 1974), pp. 793-795.

٢١ ـ هالة سلام مقصود ، « تحدي التقنية الاسرائيلية وكيف نواجهها ؟ » دراسة قدمت في ندوة « دور المهندس العربي في معركة الصمود » ، باشراف الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين ، بغداد ١٤ ـ ١٨/٤/ ٠

٢٢ ـ مركز التخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية ، « الصناعة الحربية الاسرائيلية » ، دراسة قدمت في ندوة بغداد السابق ذكرها، ص ٩ و١٤ و٢٦ ٠

٢٣ ـ (أ) ـ مجلة العلوم ، بيروت ، حزيران / يونيو ١٩٦٨ ، ص ١١ ٠
(ب) ـ المصدر ٤ ، ص ٢٥ ٠

٢٤ ـ هيئة التعبئة الوطنية ، مؤتمر التعبئة الوطنية ، « تقرير لجنة التعبئة العلمية » ، ٩ ـ ١٩٦٧/١٠/١٠ ، ص١ ٠

٢٥ ـ المصدر ٤ ، ص ٢٤ ٠

٢٦ ـ منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز التخطيط ، فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١١ ٠

٢٧ ـ منير شفيق ، حول كتابات الشهيد كمال عدوان ٠ الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، منشورات الاتحاد ، رقم ٢ ، ص ٢١ ٠

٢٨ ـ
Ministry of Immigrant Absorption, the Student Authority, *Student's Guide* (Jerusalem, November 1971), pp. 4-5.

٢٩ ـ انطوان ب٠ زحلان ، العلم والتعليم العالي في اسرائيل ، ترجمة محمد صالح العالم ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بالاشتراك مع دار الهلال ، ١٩٧٠ ، ص ٧ و ١٨٠ ٠

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٩ ٠

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣ ٠

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٣ ـ ١٨٥ ٠

٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ٠

٣٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٦ او ١٦٦ ٠

٣٥ ـ المصدر ٢١ ، ص ٢ ٠

٣٦ ـ المصدر ٢١ ، ص ١٢ ـ ٢٥ ٠

٣٧ ـ المصدر ٢٩ ، ص ١٤ ـ ١٦ ٠

٣٨ ـ المصدر ٢١ ، ص ٢٤ ٠

٣٩ ـ المصدر ٢١ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠

٤٠ ـ معين احمد محمود ، الجديد في العسكرية الاسرائيلية ، بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٧٢ ، ص ٩٢ ـ ٩٤ ٠

٤١ ـ (أ) ـ فؤاد صروف ، اوراق علمية ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ ، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢ ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ٠
(ب) ـ المصدر ٢٤ ، ص ٢ ٠

٤٢ ـ جريدة « انباء موسكو » ، موسكو ، (١٥) ، ١٩٧٣ ، ص ١٠ ٠

٤٣ ـ
Frederick Harbison and Charles Meyers, *Manpower and Education* (New York : McGraw-Hill, 1965), p. 220.

٤٤ ـ المصدر (١٥ ـ أ) ، ص ٣٤ .

٤٥ ـ المصدر ٢٠ ، ص ٧٦٠

٤٦ ـ
Sydney H. Goult, Science in Communist China, Washington D.C. 1961.

٤٧ ـ (أ) ـ المصدر ٢٤ ، ص ٢
(ب) ـ اللجنة الوطنية اللبنانية التربية والعلوم والثقافة ، الحلقة الدراسية حول التجديد في التربية في البلاد العربية ، التقرير النهائي ، بيروت ، ٢ ـ ١٩٧٤/٩/٧ ، ص ١٠ .

٤٨ ـ (أ) ـ المصدر ٢٤ ، ص ١ .
(ب) ـ المصدر ٢٩ ، ص ٦-٧ و ١٦٤ ـ ١٦٥ .

٤٩ ـ المصدر ٢٩ ، ص ١٤ ـ ١٥ .

٥٠ ـ المصدر ٢٩ ، ص ٣٠ .

٥١ ـ (أ) ـ المصدر (٢٣ ـ أ) ، ص ١١ .
(ب) ـ الياس زين ، « انماء الطاقات العلمية العربية » ، قضايا عربية ، العدد ١٠ ، شباط / فبراير ١٩٧٥ ، ص ٥٣ .
(ج) ـ جريدة « الحياة » ، عدد خاص عن اليابان ، الرقم ١٣ ، ص ٧٦ ، بلا تاريخ .

٥٢ ـ المصدر (٥ ـ أ) ، التوصيات .

٥٣ ـ المصدر ٢٩ ، ص ١٨٦ .

٥٤ ـ المصدر (٢٣ ـ أ) ص ١١ .

٥٥ ـ المصدر ٢١ ، ص ٣٣ .

٥٦ ـ المصدر ٢٤ ، ص ١ .

٥٧ ـ (أ) ـ المصدر ٢٩ ص ١٧٨ .
(ب) ـ المصدر ١٢ ، ص ١٤ .
(ج) ـ المؤتمر الاقليمي الثالث لوزراء التربية والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، الاتجاهات السائدة في التعليم العام والمهني في الدول العربية ، مراكش ١٢ ـ ١٩٧٠/١/٣٠ ، ص١٠١ (اليونسكو)

٥٨ ـ (أ)
L.O.A. Orleans, *Professional Manpower and Education in Communist China.* (Washington, D.C. Library of Congress, 1960). p. 109.
(ب) ـ المصدر (٤١ ـ أ) ، ص ٣٣١ .

٥٩ ـ (أ) ـ المصدر (٥١ ـ ب) ، ص ٤٥ .
(ب) ـ المصدر ٤٠ ، ص ٢٩١ .

٦٠ ـ المصدر ١٧ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٨ .

٦١ ـ (أ) ـ
Development Studies Association, Seventh National Development Conference, 24-25 November 1973, «A Note on the Role of Overseas Study in the Transfer of Scientific and Technological Knowledge,» by David Latta (Beirut : Development Studies Ass.).
(ب) ـ المصدر (٥ ـ أ) ، التوصيات .

٦٢ ـ المصدر (٤١ ـ أ) ، ص ٣٢٤ .

٦٣ ـ المصدر ٢ ص ٤٧ .

٦٤ ـ
James B. Conant, *The American High School Today* (The New American Library, A Signet Book, June 1964), pp. 62-68.

٦٥ ـ المصدر (٤١ ـ أ) ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

٦٦ ـ (أ) ـ المصدر ٤ .
(ب) ـ المصدر ٢ ، ص ٤٦ ـ ٤٧

٦٧ ـ (أ) ـ المصدر ٢١ ، ص ٣٣ .
(ب) ـ المصدر (٤١ ـ أ) ، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .
(ج) ـ المصدر (٥١ ـ ب) ، ص ٥١ .
(د) ـ المصدر (٥ ـ ب) ، ص ٨٢ .

٦٨ ـ المصدر (٥ ـ ب) ، ص ٨٤ .

الطبقة العاملة والحركة السياسية في فلسطين

عبد القادر ياسين

كشفت القيود المفروضة على الحركة النقابية ، وغياب الحقوق السياسية ، للعمال العرب الفلسطينيين الصلة الحميمة بين السياسة وبين ما يعانون من ظروف قاسية في الحياة وفي العمل على السواء .

فظروف هؤلاء العمال كانت لهم المعلم والمدرسة ، اذ طالما اصطدموا ، يوميا ، بوقائع الاستغلال البريطاني والصهيوني . وادى غياب الشركات العربية الفلسطينية الكبيرة - وتلك نتيجة طبيعية للقهر الاستعماري الصهيوني المزدوج - الى تعزيز اتجاه العمال المعادي للامبريالية البريطانية وللصهيونية . فالاحتكارات البريطانية هي التي تدفع لهم اجور الفاقة ، وهي التي تقف عقبة في سبيل مطالبهم بحياة افضل . والحكام البريطانيون هم الذين يمارسون ضدهم شتى اساليب القهر والتنكيل . وحكومة الانتداب البريطاني هي التي تشوه قضيتهم ، وهي التي تقمع - بكل شراسة - الاضرابات والمضربين من العمال العرب الفلسطينيين . واذا ما حظي بعض العمال بمحاكمة ، كان قضاتهم - في الاغلب - من البريطانيين . وفي سوق العمل ينافسهم عمال يهود ، جلبتهم الحركة الصهيونية من خارج البلاد ، وهي الحركة التي تمارس ابشع انواع التمييز ضد العامل العربي ، كما يعمق توالي الهجرة اليهودية الوافدة الى فلسطين ، وتدفقها ، ازمة البطالة العمالية في البلاد .وعن هذا الطريق عرفت شعارات الاستقلال الوطني طريقها الى عقول العمال العرب الفلسطينيين ، من خلال ممارساتهم اليومية . وادركوا انه لا يمكن احداث اي تغيير جذري في حياتهم ، دون حدوث تغيير **سياسي** ، **وان جوهر هذا** التغيير السياسي لا يمكن ان يكون الا الاستقلال والتحرر الوطني . وهكذا ، من السخط الاقتصادي الى الوعي السياسي ، مما افضى الى تضامن طبقي ارتبط بمشاعر وطنية قوية .

لذا ، كان طبيعيا ان تلعب الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ذلك الدور المؤثر - باضطراد - في الحركة الوطنية الفلسطينية . على الرغم من وقوعها - اغلب الوقت - تحت قيادة دخيلة ، لم تصدر عنها . فخبرة هذه الطبقة، ونمو وعيها ، واشتداد عود تنظيماتها وتعاظم كفاحها ، كانت كلها مقدمات تأجج الحركة الوطنية للشعب الفلسطيني . فالعمال هم الذين كشفوا - بكفاحهم الجماعي الاقتصادي - للشعب الفلسطيني نظام الاستغلال الاستعماري ، الجاثم على انفاس الشعب الفلسطيني . والهمت الطبقة العاملة الشعب بأسره ، وحفزته على الكفاح ، كما هتكت الطابع الحقيقي للنظام الاستعماري ، واطماعه . وقبل هذا كله ، اوضحت خبرات معارك الطبقة العاملة طريق التخلص من الاستعمار والصهيونية .

« تفبرك » البرجوازية نظريات عديدة عن

« حياد » النقابات ، كما تعمل من اجل ايقاع هذه النقابات في شباكها ، وتضييق نطاق نشاطها ، وقطع اية صلة بين النقابات والاشتراكية ، وحبس النقابات داخل اسوار العمل النقابي البحت .

فالبرجوازيون يدركون تماما ان النقابات العمالية هي مدرسة للصراع الطبقي . اذ هي - حسب رأي لينين - سلاح لا غنى عنه للطبقة العاملة في صراعها من اجل الاطاحة بالنظام الرأسمالي وبناء المجتمع الاشتراكي .

والنقابة - كما هو معروف - تنظيم طوعي ، يهدف الى تعليم الطبقة وتدريبها ، مؤسسة تعليمية مستقلة ، خاصة ، ضرورية للطبقة العاملة . يجري العمل التعليمي فيها ، اساسا ، من خلال الممارسة اليومية للنقابات ، عن طريق ادانة مظاهر المجتمع الرأسمالي الاستعماري ، وابراز القيم الاشتراكية .

والنقابة مدرسة للوحدة والتضامن . اذ هي توحد ، اختياريا ، الاف العمال ، وتنمي لديهم الاحساس بالجماعية ، وبالمساعدة المتبادلة ، وتعلمهم الجمع بين مصالح الذات ومصالح الطبقة .

واقامة اوسع الصلات بالجماهير هي اساس نجاح النشاط النقابي ، ويتأتى ذلك بالمراعاة الدقيقة لمبادىء تنظيم النقابات ، ونشاطها ، واشكال وطرق عملها . ومع الوعي بهذه الحقائق كلها ، جاءت تصرفات الطبقات والقوى السياسية المختلفة متباينة ، متعارضة مع بعضها البعض .

فالصهيونية كانت اول من احس بأخطار قيام نقابات عمالية عربية صحيحة في فلسطين ... فقاومتها منذ البداية ، ثم عملت على ابعادها عن العمل السياسي ، لما يشكله اسهامها في هذا العمل من خطر حقيقي على المشروع الصهيوني في فلسطين . وعلى سبيل المثال اكدت مقررات المؤتمر السابع لعمال سكك الحديد اليهود (اواخر ايار ١٩٣١) انه « لا يمكن للعمال ان ينالوا حقوقهم المشروعة المهضومة الا باتحادهم وتكوينهم كتلة واحدة ، بقطع النظر عن القوميات والمذاهب والابتعاد عن السياسة ، ضمن وحدة النقابة »(١) .

اما البرجوازية العربية الفلسطينية فنجحت في التسلل الى قيادة الحركة النقابية العمالية، حيث نشرت افكارها الداعية الى عدم تدخل العمال في السياسة . وسمعنا اصواتا ، من داخل الحركة النقابية ، تردد هذه الافكار . على ان هذه الافكار اخذت في الانحسار ، مع مرور الوقت ، تحت تأثير النشاط المتزايد للشيوعيين في الاوساط العمالية ، وبعد اكتشاف العمال الصلة الوثيقة بين السياسة والاقتصاد .

وهذه صحيفة امية شيوعية تؤكد، في اواسط العشرينات ، بأن الطبقة العاملة في الشرق لم تسلم « من الاتجاهات الاقتصادية ، والاشتراكية البوليسية ، والاصلاحية ، اي انها تأثرت - الى حد ما - بمبادىء الاممية الثانية وشعاراتها »(٢) وغني عن القول بأن هذه الاتجاهات جاءت بتأثير البرجوازية الصغيرة التي نجحت في التسلل الى قيادة الحركة النقابية العمالية في بلدان الشرق العربي المختلفة .

وفي قيادة جمعية العمال العربية الفلسطينية نجد النموذج لهذه الاتجاهات . فسكرتيرها العام يتباهى - في العام ١٩٤٦ - بنجاح قيادة الجمعية في النأي بالحركة النقابية عن الحزبية والسياسة ، فيقول « نجونا بحركتنا النقابية من الانزلاق لتيارات السياسة والحزبية »(٣) وفي العام التالي كتبت صحيفة مصرية موالية للاستعمار البريطاني تنفي ان يكون لاعضاء جمعية العمال العربية « مذهب سياسي ، وانما يدنو برنامجهم من الاشتراكية المعتدلة ، فهم جد معنيون بأن تكون لهم صلة بجهة سياسية اجنبية ما . وقد حدث في عام ١٩٤٤★ ان اتفق رأيهم على فصل العناصر التي بدأت تجنح الى الشيوعية »(٤) ووصل النفور من السياسة لدى قيادة جمعية العمال الى حد الرعب ، فاذا وجد مجلس الفرع التابع للجمعية « ان لبعض المسائل السياسية ارتباطا بالشؤون الاجتماعية بحثها من هذه الناحية وحدها »(٥) وفي حديثه للصحيفة نفسها أبان سامي طه « حقيقة عزا

★ - الصحيح ان الشيوعيين هم الذين خرجوا، ولم تفصلهم الجمعية ، كما ان هذا الخروج وقع في آب (اغسطس) ١٩٤٥، وليس قبل ذلك .

اليها جزءا كبيرا مما اصابته جمعيته من نجاح ، وهي بعدها عن المزالق السياسية ، وتخليها عن اعتناق اي مذهب سياسي كان » . وحرص سكرتير عام جمعية العمال على ان يبين لمندوب الصحيفة « المبدأ لذي عليه تدور رحى حركتهم ، وهو الوصول الى اهدافهم بالتدرج لا بالثورة . فهم جد مقتنعين بأن العمل في امانة واخلاص وصبر وامتثال للنظام هو السبيل لتحقيق اماني العمال وطلباتهم في اقرب وقت . فما كان التذمر ، والاندفاع الى الفتنة ، والسعي لاحداث الشغب مما يؤدي الى تقدم ما » . اذن ، فقائد جمعية العمال العربية الفلسطينية يرى في كفاح العمال الجماعي تذمرا وفتنة وشغبا ، وهو بهذا يصدر عن افكار برجوازية خالصة لا تشوبها اية شوائب عمالية !

وتطمس قيادة جمعية العمال الطابع الطبقي للجمعية ، بتغليبها لعنصر الموظفين ورؤساء العمل على عنصر العمال . وهذا مندوب الصحيفة المصرية نفسها يؤكد اشتراك موظفي الحكومة في عضوية الجمعية « لانه ليس ثمة فرق او تمييز بين العامل والموظف » ! ويصبح محرر الصحيفة الموالية للاستعمار البريطاني مهللا معجبا : « وذلك لعمري طابع الديمقراطية الصراح ، الذي يهدف - اصلا - الى الاحتفاظ دائما بمستوى عال للعامل » .(٦) وبالاضافة الى ان اشتراك الموظفين ورؤساء العمل يفقد الجمعية نقاءها الطبقي كمؤسسة نقابية عمالية ، فانه يشدد ، في الوقت نفسه ، من قبضة البرجوازية التي ينتمي اليها هؤلاء الموظفون ورؤساء العمل - على الجمعية ، اذ يحتل هؤلاء اغلب مقاعد قيادة الجمعية . فالطريق امامهم جد ممهد ، في حين نثرت العقبات والتحفظات في وجه العمال ، للحد من وصول عناصرهم الى مناصب قيادية في الجمعية ، اذ يجوز « لكل عامل ان يقبل عضوا في مجلس الادارة ، ولكن ذلك يقتضي تفوقا فنيا خاصا » !(٧)

وتصر قيادة جمعية العمال على طابعها القومي كبديل لطابعها الطبقي . ففي مقررات آب (اغسطس) ١٩٤٦ جاء « ... ان حركتنا تستهدف تكتلا قوميا ، على اساس الاشتراك والمساهمة في الحركة الانسانية الدولية ، بشرط المحافظة على استقلال وشخصية تكتلنا القومي »(٨) .

ويتجلى المنطق التوفيقي ، والرغبة في التعايش الطبقي في مداولات المؤتمر المذكور ، حين تحدث رئيس الغرفة التجارية بحيفا ، كامل عبد الرحمن ، عن مقررات مجالس التحكيم ، التي تدل - في العادة - « على التعاون الايجابي بين العمال واصحاب العمل ، والذي بدونه يختل نظامنا الاقتصادي الناشيء ، وتتضرر ثروة البلاد » . ودعا عبد الرحمن اصحاب العمل الى قليل من حسن النية والتضحية والاستعداد لفهم طلبات العمال ، وشبه الخلافات بين العمال واصحاب العمل بتلك الخلافات التي تنشأ بين الاب وابنه والاخ واخيه . وانتهى الى ان « الواجب الوطني يقضي على العمال التفاهم مع اصحاب الاعمال » . وذكرهم « ان عليهم واجبات تجاه اصحاب الاعمال ، لا بد من القيام بها لقاء الامتيازات التي يتمتعون بها » ! وانتهى رئيس الغرفة التجارية الى الاعلان عن ثقته « في القائمين على جمعية العمال العربية الفلسطينية » لانجاز هذه المهام !(٩)

وفي حفل الغداء الذي اقامه لاعضاء مؤتمر جمعية العمال ، اشار كامل عبد الرحمن الى « انه اذا حصل زاد وملح بين فريقين ، سهل عليهما حل ما قد ينشأ بينهما من خلاف ، بروح المود والتصافي » .(١٠) وبرهن كامل عبد الرحمن عن وعيه بمصالح طبقته البرجوازية ، واتساقه مع نفسه . اما سامي فقد كان حريا به ان يرفع شعارات الطبقة العاملة التي يزعم الدفاع عن مصالحها . فلا يرائي ، ولا يمتدح الداعي لانه انحدر من اسرة عمالية ويمتدح المستر شلنر ، نائب مدير عام سكك الحديد ، والمستر هوبكنز ، مدير العمل بشركة تكرير البترول ، اللذين حضرا المأدبة . ووصل به الامر الى حد القول « ... عرفتهما [شلنر وهوبكنز] يرغبان رغبة صادقة بحل جميع قضايا عمالهما بالبحث والمناقشة » ! ثم تحدث عن نفسه وجمعيته ، فقال ان هذين المسؤولين عرفاه بانه يمثل « هيئة لا تنظر الى صاحب العمل نظرة عدائية ، وانما هي تؤمن بأن عليها

ان تسير في طريق مزدوج ، طريق العامل حتى يصل الى حقه العادل ، وطريق صاحب العمل باعترافها بحقه العادل بعمله ، وتعترف بأنه من الضروري ـ لمصلحة العمال والعمل ـ ان تكون هناك رابطة قوية بين العمال واصحاب العمل ، رائدها لخير الطرفين »(١١) . وهكذا ، يعبر اكبر مسؤول في جمعية العمال العربية في طابعها التوفيقي ، كما يعترف ـ مفاخرا ـ بميولها التهادنية .

وفي مجال اخر ، تزيد وثيقة صادرة عن مؤتمر آب (اغسطس) نفسه الامر وضوحا ، فترى « ان كل ثورة لانقلاب اجتماعي مقضي عليها لا محالة ، وذلك لاننا كعرب يربط بعضنا ببعض الاواصر العائلية ، وكل دم يراق من فرد من افراد اي عائلة فأن كل فرد من تلك العائلة مطالب باخذ الثأر . لذلك فكل دعوة لتحقيق اي انقلاب لاصلاح اجتماعي بالثورة هي دعوة رجعية ، لانها قضاء على ذلك الاصلاح ، وتأخير الدعوة له مرة اخرى سنين طويلة ، وزج البلاد بفتنة لا يعلم الا الله نهايتها . ولان الدعوة للثورة معناها وضع البلاد في معسكرين ، كل منهما يتحين الفرصة ليوضع الضربة بخصمه »(١٢) وهكذا ، من الهبوط لمنطق العلاقات العشائرية الى ادانة الثورة . وكان اجدر بقيادة جمعية العمال ان تدعو الى تأجيل الثورة الطبقية لحين الخلاص من الاستعمار والصهيونية ، لا ان تدين الثورة ادانة مطلقة .

وعداء جمعية العمال العربية للسياسة والحزبية تعود الى فترة سابقة على تولي سامي طه سكرتيريتها . ففي مؤتمر العمال العرب الفلسطينيين الاول (١٩٣٠) ، اشار رئيس المؤتمر ، محمد علي قليلات ، الى ان جمعية العمال « لا تسمح لاحد من المؤتمر ان يشذ عن هذا القانون [قانون الجمعية] ، ولا ان يتكلم او يقوم بأي حركة من شأنها سوق المؤتمر في طريق حزبي . اذ ان الغاية الوحيدة من عقد هذا المؤتمر هي العمل على ادخال العامل العربي في سلك التنظيم النقابي ، ليتبوأ المركز الذي يستحقه في الهيئة الاجتماعية »(١٣) .

وفي مؤتمر اب (اغسطس) ١٩٤٧ طالب حسني الخفش ، احد قادة الجمعية ، بتطهير الحركة العمالية « من كل حزبية سياسية ، داخلية او خارجية » ! على انه رد موقفه هذا الى ان الاحزاب السياسية العربية الفلسطينية اولا لا تقوم على تمثيل صحيح للشعب ، وثانيا لان النأي بالحركة العمالية عن الحزبية يجنب الحركة الفرقة التي تحدث بسبب انتساب العمال الى احزاب سياسية مختلفة . وانتهى الخفش الى المناداة بتشكيل حزب عمالي خالص (١٤) .

وفي مؤتمر اب (اغسطس) ١٩٤٦ ، تبنت جمعية العمال شعار « الاشتراكية » ، اولا بعد ان اصبحت الاشتراكية نظاما عالميا غداة الحرب العالمية الثانية ، وبهرت بأنوارها ابصار شعوب الارض . وثانيا حتى تفوت الجمعية على مؤتمر العمال العرب فرصة التمايز عنها او اتهامه لها بالرجعية . وثالثا حتى تتمكن الجمعية من تخريب الاشتراكية من الداخل . ورابعا لان حزب العمال البريطاني ـ الذي اعربت قيادة الجمعية ، في اكثر من مناسبة ، عن اعجابها الشديد به ـ يرفع ايضا راية الاشتراكية ، وان كانت اشتراكية في ظاهرها رأسمالية في جوهرها .

وجاءت الوثيقة التي اصدرتها قيادة الجمعية بصدد الاشتراكية لتعتبر ، في مبدئها الاول « الحركة النقابية الطريق الصحيح للوصول الى الاهداف الاشتراكية » . وفي شرح هذا المبدأ جرى انتقاد الذين بدأوا نشاطهم النقابي بالاشتغال بالسياسة (١٥) !

والاشتراكية ، في رأي الوثيقة « حركة اصلاح لتحقيق العدالة الاجتماعية ، بتوزيع ثروة البلاد الطبيعية والانتاجية توزيعا عادلا بين جميع المنتجين من المواطنين ، لتحرير كل فرد من خوف العوز والجهل والمرض ، وباعطاء فرص متساوية بالحياة للجميع لضمان المساواة التامة بين الافراد »(١٦) . وهذا يعكس مفهوما حرفيا (بكسر الحاء) للاشتراكية ، يرى فيها توزيعا متساويا للخيرات المنتجة ، اي اشتراكية الفقر . واشتراكية جمعية العمال تتحقق ، في رأي قيادتها « اذا اخذ العامل المنتج نصيبا عادلا من انتاجه ... [حين] يتحدد الحد الادنى لمستوى المعيشة المحترمة وتأمين ذلك

الحد للجميع ... وهدفنا هو ان تمتلك الامة ادارة هذه المشاريع [الشركات الاجنبية الكبيرة بفلسطين] وغيرها ، وان يصرف ريعها على تأمين رفاهية الشعب ورفع مستواه المادي والثقافي والاجتماعي ، وبذلك نكون قد وزعنا تلك الثروة توزيعا عادلا »(١٧) .

واشتراكية جمعية العمال قومية لا طبقية ، تردد كلام ابواق الاستعمار ضد الشيوعية . فالوثيقة تفخر باستقلال اشتراكية جمعية العمال استقلالا تاما « فليست هي تابعة الى اية حركة من الحركات الدولية ، وكل حركة من اعمالنا هي موحاة من مصلحة البلاد والامة » . وترى الجمعية ان تبنيها لاشتراكية « غير محلية » يجعل الحركة العمالية « لا تعود تفكر الا برأس خارجي ، ولا ترى الا بعين الغير .. اضف الى هذا ان الفرد يفقد اعتماده على نفسه ، وثقته بأمته ، ويرسخ في عقله اعتقاد خطر انه هو لا ينفع شيئا بدون مساعدة الغير له ، ومع الزمن ينقلب ذلك الفرد الى داع لدولة اجنبية » (١٨) !! نعم ، الى هذه الدرجة من الابتذال في معاداة الشيوعية ! والاستخفاف بعقول الناس . ويستمر هذا العداء حتى بعد وقوع النكبة بنحو خمس عشرة سنة ، حين يزعم حسني الخفش ان الوكالة اليهودية ساعدت على انتشار الفكرة الشيوعية في فلسطين !!(١٩)

وفي تبرير توجه الجمعية للاشتراكية ، قال نصري الحلو ، احد قادة عمال معسكرات الجيش والمرتبط بالجمعية « ان نظمنا الاقتصادية مرتجلة ، نفعية ، جائرة ، فيجب ان تستبدل بنظام اقتصادي ، متزن ، مدروس ، يسعى الى منفعة المجتمع بكامله ، ويحقق العدل في التوزيع ، كما في الانتاج » (٢٠) . ويخشى النقابي الفلسطيني من اساءة تفسير الاخرين لكلامه ، فيسارع الى التأكيد بأن « الاهداف التي نرمي اليها لا يحققها الا الاشتراكية الصحيحة ، وليس الاشتراكية المتطرفة ، القائمة على الثورة والعنف لمصلحة افراد قلائل من الامة » (٢١) . اذن ، فالمتحدث ضد الاشتراكية قصدها بـ « افراد قلائل من افراد الامة » !

ويكمن الاساس الاجتماعي لانحراف قيادة جمعية العمال عند تفسير الاشتراكية في تخلف قوى الانتاج ، في انتشار الانتاج السلعي الصغير ، في سيادة الاساليب الزراعية على السلوك الاجتماعي . مما يدفع الكثيرين الى تصور الاشتراكية كتجمع للفقراء، يتساوى فيه توزيع الخيرات المادية الشحيحة . وفي هذه التربة تنبت الافكار الاشتراكية الخاطئة ؛ حيث التشكك المطلق في السلطة ، وحيث النزوع لنشر الملكية الصغيرة ، وتكريس الانتاج السلعي الصغير ، بحيث لا يتم القضاء على الاستغلال الرأسمالي ، بل يجري تمليك العمال ادوات الانتاج في بعض الوحدات الانتاجية الصغيرة . وهنا يبرز قطاع من المثقفين للتعبير عن هذا التطلع البرجوازي الصغير ، الذي يخشى الانفصال عن الرأسمالية ، ويقف عند حدود الثورة الوطنية ، ويبالغ في استخدام الشعارات الطنانة المفرغة من اي مضمون حقيقي ، اتغطية ضحالته الثورية .

ومع استقبال الطبقة العاملة اعدادا كبيرة من الفلاحين في صفوفها ، يتسرب هذا الفكر الى صفوف الطبقة العاملة ، وهو الذي يقدس الملكية الفردية ، ويبالغ في تأليد الطبقة العاملة .

ويساعد على انتشار هذا الفكر ، تدني الوعي الطبقي والسياسي لدى جماهير العمال .

وينسى هؤلاء البرجوازيون الصغار الذين يخترعون اشتراكيات على هواهم انه ليس هناك الا اشتراكية واحدة ، وان كان هذا لا ينفي عنها التطور وعدم الجمود ، كما ان للوصول اليها طرقا مختلفة ، بما يلائم ظروف كل بلد على حدة .

واما الاشتراكية القومية او الاشتراكية الوسط الا تكتيكا رأسماليا لتنديد بالاشتراكية العلمية . ولا وجود لاشتراكية وسط ، فالحياد غير ممكن في مجال الايديولوجيات ، فأما رأسمالي واما اشتراكي ، ولا يصح ابدا الباس الاشتراكية رداء رأسماليا ، او العكس ، كما ان الاشتراكية ليست حلية ، بل ممارسة وتنفيذا ومرحلة متكاملة . والاشتراكية انحياز طبقي كامل ، تعادي التعايش الطبقي ، لانها

تعمل لصالح الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين وضد الطبقات المستغلة (بكسر الغين) ٠

والقول بأن تطور القوى المنتجة في فلسطين لا يؤهلها لدخول مرحلة الاشتراكية ، قول غير سليم ، لان الامبريالية هي اعلى درجات الرأسمالية ، وسيطرة الاستعمار البريطاني على فلسطين جعله ينقل اليها الرأسمالية في اعلى درجاتها : الرأسمالية الاحتكارية الامبريالية ٠ وما كفاح الشعب العربي الفلسطيني ضد الامبريالية الا كفاح ضد الرأسمالية ٠

ويتوهم قادة جمعية العمال بأن التحول للاشتراكية لا يتطلب اكثر من نية حسنة او مجرد قرار اداري ٠ مع اهمال لدور الجماهير ، مما لا يؤدي الا الى تثبيت الرأسمالية ٠ فالاشتراكية تتحقق بالجماهير ، ولا تفرض من اعلى ابدا ٠ وليس كل من قال بالاشتراكية اشتراكي ٠ فهناك المتمضمضون بالشعارات الاشتراكية ، المجتهدون في اخفاء جوهرها ، القاضي بانهاء استغلال الانسان لاخيه الانسان ٠

واستمرت قيادة جمعية العمال العربية تنأى بنفسها عن السياسة الى ما بعد النصف الاول من الاربعينات(٢٢) ٠ وما ان قام « مؤتمر العمال العرب » الذي كان له انتماؤه السياسي الواضح ، اضافة الى انتمائه النقابي المحدد ، حتى هرعت جمعية العمال تفتش لها عن مثل هذين الانتمائين ٠ فحوت وثيقتها السياسية المباشرة الاولى ، واعني بها « مبادؤنا الاشتراكية » الصادرة عن مؤتمر آب (اغسطس) ١٩٤٦ ، اكثر من تبرير لهذا التحول نحو النشاط السياسي ٠ فأكدت هذه الوثيقة انه « لا بد للنقابيين الاشتراكيين من ان يزجوا في ميدان السياسة رجالهم الاكفاء ، الذين امتهنوا السياسة ، وبرعوا بها ، ليأمنوا على حركتهم مخاطرها »(٢٣) ٠ على ان الوثيقة نفسها قلبت العلاقة بين النقابية والسياسة ، فأعتبرت « الحركة السياسية بالنسبة للعمال فرعا من الام : الحركة النقابية ، وواسطة للوصول الى الغاية »(٢٤) ٠

على ان ثمة دوافع اخرى كانت وراء توجه قيادة الجمعية نحو النشاط السياسي ٠ فكل من كامل سليم وحسني الخفش - من قادة الجمعية - طالب ، في مؤتمر آب (اغسطس) ١٩٤٦ ، بتكوين حزب سياسي عمالي ، حتى لا يتفرق العمال على الاحزاب السياسية المختلفة ، « والتي لا تمثل الشعب في شيء» (٢٥) ٠ كما ان التطلع للسلطة كان وراء هذا التوجه للسياسة ، وهذا سامي طه يعرب ، في المؤتمر نفسه ، عن ايمان الجمعية « بأن من دواعي الاسراع بالتطور هو استلام زمام السلطة » ، مما يتطلب « النزول الى ميدان السياسة » ٠ (٢٦) كما ان ازدياد شعور الجمعية بالخطر الصهيوني وبالطابع السياسي للهستدروت ، حفز قيادة الجمعية الى مقابلة « هذه المنظمة بمنظمة عمالية سياسية قوية » (٢٧) ٠ على حد تعبير كامل سليم في المؤتمر المذكور ٠ واخيرا برر العضو نفسه مطالبته بادماج الحركة السياسية بالحركة النقابية بتولي حزب العمال البريطاني الحكم في بريطانيا ، مما يجعله مؤهلا لسماع شكوى العمال العرب الفلسطينيين، « لان العمال في بريطانيا لا يمكن اقناعها الا على ايدي عمال مثلهم ، لانهم يفهمون اساليبهم واهدافهم فيقابلونها بمثلها » (٢٨) ! ولا ندري هل كان قائل هذه الجملة من السذاجة بالدرجة التي يقتنع فيها بأن حزب العمال البريطاني يمثل حقا الطبقة العاملة في بريطانيا ، ام ان القائل كان يخدع سامعيه ؟!

وقبيل مؤتمر آب (اغسطس) بأسابيع قليلة ، واثر اللجنة الانغلو - امريكية ، اقر سامي طه بعدم انفصال العمال العرب عن النضال الوطني كل الوقت ٠ كما اعترف باستمرار « العمال ، كأفراد ، يناضلون مع امتهم سياسيا ، وكجماعة ، يناضلون اقتصاديا لرفع مستواهم » (٢٩) ٠

وتوالت اعترافات قادة الجمعية بضرورة العمل السياسي ٠ ففي المؤتمر المشار اليه ندد ابراهيم عليان بانعزال العمال عن الشؤون السياسية ، واكد ان « فكرة ابتعاد النقابات عن ميدان السياسة هي فكرة رجعية ، اوجدها الاستعمار لمصلحته الخاصة ، وليمكنه ان يعقد الاتفاقات مع الشركات الاحتكارية

الاجنبية بدون اي تهديد او تدخل عمالي في شؤون اتفاقياته ، مما جعل شروط الاستخدام في مصلحة اصحاب العمل ، الا النزر اليسير في مصلحة العامل» (٣٠) وانتهى العضو نفسه الى التأكيد بأن « بلادنا سائرة بطريقها الى الهاوية ، وسوف تكون مأساتها مخيفة »٠ وناشد المؤتمر « بأن يجعل استقلال فلسطين على رأس اهدافه » (٣١) ٠ وتبعه عضو اخر في المؤتمر ، هو داود يونس من عمال حيفا ، فأشار الى « ان العامل هو اجدر وأحق من يشتغل بالسياسة ، فالسياسة كفاح ونضال ومراس ٠ والعامل هو اقوى من ينهض بهذا العبء ويحتمل مشاقه ، وهو الشخص الوحيد الذي يذهب في كفاحه المذاهب التي تكلفه حياته ودمه ، دون ان ييأس او يأسف » ٠ وانتهى العضو نفسه الى القول بأن « دعوة الابتعاد عن السياسة هي دعوة رجعية استعمارية ، فيها الشر كل الشر ، والضرر كل الضرر » (٣٢) ٠٠٠٠ والاعتراف سيد الادلة !

على ان نزول قيادة الجمعية المفاجيء الى ميدان السياسة لم يكن الا امتدادا لعملها النقابي ، بكل ايجابياته وسلبياته ، مما طبع مطالبها ومواقفها السياسية ـ ايضا ـ بالاصلاحية واليمينية والادقاع ٠

فعلى سبيل المثال ، ناشد سامي طه ـ في مؤتمر آب (اغسطس) ـ الهيئات السياسية العربية الفلسطينية بأن تتوجه الى حكومة الانتداب ، مطالبة : « بتأليف جيش عربي، لحماية الارواح والمصالح العربية تجاه الجيش الصهيوني الذي دربته وسلحته الحكومة ٠٠٠ ب ـ بحرمان المهاجرين الذين دخلوا البلاد بعد انتهاء المدة التي حددها الكتاب الابيض من جميع الحقوق المدنية ، ثم باخراجهم من البلاد » (٣٣) ٠ وهكذا ، يكشف الامين العام لجمعية العمال عن مدى سذاجته السياسية ويمينيته ، وعن حسن ظنه الشديد بالاستعمار البريطاني في آن واحد ! حين توهم بامكانية استجابة الاستعمار لنداء باقامة جيش عربي فلسطيني ٠ ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي اعرب فيها الامين العام لجمعية العمال عن حسن ظنه في الاستعمار البريطاني ، اذ برأ امام اللجنة الانغلو ـ امريكية ـ حكومة الانتداب من مسؤولية عدم قيامها بواجبها حيال الشعب العربي الفلسطيني ، فقال « في فلسطين ، التي بسبب الصهيونية تمتعت بعدم الاستقرار السياسي واضطراب حبل الامن منذ الاحتلال ، لم يكن لدى الحكومة مجالا لكي تقوم بواجباتها نحو الشعب كما يجب ، بل انصرفت بالدرجة الاولى لمعالجة استتباب الامن ، فخصصت له القسم الاكبر من جهودها ، والمبلغ الاكبر من ميزانيتها ، وطبيعي ـ بعد ذلك ـ ان تخصص لمعالجة تلك المشاكل الجزء اليسير من ميزانيتها وتفكيرها » (٣٤) ٠ اذن ، فعدم استتباب الامن لم يسببه الاحتلال البريطاني لفلسطين ، بل هذا الاحتلال يستحق الشفقة لما يبذله من جهود في سبيل فلسطين ، على حد رأي الامين العام لجمعية العمال العربية! وهو الذي سرعان ما يناقض نفسه ، حين يرى « ان العرب يطالبون بتحرير انفسهم وبلادهم من الاستعمار ، ليحكموا انفسهم حكما ديمقراطيا » ٠ (٣٥) ثم يتناقض مع نفسه مرة اخرى ، حين يرى ان الصهيونية «احبولة من احابيل الاستعمار ، يتستر وراءها ليضمن لنفسه قدما راسخة في البلاد » (٣٦) ٠ وهنا لا يتهم سامي طه الصهيونية بالتسبب في تقصير الاستعمار حيال الشعب الفلسطيني ، بل يعي انها احدى ادواته ! وهو ايضا يعي الوجه الاخر للصهيونية فيصفها بأنها « حركة رأسمالية رجعية ٠٠٠ تستهدف تأسيس قومية جديدة على حساب القومية العربية بهذه البلاد ، ولذلك نحن العمال نعتبرها فلسفة عنصرية » (٣٧) ٠

وفي الوقت الذي طالب سكرتير عام جمعية العمال بالتحرر من الاستعمار ، فانه لم ير في كفاح شعبه العربي الفلسطيني او امته العربية السبيل لتحقيق هذا التحرر ، بل علق آماله على شعوب الامم المتحدة ، اذ قال « ونحن نتطلع الى شعوب الامم المتحدة ان تنقذ هذه البلاد [فلسطين] من الاستعمار »! (٣٨)

ويبدي احد اعضاء مؤتمر آب (أغسطس)

اعجابه الشديد بمكاتب الدعاية العربية* ، مما جعله يطالب المؤتمر بالسعي لتمثيل الحركة النقابية في هذه المكاتب « لان العمال ادرى في افهام سواد الشعب في غير فلسطين مطالبها » . كما طالب بانشاء « مكتب خاص في الجمعية للدعاية ، ويكون شبيها بمكاتب الدعاية العربية ، غير انه عمالي ، ولا تنحصر اعماله في فلسطين » . ودعا العضو نفسه الى « معاضدة المشروع الانشائي** ، والسير معه ، لان اهدافه اهداف اشتراكية ، تنطبق على اهداف العمال » (٣٩) ! وفي خطابه امام مؤتمر آب (اغسطس) ١٩٤٦ ، طالب سامي طه بالتوجه « الى هيئة المكاتب العربية بالتوصية الى فتح مكتب او اكثر لها في الهند » (٤٠) .

وفسرت قيادة الجمعية عدم مطالبتها باستعادة الامتيازات الاجنبية باهتمامها بمسألة توزيع « الثروة الانتاجية توزيعا عادلا بين المنتجين من الشعب » . وفي صيف ١٩٤٦ تمنت قيادة الجمعية على الله « ان يأتي الوقت القريب الذي تتمكن حركتنا فيه من ان ترفع الصوت عاليا بالمطالبة بتوزيع ثروة البلاد الطبيعية توزيعا عادلا بين المنتجين من الشعب » (٤١) .

ويتضح الطابع الاصلاحي لقيادة جمعية العمال من صلاتها الحميمة بالجامعة العربية ، اداة الاستعمار البريطاني في المنطقة العربية طوال النصف الثاني للاربعينات . وسقطت جمعية العمال ضحية اوهام بصدد الجامعة العربية ، اذ عولت عليها الكثير . ففي العام ١٩٤٥ لفت المجلس الاعلى للجمعية نظر الجامعة العربية الى ضرورة تأليف فرع خاص بها للعناية بالشؤون النقابية بالبلاد العربية . والتقى - في آب (اغسطس) ١٩٤٥ - سامي طه وحنا عصفور بالامين العام للجامعة العربية في لندن ، واشارا الى الموضوع نفسه « وقد اظهر الامين العام حماسا كبيرا للموضوع » ، واقام السفراء العرب بلندن وليمة لحنا عصفور وسامي طه ، مما جعل سعيد قواص - عضو مؤتمر آب (اغسطس) ١٩٤٦ - يؤكد بلا تردد « ان المسؤولين من رجالات العرب يحملون روحا تقدمية يمكننا ان نفاخر بها » ! (٤٢) .

وعندما انقسم اتحاد النقابات العالمي الى شطرين ، غداة طرح « مشروع مارشال » الامريكي ، في صيف ١٩٤٧ ، اعلن سامي طه ، باسم جمعية العمال ، عدم انتماء الجمعية لاي من الفريقين ، في الوقت انضم فيه « مؤتمر العمال العرب » الى اتحاد النقابات العالمي ، اليساري الاتجاه . وكان طبيعيا الا تنضم الجمعية لاي من هذين الاتحادين ، ذلك ان الاتحاد الحر كان كامل الولاء للغرب الاستعماري، مما يكشف اتجاه الجمعية فيما لو انضمت اليه ، كما ان الاتحاد العالمي استقطب النقابات التي يسيطر عليها اليساريون ، وجمعية العمال العربية الفلسطينية بعيدة كل البعد عن هذه الصفة ، بل ومعادية لها .

وفي المجال العالمي ايضا ، ادان سكرتير عام الجمعية - في صيف ١٩٤٧ - اعتداء الاستعمار الهولندي ضد الشعب الاندونيسي ، واعلن « ان العمال العرب ينتصرون للشعب الاندونيسي » (٤٣) .

واحساسا من القوى اليمينية والمحافظة

★ - المكاتب العربية : انشأتها الجامعة العربية ، ونصبت موسى العلمي ، السياسي الفلسطيني اليميني المعروف على رأسها ، في العام ١٩٤٥ ، بهدف الدعاية للقضية الفلسطينية في كل من واشنطن ولندن ، لاقناع الشعبين الامريكي والبريطاني بعدالة القضية الفلسطينية .

★★ المشروع الانشائي : صندوق اقترح تأسيسه ، على الجامعة العربية (٥/١٠/ ١٩٤٤) ، موسى العلمي ، بهدف انقاذ وشراء الاراضي الفلسطينية المهددة بالسقوط في ايدي المستوطنين اليهود ، وتحسين حالة الاراضي ومساعدة العربي الفلسطيني . وترأس هذا المشروع توفيق ابو الهدى ، رئيس وزراء الاردن الاسبق ، في حين بقي العلمي المهيمن الاول على المشروع .

العربية الفلسطينية باتجاه جمعية العمال ، عملت هذه القوى على دعمها وتأييدها « فقد ساعدت معظم القوى ذات الاتجاه القومي من مختلف الطبقات على دعم جمعية العمال وفروعها ، وعدم التعامل الا مع ممثليها » (٤٤) وعلاوة على « الحزب العربي الفلسطيني » الموالي للحسينية ، كان اعضاء الحزب القومي السوري بفلسطين ، والمعروفين بميولهم الفاشية ، اكثر تعاونا مع قادة جمعية العمال العربية (٤٥) . كما اقامت الجمعية - باعتراف احد قادتها - صداقات مع تيارات مختلفة ، وخاصة مع خريجي الجامعة الامريكية في بيروت ! (٤٦) . وهذا احد اشد انصار الحسينية يرى ان زعماء جمعية العمال هم « من الذين كانوا يعتقدون بفائدة التعاون مع الانجليز ،وان الدعاية في الاوساط الغربية لقضية فلسطين من الاسلحة المفيدة - وان لم تكن السلاح الوحيد - التي يمكن ان يؤدي الى نتيجة » (٤٧) .

وتفسر احدى وثائق جمعية العمال العربية عدم اصطدام الجمعية بأي من الاحزاب العربية الفلسطينية القائمة ، بكون هذه الاحزاب كانت تستهدف استقلال البلاد انسياسي ، وليس لاي منها برنامج اقتصادي . في حين تهدف جمعية العمال الى الاستقلال السياسي والاقتصادي معا ، مما جعلها تلتقي مع كافة هذه الاحزاب على درب الاستقلال السياسي ، دون ان تصطدم معها في المجال الاقتصادي (٤٨) . وهذا تفسير سطحي وساذج ، اذ ان الاحزاب ليست الا فرق سياسية لطبقات اجتماعية عربية فلسطينية ، صاغت اهدافها ومطالبها وشعاراتها . حتى هذه الاهداف والشعارات السياسية ليست الا التعبير المكثف عن المصالح الاقتصادية للطبقات الاجتماعية التي تعبر عنها هذه الاحزاب . ومن هنا يمكن القول بأن عدم الصدام جاء بسبب احساس هذه الاحزاب (وكلها احزاب محافظة مع تفاوت في الدرجة) بأن الجمعية تناوىء الحركة الشيوعية في فلسطين . ومن هنا جاء - ايضا - التقاء هذه الاحزاب مع قيادة جمعية العمال العربية الفلسطينية .

وحتى حكومة الانتداب تعاملت مع جمعية العمال دون مؤتمر العمال العرب ، مكافأة لقيادة الجمعية - فيما يبدو - على مواقفها الاصلاحية المتهادنة في الاقتصاد والسياسة .

وغداة انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استجدت جملة امور ، وتغيرت مواقع عديدة في الساحة الفلسطينية .

وجاء المؤتمر الثاني لجمعية العمال (١٨ / ٨ / ١٩٤٧) معبرا عن ايلاء الجمعية اهتمامها الرئيسي للسياسة ★ . وكان طبيعيا ان تميل قيادة الجمعية للجانب الاكثر رجعية في الحركة الوطنية الفلسطينية ، واعني به « المكاتب العربية » . مما فجر صراعا حادا بين الحزب العربي والحسينية عموما وبين جمعية العمال ،

★ - اهم مقررات هذا المؤتمر كانت :

١ - رفض مشروع تقسيم فلسطين ، والمطالبة باقامة دولة عربية بفلسطين، يكون لليهودي المستوطن فيها قبل الاحتلال البريطاني حق العيش فيها كأي مواطن عربي آخر ، على ان يجلي بقية المستوطنين اليهود عنها .

٢ - تأييد مشاريع الجامعة العربية لانقاذ اراضي فلسطين .

٣ - تأييد « الهيئة العربية العليا » ، ومشاريعها الاقتصادية ، ومواقفها السياسية ،

٤ - تأييد مشروع « صندوق الامة » لشراء الاراضي العربية بهدف منع تسربها للمستوطنين اليهود ،

٥ - تأييد مشروع موسى العلمي ، القاضي بانشاء قرى نموذجية ، والحيلولة دون بيع العرب لاراضيهم ،

٦ - تعزيز الحركة التعاونية ،

٧ - تأليف حزب سياسي على غرار حزب العمال البريطاني .

مكتب العلاقات ... ص ٤٧-٤٩ + خريس ، علي عناد ، الصفدي ، صلاح : الحركة النقابية العمالية في الاردن ، دار النشر والتوزيع والتعهدات ، د.ت. ، ص ٥١ .

وجد تعبيرا له في مقالات « الوحدة » ، صحيفة الحزب العربي ، التي اخذت تندد بقيادة الجمعية ، وانتهت المعركة بين الطرفين باغتيال سامي طه في مدينة حيفا ، في ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٧ • واختير الدكتور عمر الخليل ★ خلفا له ، وسارع الخليل الى اعلان ولائه للهيئة العربية العليا (٤٩) ، التي يلعب فيها الحسينية الدور المحوري !

وتبدأ قصة الصدام بين الجمعية وجماعة الحسينية ، منذ وطأت اقدام قيادة الجمعية ارض السياسة ، حيث اختارت جماعة الحسينية سامي طه عضوا في اللجنة العربية العليا (الهيئة العربية العليا فيما بعد) في آذار (مارس) ١٩٤٦ ، مفضلة تمثيل الجمعية على تمثيل مؤتمر العمال العرب ، المرفوض من كافة الفصائل السياسية العربية الفلسطينية المحافظة ، بسبب اتجاهه اليساري الواضح • وفي العام ١٩٤٧ سافر سامي طه الى انكلترا لحضور مؤتمر لندن ، ضمن الوفد الفلسطيني (٥٠) •

وعقب مؤتمر جمعية العمال الثاني ، وخلال شهري آب (اغسطس) وايلول (سبتمبر) ١٩٤٧ ، ركزت قيادة جمعية العمال جهودها من اجل تكوين حزبها السياسي • وحدث ان ارسلت قيادة الجمعية برقية الى الامين العام للامم المتحدة تخطره فيها بأنها تمثل الاغلبية الساحقة من الشعب العربي الفلسطيني ، حيث ينتسب لعضويتها ١٢٠ الف عامل ، ولو ضرب هذا الرقم بخمسة ـ متوسط عدد افراد الاسرة الواحدة ـ لكان الناتج ٦٠٠ الف (ثلثي عدد عرب فلسطين تقريبا) ، وهو العدد الذي تزعم الجمعية انها تعبر عنه • واوغر هذا التصرف صدر الحسينية ، الذين كانوا يحتكرون تمثيل الشعب الفلسطيني طوال فترة الاحتلال البريطاني لفلسطين • وعندما وفدت لجنة الامم المتحدة الى فلسطين ، في حزيران (يونيو) ١٩٤٧ ، بهدف جمع المزيد من حقائق الموقف فيها ، قرر الدكتور حسين فخري الخالدي ، سكرتير الهيئة العربية العليا ، استقبال اللجنة الدولية باضراب عام يستمر ثلاثة ايام ، مع مقاطعة هذه اللجنة • وعلى اثر هذا القرار ، اجتمع ـ في مدينة حيفا ـ المجلس الاعلى للنقابات (قيادة جمعية العمال) ، وخطأ موقف الخالدي هذا ، على انه رأى ـ تفاديا للصدام وتحقيقا لاستعراض عضلاته امام الهيئة العربية العليا واللجنة الدولية على السواء ـ الموافقة على مقاطعة اللجنة الدولية من جهة ، مع الاكتفاء باضراب ساعة واحدة (من ١١-١٢ ظهر يوم الاثنين الموافق ١٩٤٧/٦/١٦) على اعتبار ان امتداد الاضراب لثلاثة ايام سيكلف العمال العرب نحو نصف مليون جنيه فلسطيني (٥١) • ولتخفيف حدة الصدمة على الهيئة العربية العليا قرر المجلس الاعلى للنقابات ان يقدم كل عامل من اعضاء الجمعية ما بين ٢٥٠ ـ ٥٠٠ مليم للهيئة العربية العليا، تجمع في صندوق خاص ، يكون نواة لتأسيس صناعات شعبية في البلاد (٥٢) • وانتهى الامر بأن دفع سامي طه حياته ثمنا لمواقفه المعارضة للحسينية • وبموته قبرت فكرة انشاء حزب سياسي لجمعية العمال • وبالرغم من ان الكثيرين اتهموا جماعة الحسينية بتدبير اغتيال سامي طه ★★ ، الا ان رفيق التميمي ، عضو الهيئة العربية العليا ، سارع باصدار بيان باسم الهيئة استنكر فيه بشدة حادث الاعتداء على حياة الامين العام لجمعية العمال ! (٥٣) على ان جماعة الحسينية ـ قطب الرحى في الهيئة العربية العليا ـ طلبوا الى رئيس الجمعية ، عبد الحميد حيمور ، احلال يعقوب الحسيني محل سامي طه في السكرتارية العامة لجمعية العمال ، الا ان قيادة الجمعية رفضت طلب الحسينية هذا ، واختارت الدكتور عمر الخليل لهذا المنصب •

الاحزاب والطبقة العاملة

لم تكتف البرجوازية بالتسلل الى داخل الحركة النقابية العالمية ، فثمة محاولات عديدة بذلتها الاحزاب السياسية العربية

★ طبيب من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت ، في العام ١٩٣٧ •

★★ ـ قيل ان شقيا نابلسيا هو الذي نفذ عملية الاغتيال لحساب الحسينية • الا انه ليس ثمة تأكيدات في هذا الصدد •

الفلسطينية ★ المختلفة بهدف تحقيق هذا الاحتواء . ومعلوم ان هذه الاحزاب كانت تمثل كبار الملاك الزراعيين والعقاريين ، بالاضافة الى البرجوازية الوطنية .

وبالرغم من اجماع هذه الاحزاب على ابعاد العمال العرب الفلسطينيين عن العمل السياسي، الا انه كلما تأزمت الامور بين قيادة الحركة الوطنية وبين سلطات الانتداب البريطاني ، سارعت القيادة الوطنية الى دعوة الطبقة العاملة الى التحرك ، دون ان تترك لها حرية الحركة ، فحركة الطبقة العاملة يجب ان تكون ـ في رأي هذه الاحزاب ـ الى الحد الذي لا يهدد بتحولها ضد قيادة الحركة الوطنية نفسها . مما يتطلب ابقاء لجام الطبقة العاملة ـ دوما ـ بأيدي قيادة الحركة الوطنية ، حيث يمكن تحريك هذه الطبقة في استعراض للقوة امام سلطات الانتداب ، من اجل الضغط ، وفي اطار المساومة لا المقاومة !

دعا كبار الملاك والبرجوازيون العرب الفلسطينيون ومفكروهم الى ضرورة اكتفاء العمال العرب الفلسطينيين بالاهتمام بالقضايا المطلبية الاقتصادية دون السياسية . وحتى عندما كانت الحاجة تضطر البرجوازية وكبار الملاك الى استدعاء الطبقة العاملة وغيرها من الطبقات الكادحة ، للكفاح ضد الاستعمار ، فان البرجوازيين وكبار الملاك لا يفقدون حرصهم على امتلاك زمام القيادة ، وابقاء الطبقات الكادحة في القاعدة ، رهن الاشارة . وما ان يشعر كبار الملاك والبرجوازيون بالخطر من تعاظم حركة الجماهير حتى يسارعون الى اجهاضها . فالبرجوازية وكبار الملاك يتحركون ضد الاستعمار في الوقت الذي يخشون فيه الجماهير . وما ان يظهر ما يبشر بنهوض الجماهير حتى تسارع هاتان الطبقتان الى ايقافه ، والاسراع الى عقد صفقة مع الاستعمار البريطاني ، كيفما اتفق . وهنا يبرز الطابع المزدوج للبرجوازية : فبقدر ما تعادي الاستعمار نجدها تعادي الشعب وطبقاته الكادحة .

★ ـ العربي ، الدفاع ، الاستقلال ، الكتلة الوطنية ، الاصلاح ، والشباب .

وهكذا ، فالبرجوازيون وكبار الملاك كانوا شديدي الوعي بمصالحهم الطبقية ، وما دعوتهم الى انصراف العمال عن السياسة الى الاقتصاد الا ليخلو لهم الجو ، فينفردوا بقيادة الحركة السياسية ، ويحتكروها .

وبسبب تعبير الاحزاب العربية الفلسطينية عن مصالح كبار الملاك والبرجوازيين ، نأت هذه الاحزاب عن الشعب ، وبشكل خاص عن الطبقة العاملة . فتلك الاحزاب اكتفت بالمطالب الوطنية العريضة ★★ ، ضاربة عرض الحائط بالمطالب الطبقية لمجموع الكادحين .

على انه في النضال من اجل التحرر الوطني والاستقلال السياسي التقت على ارض المعركة كل الطبقات التي احست بقهر الاستعمار البريطاني . فالعمال والفلاحون والبرجوازيون الوطنيون والقطاع المستنير من كبار الملاك عملوا ، بأساليب مختلفة وبدرجات متفاوتة من التضحية وطول النفس ، من اجل التحرر والاستقلال . وغني عن القول بأن منطلقات الطبقات التي شاركت في الكفاح الوطني كانت شديدة التباين .

ونشأ تأثير البرجوازيين وكبار الملاك الضخم على الحركة الوطنية بأسرها ـ بما في ذلك تأثيرهم على الطبقة العاملة وحركتها النقابية ـ اولا من تشجيع الاستعمار البريطاني النسبي للبرجوازيين وكبار الملاك ، باعتبار هؤلاء واولئك اكثر استعداد للمهادنة من الطبقة العاملة ، كما نشأ هذا التأثير ـ ثانيا ـ بسبب ضعف الطبقة العاملة وحزبها السياسي ، بما جعل حركة الطبقة العاملة عاجزة عن تجذير النظرة الطبقية ، الواضحة ، المحددة ، والناضجة ، لدى جماهير الطبقة العاملة وغيرها من الطبقات الكادحة ، نظرة تتميز عن النظرة الوطنية البحتة .

وفي اواخر العهد التركي ، كانت البرجوازية العربية السورية الوليدة تعاضد العمال سياسيا،

★★ ـ الغاء وعد بلفور ،وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ومنع بيوع الاراضي للمستوطنين اليهود .

وتدعو الى تكوين نقابات لهم ★ . وجاء موقف البرجوازية هنا لرغبتها في توحيد الطبقات الجديدة ضد النظام التركي .

وفي مجال العلاقة بين العامل وصاحب العمل ، كانت البرجوازية تشدد على ضرورة التوفيق بينهما ، وكان هذا الموقف من البرجوازية يحسب لصالح صاحب العمل ، وضد مصلحة العمل ، وهذا طبيعي !

وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين (١٩١٨) عمدت قوى الثورة المضادة الى تشكيل حزبيات، سرعان ما ذوت واختفى اثرها ، لافتقارها لمبرر قيامها الفكري والسياسي ، ولعزلتها الشديدة عن الشعب . واذا كان « الحزب العربي الموالي لبريطانيا » ، وصنوه الموالي لفرنسا ، قد اهملا العمال تماما في برنامجيهما، فان مؤتمر « الحزب الوطني » ، المنعقد في القدس من ٩ ـ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٣ ، تعهد في مقرراته بالمطالبة بانعاش الفلاح والعامل ، علما ، واقتصادا ، وسياسة، وادارة (٥٤) .

واخذت الجمعيات الاسلامية المسيحية ـ التجمع السياسي الرئيسي لكبار الملاك ـ في خطب ود العمال . فوافقت الجمعية الاسلامية بيافا على ان تكون النقابات او الحرف اساسا للانتخاب ، وان يدعى اصحاب كل حرفة الى دار الجمعية لاعطاء اصواتهم لمن يختارونه . على ان يقوم المنتخبون الثانويون بانتخاب هيئة الجمعية (٥٥) . كما عملت الجمعية الاسلامية بنابلس ، في العام ١٩٢٥ ، على اختيار ممثلين للنقابات ، اشتركوا مع غيرهم في اختيار الهيئة الادارية للجمعية بنابلس(٥٦) . ولم يكن كبار الملاك والبرجوازيون يخشون من وقوع قيادة هذه الجمعيات بأيدي العمال ، اذ كان العمال واقعين تحت السيطرة الكاملة لكبار الملاك ، فكريا وسياسيا .

ثم تأسس في نابلس « حزب العمال » . والطريف انه لم يكن يضم عاملا واحدا ، بل كان وقفا على البرجوازيين وكبار الملاك .وحضر حفل تأسيس الحزب كل من : حسني عبد الهادي ، حافظ طوقان ، احمد الشكعة ، نمر النابلسي ، عزت دروزة ، حيدر طوقان ، طاهر المصري ، عفيف عاشور (٥٧) . وظل هذا الحزب محصورا في نابلس ، فغدا حزبا اقليميا اقرب الى العشائرية منه الى الحزب بمعناه الحديث . وصادقت الحكومة على تشكيله ، في مطلع العام ١٩٢٦ ،تحت رياسة عارف عبدالحليم عبد الهادي وآخرين (٥٨) . ثم سرعان ما اصبح احمد الشكعة رئيسا لهذا الحزب (٥٩) .

وكان طبيعيا ان يفشل كبار الملاك ، واغلبهم من المحسوبين على الثورة المضادة ، في الارتباط بالطبقة العاملة ، او بالتأثير في الحياة السياسية الفلسطينية . وندد عامل شيوعي ـ في جلسات مؤتمر العمال العرب الاول (١٩٣٠) ـ بحزب العمال هذا ، الذي يضم الرأسمالي والعامل معا (٦٠) .

ولم تتوقف الاحزاب العربية الفلسطينية عن ارتداء معطف التقدمية ، ولا عن محاولة الافادة من جموع العمال في العمليات الانتخابية ، وفي تمييع الصراع الطبقي . ففي اوائل العام ١٩٢٨ ، الف « الحزب الحر الفلسطيني » نقابة للبنائين في يافا (٦١) .

وفي شمال فلسطين تأسس ، في ربيع العام ١٩٣٠ ، «حزب الاحرار العربي الفلسطيني» (٦٢) وفي الوقت الذي امتدحته « المقطم » ، الصحيفة الشديدة الولاء للاستعمار البريطاني في مصر ، وصفته « الشورى » ، التي كان يصدرها في مصر الوطني الفلسطيني المعروف ، محمد علي الطاهر ، بأنه « حزب مريب ، يجب ان يحذره كل مخلص » (٦٣) . على ان « المقطم » نفسها اكدت ان هذا « الحزب حيادي ، وانه يعمل لخدمة البلاد بالطرق المعتدلة المشروعة » ! (٦٤)

★ على سبيل المثال : اسس بعض القوميين العرب « المنتدى الادبي » في الاستانة ، خلال العام ١٩٠٩ ، كمنظمة ثقافية علنية . ونادى رئيس المنتدى باحياء الجامعة العربية ، وعدم التفريق في الدين والمذهب ، وتأسيس النقابات الزراعية والصناعية . عمارة ، محمد : القومية العربية ومؤامرات امريكا ضد وحدة العرب ، القاهرة ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ، آب (اغسطس) ١٩٥٨ ، ص ٢٨ .

وغني عن القول بأن ابواق الاستعمار كانت تعني بالاعتدال معنى مرادفا للمحافظة والرغبة في التعامل مع الاستعمار . وفي برنامجه ★ ، ذكر الحزب الطبقة العاملة في في مادته الثالثة ، التي اشارت الى ضرورة « تنظيم حركة الطلبة والشبان والعمال واصحاب الصناعات الحرة والزراع والصناع ، على اساس النقابات او ما شاكلها » (٦٥) .

وما ان تأسست احزاب الثلاثينات ★★ حتى سارع كل منها الى اتخاذ موقف من الطبقة العاملة . فشكل فخري النشاشيبي – موظف حكومي وسكرتير حزب الدفاع المجاهر بعدائه للحركة الوطنية . نقابة لسائقي السيارات ، ونصب نفسه قائدا لها . ويقول كاتب ماركسي فلسطيني ان فخري اراد ان يسير هذه النقابة حسب اهدافه ومرمى عائلته ، التي قل تأثيرها في اواسط الثلاثينات بصورة جلية ، ففخري النشاشيبي – في رأي هذا الكاتب – يريد اقامة نقابات « تتمشى مع سياسة الاستعمار والسياسة الفاشستية » . وشبه الكاتب نفسه مساعي فخري النشاشيبي في هذا الصدد بأعمال الجنرال الروسي « زوباتوف » ، الذي حاول ، ولكنه لم يفلح ، اقامة مثل هذه النقابات في العهد القيصري بهدف « صد العمال عن الاشتراك في حركة العمال الثورية ، التي كان يقودها لينين وزملاؤه » . ويرى الكاتب ان « فخري يحذر العمال من السير في طريقهم الطبقي » (٦٦) .

ودب الحسد في قلوب جماعة الحسينية من « نجاح » فخري النشاشيبي – خصمهم السياسي والعائلي – في المجال النقابي ، وخشوا ان يستحوذ على جماهير العمال ، مما يهدد الحسينيين بالخطر . لذا اخذ هؤلاء ، منذ اواسط الثلاثينات ، يتحدثون عن ضرورة التنظيم للعمال ، وعن تأسيس النقابات للعمال العرب في فلسطين . ويفسر جبرا نقولا اهتمام الحسينية المفاجيء هذا بالعمال وشؤونهم ، بخوفهم « من ان ينظم العمال والفلاحون انفسهم ، ويكونوا بعيدين عن تأثير اولئك السادة » . وينتهي نقولا الى ان موقف جماعة الحسينية الاجتماعي « لا يسمح لهم بتنظيم العمال ضد اصحاب العمل . لان مثل هذا التنظيم يكون موجها ضدهم ، بصفتهم اصحاب العمل الذين مصلحتهم لا تتفق مع مصالح العمال والفلاحين » (٦٧) .

وفي الآونة نفسها اخذ زعماء « مؤتمر الشباب » في التحدث عن ضرورة تأسيس نقابات عمالية . ويتساءل جبرا نقولا عن نوع تلك النقابات التي يتحدثون عن ضرورة

★ – برنامج حزب الاحرار :

مادة ١ : غاية الحزب السعي للحصول على الاستقلال التام لفلسطين العربية، وتوصلا لهذه الغاية أ – يطالب الحزب بتأسيس حكومة وطنية مسؤولة امام برلمان ذي صلاحية تامة ، ويسعى مع الحكومة البريطانية لعقد معاهدة تقام على اسس شريفة ، تضمن مصالح البلدين ، ب – يحافظ على موارد البلاد الطبيعية ومرافقها الاقتصادية .

مادة ٢ : تجديد الطرق والوسائل السياسية التي ما زالت تسير عليها البلاد ، بحيث تلائم مقتضيات الثقافة المدنية ، وتنظيم صفوف الامة على احدث الاساليب السياسية ، ليكون الرأي العام ، في اي شأن من الشؤون، كتلة متراصة منظمة تنظيما وثيقا في شأن ما يجري في البلاد .

مادة ٣ : تنظيم حركة الطلبة والشبان والعمال واصحاب الصناعات الحرة والزراع والصناع ، على اساس النقابات، او ما شاكلها .

مادة ٤ : العمل الحثيث لكل ما يأخذ بيد الامة للرقي في نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والزراعية . المقطم ، ١٩٣٠/٤/٣ .

★★ الاستقلال : آب (اغسطس) ١٩٣٢ ، مؤتمر الشباب : كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٢ . الدفاع الوطني : كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٣٤ ، الكتلة الوطنية : تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٥ . الاصلاح : حزيران (يونيو) ١٩٣٥ ، العربي : نيسان (ابريل) ١٩٣٥ .

تأسيسها ، ويضيف ساخرا « هل يريد زعماء مؤتمر الشباب ـ السادة يعقوب بك الغصين وادمون روك ـ تنظيم اولئك العمال الذين يشتغلون في بياراتهم او في بيارات آبائهم الواسعة ، وهل هم حقا يريدون اعلان الاضراب، اي توقيف العمل حتى يستحصل العمال على رفع اجورهم ، وجعل يوم العمل ٨ ساعات ؟ ثم هل يرضى اولئك السادة بزيادة اجور اولئك العمال الذين يشتغلون عندهم ، حتى ولو قرشا واحدا ، دون كفاح شديد ؟ » ، ويرد نقولا ، على نفسه بنفسه ؟ « كلا ! لان هؤلاء السادة زعماء مؤتمر الشباب اغنياء ومن اصحاب العمل ، لذلك فان مصالحهم لا تتفق مع مصالح العمال » ، ويشير الكاتب نفسه الى وجود مثقفين فقراء وموظفين صغار في قواعد « مؤتمر الشباب » لهم صلة بالطبقة العاملة ، وان كان « لا يمكنهم ان يقوموا بأي عمل جدي ، يعود بالفائدة على العمال ، لا سيما وهم تحت رئاسة يعقوب الغصين وادمون روك ، السادة اصحاب البيارات الواسعة والاملاك الشاسعة»، ويشترط الكاتب الماركسي على اعضاء مؤتمر الشباب من المثقفين الفقراء « ان ينضموا الى الطبقة العاملة ، وان يقفوا موقفها ، ويأخذوا بنظريتها » ، ان هم ارادوا الاشتغال، باخلاص ، في سبيل مصلحة العمال ، اي انه يطالبهم صراحة بالانضمام الى الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ويشن نقولا هجوما حادا على « مؤتمر الشباب » الذي يصفه بالشوفينية والرأسمالية ، ويؤكد ان الغصين وروك ليسا بعيدين عن ابوبهما في الموقف السياسي ، ويرى ان كل آمالهما ومطالبتهما ، فيما يختص بالتحرير الوطني والاستقلال ،هي ان تغير بريطانيا العظمى سياستها نحو العرب ، وتمنح فلسطين « استقلالا » على نحو ذلك « الاستقلال » الذي منحته لشرق الاردن ! (٦٨)

وحضر « مؤتمر الشباب » الثاني (١٠ / ٥ / ١٩٣٥) ما يزيد عن الف شاب ، وتولى رئاسته يعقوب بك الغصين ، وجاءت قراراته تبحث في الحالة السياسية، والمسائل التنظيمية، بيوع الاراضي ، المعارف والتعليم القومي ، الصحة العامة ، مسائل العمال ، العيد الوطني، والمخيمات الكشفية ، وجاء بصدد البند السادس ـ اي العمال ـ ما يلي : « ١ ـ تأليف نقابات في كل بلد ، ٢ـ ان يتولى مكتب المؤتمر تنظيم حركة العمال بتأسيس النقابات في كل بلد ، والدعوة لمؤتمر يضع مقررات تفيد العمال ، ٣ـ تأليف مجلس عام مرتبط بمؤتمر الشباب ، يسجله في مكتب العمل الدولي في جنيف » (٦٩) ، وغني عن القول بان اي من هذه المقررات لم ير النور !

وفي المدة المحكي عنها ، خرجت مجلة برجوازية تسدي بعض النصائح للحركة النقابية العمالية في فلسطين « عسى ان تفيدهم في جهادهم ، فلا يقعوا في اغلاط وقع بها غيرهم ، فأصابهم من الاضرار المؤلمة ما نستطيع تفاديه بشيء من التدبر والحكمة » ! وتشير المجلة الى ان الحركة العمالية الفلسطينية تحتاج الى تقوية مادية ومعنوية ، تثبتها في مركز لا يتزعزع ، وذلك بتنظيم « اكتتاب العمال انفسهم بمبالغ ولو قليلة ، تحفظ في صندوق امين ... ستنمو مع الزمن ، فتصبح موردا كبيرا للنقابة ... فلا تحتاج لمساعدة الغرباء الذين يحاولون استمالة العمال خدمة لأربهم الخاصة ، وبذلك يضمنون استقلالهم وحريتهم من عبث العابثين وطمع الطامعين ، واما التقوية المعنوية فتأتيهم عن طريق الاسترشاد بأهل العلم والخبرة من المخلصين لقضيتهم ، المؤمنين بعدالة مطالبهم ، ولو كانوا من غير العمال »، وبعد ان تفصح المجلة البرجوازية الفلسطينية عن غرضها الماكر ، وهو تشريب بعض الخبراء البرجوازيين الى الحركة العمالية ، تقفز المجلة الى بيت القصيد ، حين تنصح العمال « بأن لا يلجأوا للعنف في مطالبتهم بحقوقهم » ، على اعتبار ان العنف من علامات الضعف ، وتطالبهم بالسعي للحصول على حقوقهم المشروعة بكل هدوء وسكينة ، واستمالة جمهور المنصفين الى جانبهم » ! و « لن يعدم العمال من ينصفهم ويعطف عليهم ، حتى من ارباب المصانع التي يشتغلون فيها، ورؤساء الشركات التي يعملون لها » !! (٧٠) ، وكأن اصحاب العمل « اصحاب العقول الكبيرة » في حاجة الى من يرشدهم الى مطالب العمال ، التي

تنصح المجلة بالوصاية عليهم من قبل « الخبراء » .

على انه بالرغم من محاولات البرجوازية وكبار الملاك كلها من اجل تكبيل واحتواء الحركة العمالية ، والحيلولة دون اسهامها في النشاط السياسي ، الا ان الحركة العمالية نجحت في الاسهام بالحركة السياسية ، بقدر ما اعترى قيادة الحركة الوطنية الضعف ،وبقدر حاجة هذه القيادة لهذا الاسهام في اتجاه الضغط على الانتداب في اطار مساومته ، وبقدر تعاظم قوة وتأثير حزب الطبقة العاملة السياسي : الحزب الشيوعي الفلسطيني .

اسهام الطبقة في الحركة السياسية

في العهد التركي ، لم يرتق التناقض بين صاحب العمل والعمال الى مرتبة التناقض الرئيسي ، بل ترك هذه المرتبة انعدائية للتناقض القائم بين الحكم التركي وبين جماهير الشعب السوري ، بطلائعها المثقفة ، وبرجوازيتها الوليدة ، وعمالها ، وحرفييها ، وفلاحيها ، والمتنورين من كبار الملاك فيها .

وخلال سني الانتداب تدهور الوضع المادي للطبقة العاملة ، وترتب على هذا ان احتدم الصراع الطبقي ، وان انصب غضب الطبقة العاملة على سلطات الانتداب وعلى الحركة الصهيونية ، مسببي هذا التدهور .

وطوال العشرينات لم يكن العمال اكثر من مشاركين في الصدامات الطائفية وفي هبة البراق ★ ، الا ان فترة بداية الثلاثينات شهدت نضوجا سريعا للوعي الطبقي والوطني عند قطاعات وفئات الشعب العربي الفلسطيني المختلفة . وانعكس هذا النضوج في المجال الاقتصادي في تشكيل البرجوازية بنوكها ★★ وفي المجال السياسي توسعت البرجوازية في اصدار الصحف ، كما اقامت احزابها السياسية الستة ، وهي التي شارك كبار الملاك في بعضها .

اما العمال العرب الفلسطينيون فلجأوا الى نقاباتهم ، وصعدوا كفاحهم المطلبي . ومزجت الطبقة العاملة ، بوعي كامل ، بين الكفاح الاقتصادي المطلبي وبين الكفاح السياسي الوطني .

ولا شك ان وقوع اغلب الاضرابات في النصف الاول من الثلاثينات (٤٠ اضرابا) ، فترة النهوض الثوري بفلسطين ، واسهام الطبقة العاملة بدور محوري في الاضراب السياسي في العام ١٩٣٦ ، والتي استمر زهاء ستة اشهر ، كل هذه الاضرابات اثبتت – بتوقيتها وتلازمها مع الكفاح الوطني – ان الكفاح المطلبي للطبقة العاملة ، هو كفاح سياسي في الوقت نفسه ، خاصة وان معظم المؤسسات الصناعية كانت بيد رأس المال الاجنبي .

وتعلم العمال السياسة من خلال معاركهم المطلبية . وهذا بيان للنقابة العربية لعمال سكك حديد فلسطين يشير – في شباط (فبراير) ١٩٣٦ – الى ان غزو عمال اليهود مراكز الاعمال يفيد الحركة الصهيونية سياسيا ، لتحقيق حلم « تأسيس الوطن القومي » ، بغمر البلاد بأكثرية يهودية . « وبما ان السكة الحديدية هي اكبر مراكز الاعمال التي تضم اكبر عدد من العمال ، اخذوا يسعون على غزوها ، ليصيحوا دائما بوجه الحكومة عن (حاجتهم الى الايدي العاملة) . ولما كان هذا لا يتم الا

★ – الصدامات والهبة : تميزت فترة العشرينات بوقوع عدة صدامات بين المستوطنين اليهود ، وعرب فلسطين ، ظاهرها طائفي ، وجوهرها طبقي وطني . واشهر هذه الصدامات ما وقع منها في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ ، وفي اول ايار (مايو) ١٩٢١ ، وفي آذار (مارس) ١٩٢٤ . اما هبة البراق (آب ١٩٢٩) فاتسمت بتحولها لاغلب انحاء فلسطين ، وامتدادها لاكثر من اسبوعين ، واتساع حجم القتلى والجرحى من الطرفين فيها . لمزيد من التفاصيل ، راجع كتابنا : **كفاح الشعب الفلسطيني حتى العام ١٩٤٨** ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ١٩٧٥ .

★★ البنك العربي ١٩٣٠ ، البنكين الزراعي والصناعي ١٩٣٥ .

عن طريق احتلالهم المراكز الهامة ، غزوها بمالهم من نفوذ قوي لدى الحكومة ، وتمكنوا منها » (٧١) .

وغني عن القول بأن استفحال ازمة الفلاح العربي الفلسطيني ، الى جانب نمو الحركة العمالية العربية الفلسطينية ، افضيا الى وضع ثوري ، توج بانتفاضة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣ . فبعد هبة البراق (آب ١٩٢٩) تأكد لجماهير الشعب العربي الفلسطيني عقم الاساليب السلبية في الكفاح ، تلك التي فرضتها عليها قيادة الحركة الوطنية ، كما افتضح امر ممالئة سلطات الانتداب للصهيونية. وبسبب نضوج البرجوازية ، والطبقة العاملة ، وتجذر حركة الفلاحين ، اندفعت الحركة الوطنية تصحح مسارها من العداء لليهود كدين الى معاداة الاستعمار البريطاني باعتباره « اساس البلاء » ، وليس الحكم بينها وبين الصهيونية، كما اوهمتها قيادتها المتهالكة . وادت مساهمة البرجوازية الوليدة الثورية في قيادة الحركة الوطنية ، ونفاذ صبر الجماهير ، الى اعتماد اساليب كفاح ايجابية في مواجهة الاستعمار البريطاني وربيبته الصهيونية . وكان الصدام الدامي الاول ، في اطار المرحلة النضالية الجديدة ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣ ، بين الحركة الوطنية وبين قوات الاستعمار البريطاني (٧٢) .

وهذه الوثيقة التي اصدرها الحزبان الشيوعيان الفلسطيني والسوري ، في العام ١٩٣١ ، تؤكد - بحق - « ان الازمة العالمية الصناعية والزراعية (١٩٢٨ - ١٩٣٢) ، بطريق او آخر ، قد غطت جميع البلاد العربية ، ضاربة بقوة خاصة العمال والجماهير الفلاحية. وانخفاض الاجور والبطالة يزيدان سوءا على سوء مستوى معيشة البروليتاريا ، الامر الذي يدفعها في طريق الكفاح الطبقي الثوري » (٧٣).

مع وصول النازيون الى الحكم في المانيا ، في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ ، اخذت معدلات الهجرة اليهودية من المانيا الى فلسطين وغيرها في الارتفاع الجامح ، فرارا من الاضطهاد الذي اخذ اليهود الالمان يتعرضون له على يد النازيين فبلغ عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ، في العام ١٩٣٣ وحده ٣٠٣٢٧ مهاجرا، وفي العام ١٩٣٤ بلغ ٤٢٣٥٩ ، وقفز في العام ١٩٣٥ الى ٦١٨٥٤ .

وكان طبيعيا ان يقترن هذا التدفق بتشدد ملحوظ في تطبيق شعاري « العمل العبري » و « احتلال العمل » . اذ سرعان ما شكل الهستدروت « حاميات يهودية » منذ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٤ ، لوضع هذين الشعارين موضع التطبيق الصارم ، وبالقوة . وتضاعف، منذئذ ، عدد العمال العرب المطرودين بالجملة من المشاريع اليهودية ، او من تلك التي تنفذها حكومة الانتداب في الاراضي والمناطق اليهودية.

وعند هذا الحد ، بادرت « جمعية العمال العرب » ، بقيادة لشيوعي الفلسطيني المعروف : ميشيل متري ، بتشكيل « حاميات عربية » ، بهدف الحيلولة دون تشغيل العمال اليهود في المشاريع التي تنفذها ، او تديرها، سلطات الانتداب في المناطق العربية من فلسطين ، عوضا عن المشاريع العربية . واتخذت هذه الحاميات من العنف اسلوبا لتحقيق غايتها تلك ، فلا يفل الحديد الا الحديد ! وشملت هذه الحاميات بنشاطها كلا من القدس وحيفا ويافا ، مراكز الاحتكاك والصدام بين العمال العرب ونظرائهم اليهود . واعترف المندوب السامي البريطاني بالقدس ، آرثر واكهوب ، في تقرير سري رفعه الى وزير المستعمرات البريطاني ، كنليف ليستر ، في اواخر العام ١٩٣٤ ، بأن الحاميات العربية ظهرت لمواجهة اعمال الارهاب والعدوان التي يشنها العمال اليهود ، وان الامر تطور ، فظهرت على المسرح السياسي لجان عمالية عربية ، لاول مرة ، في اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤ ، لمناسبة حلول ذكرى وعد بلفور ، حيث اضرب عمال النقل والمواصلات اضرابا شاملا على صعيد فلسطين كلها (٧٤) . فكان اول اضراب سياسي يخوضه قطاع بأكمله ، تقريبا ، من الطبقة العاملة ، هو قطاع السائقين ، وفي طول البلاد وعرضها ، مما يجعله منعطفا سياسيا هاما في حياة الطبقة العاملة العربية الفلسطينية .

الطبقة العاملة وثورة ١٩٣٦

وعندما بدأت البلاد اضرابها الشهير في ٢٠

نيسان (ابريل) ١٩٣٦ ، احتجاجا على القهر الاستعماري ـ الصهيوني المتزايد ، لم يتردد العمال ـ على ضعف امكاناتهم ووسائلهم ـ عن المساهمة في هذا الاضراب ، الذي امتد حتى ١١ تشرين الاول (اكتوبر) من السنة ذاتها ، « كما انهم لم يترددوا في بذل اغلى التضحيات في الرجال في الثورة التحريرية التي امتدت من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٣٩ . فاكتظت السجون بالعمال والفلاحين ، وسقط منهم الشهداء » (٧٥) .

وكانت الصدامات بين العرب واليهود قد بدأت في الاتساع ، منذ يوم الاثنين الموافق ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٣٦ ، حين هاجم حوالي ثلاثمائة عامل عربي (اغلبهم من العمال الموسميين الوافدين من حوران بسوريا) بعض الاحياء اليهودية بيافا ، واحرقوا الحي اليمني اليهودي عن آخره . وتمخض الهجوم عن مقتل خمسة من المستوطنين اليهود واثنين من المواطنين العرب . فسارعت سلطات الانتداب الى تقسيم المدينة الى قطاعات ومناطق تحت اشراف الشرطة ، واستدعت المزيد من التعزيزات لقوات الامن في المدينة ، كما اعتقلت الشيوعيين المعروفين ، والذين اعتبرتهم مسؤولين عن هذا الهجوم ، وبلغ عدد هؤلاء الشيوعيين المعتقلين ٨١ شخصا ، منهم ١٥ عربيا و٦٦ يهوديا (٧٦) .

وفي ٢٤ نيسان (ابريل) قررت « نقابة اصحاب السيارات والسائقين العرب ★ » في اجتماعها بالقدس ، وبالاجماع ، اعلان الاضراب العام ابتداء من ٢٥منه في سائر انحاء فلسطين، ولمختلف وسائط النقل . مع الاتصال بشرق الاردن وسوريا ، طلبا لمؤازرتهما للنقابة في هذا الصدد . على ان النقابة استثنت الصحف والاطباء والقابلات من هذا الاضراب ، بل وفرت لهم سيارات مجانية لتسهيل مهامهم النبيلة (٧٧) . وفي اواخر نيسان (ابريل) اصدرت النقابة نفسها بيانا ، حثت فيه الجماهير العربية الفلسطينية على الامتناع عن دفع الضرائب لسلطات الانتداب ، الى ان توافق هذه السلطات على تقييد الهجرة اليهودية الى فلسطين . ودعت النقابة «اللجنة العربية العليا ★★ » الى تقرير اضراب جميع الموظفين العرب . ولغاية ٥ ايار (مايو) كانت عدة لجان قومية ★★★ قد استجابت لهذه الدعوة وتبنتها . الا ان اللجنة العربية العليا التزمت الصمت حيالها ، في يوم نشرها ، بل رفعت مذكرة ـ في اليوم نفسه ـ الى المندوب السامي ، توهما منها بأنه لا يرغب في ادخال المزيد من المهاجرين اليهود الى فلسطين . واحس المندوب السامي بمدى خور اللجنة العربية فسارع الى استدعاء اعضائها ، حيث اعرب لهم عن سروره لعدم استجابتهم لنداء نقابة السائقين ،ثم طلب اليهم انهاء الاضراب وحل اللجنة العربية العليا ، وذهاب اعضائها الى لندن حيث يقدمون مطالبهم هناك ، على ما كان متفقا عليه قبيل بداية الاضراب . ويبدو ان وهم اعضاء اللجنة تبدد بمجرد سماعهم مقترحات المندوب السامي ، فردوا عليه بأنهم غير راغبين في مغادرة فلسطين الا بعد تعليق الهجرة ، وظهور ما يدل على ان حكومة الانتداب سوف تفاوض قيادة الحركة

★ ـ تنظيم شبه نقابي ، يضم السائقين الى جانب اصحاب السيارات ، واغلب هؤلاء من الذين افادوا من قيادتهم للسيارات في جمع بعض المال مما مكنهم من شراء سيارات وتشغيلها لحسابهم ، او العمل بها . وترأس هذه النقابة المحامي/حسن صدقي الدجاني ، سكرتير حزب الدفاع الوطني ، وقطب الثورة المضادة في فلسطين . المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .

★★ تشكلت « اللجنة العربية العليا » من ممثلين لكافة الاحزاب العربية الفلسطينية ، وترأسها الحاج امين الحسيني ، من خارج هذه الاحزاب جميعا ، وان اعتبر الاب الروحي للحزب العربي الفلسطيني . وكانت اللجنة المذكورة بمثابة قيادة للتحالف الوطني الذي ربط بين هذه الاحزاب .

★★★ تشكلت اللجان القومية في اغلب المدن والقرى الفلسطينية، لتشرف على تنظيم الاضراب العام ، الذي بدأ منذ ٢٠ نيسان (ابريل) ، والسير بالحركة الوطنية الى الامام .

الوطنية الفلسطينية بشأن تشكيل حكومة وطنية مسؤولة • على ان المندوب السامي رد باعتقال المحامي حسن صدقي الدجاني ، رئيس نقابة السائقين واصحاب السيارات ، ونائبه، صالح عبده ، ووجهت اليهما تهمة التحريض على الاخلال بالنظام ، وغرم كل منهما ٢٥ جنيها فلسطينيا • على ان ما شجع المندوب على اعتقال الدجاني وعبده كان ـ بالدرجة الاولى ـ اخراج اللجنة العربية العليا للاول لتشدده السياسي • لكن اللجنة العربية العليا سرعان ما رفعت ـ في الخامسة وخمسين دقيقة من مساء اليوم نفسه ـ مذكرة اخرى الى المندوب السامي ، ضمنتها ـ هذه المرة ـ انذار لجنة الاضراب في نقابة السائقين واصحاب السيارات نفسه ، والخاص بالامتناع عن دفع الضرائب ! (٧٨) وهكذا ، عجز المندوب السامي عن تفسير تراخي اللجنة العربية العليا ، او معرفة المدى الذي يمكن ان يذهب اليه هذا التراخي ، كما لم يضع في اعتباره حجم ضغط حركة الجماهير على قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية ، وهي القيادة التي اتسمت بالتراخي ، وان تطورت مع تزايد نهوض حركة الجماهير ، فبرز التمايز بين صفوفها ، ثم سرعان ما انفك اقصى اليمين فيها خارجا عليها ، في حين ارخت بقية عناصر هذه اللجنة شراعها لريح الحركة الجماهيرية الصاعدة •

وفي نفس اليوم الذي اضربت فيه نقابة السائقين واصحاب السيارات ، اعلن عمال ميناء يافا اضرابهم ، رغم ما كان يعترض امر تنظيمهم ـ فيما سبق ـ من مصاعب ،اي ان النهوض السياسي نجح في تنظيم صفوف هؤلاء العمال ، الامر الذي عجز عنه النشاط المطلبي • وحاولت سلطات الانتداب ارغام عمال الميناء على انهاء اضرابهم ، دون جدوى، مما عطل العمل في الميناء ، واوقف حركة النقل والتصدير والتفريغ • « وخلا البحر من البواخر والمراكب الشراعية الكثيرة العدد » • واعلن هؤلاء العمال اضرابهم ، بقرار رسمي اذاعوه بتاريخ ٢٧ نيسان (ابريل) ، تعهدا منهم الى الامة • وباضراب ميناء يافا والسيارات عن العمل شلت حركة النقل في جميع انحاء البلاد (٧٩) •

اما ميناء حيفا فلم يضرب عماله ، بسبب عدم احكام السيادة العربية على عماله ، لوجود عدد غير قليل من العمال اليهود والغرباء والموظفين ، ولان حيفا كانت مركزا للجيش البريطاني الذي كثيرا ما حل جنوده محل عمال الميناء المضربين (٨٠) •

هذا على الرغم من ان اسهام العمال في الاضراب الكبير ، الذي امتد زهاء ستة اشهر ، اتى مع تحفظ قيادة جمعية العمال العربية الفلسطينية على الاضراب المشار اليه ، وجدواه (٨١) •

وخلف هذا الاضراب تركة ثقيلة للحركة النقابية العمالية ، فاستغنت الشركات اليهودية عن العمال العرب بالجملة ، واحلت محلهم عمالا يهود • وسرح ٣٠٠ عامل عربي كانوا يعملون في شركة « نيشر » اليهودية للاسمنت • وتوسعت الهستدروت في حملات اقصاء العمال العرب عن اعمالهم • كما اعتقلت سلطات الانتداب البريطاني عددا من المسؤولين في الجمعية ، علاوة على تسريحها اعدادا كبيرة من العمال العرب • فبعد ان كان ٩٠٪ من عمال مرفأ حيفا ـ قبل الاضراب ـ من العرب ، انتقلت المراكز الرئيسية ـ خلال الاضراب ـ الى يد الشركات اليهودية • كما ادى تعطل العمل في ميناء يافا العربي الى ازدهار ميناء تل ابيب اليهودي ، المجاور له •

عصف ذلك كله بجمعية العمال العربية ، الهشة • ولم تفتح الجمعية ابوابها الا في اوائل العام ١٩٣٨ ، حين افرج عن المعتقلين من قادة الجمعية • على ان النشاط النقابي لم يعد الى سابق عهده ، بفعل تركيز جهود العمال على النشاطين السياسي والعسكري ،واضطهاد الانتداب للحركة النقابية الذي ازداد ابان الثورة ، وتدهور الاحوال الاقتصادية ، وبنشوب الحرب العالمية الثانية عاد للحركة العمالية نشاطها ، بل بشكل اوسع واكثر عمقا (٨٢) •

ومما تجدر الاشارة اليه ، ان الطبقة العاملة لم تلعب الدور اللائق بها في ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، فلا دورها كان كبيرا ، ولا تميز عن ادوار غيرها من الطبقات • وربما عاد ذلك

الى ضعفها اولا ، والى انفصالها ـ الى حد كبير ـ عن تنظيمها انسياسي : الحزب الشيوعي ، ثانيا ٠

على ان فترة الاربعينات حفلت بنشاط سياسي عمالي عارم ، وجد تعبيرا له في البيانات السياسية العديدة الصادرة عن « المؤتمر » ، والى حد ما عن « الجمعية » ٠ كما شاركت الجمعية في اللجنة العربية العليا ، منذ آذار (مارس) ١٩٤٦ ، وهي اللجنة التي حملت اسم « الهيئة العربية العليا » ، منذ حزيران (يونيو) من السنة ذاتها ٠ اما مؤتمر العمال العرب فشارك مع « عصبة التحرر الوطني » و « رابطة المثقفين العرب » ، المنظمتين الماركسيتين الفلسطينيتين ، في تشكيل « الجبهة العربية العليا » ، كما نزل المؤتمر ، بكل ثقله ، في الميدان السياسي ٠ مما ساعد في اجبار قيادة جمعية العمال على النزول الى الميدان نفسه ، على النحو الذي اوضحناه فيما سبق ٠

وهذه وثيقة رسمية بريطانية ، صدرت في ربيع العام ١٩٤٦ ، تعترف بعدم وجود فاصل بين الانشطة الاقتصادية والسياسية للنقابات العمالية العربية ، كما اشارت الى قيام بعض المثقفين العرب بدور في تنشيط الحركة العمالية العربية (٨٣) ٠

والملفت للنظر ان الحركة العمالية لعبت دورا رئيسيا في بلورة تنظيم ماركسي عربي انسلخ عن الحزب الشيوعي الفلسطيني، مبقيا الحزب وقفا على الاعضاء اليهود ٠ اذ شهدت اواخر الثلاثينات واوائل الاربعينات ازمة داخلية عنيفة في الحزب الشيوعي الفلسطيني، وادى تكوين بعض الشيوعيين العرب الفلسطينيين « اتحاد جمعيات ونقابات العمال العرب » في العام ١٩٤٢ الى اجتذاب المزيد من الشيوعيين العرب الفلسطينيين الى هذا الاتحاد ، ومن داخل هذا الاتحاد تبلورت فكرة الانسلاخ العربي عن الحزب الشيوعي وتشكيل « عصبة التحرر الوطني » ، في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ٠ وارتبطت « العصبة » و « الاتحاد » ارتباطا حميما ، واشتركا في نفس القادة ، والسياسة ، والصحيفة ٠ وكان توحيد الحركة النقابية العمالية احد الاهداف الرئيسية للعصبة ٠ واعلنت صحيفة « الاتحاد» ـ التي اصدرتها العصبة ـ انها تتحدث الى النقابات العمالية الفلسطينية ، ودعت كل ممثلي النقابات الى الاسهام في تحريرها ٠ الا ان وحدة الحركة النقابية العمالية لم تتحقق ٠ ولم تكن عصبة التحرر تحلم بوسيلة افضل من مؤتمر العمال العرب لتوصيل افكارها للجماهير العمالية العريضة ٠ فمن خلال المؤتمر قامت العصبة بالاتصال بجماهير واسعة من العمال ٠ كما كان المؤتمر من المصادر الرئيسية للمكانة العالية التي احرزتها عصبة التحرر خلال سني الانتداب الاخيرة (٨٤) ٠

على ان « مؤتمر العمال العرب » لم يعزل نفسه عن بقية الاحزاب السياسية العربية في فلسطين ، بل اعلن ، في دستوره ، عن رغبته في التعاون مع كافة الاحزاب والمنظمات التي تعمل في سبيل حرية فلسطين ، وتسعى لاقامة حكومة ديمقراطية ، يتساوى في ظلها جميع المواطنين في الحقوق والواجبات (٨٥) ٠

وكانت اهداف مؤتمر العمال السياسية تنحصر في (٨٦) : « المطالبة بالغاء الانتداب ، واعطاء فلسطين حريتها واستقلالها ، المطالبة باقامة حكومة وطنية ديمقراطية في فلسطين ، المطالبة بمنع الهجرة منعا باتا ، المطالبة بمنع بيع الاراضي ، المطالبة بالافراج عن المساجين والمعتقلين والمبعدين السياسيين » ٠ وهي الاهداف التي اقرها مؤتمر العمال من قبل ، في ١٩ آب (اغسطس) ١٩٤٥ ٠ وحملها مندوبوه الى مؤتمر النقابات العالمي ، المنعقد في باريس في السنة نفسها ٠ وهي نفس مقررات المهرجانات الشعبية ، التي اقيمت في كل من القدس ويافا وغزة وامجدل وبئر السبع والناصرة ، احتفاء بعودة وفد مؤتمر العمال الى مؤتمر باريس ٠ كما تأكدت القرارات نفسها في خطب وتصريحات وبيانات قيادة المؤتمر في مختلف المناسبات ٠

وبالنسبة للبند الخامس من الاهداف السياسية المذكورة ، فان جمعية العمال العربية قررت في مؤتمرها ، المنعقد في آب (اغسطس) ١٩٤٦ « الطلب من فخامة المندوب السامي لحكومة فلسطين ارجاع المبعدين السياسيين

العرب الى فلسطين ، وعلى رأسهم سماحة المفتي الاكبر ، الحاج امين الحسيني ، ثم الافراج عن مساجين الاضطرابات العرب » (٨٧)

وفي خريف العام ١٩٤٧ ، اكد سليم القاسم ، السكرتير العام لمؤتمر العمال العرب « ان المؤتمر ليس حزبا سياسيا ، ولكنه منظمة نقابية بحتة ، تعمل لتحقيق الاهداف الوطنية ، وهي الغاء الانتداب ، وجلاء الجيوش الاجنبية، واستقلال فلسطين ، وهي تقاوم مشروع تقسيم فلسطين والمشروعات الاستعمارية الاخرى ، كمشروع سوريا الكبرى ، وتصر على منع الهجرة اليهودية الى فلسطين بجميع اشكالها والوانها • وتدعو الى المحافظة على ارض الفلاح العربي » (٨٨) •

وفي ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ اصدرت الجمعية العمومية للامم المتحدة قرارها القاضي بتقسيم فلسطين ، وسرعان ما اشتعل القتال بين المواطنين العرب الفلسطينيين والمستوطنين اليهود • وشارك العمال ، مع بقية الطبقات الكادحة ، في الكفاح من اجل الحفاظ على عروبة فلسطين ، فحملوا السلاح ، بينما اكتفت قوى البرجوازية وكبار الملاك بالقيادة السياسية ، والاتكى من ذلك ان اغلب هذه القيادات هجر فلسطين الى ما جاورها من البلاد العربية ، طلبا للامان !

على ان نشاط الطبقة العاملة السياسي لم يقتصر على الداخل فحسب ، بل تعداه الى خارج نطاق فلسطين ، في المجالين العربي والعالمي• على ان هذا النشاط لم يبدأ ـ فعلا ـ الا في مرحلة نهوض ونضوج الحركة العمالية النقابية في فلسطين ، اي في النصف الثاني من الاربعينات •

وفي المجال العربي ، كان مؤتمر العمال ينظر الى الوحدة العربية من جانبها الكفاحي ، فعندما اعتقلت الحكومة المصرية بعض قادة النقابات العمالية المصرية وغيرهم من العناصر الوطنية التقدمية ، في اوائل العام ١٩٤٦ ، ارسل مخلص عمرو ، سكرتير اللجنة التنفيذية لمؤتمر العمال العرب بفلسطين عند ذاك ، برقية احتجاج الى محمود النقراشي باشا ، رئيس وزراء مصر ، جاء فيها : « ان اعتقال حكومتكم لرئيس الوفد العمالي وزملائه ، لمطالبتهم برفع الحيف عن طبقتهم ، هو خدمة صريحة للاستعمار ، ووصمة لمصر في الحقل الديمقراطي العالمي • ان عمال فلسطين العرب يستنكرون عملكم ، ويطالبون بالافراج عن زملائهم » (٨٩)

وفي الرابع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٤٦ اجتمع ، في القدس مؤتمر العمال العرب ،واتخذ مقررات وطنية ، منها : تحية الموظفين المضربين ، والمطالبة بالافراج عن المعتقلين السياسيين ، وتحية قادة العمال المعتقلين في مصر (٩٠) •

وما كادت مذبحة مصانع « سباهي » تتم في مصر ★ ، ويسقط فيها ثلاثة عمال مصريين صرعى الكفاح من اجل الخبز والحرية ، حتى كان لهذه الحوادث الدامية صدى عميق بين العمال في ارجاء الوطن العربي ، الذين يعانون من نفس انواع الاستبداد والقهر ، لذا كان طبيعيا ان يسرعوا للتضامن مع زملائهم المصريين ، معبرين عن سخطهم وغضبهم على موقف الحكومة المصرية من كفاح العمال المصريين ، والعكس تضامنهم الرائع وتأييدهم لعمال سباهي في البرقية التي ارسلها مؤتمر العمال العرب بفلسطين الى عمال سباهي ،جاء فيها (٩١) : « ان مؤتمر العمال العرب بفلسطين الذي يمثل عشرات الالوف من العمال المنظمين في فلسطين ، يستنكر ، اشد الاستنكار ،اطلاق الرصاص على عمال مصانع سباهي • كما ان المؤتمر يقدم تحياته القلبية الى عمال هذه المصانع ، والى جميع افراد الطبقة العاملة بمصر • وان عمال الشرق الاوسط ، الذين يواجهون اليوم هجوم على حقوقهم التي اكتسبوها بفضل اتحادهم وتضامنهم ونضالهم الشاق المرير من قبل الاستعمار وعملائه وصنائعه المحليين ، سوف تكون دماء اخوانهم

★ ـ سباهي هي شركة غزل ونسيج في الاسكندرية • كون عمالها نقابة لهم ، ففضلت ادارة الشركة بعضهم ، وسارع العمال الى اعلان الاضراب ، واشتبكوا مع البوليس ، في ١٧ شباط (فبراير) ١٩٤٨ ، واعتقل بعضهم ، واغلقت المصانع •

عمال مصانع سباهي ، التي سفكت ظلما وعدوانا ، حافزا لهم على تشديد نضالهم وتضامنهم لنيل مطالبهم ، وفي سبيل تحرير بلادهم وانعتاقهم من الاستعمار والرجعية » .

وتتضح الاهمية البالغة لهذه البرقية فيكونها ارسلت في قمة ازمة عصبة التحرر الوطني الفلسطينية - والمؤتمر تنظيم جماهيري لها - وقمة ازمة القضية الوطنية الفلسطينية برمتها . ومع ذلك ، لم تمنع هذه الازمة المضاعفة امين سر مؤتمر العمال العرب من اظهار تضامنه مع اشقائه عمال سباهي المصريين .

وفي المجال العالمي كان للحركة النقابية العمالية الفلسطينية شأن آخر . فبعد الثورة البلشفية (تشرين الاول [اكتوبر] ١٩١٧) شكل الماركسيون تنظيما نقابيا دوليا ، ضم نحو ٣٠ مليون عامل ، ومركزه موسكو ، ويحمل اسم « بروفنترن » او « امية النقابات الحمراء » . وكانت النقابات الحمراء تتشكل، في البلاد التي تحكمها الفاشية ، سرا . ومعروف ان امية النقابات الحمراء تأسست في العام ١٩٢١ ، واشترك في تأسيسها مندوبون عن النقابات العمالية التي يسيطر عليها اليساريون في انحاء العالم . وخلال تصاعد الخطر الفاشي في اوروبا ، في اواسط الثلاثينات ، سعت هذه الامية من اجل ايجاد جبهة موحدة من جميع نقابات العمال للكفاح ضد الفاشية ، وضد ضغط الرأسماليين على العمال ، وضد خطر الحرب ، التي بدت في الافق منذ وصول هتلر الى الحكم في المانيا ،في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ (٩٢) .

ومعروف ان هذه الامية انشئت بقرار من مؤتمرها الاول ، المنعقد في موسكو ، من ٣ - ١٩ (يونيو) ١٩٢١ . وكان اول مؤتمر نقابي دولي يأخذ على عاتقه تحقيق الوحدة بين العمال الذين اقاموا في روسيا دولة العمال والفلاحين وبين التنظيمات الطليعية في الحركة العمالية بالبلدان الرأسمالية المستعمرة والتابعة . وجمعت الامية الحمراء ، داخل صفوفها ، المراكز النقابية التقدمية واتحادات العديد من البلدان و٣٨٠ مندوبا شاركوا في مؤتمرها الاول، يمثلون ١٧ مليونا من النقابيين في ٤١ بلدا .

فكانت حافزا لتطور وتدعيم الحركة النقابية في العالم اجمع . ومنذ الايام الاولى من نشأتها كانت مدرسة للاممية البروليتارية . وقد مثلت فيها بلدان مثل : الاتحاد السوفياتي ، فرنسا، المانيا ، هولندا ، كندا ، الصين ، اندونيسيا ، تشيلي ، كوبا ، واليابان ، بالاضافة الى كل الذين يرون - بغض النظر عن آرائهم السياسية - ضرورة الكفاح من اجل المصالح الطبقية للشعب العامل . ولذلك وقفت هذه الاممية - منذ البداية - مواقف طبقية ثابتة في تقديرها للاحداث وللتطورات السياسية والاجتماعية ، وحرصت على الا تبتعد القوى التقدمية ، المنضوية تحت لوائها ، عن الصراع الطبقي . وكانت الظروف الموضوعية قد توفرت عند ذاك ، لقيام الاممية الحمراء ، اذ احتدم الصراع الطبقي في البلدان الرأسمالية ، وبرز التباين الايجابي في صفوف الحركة العمالية الغربية . واخذ اكثر العمال وعيا وتقدمية في النقابات الاصلاحية القديمة يقفون ضد سياسة الانشقاق ، التي ينتهجها قادة الاتحاد النقابي الدولي ، المعروف باسم « دولية بوتسدام » . وبدأوا يتحدون في المعارضة النقابية الثورية . واخذ الوعي بتطابق مصالحهم مع الثورة الاشتراكية الاولى ، في التأكد والنضوج (٩٣) .

وكانت التوصية الاولى بانشاء الاممية الحمراء قد جاءت من المؤتمر النقابي الروسي ، المنعقد في حزيران (يونيو) ١٩١٧ ، ومن المؤتمر الاول للنقابات الروسية ، المنعقد في كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ، والذي نص على انه « من واجب المؤتمر المساعدة ، بكل ما في وسعه ، على احياء الحركة المهنية الدولية ، وادرج في جدول اعماله الدعوة الى انعقاد مؤتمر مهني دولي وسلسلة من المؤتمرات المهنية الدولية ، وفقا للفروع المعينة من الانتاج » (٩٤) .

وفي العشرينات ، توزعت الحركة العمالية الثورية الى ثلاث مجموعات : أ - المنظمات المنضمة - بشكل مباشر - الى الاممية الحمراء (١٥ بلدا ، بلغ مجموع اعضائها - عام ١٩٢٥ - ٩٫١٤٠٫٠٠٠ عضو ، اصبحوا ،عام ١٩٢٧ ، ١٣٫٨٦٢٫٠٠٠ عضو ، ب - مجموعات اقلية ثورية داخل النقابات الاصلاحية (داخل

٢٩ بلدا ، ضمت ، عام ١٩٤٥ ، ٣ر٧٨٧ر٠٠٠ عضو ، وعام ١٩٤٧ ضمت ٢ر٨٧٤ر٠٠٠ عضو ، من بينها فلسطين ، التي ضمت في كل من العامين المذكورين نحو الفي عضو ، ج - المنظمات التي وقفت على ارض النضال الطبقي والثوري ، ولكنها لم تكن منظمة رسميا في الاممية النقابية الحمراء ، لاسباب سياسية (مثل الارهاب الابيض) ، وهي ١٨ بلدا ضمت عام ١٩٢٥ ، ٢ر٣١٨ر٣٥٨ عضوا ، اصبحوا بعد عامين ٣ر٣٦٨ر٢٣٠ عضوا (٩٥) ٠

واستطاعت الطبقة العاملة في الاقطار العربية ، بفضل التطور الجزئي في القوى المنتجة ونشوء بعض الصناعات ، وبتأثير النشاط النقابي للاممية النقابية الحمراء ، من ان تكون نفسها ، وتصقل افكارها ، وتقوم بسلسلة من النضالات الطبقية ، التي واكبت النضال الوطني ٠ اي ان تأثير الاممية النقابية الحمراء على مجمل الحركة العمالية في الاقطار العربية كان ملحوظا ، وفاق تأثير الاتحاد النقابي الدولي (دولية امستردام) ، التابع للاممية الثانية والاحزاب الاشتراكية الديمقراطية (٩٦) ٠

وادركت الطبقة العاملة العربية الفلسطينية، من جانبها ، اهمية التضامن بين عمال العالم، وعمدت ذلك بالدم ٠ لدرجة ان بعض ابناء الطبقة العاملة العربية في فلسطين انخرط في سلك المتطوعين لمقاومة فاشية فرانكو ، التي اخذت تهدد الديمقراطية في اسبانيا ، في العام ١٩٣٦ ، ولا يزال شهيد عمال فلسطين ، محمود المغربي ، رمزا للتضامن والاخوة بين كافة عمال العالم (٩٧) ٠

كما ساهمت الطبقة العاملة العربية الفلسطينية في المؤتمرات العمالية العالمية ٠ ابتداء من المؤتمر التأسيسي لاتحاد نقابات العمال العالمي ، الذي عقد بلندن في شتاء ١٩٤٥ ، والمؤتمر الاول الذي عقد بباريس في خريف العام نفسه ، الى المؤتمر الثاني في براغ (١٩٤٧) ٠ وكسبت الطبقة العاملة لقضية فلسطين عطف وتأييد عمال العالم (٩٨) ٠

بدعوة من نقابات عمال انكلترا ، فرنسا والاتحاد السوفياتي ، انعقد في لندن المؤتمر التمهيدي للنقابات ، من السادس الى السادس عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٥ ، وضم ٥٤ مركزا نقابيا ، يمثلون نحو ٥٠ مليون عامل ٠ ومثل فلسطين - في هذا المؤتمر - سامي طه ، ورافقه المستشار القانوني لجمعية العمال العربية الفلسطينية ، المحامي حنا عصفور ٠ ونادى هذا المؤتمر بضرورة الدعوة الى قيام اتحاد عام يجمع العمال العرب عامة (٩٩) ٠

واهمية اشتراك جمعية العمال العربية الفلسطينية في هذا المؤتمر تأتي من منعها في السابق من الاشتراك في اجتماعات ذلك المؤتمر، بسبب اشتراك الهستدروت كممثل للحركة العمالية الفلسطينية بأكملها (١٠٠) ٠

الا ان مساهمة طه وعصفور في هذا المؤتمر لم تحل دون اصدار المؤتمر قرارا لصالح الحركة الصهيونية ، جاء فيه : « ان هذا المؤتمر يعتقد انه بعد الحرب يجب ايجاد علاج اساسي لاصلاح الظلم الذي لحق الشعب اليهودي ، ببذل نشاط دولي ٠ ويجب ان يكون الدفاع عن اليهود من القمع والتمييز العنصري والسلب في بلاد كانت من واجب المنظمة الدولية الجديدة ٠ ويجب ان تتيح للشعب اليهودي الاستمرار في انشاء وطنه القومي في فلسطين ، هذا المشروع الذي كللت بدايته بالنجاح بالهجرة اليهودية والاستيطان الزراعي والتنمية الصناعية ، مع المحافظة على المصالح العادلة لجميع سكان البلاد والمساواة بينهم في الحقوق والامكانيات » ٠ وكان ب٠ لوكر ، مندوب الهستدروت في لجنة صياغة القرارات، حيث اقترح قرارا فلسطينيا على غرار «مشروع

بلتيمور ★ » ، الا ان اللجنة رفضت الاقتراح، حتى ولو كأساس قابل للتعديل ، وبعدمباحثات جرت بين اعضاء وفد الهستدروت تم الاتفاق بعدم المطالبة بالقرار وفق الصيغة التي اقترحها لوكر ، وصياغة قرار حول وطن قومي يهودي في فلسطين ، وهو الاقتراح الذي وافقت عليه ـ اخيرا ـ اللجنة الدائمة ، ثم وافق عليه، بعد ذلك ، المؤتمر كله (ولم يعارضه الا مندوب جمعية العمال العربية الفلسطينية ، ومندوبو غامبيا ، ونيجيريا ، والهند) (١٠١) .

وفي ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٥ ، انعقد في باريس المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمي ، واشترك في المؤتمر ٣٠٠ مندوب ، يمثلون نحو ٦٠ مليون عامل . وناقشت السكرتارية التنفيذية للاتحاد مذكرة عاجلة للجنة التنفيذية للهستدروت . وفي التاسع من تشرين الاول (اكتوبر) اتخذت القرارات التالية ، بالاجماع (١٠٢) :

أ ـ ان السكرتارية تقر قرار مؤتمر لندن ، القاضي بوجوب اتاحة الفرصة للشعب اليهودي في انشاء وطنه القومي في فلسطين ، بالهجرة والاستيطان الزراعي والتنمية الصناعية ، مع المحافظة على اهالي البلاد ، والمساواة في الحقوق والامكانيات .

ب ـ تناشد سكرتارية اللجنة التنفيذية لاتحاد النقابات العالمي الحكومة البريطانية اتخاذ سياسة تضمن بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

ج ـ ترى اللجنة التنفيذية ضرورة التفاهم المتبادل بين العمال اليهود والعرب في فلسطين.

على ان نصر الصهيونية هذا لم يعش طويلا ، اذ سرعان ما تم الاجهاز عليه داخل جلسات المؤتمر نفسه ، على ايدي الوفود العربية (مصر ، سوريا ، لبنان) ، ووفد مؤتمر العمال العرب الفلسطيني . فالمعروف ان مندوبي مؤتمر العمال العرب ، مخلص عمرو وبولس فرح ، هما اللذان اعتمدت عضويتهما في مؤتمر الاتحاد العالمي ، في حين ظل عضوا جمعية العمال العربية ، سامي طه وحنا عصفور ، مجرد مراقبين في المؤتمر . بعد ان نجح مندوب مؤتمر العمال العرب في اقناع لجنة فحص اوراق اعتماد المندوبين في مؤتمر باريس بأنه الممثل الحقيقي للعمال العرب الفلسطينيين . وكان مندوب « مؤتمر العمال العرب » هو الذي وقع عليه الاختيار لعضوية المؤتمر العام لاتحاد النقابات العالمي ، بالاضافة الى مندوب الهستدروت ومندوب عصبة عمال فلسطين ، ممثلين لكافة عمال فلسطين(١٠٣) .

وانهى المؤتمر جلساته يوم ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٥ . وكان اشتراك وفود عمال البلاد العربية ذا فائدة كبيرة ، في المجالين السياسي والنقابي معا . فمن الناحية السياسية ، تمكنت تلك الوفود من شرح قضاياها الوطنية لوفود عمال شتى الاقطار المشتركة في هذا المؤتمر . كما اتخذت الوفود العربية من المؤتمر منبرا لفضح الاستعمار . وعملت كل الوفود ، متضامنة ، في سبيل قضية فلسطين ومقاومة انشاء الوطن القومي الصهيوني ، ومن اجل منع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ونجحت في اقناع وفود كثيرة بعدالة القضية الفلسطينية . ومن هنا ظهر الفرق واضحا في اتجاه هذا المؤتمر عن اتجاه مؤتمر لندن ، الذي لم يشترك فيه وفد عربي واحد ، عدا وفد جمعية العمال العربية ، الذي كان عديم التأثير والفاعلية ! ولم يتخذ مؤتمر باريس اي قرار لصالح الصهيونية ، بالرغم

★ ـ مشروع بلتيمور : عقدت « لجنة الطوارىء الامريكية للشؤون الصهيونية» مؤتمرا استثنائيا في فندق بلتيمور بالولايات المتحدة ، في ايار (مايو) ١٩٤٢ . ودعا هذا المؤتمر الى الاسراع بتنفيذ وعد بلفور ببناء وطن قومي يهودي في فلسطين ، والغاء القيود التي وضعها الانتداب البريطاني ـ تحت ضغط الحرب العالمية الثانية ، ورغبته في ترضية العرب ـ في وجه الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ولعرقلة انتقال الاراضي للمستوطنين اليهود فيها ، وتكوين قوة عسكرية يهودية ... وحمل هذا المؤتمر اسم الفندق الذي انعقد فيه .

من المساعي والمحاولات الدؤوبة للصهيونيين داخل المؤتمر وخارجه ، اذ عدلت اغلب الوفود عن تأييدها الذي منحتهم اياه في مؤتمر لندن ، خصوصا وفود امريكا اللاتينية وايطاليا والاتحاد السوفياتي وبولندا وغيرها ، التي وقفت موقفا حازما ضد الصهيونية ، وايدت الوفود العربية في موقفها . وكانت هناك هزيمة اشد واوقع ، وهي فوز احد المندوبين العرب (مصطفى العريس) ، الذي اجمعت الوفود العربية - متضامنة - على ترشيحه في مواجهة المرشح الصهيوني ، ب . لوكر ، كممثل للشرقين الادنى والاوسط في اللجنة التنفيذية لاتحاد النقابات العالمي . وفاز مصطفى العريس على ب. لوكر بستمائة وعشرة اصوات ضد ثلاثمائة وتسعة عشر صوتا ، وامتنع عضو واحد عن التصويت ، في حين تغيب تسعة اعضاء عن حضور الجلسة التي تم التصويت فيها . وكان للاتحاد السوفياتي ، باصواته المائتين وخمسة ، الفضل الكبير في نجاح النقابي اللبناني الشيوعي . اذ نال هذا المرشح اصوات وفود السوفيات وامريكا اللاتينية وفرنسا وايطاليا والبلقان وبولونيا ويوغسلافيا والهند وبقية المستعمرات . في حين صوت مع المرشح الصهيوني كل من الامريكي ، والبريطاني ، والصيني ، والهولندي ، والبلجيكي ، والكندي ، والسويدي ، والسويسري . وبهذا فاز المرشح العربي بعضوية اللجنة التنفيذية للاتحاد العالمي ، مندوبا عن الشرقين الادنى والاوسط(١٠٤) .

وعقب نجاح العريس وسقوط لوكر ، صرح مخلص عمرو وبولس فرح بأنهما يمثلان عمال فلسطين ، وبأنهما مكلفين بقبول مشروع القانون التأسيسي لاتحاد النقابات العالمي ، وعرض مطالب عمال فلسطين ، والدفاع عن حرية الشعب الفلسطيني . وتعاون عمرو وفرح مع الوفود العربية ، واحبطا مساعي الصهيونية لضم مندوب يهودي الى اللجنة التنفيذية ، كما حالا دون ادخال تعديلات في القانون التأسيسي تخص الصهيونية . ثم دعى العضوان المشار اليهما العمال اليهود الى الانضمام لقضية الكفاح من اجل فلسطين المستقلة الحرة الديمقراطية ، التي سيقضون فيها حياة سعيدة الى جانب اخوانهم العرب(١٠٥) .

وقبل ذلك بساعات قليلة ، صرح عمرو وفرح ، لوكالة الانباء الفرنسية ، بأن « المسألة الفلسطينية ليست مسألة عرقية ، بل مسألة سياسية . واذا كان اليهود ديمقراطيين ، فلا يجب ان يكافحوا من اجل دولة يهودية ، بل من اجل استقلال الدولة الوطنية الديمقراطية الفلسطينية »(١٠٦) . كما خطب ، في جلسات المؤتمر ، بولس فرح عن فلسطين ، وابراهيم البكري عن سوريا ، ومصطفى العريس عن لبنان ، ومحمد يوسف المدرك عن مصر(١٠٧) ، وكلهم شيوعيون .

وفي طريق عودتهما الى فلسطين ، مر مخلص عمرو وبولس فرح بالقاهرة ، حيث نشر الاول فيها مقالا ، قال فيه ان « الطبقة العاملة في العالم اصبحت لا ترى انها طبقات متباعدة ، ولا كتلا مناضلة منعزلة ... وان وحدة وفود العمال العربية في هذا المؤتمر ادت الى انتخاب رئيس الوفد اللبناني عضوا في اللجنة المركزية ، والى محاربة الصهيونية بين صفوف العمال وفضحها كحركة استعمارية رأسمالية ، مما الغى ونفى مساعدة العمال العالميين لها(١٠٨) . وادلى بولس فرح بحديث الى مجلة ماركسية مصرية ، قال فيه « ان الظاهرة الاساسية في مؤتمر العمال العالمي بباريس كانت - بلا شك - التضامن الكلي بين الوفود العمالية العربية ... وظهر اتفاق تام بين جميع هذه الوفود [وفود المستعمرات والوفود العربية] على العمل في الحقل الوطني ، لينال كل بلد استقلاله التام » . واكد فرح ان اشتراك وفود العمال العرب في ذلك المؤتمر « لا بد وان يحدث بعثا جديدا للحركات العمالية في البلاد العربية ، وبعثا جديدا في الحركات الوطنية » . واشار النقابي اليساري الفلسطيني الى « الانتصار الكبير الذي احرزته البلاد العربية والانسانية جمعاء بانتصار وفود عمال العرب على الصهيونية . واهم مظهر لهذا الفوز كان ، بلا شك ، نجاحها في انتخاب مصطفى العريس » . ثم انتقل فرح الى الحديث عن محاولات الصهيونية لجر المؤتمر العالمي « الى قرار لتأييدها ، ولكن وفد العمال العرب

الفلسطينيين تنبهوا لذلك ، ونبهوا جميع الوفود العربية ، واحبطوا محاولات الصهيونية ... وقد ايد هذا الموقف وفود نقابات الاتحاد السوفياتي ، وفرنسا ، وامريكا اللاتينية ، والهند ، واستراليا ، ودول البلقان ونيوزيلندا »(١٠٩) .

وفي المؤتمر الثاني لاتحاد النقابات العالمي ، المنعقد في العاصمة التشيكية ، براغ ، تحدث سليم القاسم ، السكرتير العام لمؤتمر العمال العرب الفلسطينيين ، مندوبا عن عمال فلسطين ، فطالب بجلاء القوات البريطانية عن فلسطين ، وقيام حكومة مستقلة فيها ، على اسس ديمقراطية صحيحة ، وايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، مما يجعل في الامكان « حل جميع المشاكل الناتجة عن سياسة الاستعمار البريطاني الخطيرة الفاشلة في هذه الرقعة الصغيرة من العالم العربي »(١١٠) .

وقبل ان ينفض المؤتمر ، عرض الوفد الامريكي مشروع قرار بتأييد اغراض الصهيونية واطماعها في فلسطين ، على غرار ما كان اتخذه اتحاد النقابات في مؤتمره بلندن . فتصدى مصطفى العريس لهذا المشروع ، واعلن استنكار الوفود العربية والديمقراطية لقرار مؤتمر لندن المشار اليه ، باعتباره اعتداء صريحا على مصالح العرب ، اصحاب فلسطين . واعلن « اننا سنقاوم ذلك القرار ، واي مشروع لقرار مماثل ، بكل ما في استطاعتنا من قوة وبأس » . واقترح ممثل نقابات عمال لبنان حيال لقضية فلسطين :

أ - وقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين ،

ب - اعلان استقلال فلسطين وجلاء الجيوش الاجنبية عنها ، ج - اقامة حكومة وطنية ديمقراطية فيها . ثم طلب حذف الفقرة التي ايد فيها مؤتمر لندن اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ، او اعادتها الى المكتب التنفيذي للاتحاد ، من اجل دراستها من جديد . كما تكلم سليم القاسم ، فشرح القضية الفلسطينية تفصيلا ، ودعا المؤتمر الى مراعاة حقوق العرب ، اصحاب فلسطين الشرعيين ، وعدم الانسياق وراء الدعاية الصهيونية المضللة ، وطالب بالجلاء العاجل عن فلسطين . الا ان رئيس المؤتمر ، كارل زيبريس (انكليزي) ، لم يوافق على اعتراض الوفود العربية، وعرض المشروع الصهيوني للتصويت ، واسفرت النتيجة عن الموافقة عليه ، بأكثرية ١٠ اصوات ضد ٤ ، في حين امتنع الكثيرون عن التصويت . وهنا حدثت ضجة ، وقام مصطفى العريس ، من فوره ، الى حيث يجلس السكرتير العام (فرنسي) ، ثم الى رئيس الوفد السوفياتي ، ونجح في اقناعهما بأن التصويت غير قانوني ، لامتناع الاكثرية عن التصويت . واعلن رئيس الجلسة اعتراض العريس على قانونية التصويت ، فانفجرت مناقشات حامية بين اعضاء الوفد الامريكي - صاحب المشروع - والمندوبين الصهيونيين ، الذين كانوا ملأوا الدنيا صياحا ، وهزوا اسلاك البرق وموجات الاثير ، الى جميع انحاء العالم ، بالنبأ الخطير وبين وفود لبنان وفلسطين ومصر وتونس والاتحاد السوفياتي . واصر الامريكيون والصهيونيون ، من جانبهم ، على اعتبار القرار نافذا ، قانونيا ، بعد ان انتهى المؤتمر من التصويت عليه . ورفضوا اقتراحا قدمه السكرتير العام للمؤتمر بايقاف الجلسة مدة ١٥ دقيقة ، ليجتمع المكتب التنفيذي للاتحاد ، ويبحث المشكلة القائمة . وحاول الرئيس البريطاني ان يغرر بالوفود العربية ، فاقترح عليهم الموافقة على المشروع مع تسجيل تحفظاتهم عليه ، ولكنهم ابانوا له - بوضوح - ان مثل هذا التلاعب لا يجوز عليهم ! وعند هذا الحد ، دعا رئيس المؤتمر بعض اعضاء الوفود الامريكية والانكليزية والفرنسية ورئيس الوفد السوفياتي ومصطفى العريس، وتباحثوا مجتمعين على منبر الخطابة في الامر . وظل الامريكيون متعنتين متمسكين بموقفهم . فأعلن الرفيق تراسوف ، رئيس الوفد السوفياتي ، انه اذا لم تحذف هذه الفقرة التي تضر بمصالح العرب فالوفد السوفياتي يمتنع عن التصويت . مما اضطر الوفد الامريكي ، امام موقف السوفيات الحازم هذا ، الى التراجع ، واعلن المندوب الامريكي عن اسفه لموقف الرفيق تراسوف ، وارجع موقف السوفيات هذا الى اسباب سياسية ، فرد عليل تراسوف : انه امام البيانات التي سردتها الوفود العربية عن الاضرار التي تلحق

بمصالح العرب ، من جراء الموافقة على هـذا القرار ، فأنه يرفضه . وعاد السكرتير العام فاقترح ايقاف الجلسة خمس دقائق ، ليتمكن رؤساء الوفود المعنية من التشاور ، فوافق المؤتمرون على ذلك . وانتهي الامر بأن عدلت الفقرة الخطيرة بشكل يشبه الالغاء ، اذ اصبحت خالية من الاشارة الى قرار مؤتمر لندن ، اي خالية من تأييد فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين واباحة الهجرة اليها . وهكذا ، احبطت مؤامرة صهيونية ـ امريكية كبرى ، هدفها التأثير على لجنة التحقيق الدولية ، التي شكلتها الامم المتحدة ، بهدف جمع المزيد من حقائق الموقف في فلسطين . « وقد احبط هذه المؤامرة المندوبون العرب الذين استطاعوا الوصول الى براغ رغم انف حكوماتهم » !(١١١)

وبذا ، تكون السنوات الثلاث التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ، قد شهدت نشاطا سياسيا عارما للحركة النقابية العمالية في فلسطين ، ان داخليا ام خارجيا ، وصل مداه حين حمل العمال السلاح لمقاومة قرار تقسيم فلسطين ، الذي اصدرته الجمعية العمومية للامم المتحدة ، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ . الا ان حجم المؤامرة والمشتركين فيها كانا اكبر من ان ينجح الشعب العربي الفلسطيني ، بقواه المتواضعة ، في احباطها ، كما لم يفد تدخل الجيوش العربية ، في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، في شيء ، بل زاد الطين بلة ، ذلك ان معظم نظم الحكم العربية كانت مرتبطة بالاستعمار البريطاني ، عند ذاك ، بشكل او بآخر ، كما ان جيوش تلك الانظمة كانت مهيأة للاستعراضات لا للقتال . مما افضى الى الكارثة وقيام اسرائيل على اغلب اراضي فلسطين .

العلاقة بالعمال اليهود

كان طبيعيا ان تتحكم السياسة بعلاقات الطبقة العاملة العربية الفلسطينية بنظيرتها اليهودية . ففي ظل العداء الذي اخذ يستفحل تعذر اقامة علاقات ايجابية بين الطبقتين ، كما ان وقوع العمال اليهود تحت السيطرة الفكرية شبه التامة للحركة الصهيونية زاد الامر صعوبة ، فأغلب العمال اليهود كانوا ينحدرون من اصول برجوازية صغيرة ، مما ابتعد بهم عن افكار الطبقة العاملة ، وجعلهم اكثر استعدادا للتأثر بالافكار الصهيونية ، وعزز هذا الاستعداد الامتيازات الجمة التي كان العمال اليهود يجنونها من ارتباطهم بهذه الحركة الصهيونية ، فهم اولا يتميزون على نظرائهم العمال العرب من حيث الاجر ، كما انهم ـ ثانيا ـ يعيشون اسرى اقتصاد صهيوني مغلق ، وفي احضان مجتمع صهيوني تفصله عن المجتمع العربي الفلسطيني هوة سحيقة ، مما عمق الحس الطائفي لدى العمال اليهود . عدا عن ان الحركة الصهيونية نجحت في تصوير قيادة الحركة الوطنية العربية في اعين العمال اليهود ، كحركة رجعية معادية لليهود ، مما جعل هؤلاء العمال يعتقدون ان في تقوية الصهيونية تقوية لهم ، في مواجهة « الخطر العربي » !(١١٢)

وازاء اصرار الهستدروت على الاكتفاء بتنظيم العمال اليهود في صفوفه ، حاول الشيوعيون التغلب على هذه العقبة ، مستندين الى مفاهيمهم الماركسية اللينينية ، فنص دستور مؤتمر العمال العرب على « العمل على التعاون والتضامن بين جميع عمال فلسطين ، بغض النظر عن الجنسية ، واللون ، والدين ، والمذهب السياسي » .(١١٣)

اما جمعية العمال العربية الفلسطينية فكان لها موقف اخر من هذه المسألة ، عبر عنه سكرتيرها العام ، سامي طه ، حين سأله رئيس اللجنة الانكلو ـ امريكية ، سنغلتون ، عما اذا كان من الخير ان تنشأ نقابات للعمال بدون تمييز على اسس عنصرية او دينية ، فأجاب طه : « نعم ، هذا هدفنا ، ونحن نوافق من حيث المبدأ على ذلك ، ولكن لا يمكن تحقيق ذلك في فلسطين » . على انه عاد ، بعد برهة وجيزة ، واوضح لكروسمان ، عضو اللجنة نفسها ، « انه اذا زالت الصهيونية يصبح الاتفاق [بين العمال العرب والعمال اليهود] ممكنا »(١١٤) .

وفي غياب القيادة النقابية الواعية ، وتحت وطأة القهر الرأسمالي ، حدث ان استجار

العمال العرب بالهستدروت . ففي مطلع ١٩٣٨ نشرت صحيفة الثورة المضادة في فلسطين خبرا عن اضراب عتالة ميناء يافا ، وحملت عليهم ، زاعمة ان حسابات المتعهد الذي يستخدمهم (سليم افندي الخوري صحيحة « وان العتالة مبطلون في دعواهم »(١١٥) .

واستمر اضراب العتالة (٦٠ عتالا) اكثر من اربعة اسابيع ، دون ان يتقدم احد من العرب لمساعدتهم او لارشادهم ، بل رفضت معظم الشخصيات اليافية والصحف مد يد العون لهم ، فاغتنمت الهستدروت هذه الفرصة الذهبية ، وعرضت مساعدتها على العتالة المضربين (١١٦) .

وفي العام ١٩٤٣ فشل مشروع اضراب مشترك للعمال العرب واليهود معا ، حين تقدمت الهستدروت بمطالب عمالية الى قيادة الجيش البريطاني في فلسطين ، الا ان المفاوضات بين الهستدروت وهذه القيادة منيت بالفشل . فأسرعت الهستدروت تعلن الاضراب العام في كافة معسكرات الجيش البريطاني ، حتى تتحقق المطالب التي رفعتها الى قيادة الجيش البريطاني . ورأت قيادة جمعية العمال العربية في مثل هذا الاضراب نصرا مؤزرا للهستدروت وانهاء لهيمنة الجمعية على عمال المعسكرات العرب ، الذين يشكلون اغلبية العاملين في معسكرات الجيش البريطاني بفلسطين ، مما حدا بالامانة العامة لجمعية العمال العربية مع النقابة العامة لعمال المعسكرات الى رفض الاضراب . وفي اليوم المحدد للاضراب ، ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٣ ، توقف العمال اليهود عن العمل ، الا ان قلة عددهم اضعف من تأثير اضرابهم على مجمل العمل في معسكرات الجيش البريطاني ، وفشل الاضراب في تحقيق اهدافه النقابية المعلنة ، واهدافه السياسية الخفية ! وعقدت الهستدروت مؤتمرا في تل ابيب ، لدراسة اسباب الفشل ، واوفدت الامانة لجمعية العمال ـ سرا ـ وفدا برئاسة فؤاد شما ، رئيس النقابة العامة لعمال المعسكرات (قسم الخياطة) ، وعضوية نصري الحلو ، عضو الهيئة الادارية للنقابة نفسها ، لحضور هذا المؤتمر . وشن قادة الهستدروت حملة قاسية على جمعية العمال العربية ، فأنبرى فؤاد شما مدافعا ، مذكرا قادة الهستدروت بأنهم ـ حين قرروا اعلان الاضراب ـ اهملوا متعمدين الاتصال بجمعية العمال العربية ، ولم يحصلوا على موافقتها ، كما لم يتعرفوا على مطالبها ، حتى يمكن اقامة لجان مشتركة بين النقابتين العربية واليهودية ضمانا لنجاح الاضراب (١١٧) .

على ان اضرابا اخر لعمال البرق والبريد والتليفونات ، نجح ، في العام ١٩٤٦ ، في احراز تقدم ملموس ، بل وحقق المطالب التي رفعها المضربون العرب واليهود سويا .

التعاونيات

عمدت اجهزة الانتداب وعناصر البرجوازية المحلية والثورة المضادة الى نشر افكار التعاونيات الحرفية في فلسطين . وكانت هذه الاجهزة والعناصر تلجأ لرفع راية التعاونيات عند كل مد نقابي ، وفي وجه كل اشتداد للحركة المطلبية . وكانت التعاونية الحرفية تبدو قادرة على خدمة مصالح الانتداب وقسم من البرجوازية العربية الفلسطينية ، دون ان تشكل اي خطر على مصالح اي منهما . فالتعاونية الحرفية من شأنها تمييع الصراع الطبقي ، مع عدم المساس بالاستغلال الرأسمالي ، كما يمكنها ان تلعب دورا تضليليا ، يصعب على العمال اكتشاف امره قبل مرور وقت طويل .

وتهدىء التعاونيات الكفاح النقابي . لذا احتضنت جمعية العمال دون « المؤتمر » امر التعاونيات ، فانفردت بمزاولة نشاط اقتصادي هذا اذا استبعدنا جميع عمال نابلس ، الذين افتقروا الى الطابع النقابي ، بل كانوا اقرب الى المؤسسة او الجمعية التعاونية . وقد اشرفت جمعية العمال على عدد من التعاونيات الخاصة بالمنتجين والمستهلكين ، كما ادارت جمعية للتوفير والتسليف وتشغيل العمال . ووجدت معظم هذه المشروعات في حيفا ، حيث المقر الرئيسي لجمعية العمال (١١٨) .

ويمكن الوصول الى مفهوم التعاونيات عند قادة جمعية العمال من خلال اقوالهم المسؤولة . ففي مؤتمر اب (اغسطس) ١٩٤٦ ، وقف بنيامين يونان ، من عمال سكة حديد القنطرة ، يعرف الحركة التعاونية ، بأنها تلك التي

يساهم « كل عامل بمبلغ ضئيل ، مما يوفره ، وتؤسس ، من المبالغ المساهم بها ، مصانع ومشاريع تعاونية ، يتقوى بها العمال ، فتقوى البلاد ، وتقوى الدولة ، ويقوى الوطن» (١١٩) ٠ وقبل هذا التعريف السطحي الساذج ،ضرب بنيامين مثلا باول جمعية تعاونية في العالم ، تلك التي اقامها عمال صناعة الساعات في سويسرا ، وضاربوا فيها اصحاب مصانع الساعات ٠ كما ضرب مثلا بمشروع القرش بمصر ، الذي استغل في صناعة الطرابيش ، عند اوائل الثلاثينيات (١٢٠) ٠

وعرّف مؤتمر اب المشار اليه ، الحركة التعاونية بأنها « حركة قامت على اساس حماية المنتجين والمستهلكين من استغلال رأس المال ٠٠٠ فالتعاون ، اذن ، هو حركة اقتصادية احوج ما يحتاج اليها العمال والفلاحون ، لاصلاح حالهم وحماية انفسهم من استغلال التاجر والوسيط وغيرهما » (١٢١) ٠ هكذا ، تعرف جمعية العمال العربية التعاون تعريفا مطلقا بلا حدود ، ولا ندري ما اذا كانت تجهل ام تتجاهل ، كون التعاون رهن بالنظام الاقتصادي الذي يقوم في ظله ، فالتعاون في ظل النظام الاحتكاري لا يخدم الا الاحتكارات ، اما في ظل النظام الاشتراكي فيرفد هذا النظام ويعززه ٠

وايمانا من جمعية العمال بالتعاون ، اسست العديد من الجمعيات التعاونية ، مثل « جمعية ذابحي الاغنام التعاونية » ، و «جمعية متعهدي الحوايا » ، و « جمعية اللحامين » ٠ كما اسست جمعية للتموين والبضائع ، و « جمعية العمال الخياطين » ، و « جمعية التسليف والتوفير » ، التي عرفت باسم « المصرف الشعبي » ، وبلغ عدد اعضائه ، في صيف العام ١٩٤٦ ، ١١٠٠ عضو ، ووصل حجم المبالغ التي اقرضها المصرف للعمال ، ما بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٦ فقط ، ٤٨ر٢٢٧ جنيها فلسطينيا ، كما اسست « جمعية الاسكان والتعمير » ٠ ويبين الجدول التالي تطور تعاونيات جمعية العمال ، في النصف الاول من الاربعينات (١٢٢) ٠

تطور تعاونيات جمعية العمال العربية الفلسطينية :

السنة	الوضع المالي		عدد	عدد
	مل	جنيه	الاعضاء	الجمعيات
١٩٤٠	٠٠٠	١٢	١٢	١
١٩٤١	١١٠	١٢٢٣	٦١	٢
١٩٤٢	٦١٠	٣٠٨٠	١١٦	٤
١٩٤٣	٨٧٣	١٣٥٥٢	٤٤٠	٦
١٩٤٤	٣٣٥	٢٠٨٣٦	٧١٧	٧
١٩٤٥	٣١٨	٣٥٠٢٣	٩٨٦	٧

وانتقلت جمعية العمال بنشاطها التعاوني الى المزارعين ، فشكلت العديد من جمعيات الدخان التعاونية ، لمؤازرة مزارعي الدخان ، وتحسين زراعته ، وهو الذي بلغ معدل محصوله السنوي اكثر من مليون جنيه فلسطيني ٠ وافادت هذه الجمعيات في الوقوف بوجه المنافسة الاجنبية الشديدة ، حيث استولى دخان الفرجينيا والدخان التركي على قرابة ٧٠٪ من استهلاك السوق (١٢٣) ٠ وفي نيسان (ابريل) ١٩٤٧ ، عقد في مدينة عكا اول مؤتمر لمزارعي الدخان ، تمخض عن مقررات استهدفت المحافظة على هذه الثروة الوطنية ، وتخليص اصحابها من سيطرة احتكار الشركات ٠ ومن اهم هذه المقررات : ١ ـ خلق مراكز لتجميع الدخان ، ٢ ـ انشاء جمعيات تعاونية لبيع الدخان ، ٣ ـ مقاطعة الدخان الاجنبي ٠ وتم فعلا انشاء بعض المستودعات الحديثة في منطقة الجليل ، لحفظ الدخان ومنع بيعه للشركات الا عن طريق الجمعيات التعاونية ٠ وادى ذلك الى فرض بيعه بسعر مناسب ، بدلا من تراكم الديون على المزارعين لصالح بنك الزراعة في عكا (١٢٤) ٠

الا ان جمعية العمال العربية الفلسطينية لم توظف الحركة التعاونية بالريف في توثيق التحالف بين العمال والفلاحين الفقراء ، ولا في تحريك الفلاحين سياسيا ضد الاستعمار والصهيونية ٠ وكان هذا التقصير من جانب الجمعية طبيعيا ومتعمدا ، فهي تهمل ـ عن قصد ـ الجوانب السياسية في اوساط العمال ، ومن هنا جاء اهمالها لهذه الجوانب في نشاطها الريفي ، بالتبعية !

وللاشراف على الحركة التعاونية ، اسست

جمعية العمال فرعا خاصا في مقرها بحيفا(١٤٥) ٠

ولا نستطيع انكار تأثير الحركة التعاونية في القطاع اليهودي على جمعية العمال ٠ فقد حمل اليهود الافكار التعاونية من البلاد التي وفدوا منها ، وخاصة بولندا والاتحاد السوفياتي ، وحتى العام ١٩٣٠ لم يكن للعرب جمعيات تعاونية ذات شأن ، في حين كان للمستوطنين اليهود ٢٤٩ جمعية تعاونية ، عمل منها ، حتى العام ١٩٣٠ ، ١٧٣ جمعية ، وزعت نوعيا على النحو التالي : ٣٩ جمعية زراعية ، ٤٧ جمعية صناعية ، ١٤ جمعية كيبوتزات ، ٥٢ جمعية تسليف ، ٣٤ جمعية لمشتري الاراضي والبناء ، و ٧ جمعيات مختلفة الغايات ٠ وحتى اخر ايار (مايو) ١٩٣٠ بلغ عدد اعضاء هذه الجمعيات ٣٣٫٤٣٦ عضوا ، وبلغ رأس المال المساهم به والمال الاحتياطي وغير ذلك من الاموال الخاصة بهذه الجمعيات ٣٣٤٫٨٢٧ جنيها فلسطينيا ٠ وعلاوة على هذه المبالغ ، بلغت الاموال المودعة من الاعضاء مع توفيراتهم ٧١١٫٤٤٥ جنيها فلسطينيا ، بينما وصلت الديون المستحقة ، في ذلك الحين ، على الجمعيات للمصارف وغيرها ٢٩٤٫٤١١ جنيها (١٤٦) ٠

وكانت سلطات الانتداب قد ادخلت نظام التعاونيات الى القرية العربية منذ وقت مبكر ، حين اسست ، في خريف العام ١٩٢٣ ، جمعيات للاقتصاد والتسليف في ١٤ قرية عربية ، وزاد عدد اعضائها من ٢٦٤ الى ٦٥١ عضوا ، ومالها الخصوصي من ٢٦٦ الى ٧٨٠ جنيها ٠ وكان الاعضاء يدفعون الديون المطلوبة منهم بانتظام حتى تمكنت الجمعيات من الوفاء بديونها للبنك قبل تاريخ الاستحقاق ٠ واختار مسجل الشركات ١٨ قرية من ٦٠ ، بثت فيها دعاية واسعة عن فوائد التعاون ٠ واسست في هذه القرى جمعيات تعاونية ، وبلغ حجم المبلغ الذي اكتتب به الاعضاء ٩٣٣ جنيها ، دفعوا عشرها عند التأسيس ٠ وفي صيف العام ١٩٣٥ كان عدد اعضاء جمعيات الاقتصاد والتسليف في القرى العربية ٩١١ عضوا ، ورأس المال المكتتب ٣٫٦٥٨ جنيها ، تحصل منه ٩٤٤ جنيها ٠ واقرض بنك باركليز هذه الجمعيات قروضا لاجال قصيرة ، بفائدة قدرها ٧٪ ٠

وبلغ مجموع ما اقترضته هذه الجمعيات من هذا البنك ، في العام ١٩٣٥ ، ١٣٫٧٣٦ جنيها ، مقابل ٣٫٣٦٩ جنيها للعام ١٩٣٣ ٠ وفي المدن تسجلت ست جمعيات عربية جديدة للنقل ، في اواسط الثلاثينات ، وانحلت جمعية واحدة ، فأصبح عددها كلها ١٣ جمعية ، وكان نجاحها متوسطا في اجماله ٠ وفي الفترة نفسها كان ثمة جمعيات عربية اخرى لاغراض مختلفة ، بعضها تم تأليفه والاخر كان على وشك التأليف ، كالزراعة والري وصيد الاسماك وبناء دور لعمال السكك الحديدية ، وغير ذلك(١٤٧) ٠ وغني عن القول بان سلطات الانتداب كانت ترمي من وراء صرف القروض للجمعيات التعاونية العربية الى ربط اعضاء هذه الجمعيات بها ، بالاضافة الى اخفاء طبيعتها الاستغلالية ٠

وفي العام ١٩٣١ قامت اول شركة تعاون عربية محضة ، حملت اسم « شركة تعاون العمال العرب الفلسطينيين المحدودة الضمان » ، برأس مال قدره الفا جنيه ، موزعة على الفي سهم ٠ وفي قانونها اوضحت الشركة ان غايتها : « هي تحسين وازدياد التعاون بين جميع طبقات العمال العرب في فلسطين ، وذلك : أ - بأن يؤسسوا ويديروا ورش اعمال من جميع الاصناف ، بما فيه ورش نجارة ، ودقاقة احجار ، وحداده ، واشغال سيارات ، الخ ، ب - المناقصة على اي شغل كان ، عمومي او خصوصي ، ج - القيام باي عمل يقرر القيام به مجلس المديرين ، بشرط ان تكون جميع الاعمال التي تقوم بها الشركة لمصلحة اعضاء الشركة ، فقط دون سواهم » (١٤٨) ٠

حزب الطبقة السياسي

ما دمنا نتحدث عن الطبقة العاملة العربية دون اليهودية ، فلا بد من الحديث بتركيز عن النشاط العربي داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني ، وهو الحزب الوحيد في فلسطين الذي ضم عناصر عربية ويهودية جنبا الى جنب ، اما بقية الاحزاب فكانت عضويتها اما عربية صرفة او يهودية صرفة ٠

وفي فلسطين ارتبط تطور الحزب الشيوعي الفلسطيني - الى حد بعيد - بتطور الحركة

الوطنية الفلسطينية . ومنذ آذار (مارس) ١٩١٩ ، تأسس « حزب العمال الاشتراكي » من اعضاء يهود اكثرهم شيوعيون ، وعرف الحزب باسمه العبري « مفلجات بوعاليم سوسياليستيم » ، وان اشتهر باسمه المختصر « مويسي » . وضم عناصر ماركسية جنبا الى جنب مع بعض العناصر اليسارية الصهيونية ، مما جعله نهبا للصراعات الحادة منذ قيامه (١٢٩) . وكان طبيعيا ان ينفر العرب من الانضمام الى هذا الحزب ، بسبب نفورهم الاقدم من المستوطنين اليهود عموما ،خاصة بعد افتضاح اطماعهم في فلسطين ، ولوقوع اغلبية عرب فلسطين الساحقة في اسار الافكار الاقطاعية السائدة في فلسطين انذاك . في حين لم يشكل الحزب مركز جذب للعمال اليهود الشديدي التأثر بالافكار الصهيونية ، والذين تنحدر اغلبيتهم من اصول برجوازية صغيرة ترفض الافكار العمالية وتعاديها . وعليه كانت عضوية الحزب ضئيلة ، لم تتعد في شباط (فبراير) ١٩٢١ ، مائتي عضو(١٣٠) .

وفي اول ايار (مايو) ١٩٢١ ، اصدر الحزب بيانا ، بمناسبة عيد العمال العالمي ، حث فيه العمال والفلاحين للاستيلاء على السلطة ، ونديد بالاستعمار البريطاني ، واشاد بالثورة البلشفية ، ودعا البيان العمال والفلاحين الى مقاومة البرجوازية العربية واليهودية والمستعمرين البريطانيين (١٣١) .

واثناء احتفالهم بعيد اول ايار (مايو) ١٩٢١ اصطدم - في تل ابيب - اعضاء المويسي باعضاء المنظمة الصهيونية « احدوت هاعفودا » وانتقل المتصادمون الى اطراف حي المنشية بيافا ، الملاصق لتل ابيب . وتوهم عرب يافا ان المستوطنين اليهود يهاجمونهم ، فتصدوا للمتصادمين جميعا ، ووقعت صدامات قتل فيها ٤٨ عربيا و ٤٧ يهوديا ، وجرح ٧٣ عربيا وضعفهم تقريبا من اليهود .

وفي اعقاب هذه الصدامات نفت السلطات البريطانية خمسة عشر من قادة المويسي خارج فلسطين ، واستكتبت ثلاثة عشر اخرين من اعضائه تعهدات بحسن السير والسلوك (١٣٢) . واضطر الحزب الى سلوك طريق العمل السري ، منذئذ ، تجنبا لضربات اجهزة الامن البريطانية .

على ان الحزب الشيوعي ، باسمه وفكره ، لم يولد الا في خريف العام ١٩٢٢ . فبعد ضربة ايار (مايو) ١٩٢١ ، انضوى من تبقى من اعضاء الحزب تحت لواء « بوعالي زيون » الصهيوني اليساري ، الا ان مؤتمر هذا الحزب، المنعقد في دانزيغ في ايلول (سبتمبر) من ١٩٢٢ بغرض الاختيار بين الاندماج في الحركة الشيوعية العالمية ، المعروفة انذاك بالاممية الثالثة او « الكومنترن » وبين الاندماج بالمؤتمر الصهيوني ، انتهى ان اختارت غالبية اعضائه (نحو ٣٠٠ عضو) الصهيونية ، وتحولوا الى قادة لحزب الماباي ، في حين اختار الباقون (حوالي ١٥٠ عضوا) طريق الشيوعية واسسوا عندذاك ، « الحزب الشيوعي الفلسطيني » . وفي العام التالي عقد الحزب مؤتمره الخامس ، الذي قرر فيه ان المهمة الرئيسية للحزب هي النضال ضد الصهيونية بأشكالها المختلفة ، وفضح خدعتها . ونشط اعضاء الحزب ، فعلا ، في تحذير الشباب اليهودي من الهجرة الى فلسطين (١٣٣) .

واعترف الكومنترن رسميا بالحزب الشيوعي الفلسطيني ، في شباط (فبراير) ١٩٢٤(١٣٤) . وفي نيسان (ابريل) ١٩٢٤ طرد الهستدروت الشيوعيين اليهود من عضويته ، بسبب نشاطهم المعادي للصهيونية ، وحملاتهم ضد الهستدروت نفسه .

وداخل الحزب الجديد : دار صراع فكري وسياسي بين اقلية تمتلك ثلاثة مقاعد في اللجنة المركزية للحزب ، وبين اكثرية تمتلك المقاعد الخمسة الباقية في اللجنة ، وتتهمها الاقلية بالانهزامية والجمود . وفي المؤتمر السادس للحزب ، تموز (يوليو) ١٩٢٤ ، تمكنت الاقلية من دحر الاغلبية وتنحيتها . وفي هذا المؤتمر رفع ، لاول مرة ، شعار « تعريب الحزب »(١٣٥) . وربما رفعوا شعار التعريب بهدف تثوير الحزب اولا ، ولكسر الحصار المضروب على الحزب في القطاع اليهودي من فلسطين ثانيا .

ودعا الحزب ، دوما ، الى وحدة عمال

فلسطين ، عربا ويهودا ، اداة للكفاح ضد الرأسماليين الصهيونيين والعرب والمستعمرين البريطانيين ٠

ومنذ العام ١٩٢٧ ، اخذت مجموعات من الاعضاء العرب في الحزب تسافر لتلقي مبادىء الماركسية اللينينية في « جامعة كادحي الشرق » التابعة للكومنترن بموسكو ٠ (١٣٦) ٠

وفي اوائل العام ١٩٢٩ ، دعت اللجنة المركزيه للحزب الشيوعي الفلسطيني اعضاء الحزب لمناقشة قرارات المؤتمر السادس للكومنترن ، التي تضمنت تأكيدا بانتهاء الدور الثوري للبرجوازية ٠ وقد توصل الكومنترن الى هذا الاستنتاج غداة غدر الكومنتانغ بالشيوعيين في الصين ، في العام ١٩٢٧ ٠ على ان هذا الاستنتاج انسحب على القادة البرجوازيين الوطنيين في البلاد العربية ، ومن ضمنهما فلسطين ، فاعتبروا نظراء لشيانغ كاي شيك ، الذي نظم المذابح البشعة لاعضاء الحزب الشيوعي الصيني وارتبط بالقوى الاستعمارية (١٣٧) ٠

وكشف مؤتمر الحزب الشيوعي الفلسطيني ، المنعقد في حزيران (يونيو) ١٩٢٨ ، عن وجود صراع بين اتجاهين داخل الحزب ، حيث رأت اقلية المؤتمر ان وطن اليهودي هو المكان الذي يولد فيه ، وان فلسطين ملك لسكانها العرب ، وان واجب الشيوعيين هو النضال بجانب العرب ضد الخطر الصهيوني ٠ اما الاغلبية ، فبالرغم من تشهيرها بالصهيونية ،الا انها رفضت قول الاقلية بان كل اليهود في فلسطين مرتبطين بالصهيونية بشكل او آخر ٠ وحدث ان حبذ الكومنترن رأي الاغلبية ، واقصيت الاقلية عن قيادة الحزب ٠ على ان الكومنترن سرعان ما عاد ، بعد عام واحد ، وأيد موقف الاقلية ، وادان موقف الاكثرية ، باعتباره امتدادا خطيرا لمصلحة الصهيونية (١٣٨) ٠

وفي آب (اغسطس) ١٩٢٨ احتفلت مجموعات كبيرة من المستوطنين اليهود قرب « حائط المبكى » ، بعيد الغفران ، وعلا صراخهم بحقهم في هذا الحائط ، الذي يعتبرونه الاثر الوحيد المتبقى من قصر نبيهم سليمان ، بعد ان هدمه الرومان ، في حين يقدسه المسلمون ، لانه الحائط الذي حط عليه البراق الذي صعد بالنبي محمد (ص) الى السماء ٠ وكشف توتر الموقف بين المستوطنين اليهود والمواطنين العرب عن اتجاه متعاطف مع الصهيونية في اوساط الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠ فوصف تقرير كتبه جوزيف بيرغر ، احد قادة الحزب « التعطيل الوحشي لهذا الاحتفال الديني » ، واعاد بيرغر الى الاذهان كون « فلسطين هي البلد الذي اكدت بريطانيا العظمى وعدها بايجاد وطن قومي لليهود فيها » ٠ ووصف تقرير القائد الشيوعي الفلسطيني تصدي البوليس البريطاني لليهود المحتفلين بـ « البوجروم الصغير ★ » ٠ ولستر ميوله الصهيونية ، اعترف القائد الشيوعي اليهودي بأن « هذا الحائط ليس لليهود فحسب ، بل لاتباع محمد ايضا » ٠ وان الصدامات بين العرب واليهود هي من صنع الاستعمار البريطاني ، لتكريس «الضمانات للبريطانيين ، كي يقوموا بدورهم كمحكمين٠٠٠ وكطرف ثالث يضحك على الطرفين الاخرين » (١٣٩) ٠

وفي المؤتمر الصهيوني الرابع عشر ، المنعقد في زيوريخ بسويسرا في صيف العام ١٩٢٩ ، جرى التأكيد ، مجددا ، على حق اليهود في الحائط ، مما زاد في سخط العرب اشتعالا في فلسطين ٠

وخلال عامي ١٩٢٨ و١٩٢٩ نشر القادة الشيوعيون الفلسطينيون مقالات عدة ، حذروا فيها من دسائس الاستعمار البريطاني الرامية الى احداث صدامات بين العرب واليهود في فلسطين ٠ كما نشر الحزب الشيوعي الفلسطيني كراسا ، عشية هبة آب (اغسطس) ١٩٢٩ العربية الفلسطينية ، دعا فيه الجماهير العربية واليهودية الى مقاومة الاحقاد العرقية ومحاولات توسيع نطاق الحرب الاهلية(١٤٠) ٠

وفي منتصف آب (اغسطس) ١٩٢٩ ، وبمناسبة عيد الغفران العبري ، نظم

★ ـ البوجروم : هي المذابح التي نظمت ضد اليهود في روسيا القيصرية ، عقب اغتيال قيصر روسيا ، الكسندر الثاني، في العام ١٨٨١ ٠

المستوطنون اليهود مظاهرة ضخمة طافت بحائط المبكى بالقدس ، مطلقة شعارات واناشيد معادية للعرب ، ورد العرب بمظاهرة مضادة اشد عنفا . ثم تلاحقت ردود فعل الطرفين ، الى ان تطورت الى مصادمات دامية ، غطت ارجاء فلسطين ، وامتدت لاكثر من اسبوعين قتل فيها ١١٦ عربيا و١٣٣ يهوديا ، كما جرح ٢٣٢ عربيا و٣٣٩ يهوديا .

ولم تر قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني في هذه الهبة اكثر من مجرد « مذابح لليهود » ، واعتبرت هذه القيادة سلطات الانتداب مسؤولة عن هذه المذابح ، وارجعت عدم مشاركة العرب في تنظيم مذابح لليهود الى ارتفاع وعي سكان المدن العرب السياسي (١٤١) . ونشرت اللجنة المركزية الحزب الشيوعي الفلسطيني بيانا في الصحف السوفياتية ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٩ ، دعت فيه الجماهير العربية واليهودية الى التصالح والتعايش ، والوقوف في وجه الاستعمار والصهيونية والخونة من العرب (١٤٢) .

وغداة هبة ١٩٢٩ وجه الكومنترن نظر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بضرورة مؤازرة الحركة الوطنية العربية بفلسطين ، وتوسيع نطاق ثورتها ، والعمل على استلام زمام قيادتها ، مع العمل على ضم المزيد من الاعضاء العرب الى اللجنة المركزية للحزب (١٤٣) .

وما ان اطلع الكومنترن على موقف قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني من الهبة حتى سارع باستنكاره ، وشجب بشدة تأثير الافكار الصهيونية الاستعمارية على قيادة الحزب (١٤٤) . ووصف « الرفيق شامي » مسؤول الحزب الشيوعي السوري ، الهبة ، في تقرير الى الكومنترن ، بأنها « حركة زراعية عظيمة ، تعكس الصراع الطبقي الحاد في القرية العربية » . وفسر اتجاه الهبة ضد اليهود دون غيرهم ، لانهم « اقلية تتمتع بامتيازات ، كالارمن في سوريا » . وتكهن بأن « هذه الحركة المعادية لليهود سوف تكتسب ، تدريجيا ، طابعها المعادي للاستعمار ، والاقطاع ، والحكومة » . واشار شامي الى انه قد «يحدث تطرف من بعض الاشخاص ، وقد تنظم بعض المذابح لليهود هنا وهناك ، ولكن هذا لا يؤثر في جوهر الطبيعة التقدمية للحركة العربية » . واعرب شامي عن رأيه في أن « قيادة هذه الحركة يمكن ان تنتقل ، او لعلها انتقلت بالفعل ، الى ايدي الثوريين الوطنيين» .(١٤٥)

وعزز ديمشتاين ـ احد المختصين في شؤون الشرق لدى الكومنترن ـ موقف شامي ، فوصف الهبة بأنها « نضال ثوري وطني » ، كما انتقد استخدام قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني لمصطلح « البوجروم » (١٤٦) .

وفي اعقاب تحليل شامي وديمشتاين ، نشرت مجلة « الثوري الجديد» الموسكوفية ان افيغدور وابوزيان وجوزف بيرغر ، وسائر المختصين بمكافحة الصهيونية في الكومنترن ، قد كشف امرهم كعملاء للاستعمار ، يدعون للصهيونية تحت ستار من الهجمات المفتعلة على الصهيونية(١٤٧) .

وبذا انتهى الكومنترن الى الاخذ بتحليل شامي وديمشتاين لهبة ١٩٢٩ ، اذ رأى فيها « ثورة من الفلاحين ضد الاستعمار البريطاني واعوانه من الصهيونيين » . ونسب انحراف الحزب الشيوعي الفلسطيني ندى تحليله الهبة الى « العناصر الصهيونية » التي تسللت الى قيادة الحزب (١٤٨) . وفي وقت لاحق فسرت وثائق الكومنترن هذا الانحراف باعتماد الحزب « موقفا خاطئا في المسألة القومية الفلسطينية ، اي في مسألة دور الاقلية القومية اليهودية في فلسطين ازاء الجماهير العربية . ونتيجة لذلك ، لم يقم الحزب بنشاط عملي بين الجماهير العربية ، وظل قطاعا انعزاليا يعمل بين العمال اليهود وحدهم . وهذه العزلة انعكست في موقف الحزب اثناء الثورة العربية عام ١٩٢٩ ، حين قطع الحزب عن حركة الجماهير » (١٤٩) .

ومع التطهير الذي اجري في صفوف الحزب غداة هبة ١٩٢٩ ، بدأ الحزب مرحلة جديدة في حياته ، واكبت المرحلة الجديدة في الحركة الوطنية الفلسطينية . ففي الوقت الذي دخلت فيه البرجوازية الوطنية شريكا لكبار الملاك الزراعيين في قيادة الحركة الوطنية ، نجد قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني وقد تخلصت ـ الى حد بعيد ـ من التأثيرات الصهيونية ، وفي

حين صححت قيادة الحركة الوطنية وضع قوى معسكر الاعداء ، فاعتبرت الاستعمار البريطاني « اس البلاء » ، والصهيونية ذيلا له ، بعد ان كانت تعادي اليهود كدين ، وتحتكم للاستعمار البريطاني في خصومتها مع اليهود ، نجد الحزب الشيوعي الفلسطيني وقد انهى تأرجحه الفكري ، واعتمد خطا ثوريا، منذ اوائل الثلاثينيات ، قوامه تشديد الكفاح ضد الاستعمار البريطاني وربيبته الصهيونية وعناصر الثورة المضادة عن الاقطاعيين العرب، وكان خط الحزب الجديد نتاجا لكفاح الطبقة العاملة في سبيل استقلالها الطبقي ، كما كانت الاضرابات الواسعة التي خاضتها الطبقة العاملة منذ الثلاثينيات ، محاولة اخرى لتأكيد وجود الطبقة العاملة المستقل .

وطوال مراحل الكفاح الوطني الفلسطيني، احتفظ الحزب الشيوعي بفهم سليم لقضية الحريات ، اذ لم يفصل بين الحريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنقابية، وفهم الحزب الحرية والديمقراطية مرادفة للاستقلال الوطني .

كشفت هبة ١٩٢٩ عن ازمة الحركة الوطنية الفلسطينية ، ازمة الفكر ، والبرنامج ، واساليب الكفاح ، والقيادة . كما كشفت عن الاخطاء القاتلة التي انزلق اليها الحزب الشيوعي . وعرف الحزب اكبر ازماته ، حين وجد نفسه معزولا عن الجماهير العربية « نتيجة انحراف صهيوني أعاق تعريب الحزب » . على ان تأمين المقدمات الضرورية لتصحيح مسار الحزب تطلب عاما ونصف العام ، خاضت فيها القوى الثورية معارك ضارية ضد القوى الانتهازية في الحزب ، تلك التي عرقلت محاولات تعريب الحزب (١٥٠) .

وكانت اللجنة التنفيذية للكومنترن قد طالبت بأبعاد معرقلي التعريب ، خاصة بعد ان تكشفت لها عدم جدية الخطوات التي تظاهرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني باتخاذها من اجل تعريب الحزب (١٥١) . وبدأ الحزب في اتخاذ اجراءات جذرية من اجل التعريب ، منذ المؤتمر السابع ، في أواخر العام ١٩٣٠ ، بعد نداءين تلقاهما الحزب من اللجنة التنفيذية للكومنترن في هذا الصدد . واصدر المؤتمر العديد من القرارات ، اعتبرت تصحيحا للاخطاء الفكرية والسياسية والتنظيمية السابقة ، واعتمدت اساسا لاعادة تنظيم الحزب ، وتعريبه (١٥٢) .

ونشطت اللجنة المركزية في تطهير الحزب من العناصر المشبوهة بميولها الصهيونية ، وفتحت ابواب الحزب للعرب ، ومنذ العام ١٩٣٣ تولى منصب الامين العام للحزب عربي فلسطيني ، كان تلقى الافكار الماركسية اللينينية في « جامعة كادحي الشرق » بموسكو، وهو رضوان الحلو (١٥٣) .

وصعد الحزب نشاطه في التجمعات الجماهيرية العربية (ورش ، نواد ، واسواق) . وكان على كل مرشح لعضوية الحزب ، يهوديا كان ام عربيا، ان يقر - قبل كل شيء - بان «انتفاضة ١٩٢٩ كانت تعبيرا عن ثورية الجماهير العربية » (١٥٤) .

وانسجاما مع اجراءات التعريب هذه ، اوقف الحزب اصدار الكراسات الحزبية بلغتي اليديش ★ والعبرية ، واكتفى باصدارها باللغة العربية . كما توقفت ، منذ العام ١٩٣١ الجريدة السرية التي كان يصدرها الحزب باليديش ، لتحل محلها مجلة سرية شهرية عربية ، تحمل نفس اسم الجريدة المتوقفة : « الى الامام » . في حين استمرت الجريدة العبرية ، هاأور ★★ ، في الصدور ، منذ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٠ .

وفي انتفاضة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٣ شارك الحزب بدور غير هين ، كفصيل في الحركة الوطنية الفلسطينية ، واعتبر الحزب هذه الانتفاضة « رد فعل طبيعي ويائس للجماهير المستغلة من مضطهديها الصهيونيين، الذين يرغبون في طردها من اراضيها» (١٥٥) . والقي القبض ، في هذه الانتفاضة ، على عدد من الشيوعيين ، في حين نشطت صحافة الحزب

★ - مزيج من اللغتين العبرية والبولندية ، ويتحدث بها قطاع كبير من يهود شرقي اوروبا .

★★ وتعني بالعربية : النور .

السرية في الدعـــوة الى جمع الاموال لاسر ضحايا الانتفاضة ، كما طالبت باطلاق سراح المعتقلين على ذمة تلك الانتفاضة • وخلال هذه الانتفاضة وبعدها ، اتجه الحزب الى التحالف مع الجناح الراديكالي من قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية ، معتبرا التناقض الوطني هـو التناقض الرئيسي ، في حين وضع التناقـض الطبقي في مرتبة التناقض الثانوي •

وفي آب (اغسطس) ١٩٣٥ ، عقد الكومنترن مؤتمره السابع ، وفيه اعلن مندوبو الحـــزب الشيوعي الفلسطيني ، ان الحزب جاد فـي مسألة التعريب ، بالرغم من تمسكه بالمخلصين من اعضائه اليهود ، وجمعه لهم في قسم خاص بهم داخل الحزب (١٥٦) •

وفي الوقت الذي اخذ فيه نفوذ الحزب يتسع وسط الجماهير العربية الفلسطينية ، كانـت اسهمه ، تزداد هبوطا في اوساط المستوطنين اليهود ، بنفس القدر الذي اخذت مقاومتـه للصهيونية تشتد وتتزايد • ففي انتخابـات « الاسيفـــات هنايفخاريـم ★ » ، التـي جرت في العام ١٩٣٠ ، خسر الحزب نصف عدد الاصوات التي سبق وحصل عليها في العـام ١٩٢٥ ، مع ان عدد الناخبين اليهود كان ارتفع من ٣٦٫٦٩٠ الى ٥٠٫٤٣٦ ناخبا في السنتيـن المذكورتين (١٥٧) •

ولا حاجة بنا الى الاشارة ، من جديد ، الى ان « الحاميات العربية » هي مبادرة شيوعية فلسطينية بحتة •

ومع تفاقم خطر الفاشية في العالم ، عقب وصول هتلر الى الحكم في المانيا ، في مطلـع العام ١٩٣٣ ، اعتمد المؤتمر السابع للكومنترن (صيف ١٩٣٥) ، استراتيجية « الجبهـات الشعبية » ، التي تقضي بضرورة اقامـة الشيوعيين تحالفا مع الاشتراكيين الديمقراطيين ومع كل العناصر المعادية للفاشية • وبالرغم من ذلك ، فان الحزب الشيوعي الفلسطيني لم يقم تحالفا مع الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية اليهودية في فلسطين ، مبررا ذلك الموقف بكون « العامل اليهودي في فلسطين ليس من طراز العمال المضللين بالاشتراكية الديمقراطية» (١٥٨) اما صيغة « الجبهات الوطنية » التي اقـر مؤتمـــر الكومنترن السابـــع تنفيذها فـي المستعمرات ، بين الشيوعيين وكافة الفئـات المعادية للامبريالية ، فلقيت استجابة لـدى الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الذي بادر الى عرض التحالف معه على كافة القوى الوطنية العربية الفلسطينية •

وغداة انفجار حركة القسام في اواسط تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ ، شدد الحزب علـى خط دعم الحركة الوطنية ، كما طالب بحـل « الهاغناه » ، المنظمة العسكرية الصهيونيـة المعروفة ، واصدر تعليماته لاعضائه العـرب بضرورة المشاركة «الفعالة ، لتدمير الصهيونية والاستعمار » ، في حين طالب اليهود مـن اعضائه « باضعـــاف المجتمع اليهودي مـن الداخل » (١٥٩) •

على ان قيادة الحركة الوطنية ظلت علـى عدائها للحزب الشيوعي ، وردت على محاولاته هذه بالرفض والتجاهل •

وعندما انفجرت الثورة الكبرى ، في نيسـان (ابريل) ١٩٣٦ ، كان الحزب الشيوعي طرفا فيها ، الى جانب بقية فصائل الحركة الوطنية الفلسطينية ،وشارك فكرا وقتالا ضد الاستعمار والصهيونية • واصـدر في اول ايار (مايو) بيانا ايـــد فيه مطالب الحركة الوطنيـــة الفلسطينية ، في منع فلسطين الاستقلال والحكم الديمقراطي ، ووقف الهجرة اليهودية ، ومنـع انتقال الاراضي الى المستوطنين اليهود ،ووصل الامر بالحزب الى حد دعوة اعضائه اليهـود الى الانخراط في الحركة الوطنيـــة العربية • وباختصار كان موقف الحزب هو « التأييد التام للثوار » ، ورأى الشيوعيون في الثورة « حربا من اجل التحرر » (١٦٠) • امـا الكومنترن ، فدعا ـ من جانبه ـ الى تأييد هـذه الثورة ، واتهم المستوطنين اليهود بتخريب الصناعات العربية ، كما ادان المهاجرين اليهود بالهتلرية، وطالب بوقف الهجرة اليهودية الى فلسطين ،

★ مؤسسة على غرار البرلمانات، وترجمتها العربية : « مجلس المندوبـــين » • وتعتبر نـواة الكنيست الاسرائيلـي الحالي •

وبضرورة احتفاظ فلسطين بطابعها العربي (١٦١) ٠

ومع ميل القسم الاكبر من قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية الى المحور ، رأي الحزب الشيوعي الفلسطيني - بحق - ان « السياسة البريطانية هي التي ترميهم بين اذرع هتلر وموسوليني» ، وان الحركة الوطنية الفلسطينية تنقسم الى فئتين : الفئة الاكبر للمقاتلين العرب من اجل التحرر الوطني ، والفئة الاصغر المتحالفة مع النازيين (١٦٢) ٠

وفي اواخر العام ١٩٣٩ ، وبعد ان خفضت الثورة راياتها ، عزا الحزب الشيوعي الفلسطيني فشل هذه الثورة الى : ١ - غياب القيادة الثورية ، ٢ - فردية قادة الثورة وانتهازيتهم ، ٣ - افتقار قوات الثورة الى القيادة المركزية ، ٤ - ضعف الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ٥ - وعدم ملاءمة الوضع العالمي٠

وبانتهاء الثورة دخلت الحركة الوطنية الفلسطينية - ومعها الحزب الشيوعي الفلسطيني - مرحلة جديدة من حياتها ٠ اذ عززت انتكاسة الثورة قوى الثورة المضادة في فلسطين ، ووفرت المناخ الملائم لانتشار الافكار الانهزامية ، والداعية لمهادنة الاستعمار ٠ وتعمق هذا الاتجاه الاستسلامي بعد ان نشبت الحرب العالمية الثانية وانقطع الاستيراد ، واضطر الاستعمار البريطاني الى السماح للصناعة المحلية بالنمو ، بما يتيح مد قواته المرابطة في فلسطين باحتياجاتها ، مما دفع بالدماء في عروق البرجوازية العربية الفلسطينية من جهة ، كما استحدث روابط لم تكن من قبل بين البرجوازية المحلية الفلسطينية وبين الاستعمار البريطاني من جهة اخرى ٠ اما داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني فقد اعرب قسم كبير من الاعضاء اليهود في الحزب عن ضجرهم من مشاركة الحزب في ثورة ١٩٣٦ الى جانب بقية فصائل الحركة الوطنية الفلسطينية واستفز موقف الاعضاء اليهود هذا الاعضاء العرب في الحزب ، وظل الموقف بين اخذ ورد ، مما شل الحزب عن العمل ٠ حتى كانت المفاجأة حين كون الشيوعيون العرب الفلسطينيون تنظيمهم المستقل : « عصبة التحرر الوطني »، في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ٠ وغني عن القول بان الخلافات التي افضت الى هذا الانشقاق كانت ذات طابع قومي متكامل الملامح ٠

وفي الوقت الذي جاء فيه قادة « اتحاد جمعيات ونقابات العمال العرب » من « رابطة المثقفين العرب » اليسارية ، فان هذا الاتحاد غدا نقطة التفاف الشيوعيين العرب بعد تفكك الحزب ، اواخر الثلاثينات واوائل الاربعينات (١٦٣) ٠

والحت عصبة التحرر الوطني ، منذ قيامها وحتى وقوع نكبة ١٩٤٨ ، على الوحدة الوطنية، وتصعيد الكفاح ضد الاستعمار البريطاني واجيرته الصهيونية ، ومن اجل انتزاع الاستقلال التام ٠

وحين تقرر ارسال لجنة التحقيق الانغلو - امريكية الى فلسطين ،لبحث امكانية استيعاب البلاد لمزيد من المهاجرين اليهود ، اجتمع المكتب السياسي للعصبة ، واصدر ، في الحادي عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ بيانا ، اعلن فيه ان في « اثارة موضوع الهجرة مؤامرة لابعاد الشعب العربي عن نضاله الحقيقي في سبيل الغاء الانتداب واستقلال فلسطين » ٠ ورفض البيان تحمل الجامعة العربية مسؤوليات القضية الفلسطينية ،واصر على ان « تكون قيادة النضال الوطني في فلسطين بأيدي الشعب العربي المجاهد ، وان تكون الجامعة العربية مؤيدا ومؤازرا » ٠ ورأى بيان العصبة ان لجنة التحقيق مجرد « هيئة استعمارية ، تريد ان تفرض سياسة (جديدة)، بعد ان نقضت جميع السياسات » (١٦٤) ٠

واتى عدم ثقة العصبة بالجامعة العربية من وعي العصبة بمواطن الضعف في هذه الجامعة، وبالتأثيرات الرجعية على بعض قادتها ، فهذه الجامعة كانت « تقوم على دول ما زالت تناضل ضد الاستعمار البريطاني ، وما تزال عناصرها المهادنة لهذا الاستعمار قوية نافذة، تؤثر على سياسة الحكومات الوطنية » ٠ وهذه الجامعة - في رأي العصبة - « لينة ، مهادنة، مترددة ، قلقة ٠٠٠ وان نضال الشعوب العربية وحده هو الكفيل بتحقيق اهداف الشعوب العربية ، وهو الذي سيجعل من الجامعة العربية

منظمـــة للنضال ضد الاستعمار واعوانـــه الرجعيين » (١٦٥) ٠

وعشيـة وصـول لجنـة التحقيـق الانغلو ـ امريكية الى فلسطين ، اصدر مكتب الرئاسة بعصبة التحرر الوطني ، بيانا ، في اوائـل آذار (مارس) ١٩٤٦ ، طالب فيه بمقاطعة هذه اللجنة ، بعد ان تنبأ بأنها « سوف تتقـدم بحلول استعمارية مجحفة » ٠ وناشد البيـان اللجنة العربية العليا بأنهاء ترددها وحسمـه لمصلحة مقاطعةهذه اللجنة الاستعمارية(١٦٦) ٠ وفي وقت لاحق ، نددت العصبة بتوصيـات اللجنة الانغلو ـ امريكية ، التي نصت علـى فتح ابواب فلسطين لمائة الف مهاجر يهـودي جديد ٠

وعند وصول لجنة التحقيق التي اوفدتهـا الامم المتحدة الى فلسطين ، في حزيران (يونيو) ١٩٤٧ ، عدلت العصبة عن مقابلتها ، واكتفت بتقديم مذكرة لها ، ضمنتها موقفها من كافة جوانب القضية الفلسطينيـة ٠ وجاء موقفهـا المفاجىء بمقاطعة اللجنة انسجاما مع بقيـة فصائل الحركة الوطنية ، التي احلت لنفسها المثول بين يدي اللجنة الاستعمارية الانغلو ـ امريكية ، في حين شاء لها مزاجها مقاطعة هذه اللجنة الدولية !

وعندما اوصت اغلبية اللجنة الدولية بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، استنكرت عصبة التحرر هذه التوصية ٠ وظلت العصبة عـلى معارضتها لتقسيم فلسطين ، حتى بعد صدور قرار الامم المتحدة بذلك ، في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، واستمرت معارضتها حتى شباط (فبراير) ١٩٤٨ ، حين اتخذ مؤتمـر العصبة قراره بالموافقة علـى قرار التقسيم ٠ وتعرضت العصبة ، بسبب هذه الموافقة ، الى حملة تحريضية ضخمة ، شنتها ضدها الهيئة العربية العليا ، وصلت حد احراق بعض مكاتب العصبة والاعتـداء على بعـض اعضائها ٠ وساهمت سلطات الانتداب في الحملة ، فسحبت رخصة صحيفة « الاتحاد » ، في اول شبـاط (فبراير) ١٩٤٨ ، بدعوى « الاخلال بشروط المراقبة الصحفية » (١٦٧) ٠

على ان المؤامرة فرضت نفسها ، فقامـت اسرائيل على مساحة من الارض اكبر من تلك التي منحها اياها قرار التقسيمالجائر ،واقتسم النظامان الاردني والمصري ما تبقى من ارض فلسطين ٠٠٠ وكانت مرحلة جديدة !

الحزب والطبقة العاملة

تميزت مواقف الشيوعيين الفلسطينيين ـ عن غيرهم من الاحزاب ـ حيال الطبقة العاملـة بالصدق والجدية ٠ فمنـذ نشأته ، والحـزب الشيوعي مثابر على احتضانه لمطالب الطبقة العاملة ، والتصدي لتحقيق اهدافها ٠ واذا كانت بقية الاحزاب قد اشارت الى الحركـة العمالية في برامجها مجرد اشارة ، او احتلت مشاكل هذه الطبقة سطرا او سطرين من هذا البرنامج او ذاك ، فان الحزب الشيوعي اولى اهتماما خاصا لمشاكل الطبقة العاملة ، كـان يتسع ويتعمق مـــع تقدم الحزب ، فكريـــا ونضاليا ٠

وفي العام ١٩٣٠ حدد المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني مهام الحزب في الريف ، ورأى « ان عددا كبيرا من انصاف البروليتاريين (العمـــال الموسميين) والعمـال الزراعيين يشكلون ، في البلاد العربية ، الرابطة الحيوية بين الفلاحين والطبقة العاملة الفتية في المدن» ٠ ومن هنا خرج المؤتمر مشددا على ضرورة توجيه الحزب « كل جهوده نحو نضال نشيط من اجل انصاف البروليتاريينوالعمال الزراعيين» (١٦٨) ٠

وفي الوثيقة نفسها ، يرى الحزب « ان اهم واجب ، هـــو انشاء نقابـات عمال البناء ، المستخدمين في المشاريع العامة ، ونقابـات العمال الزراعيين ٠ كذلك يجب طرح مطالـب خاصة بتحسين احوال العمال المزارعين ، كرفع الاجور وغير ذلك ، على ان ترافق هذه المطالب، في الظروف النوعية التي تسود فلسطين ، حملة قوية ومتواصلة ضد طرد العمال العرب مـن قبل الصهيونيين ، وانشاء جبهة متحدة للعمال العرب واليهود من اجل النضال ضد الاغتصاب الصهيوني والاستثمار ، الذي يمارسه المعمرون والزراع والمشاريع الزراعية » ٠ وحددت الوثيقة مطالـب العمال الزراعيين بزيـادة الاجور ، ومساواة دخل العمال العرب واليهود ، والغاء

اشكال الاستثمار الاقطاعية ، وحماية عمل النساء والاولاد ، الخ » (١٦٩) ٠

وفي العام ١٩٣١ ، اجتمعت قيادتا الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني ٠ وانتهى اجتماعهما هذا الى اصدار جملة مقررات تضمنها كراس ، حمل عنوان : « واجبات الشيوعيين في الحركة القومية العربية الشاملة»٠ ورأى الحزبان انه في بعض الاقطار العربية ، حيث تم تدمير التنظيمات النقابية للطبقة العاملة ، فان هذه التنظيمات يعاد بناؤها ، بالرغم من سقوط اغلبها في ايدي الاصلاحيين٠ على ان الاضرابات العمالية ، والمظاهرات ، واشتراك العمال النشط في الكفاح ضد الامبريالية ، وانسحاب اعداد من الطبقة العاملة من صفوف الاصلاحيين ، كلها تشير الى ان الطبقة العاملة العربية الفتية قد بدأت النضال في سبيل احتلال دورها التاريخي في الثورة المناهضة للامبريالية والاقطاعية ، في الكفاح من اجل الوحدة القومية ٠ واشار الحزبان ، في وثيقتهما ، الى « ان الازمة العالمية الصناعية والزراعية ، بطريق او بآخر، قد غطت جميع البلاد العربية ، ضاربة بقوة خاصة العمال والجماهير الفلاحية ٠ وانخفاض الاجور والبطالة يزيدان سوءا على سوء مستوى معيشة البروليتاريا ، الامر الذي يدفعها في طريق الكفاح الطبقي الثوري » ٠ ولم يغب عن وثيقة الحزبين كون « الفلاحين الفقراء والمتوسطين الذين اصابهم الخراب ، والعمال الذين هم في عوز دائم وتحت خطر التسريح ، وابناء الطبقة الفقيرة في المدن ، وجمهور البرجوازية الصغيرة الذي هو اليوم اكبر عددا مما كان في الماضي ، يشعرون بنير الامبريالية، ويشرعون في النهوض للكفاح باسم التحرر القومي ٠ وتجهد الامبريالية كي تلقي على كاهلهم كل عواقب الازمة وكي تسوي اوضاعها على حسابهم » ٠ ولاحظت الوثيقة الشيوعية « ان الموجة الجديدة لغضب الفلاحين ضد مزاعم الملاكين والمرابين وعملاء الامبريالية ، التي لا تحتمل ، تنزع الى الاتحاد مع العمال في كفاحهم من اجل خبزهم اليومي ، وضد النير الامبريالي » ٠ وحدد الحزبان المهام الملحة والمباشرة للاحزاب الشيوعية العربية في « ثورة فلاحية زراعية ، وتنظيم عملها بما يتفق مع اهداف مناهضة الامبريالية ومناهضة الاقطاعية ٠ فالاطاحة بالنير الامبريالي ، ومصادرة كل الامتيازات والمشاريع والمنشآت والمزارع وسائر الممتلكات العائدة للامبرياليين ، والاستقلال السياسي القومي الكامل ٠٠٠ ومصادرة اراضي جميع الملاكين الاقطاعيين والغاصبين المستعمرين الذين يعيشون على دخل لا يستحقونه، ويوم العمل بثماني ساعات، والضمان الاجتماعي للعمال على حساب الرأسماليين ، وحرية التنظيم للكادحين ،وحكومة عمال وفلاحين ، ونضال من اجل تحرير الشعوب العربية ، ووحدة هذه الشعوب الطوعية الحرة»٠ وتضع وثيقة الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني مطالب العمال والفلاحين في المقدمة ، وتحددها في : « تخفيض يوم العمل الى ثماني ساعات ، رفع الاجور ، التأمين على البطالة من حساب الرأسماليين، حرية تنظيمات العمال والفلاحين ، الغاء ديون الفلاحين الفقراء والمتوسطين للمرابين وملاكي الارض والمصارف، ايقاف الدفع على الاراضي المستأجرة ، جلاء قوات الامبرياليين كافة ، واستفتاء شعبي حر على مسألة تقرير المصير السياسي (في مصر على النظام الملكي ، وعلى المعاهدة الانكليزية ـ المصرية ، وفي سوريا وفلسطين على انتداب عصبة الامم) » (١٧٠) ٠

وكانت مشاكل الطبقة العاملة ومطالبها مدرجة باستمرار على جدول اعمال الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠ وتعبيرا عن التحالف الوثيق بين العمال والفلاحين الفقراء ، كان الحزب يتبنى مطالب الفلاحين الفقراء ، ويمزج بين مطالب هاتين الطبقتين وبين شعارات الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية ٠

وهذا كاتب شيوعي فلسطيني يقدم لكتابه عن التنظيم النقابي ـ في اواسط الثلاثينات ـ بوصف لحال العامل العربي الفلسطيني ،فيقول انه يرزح « تحت ظلم واستبداد مضاعفين ، اولا لانه عامل ٠٠٠ وثانيا لانه عامل عربي من امةكبيرة مستعبدة فاقدة استقلالها القومي» ٠ ومن هذا الوضع يرى الكاتب ان ثمة واجب على الطبقة العاملة العربية قوامه « تحرير العمال من الظلم والاستبداد المضاعف ، اي

تحريرهم من الاستبداد الواقع عليهم كعمال مأجورين ومستغلين ، وتحريرهم من استعبادهم القومي كأبناء امة مظلومة مستعمرة » • ويربط الكاتب نفسه بين التحرر القومي والتحرر الطبقي ، فيؤكد انه « لا يمكن تحرير الطبقة العاملة في الاقطار العربية تحريرا طبقيا دون ان تتحرر تحريرا قوميا • وكذلك لا يمكن تحرير امة مظلومة ، دون ان تحرر طبقة العمال والفلاحين فيها من الرأسماليين واصحاب الاراضي والاقطاعيين والمرابين » • ويرى الكاتب في مقدمته ان تأسيس « نقابات عمال مهنية طبقية ، في الاقطار العربية بوجه عام ، وفي فلسطين بوجه خاص ، هو الواجب الذي يقع علينا الآن ، لان ذلك هو الخطوة الاولى في سبيل الغاية المنشودة الصعبة ، وهي ان تكون طبقة العمال العرب في طليعة الحركة التحريرية القومية ، حركة تحرير العمال والفلاحين في البلاد العربية » (١٧١) •

ولم يكتف الحزب الشيوعي بمجرد تبني مطالب الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ، بل كان له رأيه الصريح في الدور الذي تلعبه الهستدروت ، اذ « ان الصهاينة ، من اجل تعزيز قضيتهم الاستعمارية وارغام المهاجرين اليهود على ان يلعبوا دور الغاصبين ،لا يمكنهم ان يقصروا عملهم على التحريض والخداع ، بل لا بد لهم ان يقدموا للعمال اليهود بعض المكاسب الاقتصادية • ولهذا الغرض ، فأن البرجوازية الصهيونية ، جنبا الى جنب مع حزب بوعال زيون ، قد نظمت الهستدروت ، تنظيم العمال اليهود ، الذي اوكلت اليه مهمة تأمين وضع ممتاز للعمال اليهود في سوق العمل ، مقابل ادخالهم في جبهة (على النطاق القومي) » (١٧٢) •

واستمرت « عصبة التحرر الوطني» في القيام بدورها حيال الطبقة العاملة العربية الفلسطينية ، مخلصة لكونها المعبر عن هذه الطبقة ، تنفذ المهام الكفاحية الملقاة على عاتقها ، باعتبارها فصيل هذه الطبقة الصدامي • فمنذ صدور عددها الاول (١٤ / ٥ / ١٩٤٤) و « الاتحاد » ـ صحيفة العصبة ـ تناضل بدأب من اجل الحريات السياسية والنقابية ، معتبرة نفسها بحق « لسان حال العمال العرب في فلسطين » على ما جاء في الجملة الثابتة المصكوكة تحت اسم الصحيفة في صدر صفحتها الاولى • وعنونت « الاتحاد» احدى افتتاحياتها المبكرة بـ « نريد دمقراطية في الادارة » (١٧٣) ، واعقبتها بأخرى حملت عنوان « الدمقراطية في التطبيق » ، طالبت فيها بحرية العمل السياسي والنقابي ،وفضحت الطابع الرجعي للانتداب البريطاني في فلسطين (١٧٤) • ولم يمنعها من صنع كل ذلك كون بريطانيا تشارك بقية دول الحلفاء حربا تقدمية ضد دول المحور الفاشية الشديدة الرجعية • وبالاضافة الى نضالها الوطني الديمقراطي ، وفي التحام معه ، احتضنت « الاتحاد » مطالب العمال والفلاحين العرب الفلسطينيين ، وحظيت اخبار هاتين الطبقتين ومشاكلهما بنصيب الاسد من صفحات « الاتحاد » • وجاء تبني الصحيفة الشيوعية لمشاكل العمال العرب العاطلين ، ومطالبتها برفع اجور العاملين ، وحثها العمال على استخدام سلاح الاضراب ضد اعدائهم الطبقيين (١٧٥) ، مصداقا لزعمها التعبير عن العمال العرب في فلسطين • ويمكن ادراك الاهمية البالغة لهذه المواقف ، اذا ما علمنا ان الاتحاد اتخذتها بالرغم من قوانين الطوارىء التي كبل بها الانتداب فلسطين منذ ثورة ١٩٣٦ وطوال ايام الحرب العالمية الثانية ، وهي القوانين التي تصادر الحريات وتحرم الاضراب، ويتعرض الداعون الى الاضراب الى المساءلة والاعتقال •

اما في اوساط العمال اليهود ، فقد واصل « الحزب الشيوعي الفلسطيني » ـ الذي اصبح وقفا على اعضائه اليهود دون العرب منذ انشقاق ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ ـ واصل دوره التحريضي ضد اصحاب العمل والحركة الصهيونية والانتداب •

وحتى بعد ان اعادت الهستدروت العمال الشيوعيين اليهود الى عضويتها في العام ١٩٤٣ ، حض الياهو جوجانسكي ، سكرتير الحزب الشيوعي الفلسطيني عند ذاك ، العمال الشيوعيين اليهود على ضرورة « الاستيلاء على السلطة في الهستدروت ، لانها منظمة الطبقة » • واوضح في اجتماع للعمال في

« قاعة الشعب » بتل ابيب ، ضرورة التمسك بعضوية الهستدروت ، على الرغم من تحمل العضو في الهستدروت رسوم عضوية فيها اكثر مما كان يدفعه العضو لعيادة مرضى خاصة ٠ ويزيد جوجانسكي الامر وضوحا فيخاطب العامل الشيوعي « الا ان هذا هو واجبك الطبقي ، كي تصبح منظما في منظمة طبقية ، حتى وان كانت لا تزال تحت قيادة ليست لنا » (١٧٢) ٠

وعندما اغتيل سامي طه ، لم تمنع خصومة الشيوعيين له من ادانة اغتياله ، والتنديد بمدبري اغتياله ، بكل قوة٠ فأشارت «الاتحاد» ـ صحيفة عصبة التحرر الوطني ـ الى ان الاعتداء على حياة سامي طه قد قوبل « بالاستنكار من جميع الاوساط ، بغض النظر عن اختلاف وجهات نظرها السياسية ، فهذا الحادث ، عدا عن انه غريب عن تقاليد الحركة النقابية واهدافها ، فأنه ، في الوقت نفسه ، بادرة سيئة جدا ، وخيمة العاقبة على الحركة الوطنية التي ما زالت تئن من آثار الارهاب الذي علق بها في الماضي » ٠ واستنكرت الصحيفة الحادث ، والحت على الحكومة لكشف النقاب « عن بواعث هذه الجريمة البشعة » ٠ واهابت « بالقوى الوطنية والعمالية في البلاد الوقوف في وجه هذا الاتحاد الارهابي ، الذي بدأ يذر قرنه ، وهو ان استفحل داؤه اصاب البلاد بكارثة لا تقل تدميرا وتخريبا عن غيرها من الكوارث التي بلا المستعمر بها بلادنا » ٠ وقدمت الصحيفة تعازيها لجمعية العمال العربية ولاسرة الفقيد (١٧٣) ٠ ووصفت الصحيفة ـ في كلمتها ـ الارهاب بأنه « وسيلة خبيثة ، يدسها المستعمر على الحركات الوطنية ، فتتبناه العناصر المنحلة التي تشعر بتدهور مركزها وحرج موقفها ، وهي عناصر غير مخلصة وغير شريفة ، وهي لا تفهم مطلقا معنى النضال ضد الاستعمار ، ولا تثق بقوى الشعب الصاعدة » ٠ ونوهت الصحيفة بانها ، بالرغم من مآخذها على المرحوم سامي طه « في الناحيتين النقابية والسياسية ، ولكنها وجميع القوى التي تؤيدها لم تكن لتفكر ، في يوم من الايام ، ان الاعتداء الشخصي والارهاب الفردي الدنيء هو من الوسائل لمقارعة الخصوم السياسيين او اخصام المبادىء ، بل كانت وما تزال ، تعتقد ان الوسيلة الوطنية الصحيحة هي في فسح المجال للجميع ، ليعبر عن رأيه ويدافع عن فكرته ، وللشعب الحق ، كل الحق، ان يحكم بصحة رأي هذا وفساد رأي ذاك ، وان يتبع هذا ويعرض عن ذاك » ٠ وانتهت الصحيفة الى « ان الطريق الرئيسي لمقاومة هذا الاتجاه الارهابي وعزل اصحابه والمحرضين عليه هو تشديد النضال ضد الاستعمار ، وتوجيه الشعب توجيها صحيحا ، مما يساعد على حشد جميع القوى الشعبية ، وجعل الحركة الوطنية حركة شعبية جبارة تحقق اهداف البلاد في الجلاء والاستقلال والحرية » (١٧٤) ٠ وعقدت عصبة التحرر الوطني مؤتمرا شعبيا في القدس للتنديد باغتيال سامي طه وادانة الارهاب الفردي ، كما اصدرت كراسا لهذا الغرض ٠ ثم توالت الاحداث ، على النحو المعروف ، والذي انتهى بالنكبة ، وبها طويت صفحات سفر كامل من حياة الشعب الفلسطيني ، لتبدأ صفحات سفر آخر مليء بالدم والعرق والدموع ٠

الهوامش

١ ـ النقابة العامة لعمال السكك الحديدية والبرق والبريد في فلسطين : المؤتمر السابع ، تل ابيب ، ٢٩ ايار ١٩٣١ ، بيان مختصر عن اعمال المؤتمر ، حيفا ، مطبعة الجميل ، ١٩٣١ ، ص ٤٠ ٠

٢ ـ مجلة « الاممية الحمراء » ، مكتب الاممية الحمراء ، موسكو ، الطبعة الالمانية ، العدد العاشر ، ايلول (سبتمبر) ١٩٢٦ ، ص ٦٧٠ ٠ اوردها عبدالله حنا ، الحركة العمالية في سورية ولبنان ، دمشق ، دار دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٦٣ ٠

٣ ـ جمعية العمال العربية الفلسطينية بحيفا. مبادؤنا الاشتراكية ، الطبعة الثانية ، اصدار الامانة العامة للاتحاد العام لعمال فلسطين ، دمشق ، ١٩٧٥ ، ص ٢٢ ٠

٤ ـ المعظم (القاهرة) ، ١٩٤٧/٣/٢٩ ٠

٥ ـ المصدر نفسه ٠

٦ ـ المصدر نفسه ٠

٧ ـ المصدر نفسه ٠

٨ ـ جمعية العمال العربية الفلسطينية : **تقرير المؤتمر المنعقد في قاعة الجمعية بحيفا عام ١٩٤٦** ، الطبعة الثانية ، اصدار الامانة العامة للاتحاد العام لعمال فلسطين ، دمشق ، ١٩٧٥، ص ٦٣ + **مذكرات حسني صالح الخفش، حول تاريخ الحركة العمالية العربية الفلسطينية** ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ايار (مايو) ١٩٧٣ ، ص ٣٤ ٠

٩ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٤٢ـ٤٥ ٠

١٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٢ ٠

١١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ٠

١٢ ـ **مبادؤنا الاشتراكية** ٠٠٠ ص ١٩ـ٢٠ ٠

١٣ ـ **مؤتمر العمال العرب الاول** ، حيفا ، ١١ كانون الثاني ١٩٣٠ ، حيفا ، المطبعة الاهلية التجارية ، ١٩٣٢ ، ص ٣ـ٤ ٠

١٤ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ١٥٩ـ١٦٠ ٠

١٥ ـ **مبادؤنا الاشتراكية** ٠٠٠ ص ١٢ـ١٤ ٠

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥ ٠

١٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥ـ١٧ ٠

١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٣ـ٢٤ ٠

١٩ ـ مكتب العلاقات باتحاد العمال العرب : **تاريخ العمال العرب في فلسطين** ، القاهرة ، د٠ت٠ ، ص ٣٣ ٠

٢٠ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٦٨ـ٦٩ ٠

٢١ ـ المصدر نفسه ٠٠٠ ص ٦٩ـ٧٠ ٠

٢٢ ـ نصري الحلو : **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٦ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ ، ص ١٧٣ ٠

٢٣ ـ **مبادؤنا الاشتراكية** ٠٠٠ ص ١٥ ٠

٢٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٢١ ٠

٢٥ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٧٣ ٠

٢٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٥٨ـ٥٩ ٠

٢٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٤ ٠

٢٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٤ ٠

٢٩ ـ الشقيري ، جميل (جامع) : **مجموعة الشهادات والمذكرات المتقدمة الى لجنة التحقيق الانكلو ـ امريكية المشتركة حول قضية فلسطين** ، يافا ، مطبعة النجاح ، حزيران (يونيو) ١٩٤٧ (انظر: شهادة سامي طه ص ١٢٧ ـ ١٢٨) ٠

٣٠ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ٧١ ٠

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢ ٠

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ٠

٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٥ ٠

٣٤ ـ الشقيري ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٧ ـ١٢٨ ٠

٣٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ٠

٣٦ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ٠

٣٧ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٩ ٠

٣٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ٠

٣٩ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ١٥٥ـ١٥٦٠

٤٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٦ ٠

٤١ ـ **مبادؤنا الاشتراكية** ٠٠٠ ص ١٧ ٠

٤٢ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ٠

٤٣ ـ **صوت الامة** (القاهرة) ، العدد ٣١٣ ، السنة الاولى ، ١٩٤٧/٧/٢٧ ٠

٤٤ ـ **مذكرات حسني صالح الخفش** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤١ ٠

٤٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٩ ٠

٤٦ ـ حديث حسني صالح الخفش ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٦ ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ ، ص ٧٤ ٠

٤٧ ـ الغوري ، اميل : المؤامرة الكبرى ، اغتيال فلسطين ومحق العرب ، القاهرة ، ١٩٥٥، ص ١٣٤ ٠

٤٨ ـ مبادؤنا الاشتراكية ٠٠٠ ص ٢١ـ٢٢ ٠

٤٩ ـ كوهين ، أهرون: اسرائيل والعالم العربي، ترجم عن العبرية بمعرفة المخابرات العامة ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص ٦٤٠ ٠

٥٠ ـ مذكرات حسني صالح الخفش ٠٠٠ ص ٤٤ـ٤٥ ٠ يذكر الخفش ان انضمام سامي طه الى الهيئة العربية العليا تم في العام ١٩٤٧ ، والصحيح ان هذا الانضمام تم في آذار (مارس) ١٩٤٦ ، وكان اسمها آنذاك « اللجنة العربيةالعليا» ، وبهذه الصفة تقدم سامي طه للادلاء بشهادته امام اللجنة الانغلو ـ امريكية في اذار (مارس) ١٩٤٦ ٠

٥١ ـ مذكرات حسني صالح الخفش ٠٠٠ ص ٤٥ـ٤٦ ٠

٥٢ ـ صوت الامة ، ١٩٤٧/٦/١٥ ٠

٥٣ ـ صوت الامة ، ١٩٤٧/٩/١٦ ٠

٥٤ ـ الاهرام ١٩٢٣/١١/١٣ ٠ وقد قرر المؤتمر استبقاء فلسطين لاهلها العرب ، ورفض وعد بلفور ، والمطالبة بوقف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، واستنكار الوطن القومي اليهودي ، والمطالبة بحكومة دستورية ، وسن دستور تضعه جمعية وطنية ، وانعاش العامل والفلاح ، علما واقتصادا وسياسة وادارة ، والنظر في الضرائب ، وتحوير القوانين بما يلائم مصلحة الامة ٠وانتخب سليمان التاجي الفاروقي ـ قطب الثورة المضادة ـ رئيسا للحزب ، وعبدالله مخلص سكرتيرا لهذا الحزب ٠

٥٥ ـ الجزيرة العدد ٤٩ ، ١٩٢٤/٧/٢٤ ، اوردها غنيم ، عادل : الحركة الوطنية الفلسطينية ، رسالة ماجستير (مخطوط)، اجازتها كلية الاداب بجامعة القاهرة (قسم التاريخ) ١٩٧٠ ، ص ٢٦٣ ٠

٥٦ ـ الاتحاد العربي العدد ٤ ، ١٩٢٥/٥/١٦ ، اوردها غنيم ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ ٠

٥٧ ـ الشورى (القاهرة) ١٩٢٤/٣/١٨ ٠

٥٨ ـ الف باء (دمشق) ١٩٢٦/١/٢٨ ٠

٥٩ ـ الشورى ١٩٢٧/٥/١٩ + الرابطة الشرقية (القاهرة) ٣ـ١٩٣١/١/٥ ٠

٦٠ ـ مؤتمر العمال العرب الاول ٠٠٠ ص ٣٧ ٠

٦١ ـ فلسطين (يافا) ١٩٢٨/٢/٧ ، اوردها غنيم ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦١ ٠

٦٢ ـ المقطم ، ١٩٣٠/٣/٢٩ ٠
قادة الحزب هم : من عكا : اسعد الشقيري (مؤسس الحزب) ، توفيق عبدالله ، حبيب حوا ، قاسم الشقيري ، احمد الشقيري ، سليم قبلاوي ، عبدالله مخلص ٠ ومن الناصرة : توفيق الفاهوم، شكري قطينه ٠ ومن جنين : عفيف عبد الهادي : ومن يافا : علي المستقيم ٠ ومن حيفا : محمود الماضي ، حنا عصفور (احد مؤسسي الحزب) والطريف انه ذهب يمثل عمال فلسطين في مؤتمر النقابات العالمي في لندن وباريس ، خلال العام ١٩٤٥ ٠ واستقطب هذا الحزب بعض رموز الثورة المضادة في فلسطين ، كما يتضح من اسماء قادته ٠ لمراجعة اسماء قادة الحزب ، راجع : الشورى ١٩٣١/٥/١٣ ٠

٦٣ ـ الشورى ، ١٩٣١/٥/١٧ ٠

٦٤ ـ المقطم ، ١٩٣٠/٧/٢٩ ٠

٦٥ ـ المقطم ، ١٩٣٠/٤/٣ ٠٠

٦٦ ـ نقولا ، جبرا : التنظيم المهني ، يافا ، مطبعة النور ، ١٩٣٥ ، ص ٣٤ـ٣٥ ٠

٦٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٠ـ٤١ ٠

٦٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٢ـ٢٤ ٠

٦٩ ـ السفري ، عيسى : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، يافا ، ١٩٣٧ ، الكتاب الاول ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠ ٠

٧٠ ـ العمل والعمال ، **مجلة الاقتصاديات العربية** (القدس) ، العدد السابع ، ١/٤/ ١٩٣٥ ٠

٧١ ـ النقابة العربية لعمال سكك حديد فلسطين : **بيان عام من النقابة** ٠٠٠ وضع على اثر القرار المتخذ بحل اللجنة المشتركة لتوضيح اسباب تأليفها ونية الفئة اليهودية الفسادية ، حيفا ، دار الطباعة والنشر الفلسطينية ، ١٩٣٦ ، ص ٤ ٠

٧٢ ـ لمزيد من التفاصيل عن هذه الانتفاضة، راجع كتابنا : **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨** ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٥ ص ١٤٠ ـ ١٤٨ ٠

٧٣ ـ واجبات الشيوعيين في الحركة القومية العربية ، قرار متخذ من مجلس الحزبين الشيوعيين الفلسطيني والسوري في سنة ١٩٣١ (انظر : مرقص ، الياس : **الاممية الشيوعية والثورة العربية** ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص (٧)

٧٤ ـ اورده د٠ الكيالي ، عبد الوهاب : **تاريخ فلسطين الحديث** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، تشرين الثاني (نوفمبر) ص ٢٨٧ ٠

٧٥ ـ سامي طه في شهادته امام اللجنة الانغلو ـ امريكية (انظر : الشقيري (جامع) ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٠)٠

٧٦ ـ كالكاس ، برباره : ثورة عام ١٩٣٦ ، عرض زمني للاحداث (انظر : ابو لغد ، ابراهيم (محرر) ، **تهويد فلسطين** ، ترجمة الدكتور اسعد رزوق ، بيروت ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، شباط (فبراير) ١٩٧٢ ، ص ٢٦٣ ، ٢٧٧ ٠

٧٧ ـ السفري ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، ص ١٨ ٠

٧٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ تقرير اللجنة الملكية لفلسطين ، القدس ، ١٩٣٧ ، ص ١٢٨ ٠

٧٩ ـ كالكاس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦٤ + السفري ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، ص ١٨ـ١٩ ٠

٨٠ ـ السفري ، مصدر سبق ذكره ، الكتاب الثاني ، ص ١٩ ٠

٨١ ـ حديث ابراهيم عليان ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٦ ، كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢ ، ص ١٨٠ ٠

٨٢ ـ المصدر نفسه + خريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٧ـ٤٨ ٠

٨٣ ـ

Vol. II, p. 763.

٨٤ ـ

Porath, Yehoshua; Usbat Al-Ta harrur Al-Watani (The national Liberation League) 1943-1948, Asian and African Studies, Annual of the israel oriental society, Vol. 41968, pp. 1-22.

٨٥ ـ **الاتحاد** (حيفا) ١٩٤٦/٤/٢١ ٠

٨٦ ـ **الدفاع** ، ١٩٤٦/٦/١٢ (انظر : بيان اللجنة المركزية لمؤتمر العمال العرب في فلسطين ٠ (في الملحق) ٠

٨٧ ـ **تقرير المؤتمر المنعقد** ٠٠٠ ص ١٨٦ ٠

٨٨ ـ **صوت الامة** ، ١٩٤٧/٩/١٤ ٠

٨٩ ـ **الفجر الجديد** (القاهرة) ١٩٤٦/١/٣٠ ٠

٩٠ ـ **الفجر الجديد** ، ١٩٤٦/٥/١ ٠

٩١ ـ **الجماهير** (القاهرة) ، ١٩٤٨/٣/٢١ ٠

٩٢ ـ نقولا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٦ـ٦٨ ٠

٩٣ ـ تامارين ، أ : يوم عظيم في تاريخ الحركة النقابية الدولية ، **الحركة النقابية العالمية** (القاهرة) ، آب (اغسطس) ١٩٧١ ٠

٩٤ ـ المصدر نفسه ٠

٩٥ ـ حنا : مصدر سبق ذكره ، ص ٨٠-٨٣ ٠

٩٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٩١ ٠

٩٧ ـ الاتحاد العام لعمال فلسطين : المؤتمر الاول للاتحاد العام لعمال فلسطين ـ غزة ١٤-١٧ ابريل (نيسان) ١٩٦٥ ، د٠ت٠ (انظر : **الطبقة العاملة العربية الفلسطينية في غمرة النضال ضد الاستعمار والصهيونية** ، ص ١٤١) ٠

٩٨ ـ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها ٠

٩٩ ـ **مذكرات حسني صالح الخفش** ٠٠٠ ص ٣٤ ٠

١٠٠ ـ خريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٩ ٠

١٠١ ـ كوهين ، مصدر سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٦١٩ ٠

١٠٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٢٠ ٠

١٠٣ ـ
Survey... Vol II, p. 766.

١٠٤ ـ عثمان ، طه سعد : مذكرات ووثائق من تاريخ الطبقة العاملة ، الكاتب (القاهرة) ، العدد ١٢٨ ، السنة ١١ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ ، ص ١٢١-١٢٣ ٠

١٠٥ ـ المقطم ، ١٩٤٥/١٠/١٠ ٠

١٠٦ ـ الفجر الجديد ، ١٩٤٥/١٠/١ ٠

١٠٧ ـ الضمير (القاهرة) ، ١٩٤٥/١٠/٢٤ ٠

١٠٨ ـ الفجر الجديد ، ١٩٤٥/٩/١٦ ٠

١٠٩ ـ الضمير ، ١٩٤٥/١٠/٢٤ ٠

١١٠ ـ صوت الامة ، ١٩٤٧/٦/٢٧ ٠

١١١ ـ صوت الامة ، ١٩٤٧/٦/٢٨ ٠

١١٢ ـ كامل ، انور : الصهيونية ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٥٤-٥٧ ٠

١١٣ ـ الاتحاد ، ١٩٤٦/٤/٢١ ٠

١١٤ ـ الشقيري ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٠-١٣١ ٠

١١٥ ـ الجامعة الاسلامية ١٩٣٨/١/٤ ٠

١١٦ ـ حقيقة الامر ١٩٣٨/١/١٢ ٠

١١٧ ـ **مذكرات حسني صالح الخفش** ٠٠٠ ص ٢١-٢٣ ٠

١١٨ ـ
Survey... Vol. II, p. 764.

١١٩ ـ تقرير المؤتمر المنعقد ٠٠٠ ص ١٠٢ ٠

١٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ٠

١٢١ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٠ ، ٩٣ ٠

١٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٤-٩٥

١٢٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٩٥-٩٦ ٠

١٢٤ ـ حديث ابراهيم عليان ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ٠

١٢٥ ـ تقرير المؤتمر المنعقد ٠٠٠ ص ٩٦-٩٧ ٠

١٢٦ ـ فلسطين ، تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران ، لمؤلفه السير جون هوب سمبسون ، القدس ، ١٩٣٠ ، رفعه وزير المستعمرات الى البرلمان في شهر تشرين الاول ١٩٣٠ ، ص ١٢٨ ٠

١٢٧ ـ من تقرير حكومة فلسطين للجنة الانتدابات لسنة ١٩٣٥ ، الاقتصاديات العربية ، ١٩٣٥/٧/١٥ ٠

١٢٨ ـ شركة تعاون عمال العرب الفلسطينيين المحدودة الضمان : قانون الشركة ، حيفا ، مطبعة كشاف الصحراء ، ١٩٣١ ، ص ١ ٠

١٢٩ ـ ماديار ، ل ، واخرين : وثائق برامج الاحزاب الشيوعية في الشرق ، نشرة حزبية ، موسكو ، ١٩٣٤ (انظر : مرقص ، الياس (مترجم) ، الاممية الشيوعية والثورة العربية ، بيروت ، دار الحقيقة ، تموز (يوليو) ١٩٧٠ ، ص ٥٤) ٠

١٣٠ - Jefries, J.M.N. : *Palestine, the reality,* London, 1939, p. 418.

١٣١ - الكيالي ، عبد الوهاب (جامع) وثائق المقاومة العربية الفلسطينية ضد الاحتلال والصهيونية ، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٦٨ .

١٣٢ - Laquer, Op. Cit., p. 76.

١٣٣ - منظمة الاشتراكيين الاسرائيليين: بعض الملاحظات على احزاب اليسار في اسرائيل ، تل ابيب ، كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ ، ص ١٤ +

Laquer, Walter : *Communism and Nationalism in the Middle East,* London, Routledge and Kogan Paul, 1961, pp. 76-77.

١٣٤ - ماديار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ +
Ibid, q. 77

١٣٥ - Laquer, Op. Cit, p. 77.

١٣٦ - Ibid, p. 82.

١٣٧ - Ibid, p. 82.

١٣٨ - Ibid, pp. 79-80.

١٣٩ - *International Press Correspondence,* No. 70, p. 330.

١٤٠ - Laquer; Op. Cit., p. 82.

١٤١ - Laquer, op. cit., pp. 82-84.

١٤٢ - لاكير ، والتر : الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط ، بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٥ .

١٤٣ - ESCO Foundation for Palestine: *Palestine, a study of Jewish, Arab and British Policies,* 2nd Edition, U.S.A., Yale University Press, 1949, Vol. II, p. 780.

١٤٤ - لاكير : الاتحاد السوفياتي ... ص١٢٦.

١٤٥ - المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .

١٤٦ - المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

١٤٧ - المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

١٤٨ - المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

١٤٩ - ماديار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ .

١٥٠ - واجبات الشيوعيين في الحركة القومية الشاملة ، قرار متخذ في كونفرنس الحزبين الشيوعيين الفلسطيني والسوري عام ١٩٣١ (انظر مرتص ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٨) .

١٥١ - Laquer; op. cit., p. 90.

١٥٢ - ماديار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ .

١٥٣ - Czudnowski ; Landau : The Israeli Communist Party and the Elections for the Fifth Knesset, p.6.

١٥٤ - Laquer, op. Cit., p. 84.

١٥٥ - Laquer; op. cit., p. 89.

١٥٦ - ESCO... op. cit., p. 781

١٥٧ - Laquer; op. cit., p. 88+Czudnowski; op. cit., p. 5.

١٥٨ - Ibid, p. 92.

١٥٩ - Ibid, p. 87.

١٦٠ ـ لاكير ، الاتحاد السوفياتي ... ص ١٦٠ .

١٦١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .

١٦٢ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٠-١٥١ .

١٦٣ ـ Porath, op. cit.,

١٦٤ ـ الفجر الجديد ، ١٩٤٦/١/٢٣ .

١٦٥ ـ الاتحاد ، ١٩٤٦/١/٢٠ .

١٦٦ ـ الفجر الجديد ، ١٩٤٦/٣/٦ .

١٦٧ ـ الجماهير ، ١٩٤٨/٢/١٥ .

١٦٨ ـ مهمات الحزب الشيوعي الفلسطيني في الارياف ، قرار المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني (١٩٣١ ، مرقص ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٢.

١٦٩ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٢-١٢٣ .

١٧٠ ـ واجبات الشيوعيين ... ص ٧٠-٧٢ .

١٧١ ـ نقولا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣-٤ .

١٧٢ ـ الاتحاد ، ١٩٤٤/٧/٢٣ .

١٧٣ ـ الاتحاد ، ١٩٤٤/٨/٢٠ .

١٧٤ ـ الاتحاد ، ١٩٤٤/١١/٩ .

نظرة جديدة على معادلة امبريالية قديمة :
وعد بلفور والبحث عن الجذور

حازم موسى الحسيني

مع ان للامبريالية في بعض الاحيان مضمونا عقائديا ، الا انها في الاساس ترتكز على قاعدة اقتصادية بحتة ، وبريطانية القوة الامبريالية بلا منازع في بداية هذا القرن ، هي بيت القصيد في محاولة فهمنا للجذور التاريخية لوعد بلفور . لا نحتاج الى تعريفات اضافية للامبريالية ، اذا سلمنا جدلا بان « الامبريالية هي مرحلة الراسمالية نفسها حين تصل الاخيرة مستوى تسيطر فيه الاحتكارات والراسمال المالي ، وحيث يكون قد بدأ توزيع العالم بين التروستات الدولية ، وحيث يكون قد انتهى التوزيع الجغرافي للعالم (المستعمرات) » (١) . وما يسترعي الانتباه فعلا هنا هو تحول بريطانية السريع عن امبرياليتها القديمة القائمة على الصداقة الى امبرياليتها الجديدة القائمة على تفسيخ ممتلكات الامبراطورية العثمانية . فمنذ معاهدة باريس (١٨٥٦) ، حين دخلت الامبراطورية العثمانية ضمن التعاضد الاوروبي، شعرت بريطانية بانه يجب حرمان الرجل المريض (الامبراطورية العثمانية) ، ومهما كلف الامر ، من ثمار التقسيمات او الانتصارات لان الدولة العثمانية لم توفر لبريطانية سوى ممر آمن ينفذ الى مصالحها التجارية في الشرق ، ولانه يجب الحد من التوسع الروسي في الامبراطورية ، هادفة بريطانية من ذلك الى انجاز ما يسمى بـ « ميزان القوى » . لقد كان من الواضح انه ما لم تحدث تعديلات سريعة وحاسمة في بنية الامبراطورية العثمانية ، فانها ستتعرض حتما الى التجزئة . وبالرغم من ان التنافس الاستعماري لم يظهر جليا الا بعد العام ١٨٧٨ (معاهدة سان ستيفانو) ، الا انه كان لكل من فرنسه وروسيه مناطق نفوذ ضمن الامبراطورية العثمانية . آنئذ كانت الجذور التاريخية لنظام الملة لا زالت سائدة ، فكان الناس يصنفون ليس تبعا لعرقهم او جنسيتهم ، بل تبعا لخلفياتهم الدينية . وهذا بالتالي كان يستدعي ان تدعي روسيه حماية الارثوذكس في الشرق ، وان تدعي فرنسه حماية الكاثوليك ، ولكن بريطانية البروتستانتية لم تقم علاقات كتلك . وهذه الحقيقة كانت واردة في تفكير بالمرستون حين بعث برسالة الى السفير البريطاني في استانبول في ١١ آب (اوغسطس) من العام ١٨٤٠يطلب منه اجراء مشاورات مع السلطان العثماني فيما اذا كان يسمح هذا الاخير ليهود اوروبة الاثرياء بانشاء مصالح لهم ضمن الامبراطورية ، طالما انهم بذلك يشكلون حاجزا امنيا في وجه الثوار امثال محمد علي(٢) . وعلى النقيض لذلك ، فان حاييم وايزمن كان باستمرار ومرة اثر مرة يصرح ان معظم اليهود الفقراء في روسيه ، وليس اليهود الاغنياء في اوروبه ، هم الاكثر رغبة في الاستيطان في فلسطين . وهناك حقيقة دامغة

مفادها أن اليهودية الغربية ما كانت لترغب في استعمار فلسطين بمثل ذلك الاسلوب ، وعليه فان طلب بالمرستون يبرز كأداة في يد البريطانيين لتأمين مناطق نفوذ دينيـــة يهيمنون عليها ويمارسون فيها تعزيز رغبة اليهود تجاه « اعادة استيطانهم» في الاراضي المقدسة . وفي هذا الصدد يقول ليونارد شتاين : « كان يهدف بالمرستون ، من ضمن سياسته ، الى تشجيع اليهود بالهجرة الى فلسطين من كافة انحاء الامبراطوريـــة العثمانية ، والى الحصول على حماية من بريطانية العظمى بنفس الطريقة التي يحصل فيها الارثوذكس على حماية مـــن روسية » (٣) وبعـــد العام ١٨٧٥ ، اخذت هذه السياسة تشق طريقها باتجاه تحركات ملموسة . فقد شكلت الثورة القصيرة الاجـل في بلجارية في العام ١٨٧٦ نقطة التحول في السياسة البريطانية تجاه الامبراطوريـــة العثمانية . لقد بدأ تلك الثورة ، التي سرعان ما انتهت ، جماعات ثورية في جيورجيغو وبوخارست ، الا ان السلطات التركية اخمدتها بوحشية وهي في مهدها ، فذبحت من ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ ثائر . ازاء تلك المذابح اهتز الرأي العام البريطاني ، ومنذ ذلك الوقت تناست بريطانية كافة توددتها تجاه السلطة التركية ، لاسيما حين ولت حكومة المحافظين وتسلم الوزارة حزب الاحرار بزعامة جلاوستون في العام ١٨٨٠ ، التـــي عملت على مواجهة نقيضها المتجسد في استبدادية عبد الحميد الثاني بعد العام ١٨٧٧ ، لا بل ان التوتر في العلاقات بين البلدين ازداد حين حدد عبد الحميد موقفـــه المعـــادي للغرب .

كانت حرب البلقان في اثناء ذلك تستهلك الكثير من الخزينة العثمانيـــة : فالجيش يحتاج الى مصاريف جمة ، اضافة الى ان بريطانية كانت تقدم قروضا وتحتاج الـــى التعويض عنها . وهناك العجز المتزايد في ميزان المدفوعات بالاضافة الى مشاكل الامبراطورية العثمانية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية (٤) . لقد عجـــزت اصلاحات عبدالحميد عن مجابهة الاوضاع السائدة آنذاك بسبب نمو القوميةالتركية ـــ التي قضت عليها التدخلات الاجنبية وهي فيمرحلتها الجنينية ـــ مما دفعه الى استبدال التنظيمات الثورية بسلطويات تحمي عرشه . وفي نهاية المطاف ، انشئت هيئة قضائية دولية في العام ١٨٨١ للبث في قضايا الديون المستحقة على الامبراطورية العثمانيـــة ، ومن البديهي ان تؤدي هذه الخطوة الى تأزيم اعمق في العلاقات التركية ـــ الانكليزية . وفي الوقت نفسه ، ومع ادراك ديزرائيلي للحاجة الىالاستمرار فيدعم ، الامبراطورية، الا انه كان مقتنعا بان الاهتمام يجب ان ينصب في تلك المرحلة على الحفاظ على المصالح التجارية البريطانية (مثل استثمار قناة السويس) والمصالح السياسية الاستراتيجية (العمل على مجابهة الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨٢ ، والنفوذ الروســـي في البلقان ، والنفوذ الالماني المتزايد في تركية) ، فطالب عبد الحميد باعطائه جزيرة قبرص ذات الموقع الاستراتيجي ، وفعلا حصل عليها بعد تحذير وتهديد السلطان . كانت الهوة بين بريطانية والامبراطورية العثمانية ازدادت اتساعا ، عقب فشـــل الثورة البلجارية ، نتيجة اربعة عوامل رئيسية ، هي : الاشراف الدولي على الخزينـــة العثمانية ، فشل الاصلاحات الداخلية ، ازدياد الجور ومضايقة الاجانـــب في الامبراطورية ، وأخيرا فقدان جزيرة قبرص . الا ان العامل الرئيسي والحاسم جـاء مع اندلاع الحرب الروسية ـــ التركية في العام ١٨٧٧ التي انتهت بمعاهدة ســـان ستيفانو (١٨٧٨) . ومع ان الحرب حققت مكاسب بسيطة للروس ، الا ان روسية تخبطت في ضائقة مالية وتزايد فيها الضغط الشعبي مناديا بالغاء مقررات مؤتمـــر برلين ، وتخلفت بريطانية عن تقديم يد العون الى تركية بسبب ما نشأ بين الدولتيـــن من تجاف اثر الثورة البلجارية . وعليه فان احتلال بريطانية لمصر في العـــام ١٨٨٢ انهى الاعتبار البريطاني لاستقلالية ووحدة الامبراطورية العثمانية ، وحين التفـــت

الاتراك الى الالمان طالبين منهم العون بعد العام ١٨٩٦ ، وصلت العداوة الانكليزية ـــ التركية اوجها ، وشهدت تلك الفترة تحولا ملموسا في السياستين البريطانية والتركية ، انتقلت على اثرها بريطانية من موقعها المدافع عن الامبريالية الى موقف جديد : تجهيز الحملات الامبريالية . اما تركية ، فانها شرعت في اقامة الاحلاف . ان هاتين الميزتين الجديدتين حددتا تطوراً جديداً في عهد الامبريالية : انتهاء وتفتيت ما سمي بالتعاضد الاوروبي ، وكردة فعل لذلك ظهرت على الساحة « سياسة الاحلاف » . فمنذ ان فرغ بسمارك من توحيد المانيه ، وخاصة منذ ان فرغ من خلق الحلف الثلاثي مع النمسه ـــ هنجارية وايطالية في العام ١٨٧٩ ، الى ان تفكك ذلك الحلف في العام ١٨٩٠ ، كانت القوى الامبريالية بلغت حدا من معاداة بعضها البعض يوازي العداء الذي كانت تكنه لها الشعوب الافريقية ـــ الاسيوية الراضخة لتلك القوى . وكلما كانت بلغت احدى تلك القوى مرحلة اعلى تبعا لتوسعاتها الامبريالية ، كانت تنظر بعين الشك اكثر الى منافسيها . ان هذا الشعور بالخوف المتبادل دفع الى اتباع سياسة الاحلاف ، ففرنسه تحالفت مع روسيه للوقوف في وجه المانيه ، اما النمسه فتحالفت مع المانيه في وجه روسيه .

عبر هذه الخلفية التاريخية ، التي سلفت ، يمكن فهم نشوء الحركة الصهيونية كرديف للامبريالية ابان تلك المرحلة . فبالرغم من أن الصهيونية منذ ولادتها كانت طفيلية (بمعنى انها بدأت جيبا انشق عن القومية اليهودية الام ،ثم كانت بعثة ارسالية تعمل على تحقيق أهدافها بتغطية من الامبريالية البريطانية ، ثم كانت ستارا للامبريالية الاميركية في الشرق الاوسط بهدف تأمين قاعدة ديمقراطية ، في المنطقة) ، الا ان هناك خاصية واضحة تبرز خلال التطور المذكور : كانت الصهيونية تركز على فلسطين . والسؤال الذي يطرح نفسه : لماذا فلسطين بالذات ؟ ان الباعث على ذلك دافع عقائدي . ان الولادة الرسمية للحركة الصهيونية ذات خصائص دينية شوفينية تضرب جذورها في مسقط رأس تلك الحركة : النمسه . ان اليهودية النمساوية عملت على تخمير الافكار الصهيونية التي تبلورت في **دولة اليهود** (١٨٩٦) لهرتسل (٥) . في تلك الحقبة عملت الصهيونية ما في وسعها للتقرب من فلسطين ، فعمد اليهود وغيرهم الى تأييد منظمة « محبي صهيون » الروسية (١٨٨٧ ـــ ١٨٩٧) ، ولجأ المتعصبون منهم وحفظة التوراة الى رسم جميع انواع الخطط الدينية الارسالية باتجاه فلسطين ، وكان هرتسل هو من اعطى الحركة الصهيونية برنامجا سياسيا متكاملا ومن هنا تجلت في كتاباته شوفينية دينية ، كما اتبع اسلوبا اوروبيا في الكتابة والتفكير وذلك لاستدرار عطف الاوروبيين .ان مقولات هرتسل تركت اثرا وانطباعا حسنين في ذهن تشامبرلين، بالرغم من ان الاخير ينظر الى الصهيونية نظرة انسانية ، رأى تشامبرلين ان الوقت مؤات كي تعمل الديبلوماسية البريطانية على دعم الحركة الصهيونية لان ذلك يؤدي الى التعاطف اليهودي العالمي مع بريطانيه . ليس هذا فحسب ، بل ان بريطانيه عندئذ سوف تضمن وجود الرأسمال والاستيطان اليهوديين لتنمية وتطوير ما سيكون بالنسبة لها « اراض بريطانية » ، . وبالنظر مستقبليا « فان مستعمرة يهودية تقام في سيناء ، لسوف تساعد كثيرا على امتداد النفوذ البريطاني الى كل انحاء فلسطين ، وبانتظار الفرصة السانحة حين تتفكك اواصر الامبراطورية العثمانية » (٦) . وهكذا ، يتضح جليا ان الامبريالية البريطانية قد بدأت تفكر بجدية لاقامة منطقة نفوذ تابعة لها في الشرق الادنى ، عبر رأس حربة الديانة اليهودية ، اذا ، فالامبريالية البريطانية اوجدت اخيرا لحاجاتها الاقتصادية مبررا عقائديا يدفعها لاستعمار فلسطين ، والفكرة بدأت تختمر منذ العام ١٩٠٣ . كان البريطانيون يعرفون تماما ان الحركة الصهيونية تفتقر الى التنظيم وان القومية العالمية صلبة الى حد لا يسمح لحركتهم بالظهور ما لم ترتكز

الى دعم امبريالي . وبناء على ذلك ، فان الاستيلاء على فلسطين صار يعتمد اساسا على التحالف بين الامبريالية والحركة الصهيونية ، ان تحالفا كهذا سيحقق دعما واسعا « لعملية التبرير » بعد الانتهاء من الصياغة الذكية لتصريح بلفور . وبالتالي يفهم وعد بلفور (التصريح) ، اعتمادا على ما تقدم ، على انه مؤشر ملموس على الوحدة . بين حركة اوروبية تعتمد على اقلية شوفينية (الحركة الصهيونية) وبين قوى غربية استعمارية (الامبريالية البريطانية) . وفي الوقت الذي كانت فيه الدول الاوروبية الامبريالية تتناحر باستمرار فيمابينها متنافسة للحصول على مصادر رزق اكثر وجبروت اعتى ومكانة مرموقة أوسع ، مما يؤدي حتما الى اندلاع الحرب ، كانت الامبراطورية العثمانية قد وصلت حدا لا يمكن الرجوع عنه . لقد اجبرت سياسة عبد الحميد المستبدة الكثير من الشباب الاصلاحيين على الهرب الى القارة الاوروبية ،حيث أنشأوا هناك جمعية « تركية الفتاة » ثم خططوا وتدارسوا للعودة والعمل على تسلم السلطة بالقوة . حين عاد أعضاء تلكالجمعية عادوا كوطنيين اتراك تتملكهم ثقافة غربية وليس كاصلاحيين مستقيمين ، وحين تسلموا السلطة في العام ١٩٠٩ حدثت تغييرات في بنية الدولة ، اهمها ان السلطنة العثمانية تحولت الى دولة علمانية ذات نظام دستوري برلماني ، ومنذ ذلك الوقت اختفت معالم التناحر الديني في الامبراطورية وظهرت التناحرات العرقية (٧) . وابان تلك المرحلة ، حين بدأت الامبراطورية العثمانية تواجه تصدعات داخلية ،سواء في أطرافها (البلقان)ام في داخلها ، عمدت الامبراطورية الى التحالف مع دول المحور في محاولة منها للحفاظ على ما تستطيع من الاجزاء المتفسخة . بعد ثلاثة اشهر من الحياد ، دخلت تركية الحرب في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩١٤ . بعد يومين فقط من ذلك ، أعلنت بريطانية الحرب على الامبراطورية العثمانية .

لبضعة اسابيع سابقة لذلك ، كان وايزمن قد تعرف الى ش . ب . سكوت ، رئيس تحرير صحيفة « مانشستر جارديان » الانكليزية ،واقنعه بسرعة بالمبادىء الصهيونية، فاعتنقها الاخير . ثم عمد سكوت ، عبر جهود مركزة ، الى عقد اجتماع بين لويد جورج وهربرت صموئيل من جهة ووايزمن وانصاره من جهة ثانية . بهذا تم وضع الاساس لما سمي فيما بعد بـ « مدرسة مانشستر الصهيونية» . اثناء تلك الفترة كان ينظر الى الحرب على انها سوف تكون قصيرة وحاسمة بحيث افترض كل من الاطراف المتناحرة انه الرابح الفعلي ، الا ان الحرب طالت وكانت دموية وبلا نتائج مثمرة . ووصلت الحرب البحرية بين بريطانيه والمانيه الى طريق مسدود ، نشطت خلالها الغواصات الالمانية ضد السفن الحربية البريطانية . ومع اعلان الثورة في روسيه ، صارت بريطانيه تفكر جديا في نقل مخططاتها ومصالحها الامبريالية الى الشرق الادنى. كانت تلك الخطط واردة دوما في ذهنية الديبلوماسية البريطانية ، الا ان الاوضاع السائدة في اوروبة آنذاك عجلت باتجاه تنفيذها . وقتها كان هربرت صموئيل قد عكف جديا على دراسة النتائج المترتبة على انجلتره في حال عمدت الى الاستيلاء على فلسطين ، وذلك قبل ستة اشهر من شروعه في مراسلاته مع الشريف حسين (شتاء ١٩١٥) عارضا فيها المساعدة البريطانية على العرب ، اخذا بعين الاعتبار الا يثير قضية المناطق الممتدة على طول ساحل المتوسط . لقد وضعت بريطانيه نصب عينها المصالح الامبريالية بدل الاعتراف بالحقوق الانسانية لشعوب المنطقة . في الشهر نفسه الذي أعلنت فيه بريطانيه الحرب على الامبراطورية العثمانيه ، وقبل فترة بسيطة من عرض صموئيل بدء المراسلات ، كتب وايزمن : « نستطيع القول بعقلانية انه فيما لو دخلت فلسطين ضمن النفوذ البريطاني ، وفيما لو شجعت بريطانيه اقامة مستوطنة يهودية هناك ، سوف يكون لنا حوالي مليون يهودي في فلسطين خلال عشرين الى

ثلاثين سنة يعملون على تطوير البلاد ويعيدون اليها المدنية ويقفون حرسا فعالا على قناة السويس » (٨) . بهذه الطريقة تعاضد ساعد الصهيونية مع الامبريالية [عمد وايزمن اثناء الفترة الى عرض اهدافه الشوفينية المرتبطة بالامبريالية البريطانية على ش.ب. سكوت الذي وافق على مشاريعه] .

في ايار من العام ١٩١٥ اعطى هربرت صموئيل مقومات لوحدة الحركة الصهيونية مع الامبريالية ، وذلك حين بقي المجال مفتوحا امام « مدرسة مانشستر » لكسب مواقف الحكومة البريطانية باتجاه ما كان صموئيل قد عرضه سابقا . هناك حادثتان اكدتا نجاح ذلك : (١) تعيين ارثر بلفور في الوزارة البريطانية (ايار ١٩١٥) (٢) في العام ١٩١٥ نجح وايزمن في ابتكار طريقة جديدة لتحضير مادة الاسيتون لاستعمالها في صناعة المتفجرات ، التي كان يحتاجها البريطانيون آنذاك . بالرغم من ان هربرت صموئيل ، مدير عام وزارة البريد البريطاني آنذاك ، بقي محافظا على وعده الذي تعهد بموجبه بالاعتراف باهداف الصهيونية (لا سيما حين التفتت الحركة الصهيونية الى قيصر المانيه بحثا عن الدعم) ، كان واضحا لدى « مدرسة مانشستر » ان موقف القيصر مؤقت ، لانها كانت يقظة الى ان المانيه لم تؤيد فكرة اقامة وطن يهودي لان ذلك يتعارض تماما مع تحالفها الى جانب الامبراطورية العثمانية . واضافة الى ذلك ، فان الحركة الصهيونية لم تلق صدى لدى المانيه نظرا الى ان تلك الحركة كانت تحتاج آنذاك الى وعد امبريالي اكثر جدية ، وهذا ما لم تكن تقدر عليه المانيه بسبب تفاقم الاوضاع العالمية وبروز عوامل جديدة على المسرح السياسي منها الثورة الروسية ، هزيمة دول المحور ودخول اميركه الى الحرب . فقط بريطانيه الامبرياليه كانت قادرة على منح مثل ذلك الوعد آنذاك ، فاخذت الحركة الصهيونية ببناء برامجها السياسية على هدى اتفاقية سايكس — بيكو . لم يكن مارك سايكس عضوا في « مدرسة مانشستر » حين جرى تعيينه مساعدا في وزارة الحرب البريطانية في خريف ١٩١٥ ، الا ان ايمانه بالامبريالية البريطانية ، وتعاطفه مع الحركة الصهيونية ، واطلاعه الواسع على اوضاع العالم العربي ، جعله من اهم مناصري الحركة قدرة على انجاز وتحقيق اهدافها . وهو الذي سعى جاهدا الى تقريب فلسطين ضمن النفوذ البريطاني وابعادها عن نفوذ السلطتين المتنافستين فرنسه وروسيه . وكانت جهوده الشخصية التي بذلها هي السبب الاساسي الذي دفع الى تقسيم اراضي الامبراطورية العثمانية بين النفوذين الانكليزي والفرنسي بعد الاتفاقية التي عقدها مع جورج بيكو في كانون الاول (ديسمبر) من العام ١٩١٥ .والتي اعتبرا فيها فلسطين منطقة حساسة وبالتالي من الضروري تدويلها . ثم الاعلان رسميا عن فحوى تلك الاتفاقية في شباط (فبراير) من العام ١٩١٦ ،الا انها لم تنشر حتى شهر ايار (مايو) تحت اسم « اتفاقية سايكس— بيكو » . اثناء ذلك نجحت بريطانيه وفرنسه في ابعاد روسيه عن الساحة عبر خلقهما منطقة نفوذ روسيه تعتمد على استمرار الروس في الحرب حتى نهايتها — (رغم ان ذلك كان غير مرغوب فيه ابدا) — وفي تفسيخ اجزاء الامبراطوريه العثمانيه ، لا بل ان فرنسه اذعنت لطلب بريطانيه بنت الاخيرة بموجبه انابيب ضخ النفط والسكك الحديدية في فلسطين ، حيث ان بريطانيه كانت تتوقع آنذاك ان يتم اكتشاف النفط في الاقليم العراقي « التابع » لها .

كانت احداث العام ١٩١٦ حافلة ، فالحكومة البريطانيه تتخبط من جراء الحرب ونفقاتها لا سيما وان ذلك انعكس على الاوضاع في ايرلنده (التي نشبت فيها ثورة لمدة قصيرة في ايار) ، وروسيه تستعد للثورة ، اما الجبهة الغربية فهي على حالتها المستعصية . في كانون الاول (ديسمبر) تسلم لويد جورج رئاسة الوزارة البريطانية

فقام باجراء تغييرات في وزارة الحرب من ضمنها العمل نحو تحقيق هدف « مدرسة مانشستر » الامبريالي في فلسطين ، والذي اتخذ في نهاية المطاف شكل تصريح بلفور وفرض تنفيذه مع اكتمال معالمه في العام ١٩١٧ . في تشرين الاول (اكتوبر) من العام ١٩١٦ عرض الصهاينة خططهم الاستيطانية على الحكومة البريطانية ، وفي شباط (فبراير) من العام ١٩١٧ ، شرع مارك سايكس في اجراء المناقشات حول فلسطين . استمرت الجهود المبذولة للحصول على التصريح مدة ستة اشهر ، من نيسان (ابريل) حتى تشرين الثاني (نوفمبر) . ان « اوراق وزارة الخارجية البريطانية تظهر انه خلال الاشهر القليلة تلك جرت عدة محادثات مع الدكتو وايزمن واخرين في الحركة الصهيونية ، كما جرت مراسلات برقية حول الموضوع ذاته مع السير مارك سايكس ، الذي كان يقيم آنئذ في القاهرة » (٩) . في حزيران (يونيو) تقدم رونالد جراهام ، وكيل وزارة الخارجية البريطاني والذي اعتبره وايزمن بانه كان ذا مساعدة فعالة في اصدار تصريح بلفور ، بمذكرة الى اللورد هارينج ، وزير الخارجية البريطاني الدائم وحاكم الهند سابقا ، قال فيها انه طالما ان « مدرسة مانشستر » (لم يسمها باسمها) تتعاطف مع الحركة الصهيونية وبما ان الحركة ستكون ذات منفعة في روسيه (في حال عمدت اليهودية هناك الى دعم الثورة البلشفية) ، فليعط الصهاينة « ضمانة بان حكومة صاحبة الجلالة كلها تتعاطف مع ما يطمحون اليه » (١٠) . والى ذلك اضاف بلفور الى محضر الجلسة : « طلبت من اللورد روتشيلد والبروفسور وايزمن ان يعملا على تقديم معادلة ما » . في الثامن عشر من تموز (يوليو) [تاريخ له اهمية في ذلك اليوم بالتحديد] بعث روتشيلد برسالته الجوابية :

واخيرا اجد نفسي قادرا على ارسال المعادلة التي طلبت مني . فاذا ما بعثت حكومة صاحب الجلالة رسالة تتضمن معالم هذه المعادلة ، وفي حال موافقتك عليها حين تصلك ، انا بدوري سأعمل على تحويلها الى المنظمة الصهيونية ...

١ ـ ان حكومة صاحب الجلالة توافق مبدئيا على تحويل فلسطين الى وطن قومي للشعب اليهودي .

٢ ـ ان حكومة صاحب الجلالة ستعمل قدر المستطاع محاولة انجاز هذه المهمة وستبحث عن الاساليب الضرورية بالتعاون مع المنظمة الصهيونية(١١) .

وافق بلفور على شكل هذه المقولة ، الا ان ميلز ، احد كبار مسؤولي الحركة الصهيونية ، اعتبر كلمتي « تحويل » و « انجاز » غير كافيتين . وحتى يبعد الشبهة عن البريطانيين بأنهم القوة الاساسية في تهويد فلسطين ، عمد الى كتابة الرد التالي المعروف :

ان حكومة صاحب الجلالة توافق مبدئيا على استغلال كل فرصة مناسبة من اجل انشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين ، على ان تعمل ما في وسعها لتسهيل هذه المهمة وتكون مستعدة للنظر في اية اقتراحات حول الموضوع تقدمها المنظمة الصهيونية الى اعضاء الحكومة) .

بالرغم من ان الوزير البريطاني ادوين مونتاغو لم يكن متعاطفا كثيرا مع الصهيونية، الا انه اقترح تأجيل اصدار القرار حتى يكون بالمستطاع تقدير مواقع القوى المتصارعة في الحرب . وهذا ما حدث بالفعل ، فحين اجتمعت وزارة الحرب في الرابع من تشرين الاول (اكتوبر) ، تركز برنامج عملها على النقاط التالية : (١ كانت الحكومة الالمانية آنذاك تكسب دعم الاكثرية من اليهود . (٢) كانت الحكومة الفرنسية على علم بان الرئيس الاميركي ويلسون يحظى بتأييد كامل من الحركة الصهيونية (٣) كان اللورد كيرزون يعتبر ان اعادة توطين اليهود فكرة طوباوية ويفكر بان ذلك غير عملي ابدا .

نظرا لهذه العوامل مجتمعة قدم ميلز نصا مقترحا للقرار وزعت نسخ منه بشكل سري على الرئيس ويلسون وعلى زعماء الحركة الصهيونية بالصيغة التالية :

ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على ان يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة حاليا في فلسطين ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى .

في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ، وبعد ان اجرى بلفور بعض التغييرات في المفردات التي كان قد اقترحها وايزمن ، صدر النص النهائي لما عرف فيما بعد بأنه من اقدر التصريحات التي صدرت عن الحكومة البريطانية . وهكذا يتبرهن بوضوح ان اقلية صهيونية صاغت الوعد وعكفت مدة شهر على اعطائه طابعه النهائي . وما يسترعي الانتباه فعلا هو ان مفردات النص منتقاة عن قصد وحذر يجعلها مبهمة ومبطنة . وهناك توافق ملموس في عملية صياغة النص بين المفكرين الصهاينة والديبلوماسيين البريطانيين ، فالحركة الصهيونية رافقت الامبريالية البريطانية في سيرة واحدة لمدة طويلة قبل الصياغة النهائية . والاهم ان بلفور ، الذي كان قادرا على ضبط امور امبراطورية واسعة ، ما كان ليسمح بقرار « يسقط سهوا » لو لم تكن الصهيونية فعلا عضوا متكاملا ضمن الخطة الامبريالية الاوسع . ان « مدرسة مانشستر » باعضائها وخططهم كان لها الدور الفعال في استصدار التصريح الوعد . ان وجهة نظر كمثله لهي على صواب ، حين رد الدعم الرسمي البريطاني للاهداف الصهيونية الى رغبة بريطانية في كسب اليهودية الروسية والاميركية وبالتالي اضعاف النفوذ الالماني ، ورغبتها ايضا في مواجهة الانحسار الامبريالي وبالتالي اخماد النشوء المتوقع للحركة القومية العربية محاولة بذلك انشاء منطقة نفوذ حيوية تجارية وسياسية لها في المشرق . وعليه فان وعد بلفور حاصل معادلة امبريالية طرفاها حركة اوروبية تعتمد على اقلية شوفينية وقوة غربية امبريالية واستعمارية . ان وحدة من هذا النوع تميزت ايضا بانها تناست وبذكاء فائق مصير الشعب الذي سيخضعونه . ولم يصعب على بريطانيه والحركة الصهيونية خلق نقيض ما طلبوا ودعوا اليه دائما : « انقاذ الحضارة من همجية الشرق » ، فطيلة فترة الانتداب وحتى الوقت الحاضر نجحت الوحدة القائمة بين الصهيونية والامبريالية الغربية الهمجية في الاقتصاص من الشعب الذي يحكمون . واذا ما عدنا الى التصريح بهذه الخلفية السابقة لوجدنا ان الوحدة التي اشرنا اليها تعتمد في شقها البريطاني فقط على الدافع الاقتصادي بينما تعتمد في شقها الصهيوني على قاعدة عقائدية ، وان الترابط العضوي الذي كان سائدا بين الطرفين في اثناء مرحلة الامبريالية يلقي ضوءا مهما على الترابط الحالي بين الصهيونية المعاصرة والامبريالية الجديدة .

---

١ - V. I. Lenin, *Imperialism, the Highest Stage of Capitalism,* (Moscow : Progress Publishers, 1966), p. 60.

٢ - Leonard Steim, *The Balfour Declaration,* (London : Vallentine-Mitchell, 1961), p. 6.

٣ - Steim, p. 8

٤ - Charles Issawi, *The Economic History of the Middle East 1800-1914,* (Chicago : University of Chicago Press, 1966), pp. 17-125.

٥- David Thomson, «Social and Political Thought,» *The New Cambridge Modern History*, edited by F. H. Hinsley, (London : Cambridge, 1970), XI, p. 119.

٦- Steim, pp. 24-25.

٧- Zeime Zeime, The Emergence of Arab Nationalism, (Beirut : Khyyat, 1966), pp. 83-114.

٨- Chaim Weizmann, *Trial and Error* (New York : Schocken Books, 1966), p. 43

٩- Doreem Ingram, *Palestine Papers 1917-1922 : Seeds of Conflict,* (London : John Murray, 1972), p. 8.

١٠- Ingram, p. 8.

١١- Ingram, p. 9.

مراجعات

SUSAN LEE HATTIS, **The Bi-National Idea In The Mandatory Times** (SHIKMONA PUBLISHING COMPANY, HAIFA : 1970).

في العام ١٨٩١ قام آحاد هعام بزيارة الى فلسطين ، واثر عودته كتب مقالة شهيرة « الحقيقة من ارض اسرائيل » نفى فيها الخرافة التي كانت سائدة في بعض الاوساط اليهودية من ان فلسطين صحراء ويقطنها اناس متوحشون ، واكد ان في فلسطين شعبا عربيا متحضرا وذكيا ، ويعرف ما يدور حوله، وقال « لقد اعتدنا خارج فلسطين على الاعتقاد ان كل العرب وحوش ولا يفهمون ما يدور حولهم ، وهذا خطأ كبير ، لان العرب مثل كل الشعوب السامية اذكياء وبارعين » واضاف « ان مدن سوريا وفلسطين تغص بالتجار العرب الذين يعرفون كيف يستغلون الجماهير ويخدعون القادمين ، تماما كما يحصل في اوروبا ، والعرب وخاصة التجمعات الحضرية منهم ،يرون ويفهمون اعمالنا ورغبتنا في البلد، وان تظاهروا بعدم ملاحظة ذلك » .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة التي اعلنها احد كبار الصهاينة الاوائل ، فان تيودور هرتسل انكر وجود الشعب الفلسطيني عندما اطلق عبارته الشهيرة « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » . وقد حدد هذا الموقف الذي اعلنه هرتسل ، السياسة العامة للحركة الصهيونية تجاه الشعب العربي الفلسطيني ، منذ ان ظهرت هذه الحركة في اواخر القرن التاسع عشر حتى الآن ، وهي سياسة تقوم على انكار وجود الشعب الفلسطيني وتجاهل حركته الوطنية وانتماءاته القومية العربية . ويؤكد آهارون كوهين* ان هرتسل كان يعرف تمام المعرفة الحقيقة عن ارض فلسطين وشعبها ، ويشير بهذا الخصوص الى ان يهوديا من القدس يدعى ا.س. يهودا (١٨٧٧ - ١٩٥١) وكان طالبا في فرانكفورت في العام ١٨٩٥ ، حضر المؤتمر الصهيوني الاول بصفته احد مؤسسي تجمع الناطقين بالعبرية في المانيا ، شرح لهرتسل قبل المؤتمر وخلاله حقيقة الوضع في فلسطين ، واشار عليه بضرورة الوصول الى تفاهم مع الشعب العربي هناك . ويقول كوهين نقلا عن يهودا ان هرتسل ومستشاريه هزئوا من ارائه واستخفوا بها » .. كما يذكر كوهين ان ماكس نوردو . والذي كان اليد اليمنى لهرتسل ، جاء لهرتسل بعد ان عرف لاول مرة الحقيقة عن فلسطين وشعبها وقال له « انا لم اكن اعرف ذلك ، اننا نقوم بعمل غير عادل . » (المصدر نفسه ص ٦٥-٦٦) .

وعلى هامش هذا الموقف الصهيوني الرسمي والعام ، برزت مواقف اخرى لافراد او تجمعات صغيرة صهيونية ، او يهودية متعاطفة مع الصهيونية ، اخذت بالاعتبار حقيقة وجود الشعب الفلسطيني على ارض فلسطين منذ زمن طويل ، ونادت بضرورة التفاهم بين العرب واليهود في فلسطين حتى يمكن انجاح المشروع الصهيوني . والقاسم المشترك بين هذه التجمعات هو :

- انها لا تنكر صهيونيتها واعتبار فلسطين وطنا قوميا لليهود .

* «Cohen, Aharoun, Israel and the Arab world, London, 1970 » ص ٥٠

ـ ترى ان ايجاد الوطن القومي اليهودي يجب ان لا يتعارض كليا مع المصالح الاساسية للشعب الفلسطيني ، وذلك بتنمية مصالح مشتركة بين الطرفين تقوم على اساس استخدام الخبرة اليهودية وامكانات اليهود الاقتصادية لتطوير فلسطين لصالح الطرفين ٠

ـ ترفض ايجاد دولة يهودية في فلسطين ، وتدعو الى قيام دولة ثنائية القومية تقوم على اساس التكافؤ والمساواة بين الطرفين بغض النظر عن عدد كل منهما ٠

ولذا ، فان الافراد اليهود والصهاينة الذين كانوا يدينون بهذه الآراء ، نشطوا في البداية للاتصال ببعض زعماء الحركة الوطنية العربية قبل صدور وعد بلفور ، لخلق نوع من التفاهم او الاتفاق بين الحركة الصهيونية والحركة الوطنية العربية ٠ والملاحظ ان هذه النشاطات كانت تقوم على اساس اقناع زعماء الحركة الوطنية العربية بفائدة الصهيونية لبلادهم والحصول على اقرار منهم بالمشروع الصهيوني في فلسطين ٠ الا ان كل محاولاتهم باءت بالفشل ، لان الحركة الصهيونية كانت تعارض الوصول الى اتفاق او تفاهم بين العرب واليهود ٠ اضافة الى ان العرب لم يقبلوا بالمشروع الصهيوني ٠ ومن اوائل الذين نشطوا في هذا الاتجاه د٠ فيكتور جاكوبسون الذي قال « ان المعارضة العربية لمطامح الصهيونية ستكون العقبة القاتلة » وكذلك حاييم مارجليت كالفاريسكي ، والذي يدعي انه وضع مسودة اتفاقية عربية ـ يهودية في العام ١٩١٩ بناء على طلب من حاشية فيصل في دمشق ٠ (المصدر نفسه ص ٧٧) ٠

وحول هذه المحاولات والنشاطات يدور الكتاب موضوع المناقشة وهو عبارة عن اطروحة دكتوراه قدمتها الكاتبة لدى جامعة جنيف للحصول على دكتوراه في العلوم السياسية ٠ ويشتمل الكتاب على مقدمة وخمسة فصول اضافة الى خاتمة تعبر فيها الكاتبة عن وجهة نظرها وتقييمها لهذه المحاولات ٠ ويقع الكتاب في ٣٥٥ صفحة من الحجم الكبير ٠

استعرضت الكاتبة في المقدمة اصول فكرة ثنائية القومية في الفكر السياسي الصهيوني، وقالت ان هذه الاصول تعود الى ثلاثة من الفلاسفة اليهود هم آحاد هعام ٠ واهارون دافيد جوردون ، ومارتن بوبر الذي ذكرت انه كان اول من دعا لدولة ثنائية القومية في فلسطين (ص ٤٤ ـ ٤٥) ٠ وعن هعام ذكرت انه كان قريبا من فكرة الدولة الثنائية القومية عندما اشار في كتابه «على مقطع العراق » « ان الحق التاريخي للشعب اليهودي في فلسطين ، لا يلغي حق بقية سكان الارض الذين لهم حقوق ثابتة في الارض بعد اقامتهم وعملهم فيها لاجيال طويلة » (ص ٤٦) كما ذكرت «ان هعام كان متشائما في آخر ايامه حول الوضع في فلسطين وكان يعتقد ان العرب سيسيطرون على الوضع ، وحذر اليهود من احتقار القومية العربية » (ص ٤٧) ٠ وعن جوردون ، قالت انه لم يحدد شكلا دستوريا حول مستقبل الوضع لليهود والعرب في فلسطين ولكنه دعا اليهود « ان لا يبنوا انفسهم على حساب العرب » (ص ٤٨) ٠ وحول موقف العرب من هذه الفكرة ، ذكرت انه لم يوجد ولا عربي فكر بامكان التآلف بين القومية العربية والصهيونية ٠ باستثناء ما ادعته ان عربيا من شرق الاردن ـ لم تذكر اسمه ـ دعا الى فكرة امبراطورية سامية عوضا عن الوحدة العربية او الوحدة الاسلامية (ص ٣٢) واكدت الكاتبة « ان موقف العرب كان واضحا منذ البداية ، فعلى الرغم من تنوع تكتيكاتهم فقد بقي هدفهم واحدا وهو ان فلسطين يجب ان تبقى عربية ، وان اكثر ما يمكن ان يتوقعه اليهود من العرب هو قبولهم كأقلية ومنحهم حقوق الاقلية » ٠ واضافت « من السهل ان يفهم المرء لماذا نظر العرب بريبة الى البرامج المعتدلة التي طرحها اليهود من دعاة ثنائية القومية ؟ ذلك انهم رأوا فيها طلاء من السكر على حبة مرة المذاق ، رفضوا ان يلبوها » (ص ١٩ ـ ٢٠) ٠

استعرضت الكاتبة في كتابها تطور فكرة ايجاد دولة ثنائية القومية في فلسطين من العام ١٩٢٢ ـ ١٩٤٨ ، فخصصت الفصل الاول للفترة من ١٩٢٢ ـ ١٩٢٩ ، حيث كانت « برت شالوم » ـ جماعة السلام ـ ابرز التجمعات

التي ظهرت في هذه الفترة ـ تأسست في العام ١٩٢٥ ـ ، كما كانت اوضح التجمعات في دعوتها لفكرة دولة ثنائية القومية ، اضافة الى انها كانت تلقى تأييدا ودعما من البروفسور «يهودا ماغنيس » الذي عين رئيسا للجامعة العبرية عند تأسيسها في العام ١٩٢٥ ، والذي يعتبر من ابرز وانشط من دعا لفكرة الدولة الثنائية ـ القومية ، وحول هذه الجماعة ذكرت الكاتبة ان زمام المبادرة في قيامها يعود لارثر روبين (ص ٣٩) والذي كان رئيسا لشركة تطوير الاراضي في فلسطين في العام ١٩٠٨ ،كما ذكرت انها تأسست نتيجة لمحاضرة القاها البروفيسور جوزيف هورتيز في افتتاح الجامعة العبرية ، والتي اشار فيها « انه من الصعب جدا على اليهود ـ حتى بعد التصريحات والضمانات من الدول الكبرى ،وبعد اكتساب الارض ، ان يبقوا في فلسطين طالما لم يصلوا الى تفاهم مع العرب الذين سيبقون محيطين بهم » (ص ٣٩) .

لم تتخذ هذه الجماعة صفة الحزب او التنظيم ذي المعالم السياسية المحددة ، بل كانت تضم عدة مجموعات تتفاوت في رؤيتها ومفاهيمها سواء حول دور الجماعة وبنيتها ، او حول سياستها ، فالمجموعة الاولى والتي سادت حتى قيام اضطرابات ١٩٢٩ تكونت من رجال هاجروا الى فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى من اوروبا الشرقية باستثناء آرثر روبين الذي اتى من المانيا ، وكلهم كانوا من ذوي المؤهلات الإكاديمية العالية ، وكان حاييم مارجليت كالفاريسكي من ابرز افراد هذه المجموعة اضافة الى روبين (ص ٤٠-٤١) ، اما المجموعة الثانية فقد سادت بعد العام ١٩٢٩ ، وكانت مكونة في معظمها من مهاجرين يهود من مثقفي اوروبا الوسطى الذين كانوا يملكون خلفية ليبرالية (ص ٤١) وكانت هذه المجموعة تعمل على دفع الجماعة الى العمل السياسي الواسع (ص ٤٢) . بالاضافة الى هاتين المجموعتين فقد كانت هناك مجموعة ثالثة من المسالمين ضد الحرب والعنف ، كان من ابرزهم ناثان خوفشي ، ومجموعة رابعة من المثقفين غير الصهيونيين ، ومجموعة اخرى من المستشرقين اضافة الى مجموعة الانجلو ـ سكسون ، التي كان معظمها من رجال الادارة الفلسطينية/ (حتى العام ١٩٢٩ لم يكن يسمح لامثال هؤلاء ان يكونوا اعضاء) وكان نورمان بنتويتش ، على الرغم من انه لم يكن عضوا في الجماعة ، من اكثر النشيطين المتعاطفين معها (ص ٤٦) .

لم يصل عدد اعضاء الجماعة في اي يوم الى ٢٠٠ (ص ٣٨) وكان تأثيرها في اليهود في فلسطين محدودا . وكان لها تأثير كبير فقط في الاتحاد الصهيوني الالماني الذي كان ايضا صغيرا في عدده ومحدودا في تأثيره . (ص ٣٨).والملاحظة الجديرة بالاهتمام ،انه لم ينضم اي يهودي شرقي الى الجماعة ، وتقول الكاتبة ان السبب في ذلك ربما ثقافي . (ص ٤٧) .

وحول اهداف الجماعة ، تقول الكاتبة « انها لم تتأسس لتقيم مفاوضات مع العرب ولا لتعد برنامجا لحل النزاع العربي ـ اليهودي ، بل كان هدفها الاساسي التأثير على اليهود في فلسطين ليتبنوا موقفا معينا ازاء القضية العربية ، ومحاولة فهم العالم الشرقي الذي يجب على اليهود ان يعيشوا فيه » (ص ٤٧) ولذلك حصلت خلافات داخل الجماعة حول تحويلها الى تنظيم يقوم بنشاط سياسي واسع وان لا تظل مقتصرة على حلقات المثقفين والاكاديميين .

وحول موقف الحركة الصهيونية من الجماعة، ذكرت ان الموقف الرسمي فيها كان في البداية مشجعا .

وتقول ان وايزمن تبرع لها بمبلغ ١٠٠ جنيه من المالية الرسمية في تموز ١٩٢٧ (ص ٥٨) الا انها هوجمت بعنف في الصحافة الصهيونية واعتبرت آراؤها انهزامية بعد اضطرابات ١٩٢٩ في فلسطين (ص ٦١) لقد ضعفت الجماعة وتبعثر افرادها بعد العام ١٩٣٠ ، ولكن نشاطهم كأفراد استمر .

بالاضافة الى بريت شالوم ، ذكرت الكاتبة ان مجموعات اخرى ظهرت في هذه الفترة ، كانت قريبة في افكارها من فكرة ثنائية ـ القومية ، الا انها لم تكن واضحة بما فيه الكفاية ، اضافة الى انها كانت تختلف مع

بريت شالوم ٠ من هذه المجموعات هاشومير هتسعير ـ العامل الفتي ـ التي تأسست في غاليسيا في العام ١٩١٣ ٠ وقد تحولت الى حزب سياسي في العام ١٩٤٨ واصبحت تعرف باسم المابام ٠ وتذكر الكاتبة ان هذه المجموعة لم تتخذ موقفا محددا من العرب الا في العام ١٩٣٠ حيث اعلنت في مجلسها العام الثالث المنعقد في العام ١٩٣٠ ان هدفها هو « تحقيق مجتمع اشتراكي ثنائي ـ القومية في فلسطين » ٠ غير ان هذه المجموعة كانت تنادي بوجود اكثرية يهودية في فلسطين ، واعتبر مئير يعاري ، قائدها « ان الوصول الى اكثرية يهودية ليس هدفا بل شرطا » (ص ٧١) ٠

الفصل الثاني يغطي الفترة من « ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ » وفي هذه الفترة كما يتضح من عرض الكاتبة لم تبرز تجمعات محددة تنشط باتجاه الفكرة الثنائية ـ القومية ٠ وتأثرت هذه الفترة باضطرابات ١٩٢٩ التي حددت ملامح يائسة لاي تقارب عربي ـ يهودي ، كما تأثرت بنهوض النازية في اوروبا وازدياد الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، حيث ان الصهاينة بدأوا يرون امكانية ان يصبحوا اكثرية في فلسطين خلال فترة قصيرة ٠ وعليه فان الفصل يشتمل على بعض المواقف لحاييم وايزمن ودافيد بن غوريون ، اضافة الى استعراض فكرة تقسيم فلسطين الى كانتونات عربية ويهودية في دولة موحدة ٠ وحول موقف وايزمن، تذكر الكاتبة في انطباعها الخاص عن وايزمن انه كان ميالا لافكار بريت شالوم ، الا ان اصطدامه بالاوضاع السياسية اليومية جعل آراء وافكار بريت شالوم ليست كافية (ص ٨٢) ٠ وتنقل عنه انه انتقد في المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين المنعقد في بالتيمور ، الذين يتهمون الداعين الى التعاون بين العرب واليهود انهم باعوا انفسهم للعرب ، وانه قال « يجب ان نصل الى تفاهم مع هذا الشعب » واضاف « حتى لو وصل اليهود الى اكثرية في فلسطين ـ كما آمل ـ فانه سيكون امرا عديم الجدوى ان نبقى جزيرة في بحر عربي » (ص ٨٢) ٠

وحول موقف بن غوريون ، تذكر الكاتبة انه في العام ١٩٢٩ وحتى العام ١٩٣٤ كان يرى ان فكرة ايجاد كانتونات عربية ويهودية يمكن ان تكون حلا لقضية العرب واليهود في فلسطين ، الا انه كما تذكر الكاتبة تراجع عن آرائه هذه بعد العام ١٩٣٦ ، حيث كان واضحا في دعوته الى ايجاد دولة يهودية في فلسطين ، (ص ١١٦) ولا سيما بعد ان تصاعدت الهجرة اليهودية الى فلسطين بعد سيطرة النازية في المانيا ٠

وحول فكرة الكانتونات تقول الكاتبة انها كانت فكرة فردية لعدة اشخاص في فلسطين وخارجها وان « اتمار بن افي » يعتبر ابو الفكرة ، حيث حاول في اعقاب الحرب العالمية الاولى اقناع بن غوريون وبراندیس بخطة ايجاد حكومات محلية مستقلة للمستعمرات اليهودية في فلسطين (ص ١١٦) ٠

وتذكر الكاتبة ان فكرة تقسيم فلسطين الى كانتونات عربية ويهودية كانت رائجة في بريطانيا في العامين ١٩٣٥ و ١٩٣٦ ٠ وقالت ان افضل المشاريع التي طرحت بهذا الخصوص كان مشروعا اعده ارثر كوست الذي عمل في الادارة الفلسطينية فترة من الزمن ، وبعث بمشروعه الى وزارة المستعمرات البريطانية في العام ١٩٣٥ (ص ١٢٦) ٠

وتذكر الكاتبة ان بعض العرب اخذوا بعين الاعتبار فكرة الكانتونات ٠ منهم احمد الخالدي الذي ذكرت انه دعا الى قيام كانتون عربي وآخر يهودي ، يشرف عليهما مجلس تنفيذي اعلى ، على اساس ان يضم الكانتون العربي مناطق غزه ، بير السبع ، المجدل ، القدس ، حيفا ، رام الله ، نابلس ، جنين ، طولكرم ، عكا ، ووادي الاردن ، بيت لحم وبيسان ٠ اما اليهودي فيتشكل من المنطقة الممتدة من تل ابيب الى حيفا الى الغرب من سكة الحديد ، ومن حيفا الى بيسان الى الغرب من خط سكة حديد الحجاز ، ومن بيسان لطبريا ، ومن طبريا للحولة ، في حين تكون مدن القدس والخليل وبيت لحم وصفد والناصرة مدنا مفتوحة ٠ وان يكون ميناء حيفا ميناء حرا ٠ على ان يكون لكل كانتون مجلس تشريعي ، وان يتشكل مجلسا تنفيذيا اعلى يضم الاثنين٠ (ص ١٢٢ ـ ١٢٣) ٠ وادعت الكاتبة ان جريدة

فلسطين نشرت مشروع الخالدي في ٢٧ / ١٢ / ١٩٣٣ دون ان تذكر اسمه ، وان الجريدة اشارت الى ان حزب المباي رفض هذا المشروع لانه يحدد الاستيطان الصهيوني في منطقة معينة من فلسطين * ،وتقول الكاتبة ان الخالدي بعث بمشروعه الى ماغنيس واوضح له في رسالة في تموز ١٩٣٤ انه لا يعتبر تقسيم فلسطين الى مناطق عربية ويهودية بمثابة حل مثالي ، بل حلا عمليا واكد له مجموعة من النقاط منها «ان اي مشروع لا يمكن ان يقبل من العرب ما لم يتحقق اليهود من انه يجب ان يكون هناك حد معقول لموضوعة ايجاد وطن قومي لليهود سواء في الارض او عدد السكان » (ص ١٢٤)، كذلك تذكر الكاتبة ان موسى العلمي دعا في تقرير له الى وزارة المستعمرات البريطانية في ايلول ١٩٣٣ ، الى اقتطاع قسم من فلسطين يمتد من تل ابيب الى عتليت مع عمق يغطي المستعمرات اليهودية في تلك المنطقة ، لتأسيس كانتون يهودي مستقل ، يسمح فيه لليهود بجلب ما يشاؤون من المهاجرين اليهود اليه ، على ان يترافق ذلك مع انشاء حكومة مركزية تضم كل فلسطين بما فيها الكانتون اليهودي تحت اشراف الانتداب البريطاني (ص ١٢٦) .

وتقول الكاتبة ان هذين المشروعين العربيين « يعتبران من اكثر المشاريع اعتدالا والتي يمكن توقعها ، ولربما المرء يظن انهما يمكن ان يرضيا على الاقل اليهود من دعاة الدولة ثنائية ـ القومية ،ولكن مما هو جدير بالملاحظة ان كل اليهود من دعاة ثنائية ـ القومية سواء بريت شالوم او هاشومير هتسعير ، كانوا يرفضون اي حل يرسي حدودا من اي نوع داخل فلسطين . وهذان المشروعان اللذان يقومان على اساس ايجاد حل نهائي وتحديد الهجرة اليهودية في مساحة ضيقة من الارض ، اصغر بكثير مما يمكن لاكثر اليهود اعتدالا من دعاة تقسيم فلسطين الى كانتونات عربية ويهودية، القبول بهما » (ص ١٢٦) .

وقبل الانتهاء من عرض هذا الفصل لا بد من الاشارة الى موقف الدكتور حاييم ارلوزوروف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٣) والذي كان يعتبر من اصغر قادة ثلاثة في الحركة الصهيونية ، هاجر الى فلسطين من المانيا في العام ١٩٢١ واغتيل في فلسطين في العام ١٩٣٣ ، ولا زالت قضية اغتياله حتى الآن مجهولة او لم يكشف النقاب عنها بعد . وتذكر الكاتبة ان آرلوزوروف كان من دعاة التفاهم العربي ـ اليهودي ، وتنبأ من صغره منذ كان عمره ٢٢ عاما ان الوطن القومي اليهودي في فلسطين سيظل محكوما بالتفاهم المتبادل بين العرب واليهود ، وكتب في العام ١٩٢١ « في وضعنا الحالي وفي ظل رغبتنا للحفاظ على انفسنا اكثر ما نستطيع ، وحرية العمل في سبيل بناء وطننا القومي اليهودي ، فانه ليس امامنا الا طريق واحد ، طريق السلام ، فقط سياسة قومية تقوم على اساس التفاهم المتبادل بيننا وبين العرب » (ص ٨٥) .

بالاضافة الى ذلك فان الكاتبة تذكر ان جماعة صغيرة في حزب المباي اطلقت على نفسها « مجموعة الاعضاء الاشتراكيين في المباي » انتقدت سياسة المباي من العرب وايدت فكرة الدولة الثنائية ـ القومية . مما اضطر قيادة الحزب الى طرد اعضاء المجموعة من الحزب ، حيث انتهت بعد ذلك كمجموعة سياسية . (ص ١٠٣ ـ ١٠٥) .

يغطي الفصل الثالث الفترة بين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، وهي من اكثر الفترات اضطرابا في فلسطين . وفي هذه الفترة ابدت بريطانيا اهتماما اكبر بموضوع حل الوضع في فلسطين ، ولا سيما بعد اندلاع الثورة الفلسطينية في العام ١٩٣٦ ، وتزايد عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين . ولذا تعددت المشاريع البريطانية ،

---

* لدى مراجعتنا للعدد المذكور من الجريدة في مكتبة مركز الابحاث تأكد لنا نشره بمزيد من التفصيل ولا سيما الاشارة الى ان الحكومة المركزية التي ستتشكل من العرب واليهود يجب ان تقوم على اساس نسبة عدد السكان في المنطقتين . اضافة الى ذلك اشارت في مقدمة المشروع ، الى ان المشروع كان خلاصة حديث اجراه البعض مع ممثلي وزارة المستعمرات البريطانية اثناء زيارتهم الاخيرة للقدس ،ولم تحدد الجريدة من تعني بهذا البعض .

وكان اهم هذه المشاريع ، المشروع الذي قدمته لجنة بيل بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود.

استعرضت الكاتبة في هذا الفصل مجمل النشاطات التي قام بها دعاة الدولة ثنائية - القومية ، حيث نشطوا ضد قرار التقسيم ، ومن ابرز هؤلاء كافراد كان ماغنيس الذي شكل واربعة آخرين مجموعة عرفت باسم مجموعة الخمسة ، (ص ١٤٤) ، ومن التجمعات كانت مجموعة « كديما مزراحا » - التقدم نحو الشرق - التي تأسست في العام ١٩٣٦ ، وضمت معظم اعضاء بريت شالوم اضافة الى مجموعة من اليهود الشرقيين ومستوطنين قدامى من اليهود في فلسطين . وتقول الكاتبة ان المجموعة لم تطرح نفسها على انها صاحبة وجهة نظر محددة في ايجاد حل للمسألة العربية - اليهودية ، بل حددت هدفها في انه « معرفة الشرق واقامة علاقات ثقافية ، اجتماعية ، واقتصادية مع شعوب الشرق » كذلك فانها عملت على اساس عدم التنسيق الكامل مع المؤسسات الصهيونية العليا في فلسطين ، وكانت تدعو الوكالة اليهودية الى تكوين لجنة سياسية مشتركة بممثلين متساويين منها ومن المؤسسات الصهيونية العليا لمتابعة النظر في ايجاد حلول عملية للعلاقات بين العرب واليهود . (ص ١٣٨ - ١٣٩) . وتقول الكاتبة ان معظم نشاطات المجموعة كانت تبدو وكانها نشاطات كالفاريسكي نفسه الذي نشط في هذه الفترة لمقابلة عدد من الزعماء العرب في فلسطين وفي سوريا ولبنان . (ص ١٤٣) . كذلك تذكر الكاتبة ان الوكالة اليهودية لم تبد ارتياحا لنشاطات المجموعة واعتبرتها غير مخولة بعقد اية محادثات مع العرب (ص ١٤٤) .

بالاضافة الى ذلك فقد استعرضت الكاتبة في هذا الفصل عددا من المشاريع البريطانية غير الرسمية والتي قامت على اساس رفض التقسيم وايجاد دولة موحدة بين العرب واليهود في فلسطين تقوم على اساس المساواة والتكافؤ بين الطرفين ، ومن هذه المشاريع ، المشروع الذي طرحه هربرت صموئيل (ص١٥٩ - ١٦٠) وكذلك مشروع هايمسون - نيوكمب . وهايمسون كما تعرفه الكاتبة بأنه يهودي غير صهيوني من بريطانيا كان مدير دائرة الهجرة في فلسطين ، اما نيوكمب فتعرفه بأنه كان مناصرا للعرب واحد مؤسسي مكتب المعلومات العربي في لبنان (ص ١٧٦) وقد توسعت الكاتبة في عرض هذا المشروع وتوضيح وجهة نظر العرب وكذلك الوكالة اليهودية من المشروع ، وتذكر الكاتبة ان هايمسون في رسالته حول المشروع الى وزارة المستعمرات البريطانية ذكر انه تم عرض المشروع على المرحوم الحاج امين الحسيني وابدى بعض التحفظات عليه (ص ١٧٧) . كما تذكر ان الحاج امين وضع صيغة معدلة للمشروع (ص ١٧٨ - ١٧٩) الا ان الكاتبة تعود وتذكر ان الهيئة العربية العليا في فلسطين اعلنت في ٢٤ / ١٢ / ١٩٣٧ بيانا وضعت فيه ما يثار من حديث عن محادثات وحلول معينة للمسألة الفلسطينية مجرد اشاعات ولا اساس لها من الصحة ، واكدت فيه ان المرحوم الحاج امين لا يمكن ان يوافق على مثل هذه الحلول (ص ١٨٧) . ان العرض الذي قدمته الكاتبة حول هذا المشروع وردود الفعل العربية واليهودية تجاهه مضطرب ومشوش ، واعترفت الكاتبة بذلك في البداية عندما قالت « ان التقارير حول الموضوع برمته معقدة ومتناقضة » . (ص ١٧٦) .

ومن الملاحظات التي ذكرتها الكاتبة ، ولا بد من تسجيلها هنا ، هي :

- حول نشاط ماغنيس ، تقول الكاتبة انه لاقى معارضة من معظم الصهيونيين ولم يؤيده او يساعده الا افراد ومجموعات متعاطفة مع فكرته ومعظمهم يهود غير صهيونيين وغير يهود . (ص ١٧٠) .

- من المنظمات الصهيونية التي عارضت فكرة التقسيم كانت هاشومير هتسعير ، التي دعت الى قيام مجتمع اشتراكي ثنائي القومية (ص ١٦٩) .

- ان الحركة الصهيونية رفضت التقسيم كما ورد في تقرير لجنة بيل ، وشجعت فكرة التقسيم من حيث المبدأ . (ص ١٦٩) .

ـ ان وزارة الخارجية البريطانية شجعت المحاولات المتعددة التي قام بها عدد من الانكليز لايجاد حلول بديلة للتقسيم ، في حين ان وزارة المستعمرات البريطانية كانت تتصرف على اساس انها مرتبطة بالتقسيم ، حتى تم رفض التقسيم من قبل بعثة وود هيد ، وبعد ان غير الوضع في اوروبا الموقف كله تجاه الشرق الاوسط (ص ١٩٥) ٠

ـ ذكرت الكاتبة ان هربرت صموئيل ذكر في رسالة له الى اورسبي جور ، ان عوني عبد الهادي قال له بدون تردد ، ان العرب يقبلون اقتراح نسبة ٤٠٪ لليهود ، اذا لم تكن محددة بفترة زمنية وكانت كحل نهائي ٠ (ص ١٩٤) ٠

يغطي الفصل الرابع الفترة من سنوات ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، وابرز ما في هذا الفصل ثلاثة امور ٠

١ ـ اتحاد جميع المنظمات والافراد من دعاة الدولة الثنائية ـ القومية في تجمع واحد اطلقوا عليه اسم « عصبة التقارب والتعاون العربي ـ اليهودي » وذلك اثر فشل مؤتمر لندن ، وقد انضمت هاشومير هتسعير مؤخرا الى العصبة ، في حين انها كانت تبدي تأييدا واسعا لها قبل انضمامها ٠

٢ ـ موافقة اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية على تشكيل لجنة تابعة للوكالة اليهودية ، لبحث المسألة العربية ، وقد تألفت اللجنة من سبعة اشخاص منهم اربعة من دعاة الدولة ثنائية ـ القومية ، من بينهم ماغنيس وكالفاريسكي ،وعين ساسون سكرتيرا للجنة ، وكان يوصف في اوساط اللجنة بأنه « جاسوس الوكالة » (ص ٢٣٨) ٠ وحول مهمة اللجنة ، تقول الكاتبة ان بن غوريون حددها في اول اجتماع للجنة حين قال « ان هذه اللجنة ليست لجنة عمل ، ولا وظيفتها التوسط بين العرب واليهود ، وادارة النقاش بين الطرفين للوصول الى اتفاق ، كذلك فليس من مهمة هذه اللجنة انتقاد اللجنة التنفيذية ٠ ان وظيفتها هي البحث في المسألة العربية ووضع اقتراحات وحلول عامة حولها » (ص ٢٣٧) ٠

وتؤكد الكاتبة ان هدف الوكالة اليهودية من تشكيل هذه اللجنة كان « اسكات ـ ولو لبعض الوقت ـ كل هذه الاصوات التي كانت تنتقد الوكالة اليهودية بانها لم تعمل شيئا على الجبهة العربية ، فوضعت المزعجين الرئيسيين في لجنة واحدة تحت سيطرتها » (ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨) ٠

لقد فشلت اللجنة في تحقيق اية نتيجة ، وكانت وجهات نظر اعضائها مختلفة ، ولم تغير المناقشات التي جرت ايا من وجهات نظرهم الاساسية ، ولم تتفق اللجنة على صياغة تقرير موحد في ختام اعمالها ، ولذلك صدر عنها تقريران ، الاول اقر بالاغلبية ، والثاني كان تقرير الاقلية ٠ (ص ٢٣٨ ـ ٢٤١) ولم تعر الحركة الصهيونية ايا منهما اهتمامها وكما تقول الكاتبة فقد صدر تقرير الاغلبية في وقت سيء ، ولم يجد من يتعاطف معه ، حيث كان اجتماع بلتيمور الذي دعا الى قيام دولة يهودية في فلسطين (ص ٢٤٩) ٠

٣ ـ في اواسط عام ١٩٤٢ تم تشكيل منظمة جديدة « ايحود» ـ الوحدة ـ كان اكثر اعضائها من عصبة التقارب العربي ـ اليهودي ، وكان ماغنيس وكالفاريسكي وسميلانسكي من الاعضاء المؤسسين لها (ص ٢٥٩) وحدد ماغنيس موقفها ، فنفى ان تكون ضد الصهيونية ، واكد انها ضد انشاء دولة يهودية او عربية في فلسطين ، واوضح ان منظمته مع ايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين يقوم على اساس الحقوق المتساوية لكلا الطرفين ـ العرب واليهود ـ في دولة ثنائية القومية ، واشار الى ان منظمته ترحب بقيام اتحاد بين فلسطين والاردن وسوريا ولبنان ، وان يرتبط هذا الاتحاد مع العالم الحر وبشكل خاص مع اميركا وبريطانيا ٠ (ص ٢٦١ ـ ٢٦٢) ٠

ومن احدى الاتهامات التي وجهتها الحركة الصهيونية للمنظمة ، تتعلق بموقفها من الهجرة اليهودية ، والقول بأن ماغنيس قبل ان يكون اليهود اقلية في فلسطين بنسبة٤٠٪ ٠ وقد نفت المنظمة ذلك ، واكدت انها ضد اي تحديد للهجرة اليهودية يثبت اقليتها بشكل

دائم ٠ (ص ٢٦٩) ٠ وتؤكد الكاتبة ان قبول ماغنيس بأقلية ٤٠٪ لليهود كان على اساس ان ذلك لفترة محدودة وليس دائما (ص ٢٦٨)٠

لقد قام دعاة الدولة الثنائية ـ القومية بنشاطات واسعة في هذه الفترة ، سواء على صعيد اتصالاتهم ببعض العرب ، او على صعيد محاولة تقاربهم مع الحركة الصهيونية ، وكذلك على صعيد صياغة برامج محددة لمواقفهم ، الا ان مواقفهم ونشاطاتهم كانت تصطدم باستمرار بموقف الحركة الصهيونية ، التي كانت ترفض مثل هذه البرامج ٠ وقد عبر عن ذلك سميلانسكي حين قال « طالما ان فكرة دولة يهودية موضوعة على جدول الاعمال فانه لن يكون هناك امكان لاتفاق عربي ـ يهودي » (ص ٢٦٩) ٠

الفصل الخامس يغطي الفترة من ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ ٠ وفي هذه الفترة قام دعاة الدولة ثنائية ـ القومية ، بجهد اخير ولكن بدون نتيجة تذكر ٠ وكما تقول الكاتبة « فقد كانت السنوات الاخيرة من الحرب وكذلك السنوات الثلاث التي تلتها كانت سنوات المأزق او الازمة بالنسبة لدعاة الدولة الثنائية ـ القومية حيث لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون » (ص ٢٧٧) ٠

وفي هذه الفترة ، تذكر الكاتبة ان العصبة توصلت في العام ١٩٤٦ الى اتفاق مع شخص يدعى فوزي درويش الحسيني الذي كان رئيس منظمة عربية تدعى « فلسطين الجديدة » كما تقول الكاتبة ٠ وتضيف ان الحسيني واربعة آخرين من منظمته وقعوا اتفاقية مع العصبة، عبروا فيها عن موافقتهم على برنامج العصبة الذي طرحته في اواسط ١٩٤٢ ٠ (ص ٣٠٤) ٠ الا ان الحسيني اغتيل في ٢٣ / ١١ / ١٩٤٦ من قبل وطنيين عرب وبقيام « دولة اسرائيل » انتهت فكرة الدولة الثنائية ـ القومية وماتت٠ وتقول الكاتبة ان من بقي من اصحاب هذه الفكرة كيف نفسه ووضعه مع قيام الدولة وقبل بها واخذ يعمل للدفاع عن حقوق الاقلية العربية التي بقيت في فلسطين ، ومنهم من اختار مغادرة فلسطين ٠ (ص ٣١٧) ٠

من خلال العرض المطول الذي قدمته الكاتبة، يتضح ان فكرة دولة ثنائية ـ القومية ، كانت محض خيال ولا يمكن ان تقوم ، فالصهاينة كانوا يسعون الى قيام دولة يهودية في فلسطين ، وبالتالي فانهم كانوا يرفضون اي حل يحد من الهجرة اليهودية او من استيلائهم على الاراضي ، كما كانوا يرفضون الوصول الى اي اتفاق مع العرب يحد من قدرتهم على قيام دولة يهودية ، وكما قال روبين في يومياته في ٢٥ / ٤ / ١٩٣٦ « لقد وصلت الى نتيجة ، وهي انه محكوم علينا ان نعيش في دولة بحرب دائمة ومستمرة مع العرب » (ص ١٣٩) ٠ ذلك انه لا يمكن التوفيق بين حق العرب في وطنهم فلسطين وبين المشروع الصهيوني ، واية صيغ من هذا النوع ، ستظل مجرد فكرة ومحض خيال ، ولا يمكن ان تجد تطبيقها على ارض الواقع ٠

لقد ظل دعاة الدولة الثنائية ـ القومية ، على هامش الحركة الصهيونية ، ولم يستطيعوا ان يحدثوا اي تأثير ولو محدود على السياسة العامة للحركة الصهيونية ٠ ويلاحظ من يقرأ الكتاب ، ان الاشخاص الذين تبنوا هذه الفكرة ، ظلوا هم انفسهم منذ العام ١٩٢٢ حتى العام ١٩٤٨ ، مما يدل على ان دائرة فعلهم كانت محدودة بأنفسهم وبالقلائل الذين يحيطون بهم ٠

غازي الخليلي

CHAIM HERZOG, **The War of Atonement,** (WEIDENFELD AND NICOLSON, LONDON, 1975)

منذ البداية ، يلمس القارىء في المقدمة ان المؤلف يدس مادة دعائية مباشرة، حين يتحدث عن حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ باعتبارها قصة نصر اسرائيلي متميز وقصة حرب جديدة في طرازها تذكر العالم الغربي « الحر » بالمخاطر التي تتهدد الديمقراطية الغربية . وبالطبع لا عجب في ذلك فالكاتب رأس المخابرات العسكرية الاسرائيلية مرتين فيما سبق ، فضلا عن كونه احد قادة الرأي في اسرائيل ، وكان المعلق العسكري الاسرائيلي ابان نشوب القتال ، وهو اليوم مندوب اسرائيل في الامم المتحدة .

ومن بين الفصول الثمانية عشر التي يتضمنها الكتاب ، يخصص هرتزوج الفصلين الاولين لتحليل الاوضاع الاستراتيجية السابقة على الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة . وهو يرى ان الجذور الحقيقية لحرب « يوم كيبور» ترتد الى حرب الايام الستة التي كانت ذات تأثير عميق على كل من طرفي الصراع . لقد حفزت تلك الحرب العرب على اعادة تقييم الوضع العسكري بالكامل ، في حين ان الاسرائيليين اخفوا تحت البساط اوجه القصور التي كشفت عنها اذ ان نشوة النصر جعلت الجميع يغض النظر عنها واحاطت المفاهيم العسكرية الناتجة من الحرب بهالة من القداسة مما هيأ الاذهان للحرب التالية وكأنها بمثابة حرب اليوم السابع .

لقد ظل التفكير الاستراتيجي لرئاسة الاركان الاسرائيلية ، منذ عام ١٩٤٩ ، يرتكز على ضرورة اخذ زمام المبادرة وذلك بشن هجوم وقائي ضد الدول العربية في حالة اشتعال الموقف ، وذلك لافتقار اسرائيل الى العمق الاستراتيجي . وجاءت نتائج الجولة الثالثة فتغير المركز الاستراتيجي لاسرائيل بسبب ابتعاد المطارات المصرية عن مناطق التجمع السكاني في اسرائيل لتصبح على بعد ست عشرة دقيقة بدلا من اربعة دقائق . ومع ذلك يرى المؤلف ان ضياع سيناء من مصر قد افقد اسرائيل ميزة استراتيجية نسبية اذ كان مجرد تحرك القوات المصرية عبر قناة السويس الى سيناء يحمل لاسرائيل معنى الانذار تستطيع معه ان تدعو الى التعبئة في وقت مبكر . اما تمركز الجيش المصري باستمرار على الضفة الغربية للقناة فقد ضيع على الجيش الاسرائيلي فرصة الانذار المبكر هذه .

على اية حال ، فمن خلال تمركز الجيش المصري بطول القناة شن الرئيس عبد الناصر حرب الاستنزاف في مارس ١٩٦٩ ، مما حمل العسكريين الاسرائيليين على السعي لاعداد نظام دفاعي في سيناء انتهى باقامة مجموعة تحصينات قوية اطلق عليها فيما بعد خط بارليف . ولما تضاعفت حرب الاستنزاف لجأت اسرائيل الى شن هجمات مضادة في عمق مصر، وانتهت بقبول كل من اسرائيل ومصر لمبادرة روجرز وزير الخارجية الامريكية . وبدأ وقف اطلاق النار في ٧ اغسطس (آب) ١٩٧٠ ، بعد ان نجحت مصر في تحريك قواعد الصواريخ قريبا من حافة القناة . وكان هدف عبد الناصر هو التمهيد للمرحلة التالية من خطته وهي السيطرة على جزء من الضفة الشرقية لقناة السويس تحت حماية مظلة الصواريخ في الغرب . الا ان وقوع تطورات هامة وهي احداث سبتمبر (ايلول) في الاردن التي اطاح فيها الملك حسين بوجود المقاومة الفلسطينية من هناك ، ثم وفاة عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ اثر بعمق على سير الاحداث .

ويستطرد الكاتب في وصف المسرح السياسي والدولي والمجهودات التي بذلها الرئيس السادات من اجل البحث عن حلول للمشاكل المعقدة التي تمخضت عن استمرار وضع الهزيمة ، ويروي قصة كفاحه خلال العامين ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ضد مراكز القوى ومع السوفييت للحصول على مزيد من السلاح ومحاولته المستمرة توريط الامريكيين في نزاع الشرق الاوسط

بصورة مباشرة • ويقف المؤلف عند واقعة انهاء مهمة الخبراء السوفييت في الجيش المصري خلال عام ١٩٧٢ وكيف انها لقيت ترحابا في اسرائيل ، رغـــم انهم اساءوا فهم الغرض الحقيقي منها والذي كان كامنا لدى الرئيـس المصري وجوهرية التوجه الى الحرب •

لقد ظلت مشكلة الحصول على قاذفات بعيدة المدى تعادل الفانتوم ، ونعني بها الميج ٢٣ ، تؤرق القيادة المصرية لتستطيع ان تروع بها اسرائيل بتهديد مراكز الكثافة السكانية فيها• وقد قدرت المخابرات الاسرائيلية ان مصر لـن تستطيع الحصول على مثل هذا السلاح قبـل عام ١٩٧٥ ، الامر الذي رتبوا عليه توقع عـدم نشوب الحرب قبل هذا التاريخ •

ويسوق هرتزوج الحديث الصحفي الهـــام الذي ادلى به الرئيس السادات في ٩ ابريل عام ١٩٧٣ الى بورشجريف محرر النيوزويك، والذي لمح فيه الى حتمية المعركة • وكيف ان مختلف المراقبين الاسرائيليين والغربيين - باستثنـاء هنري كيسنجر - لـــم يعيروا هذا الحديـث الاهتمام الواجب بسبب اعتقادهم بخطـــورة مشكلة القاذفات البعيدة المدى بالنسبة لمصر•

ويروي الكاتب كيف ان النجاح الاعظم للرئيس المصري تمثل في انجازاته - بالتنسيق مـــع الرئيس السوري حافظ الاسد - في توحيـــد العالم العربي رغم ما لقيه من متاعب • وتدعم موقف كل من مصر وسوريا بحصولهما علـــى الصواريخ الروسية سكود وفروج بعيدة المدى • وكان اقوى رد على التهديد الجوي الاسرائيلي التنسيق مع الدول النفطية العربية لاستخدام سلاح البترول •

وفي الفصلين الثالث والرابع يعالج المؤلف تلك الشبكة المعقدة من العوامل والعلاقات التـــي كونت نسيج الوضع الاستراتيجي والسياســي بين المتصارعين قبل اندلاع القتال ، والتي ادت فيما بعد الى ذلك الخطأ الفاحش الذي وقعت فيه القيادة الاسرائيلية حين اساءت تقديـــر النوايا المصرية والسورية لدرجة جعلت حاييم هرتزوج يقول ان الاسرائيليين كانت لديهـم العيون - التي كانت ترى الحشود وكل اشارات الحرب - ومع ذلك فانهم ما كانوا يبصرون •

لقد وضع العرب خطتهم على العديـد مـن الدراسات للمذهـب العسكري الاسرائيلـي ، ولاحظوا بمزيد من الغبطة الثقة المفرطة بالنفس لدى الاسرائيليين • وبينما ركن الاسرائيليون الى اوهامهم تلك عمد المصريون الى تحليل كل المشاكل التي يتوقعون ان تجابههم عند قيامهم بعبور قناة السويس • وعلى سبيل المثال تم تسليح الموجات الاولـى من المشاة بمدافـع صاروخية ضد الدبابات ، وكان واحدا مـن الحلول المناسبة لتأمين الاندفاعة الاولى مـن الهجوم • كما تم تزويدهم بالذخيرة الكافيـة والسلاســم وخراطيم المياه والمدافع السهلـة الحركة ، وذلك لتأمينهم عند اقتحام الساتـر الترابي على الضفة الشرقية للاستيلاء عـلى خط بارليف •

ويقول هرتزوج انه كلمـا اقتربت ساعـة الصفر ازداد حذر الجنود المصريين لدرجـة ان نحو ٩٥٪ منهم عرفوا بالحرب صباح يـوم ٦ اكتوبر فقط ، معنى ذلك ان المخططين العرب نجحوا في تضليل القوات الاسرائيلية والمخابرات الغربية الى ابعد حد •

لقد ظلت المخابرات الاسرائيلية اسيرة فكرتها الجامدة ، بان السادات لن يبدأ بشن الحرب طالما لم يجد حلا لمشكلة الهجوم الاسرائيلـي الجوي في العمق ، وهذه الفكرة اسدلت عـلى عيونهم غشاوة كثيفة جعلتهم لا يدركون ابعاد التحركات التي تتراءى لهم والتي ظنوا انها لا تعدو ان تكون مناورات ليس الا • وفي اليومين السابقين عـــلى اندلاع القتال ايقن القادة الاسرائيليون ان الحرب باتت وشيكـة لدرجة جعلت دافيد العازار يقترح توجيه ضربة وقائية ضد سوريا •

وفي اجتمـاع عقـد برئاسـة غولدا مائير في الثامنة صباح السبت توقع الجميع الحرب في السادسة مساء نفس اليوم ، لذا فوض رئيس الاركان بالدعوة الى تعبئة مائة الف مـــن الاحتياط • وجاءت الساعة الحاسمة حين اجتمع مجلس الوزراء في الظهر ، حين تم استدعـاء

اعضائه من منازلهم ومن المعابد ، وخلال المناقشات قدمت التأكيدات بأن الخطوات التي اتخذت للتعامل مع الهجوم كافية لايقافه حتى يتم تطوير الهجوم المضاد . وفي تمام الثانية الا خمس دقائق ، ووسط النقاش ، فتح الباب جنرال ليور السكرتير العسكري لرئيسة الوزراء ، وصاح قائلا « الاخبار ان الحرب بدأت » .

خصص المؤلف الجزء الاعظم من كتابه ، الى اثني عشر فصلا ، لمعالجة تطور المعارك على الجبهتين الشمالية والجنوبية . وقد صور الاهمية الاستراتيجية لهضبة الجولان ، وهي تطل على الجليل ومناطق الكثافة السكانية ، بأن جعل وجود القوات السورية عليها بمثابة ذئب يقف على باب حظيرة للغنم . وتناول تفصيلا مراحل الهجوم السوري الكاسح ثم مراحل الهجوم الاسرائيلي المضاد . لقد دارت معارك وحشية ضارية في الهضبة السورية ومن اجل السيطرة على مرصد جبل الشيخ ، ودار التصادم بالمدرعات واستخدم الاسرائيليون سلاحهم الجوي بكثافة كبيرة ولقي مقاومة عنيفة من الصواريخ المضادة .

وعلى نفس المنوال تناول هرتزوج تفاصيل معارك الجبهة المصرية في ستة فصول مبينا فيها كيف قام الجيشان الثاني والثالث باقتحام قناة السويس وخط بارليف . ويشرح كيف كانت القيادة الاسرائيلية متنبهة الى ان الهجوم كان وشيكا ، فقد كان فريق من المهندسين قد وصل صباح السبت ٦ اكتوبر واخذ يشرح للجنود الاسرائيليين كيفية تشغيل الانابيب والقنابل الفوسفورية التي تشعل النار في مياه القنال حين انهالت فوق رؤوسهم قنابل المدفعية المصرية . ويروي كيف قتل جنرال البرت مندلر قائد المدرعات ثم كيف شن المصريون هجومهم الكبير بالمدرعات يوم ١٤ اكتوبر . ويشرح باسهاب عملية العبور الاسرائيلي في الثغرة عند الدفرسوار والتي كان قد خطط لها منذ زمن بعيد .

ثم يعالج الكاتب في الفصل ما قبل الاخير وقائع الحرب الجوية والبحرية بين المتقاتلين . ويحاول التقليل من اهمية الخطوة الاستراتيجية البارعة التي اقدمت عليها البحرية المصرية حين اغلقت باب المندب في وجه الملاحة الاسرائيلية ، وذلك بابرازه جهود البحرية الاسرائيلية المتمركزة في شرم الشيخ لفرض حصار على خليج السويس وبالاخص ضد تزويد مصر ببترول حقل مرجان .

ويشير الكاتب الى حادث الهجوم الفدائي الفلسطيني يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٣ على قطار الحدود التشيكية النمساوية الذي اعقبه قرار المستشار كرايسكي اغلاق معسكر شناو للمهاجرين من اليهود السوفييت . وشد هذا الحادث اهتمام الحكومة الاسرائيلية عن الانتباه الى التطورات على خط وقف اطلاق النار على الجبهتين ، لدرجة ان غولدا مائير سافرت من ستراسبورغ الى فيينا لمقابلة المستشار النمساوي لتستحثه على اعادة النظر في قراره ثم عادت يوم ٣ اكتوبر لتعقد اجتماعا لمجلس الوزراء يناقش المسألة .

ويرى هرتزوج انه لم يثبت حتى اليوم ان حادثة معسكر شناو كانت جزءا من الخطة العامة التي وضعت لخداع اسرائيل وشد انتباهها بعيدا عن الجبهة . ولكن على اية حال فقد كانت الجماعة التي نفذت العملية تنتمي الى واحدة من كبريات منظمات المقاومة .

كما كان للهجمات التي قام بها الفدائيون عبر الحدود ، والحملات المضادة التي قام بها سلاح الطيران الاسرائيلي ، دورها في تصور الاسرائيليين ان ما قام به السوريون من انشاء قواعد للصواريخ ارض - جو كان يستهدف اضعاف فاعلية مثل هذه الحملات ، وليس شن الهجوم العام الذي شهده السادس من اكتوبر .

ويعتبر الفصل الثامن عشر اهم فصول الكتاب قاطبة ، ففي اكثر من عشرين صفحة ضمن المؤلف ابرز الدروس المستفادة من الحرب في شتى النواحي الاستراتيجية والتكتيكية والعملياتية . بل انه قيم التفكير الاسرائيلي السياسي والعسكري وبين مناص النقص والجمود فيه .

يرى هرتزوج ان الاخطاء الرئيسية التي اقترفتها اسرائيل في حرب الغفران تمت اصلا ، ويا للتناقض ، من انتصار حرب ١٩٦٧ • لقد رسخ في عقيدة الاسرائيليين ان الدبابة والطائرة يمكنهما ان تنجزا كل الامور ، ومن ثم اقاموا قواتهم بطريقة غير متوازنة • وعلى العكس من ذلك عمل المصريون على تحييد كل من الدبابة والطائرة وتأخير عملية تعبئة الاحتياط لدى الجيش الاسرائيلي •

يضاف الى ما سبق خطأ آخر اذ لم تستفد القيادة الاسرائيلية من المعلومات التي قدمتها المخابرات عن صواريخ ساجر المضادة للدبابات• كما اهملوا دور المدفعية المتوسطة التي وصلت ساحة القتال متأخرة • وكشفت الحرب ضرورة ان تتعامل القوات الارضية مع كل المشاكل التي تواجهها دون ان تعول كثيرا على القوات الجوية •

وهكذا تولد خطأ من خطأ ، البطء في تحريك الدبابات الى جبهة سيناء ، عطب الكثير منها في الطريق الطويل مما كشف ضرورة الاهتمام بالسكك الحديدية • لقد وجه الاسرائيليون استثمارات كبيرة الى المدرعات والطائرات ولكنهم اهملوا نواحي اخرى مثل مدافع المورتر وقاذفات اللهب ومعدات القتال الليلي • ولم يكن مشاة الجيش الاسرائيلي في احسن حالاتهم يوم اشتعال الحرب• كما وقعت القوات الاسرائيلية في خطأ تكتيكي وهو مهاجمة مواقع قوية التحصين مثل المزرعة الصينية وغيرها ، مهملة بذلك استراتيجية الاقتراب غير المباشر• ويقول هرتزوج ان القوات العربية قاتلت بكفاءة عالية على عكس الافكار الشائعة سابقا لدى الاسرائيليين ، ويشهد بأن العرب حاربوا جيدا في السابق ولكن نقطة ضعفهم كانت قيادتهم العسكرية العليا •

ويثير الكاتب واحدة من اكبر خطايا التفكير الاستراتيجي الاسرائيلي ، حين تلون الى حد كبير بحرب الاستنزاف ، وهي عدم قدرة المصريين على عبور القناة حتى يتحقق لهم التفوق الجوي ، مما ادى الى سقوط مبدأ الردع الاسرائيلي حين عثر العرب على الحل الامثل في تحقيق المفاجأة الاستراتيجية والعملياتية التي خططوا لها مع استخدام ميكانيكية الدبلوماسية الدولية لاستثمار اي موقف يتطور لصالحهم • والمؤلف لا يعتد هنا بوجهة النظر الاسرائيلية بأن الاعتبارات الاقتصادية كانت تجعل من المستحيل الحفاظ على الجيش الاسرائيلي في حالة تعبئة كاملة على طول خطوط الجبهة •

وثمة مفاجأة استراتيجية اخرى اصابت القيادة الاسرائيلية ونعني بها ذلك الاستهلاك الكثيف للذخيرة والسلاح والمدرعات والطائرات، الامر الذي القى بالرعب في قلوب الاسرائيليين حين اكتشفوا مدى اعتمادهم على الامداد الامريكي •

هذا ويطرح هرتزوج آراء بعض المحللين التي تبلور الفشل الاسرائيلي في غلطتين خطيرتين : الاولى، ان الخطأ القاتل كان في تقييم المخابرات لما لديها من معلومات وكذلك اخفاق القيادة العليا العسكرية والسياسية في تقدير مغزى التطورات المتوازية على الجبهتين السورية والمصرية • والغلطة الثانية ذلك الافتراض العنيد من قبل المؤسسة العسكرية الاسرائيلية بان معدل القوات على الجبهتين غير كاف لشن الهجوم •

والواقع أن المؤلف يضع يده على السقطة الكبرى في التفكير الاسرائيلي والذي يتمثل في النظرية الرئيسية بأن العرب غير قادرين وغير راغبين في شن الهجوم • وقد تولد من هذا الخطأ كثير من الاخطاء والسقطات • وهكذا تتكشف سلسلة كاملة من الاخطاء ، فقد كان التحلل والتراضي قد نما في اوصال الجيش الاسرائيلي • لقد جرى استبقاء الاحتياطي شبه المدرب من جبهة قناة السويس وافتقرت القوات الاسرائيلية الى الانضباط الذي انعكس من كثرة وفيات حوادث الطرق والتدريبات من الفترة السابقة على الحرب • يضاف الى ما سبق أن السرعة من دورة كبار الضباط (باحالتهم الى التقاعد في سن مبكرة) قد اصبحت هدفا في حد ذاته ، مما حرم الجبهة من ضباط ذوي خبرة قتالية حيث حل محلهم ضباط يفتقرون الى الخبرة •

وفضلا لما يقوم به الكاتب من تحليل مسؤولية كل من ديان وجولدا مائير والقادة أمثال اليعازار وجونين وشارون ، بخبرة يخرج بعدة استنتاجات اساسية ، منها انه لا يجوز لاي حكومة اسرائيلية في المستقبل أن تسمح للعرب باختيار الضربة الاولى، وان كثافة السلاح قد تلعب دورا رادعا في الشرق الاوسط ، وان العرب قد استعادوا كرامتهم وشرفهم القومي مما قد يسهل اجراء مفاوضات بين الطرفين .

يبدو ان شئون الحرب والنصر والهزيمة من اصعب الموضوعات على المعالجة الموضوعية النزيهة ، وبالاخص اذا كان الباحث ينتمي الى احد اقطاب الصراع ، اذ غالبا ما تتغلب الاعتبارات العاطفية – او قل غير الموضوعية – لتكون تقييمه ووجهة نظره للامور . ونفس الظاهرة لا شك نشاهدها في كثير مما كتب عن حرب اكتوبر – رمضان – من وجهة النظر العربية . على اية حال فان كثيرا من الكتابات التي صدرت عن الجانبين (الاسرائيلي والعربي) لا ترقى الى مستوى ما صدر عن مراكز الدراسات الاستراتيجية العالمية .

ولوحظ كذلك أن هرتزوج قد بالغ في عرضه لسير المعارك على كل جبهة على حدة بصورة جسمت الانفصال بين القيادتين العسكريتين السورية والمصرية . وقد وقع في نفس هذا الخطأ كثير من الكتب العربية التي عالجت الموضوع (باستثناء كتاب الحرب العربية – الاسرائيلية الرابعة . وقائع وتفاعلات ، الصادر عن مركز الابحاث الذي اعتمد التسلسل الزمني وليس التقسيم الجغرافي اساسا لتتبع ايام القتال) ، علما بأن معالجة الحرب على هذا النحو يوحي بغير الواقع الاستراتيجي الذي تلتزم به اسرائيل فهي تحارب المعركة بقيادة واحدة وان تعددت الجبهات ، في حين ان العرب يحاربونها بقيادات متعددة بتعدد الجبهات .

وزيادة على ذلك يلجأ الى مخاطبة القارىء الغربي ، بل يحاول تحريض امريكا واوروبا الغربية ضد العرب بحجة انهم كانوا مسلحين بالعتاد السوفييتي ، وان القوات الاسرائيلية حين حاربت العرب كانت تدافع عن ما هو اكثر من حرية ووجود اسرائيل وحدها . ويدعى أن حرب الشرق الاوسط اكدت كم يهدد الاتحاد السوفييتي العالم الغربي بسبب تفوق انتاجه من الدبابات على انتاج الاخير .

كما نلمس ايضا بعض السموم النفسية التي يحاول المؤلف دسها في كتابه حين يتحدث عن أن امكانيات الجيش المصري في القتال باقتدار قاصرة على الدفاع او القتال الهجومي المخطط بدقة ، أما القتال الهجومي في مواجهة التغيرات السريعة فانه فوق طاقة قيادته ، أو حين يقول انه لم تكن هناك ضرورة لذلك التمجيد المفرط في شجاعة السوريين رغم انه يعترف بأنهم قاتلوا بجسارة لا بأس بها . وكم كان هرتزوج متجنيا على الحقائق التي كشفت عنها معارك الدفرسوار وجبل الشيخ .

والاكثر مدعاة للدهشة اننا نجد هرتزوج يحاول ان يقابل بهز الاكتاف الجناح العسكري العربي حين يثير نظرية « الظروف الصعبة » التي حارب فيها الاسرائيليون . فهم في نظره « قد هرعوا لتوهم من المعابد الى ميدان القتال تحت المفاجأة » ، بل اننا نجده يردد نفس هذا المنطق فيما كتبه مؤخرا عن وجهة النظر الاسرائيلية من اتفاقية سيناء (انظر الهيرالد تريبيون الامريكية ٩ سبتمبر ١٩٧٥) حيث يصور « ان الاسرائيليين قد حققوا اعظم نصر صاعق في الصراع العربي – الاسرائيلي لانهم قاتلوا في ظروف صعبة ومعاكسة » .

والواقع ان المحللين العسكريين لو اخذوا بهذا المنظور « الظروف الصعبة » لتبرير هزيمة طرف امام اخر ، لجردنا التخطيط العسكري من محتواه الاستراتيجي الذي يفترض ان كلا الطرفين يتعمد شن الحرب في ظروف ملائمة له ومناوئة لخصمه .

مهما يكن من امر ، فان هذا لا ينفي أن المؤلف قد طرح في كتابه بعض الافكار الصائبة والاستنتاجات الجديرة بالتأمل والاهتمام . فهو يدين تاريخيا القيادة الاسرائيلية التي ضيعت على اسرائيل مركزا متميزا من القوة كانت تستطيع من خلاله أن تتفاوض من اجل المستقبل وسوف تدفع

بضياعه ثمنا باهظا • كما انه ينعي على العرب – في ذات الوقت – أن يستخفهم النصر ولا يستخلصوا الدروس الصحيحة من الحرب ، اذ أن ذلك يحمل في طياته بذور الحرب القادمة، وذلك ما لم يتمكن زعيم عربي حكيم من أن يعطي للعالم العربي رؤية جديدة ومتوازنة • ويقرر ايضا ان السوفييت قد تورطوا في العالم العربي بصورة بالغة لدرجة ان رأيهم، عما اذا كانت الحرب امرا مرغوب او غير مرغوب فيه ، اصبح غير اساسي •

ولا يفوتنا أن نشير الى انه من الناحية الشكلية يتضمن الكتاب سبع عشرة صورة فوتوغرافية اختيرت بدقة وعناية بالغة ، تركز في معظمها على ابراز الاشخاص (القادة والجنود الاسرائيليين) دون اهتمام يذكر بالاسلحة المتقدمة (على النحو الذي تلجأ اليه الدعاية العربية بهدف الرد على الدعاية الصهيونية التي تتهمنا بالتخلف والعجز عن استيعاب التكنولوجيا الحديثة) وذلك لادراكهم أن مخاطبة القارىء الغربي ادعى للتأثير من خلال الصور المجسمة لتفوق « الانسان الاسرائيلي » وليس « التكنولوجيا المستوردة» التي الفها الاوروبيون • وما اشبه الصور التي اوردها الكتاب بصور القادة والجنود من الحلفاء في الحرب العالمية الثانية •

خاتمة المطاف ان المؤلف تلافى مناقشة الحقائق الكبرى ، ذات الدلالة التاريخية ، التي تمخضت عنها الحرب مثل مستقبل اسرائيل في مواجهة تحول الكم العربي الى كيف مؤثر •

بيد ان الكتاب يظل مع ذلك قطعة من ادب الدعاية الصهيونية الذكية التي توجه للرأي العام العالمي (وبالاخص الناطق بالانجليزية) وتقدمه للاعلام العربي للدراسة والاعتبار •

السيد عليوه

ديوان عبد الرحيم محمود ،

(مكتبة بلدية نابلس ، أيار ١٩٧٥)

في الرابع عشر من تموز ١٩٤٨ استشهد الشاعر عبد الرحيم محمود اثناء ادائه لواجبه المقدس في معركة الشجرة بفلسطين • وبعد مرور ستة وعشرين عاما تنبه كثيرون الى احياء ذكراه • فهب اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الى جمع ديوانه ونشره مع مقدمة طويلة عن الشاعر وشعره بقلم الدكتور كامل السوافيري • ومع ان الديوان جاء ناقصا بشكل ملحوظ فانه يعد عملا كبير الاثر في احياء ذكرى الشاعر الشهيد • وقد شاء قسم الابحاث في مكتبة بلدية نابلس ان يحيي ذكرى الشاعر بطريقة مماثلة • فقام عادل عبدالقادر الحاج حمد ، وعلي محمد واصف طوقان ، وباسمة مرتضى حلاوة ، بجمع ما هو موجود من قصاصات الورق ، والابيات ، والقصائد ، عند اقارب الشاعر في عنبتا ، والكثير من اخبار حياته وسيرته ، مع ما جاء في الديوان الذي اصدرته لجنة التكريم في عمان سنة ١٩٥٨ • وخرجوا من كل ذلك بحصيلة متواضعة نشرتها مكتبة البلدية في كتاب يضم دراسة وافية عن الشاعر وشعره •

واذا كانت طبعة اتحاد الكتاب جاءت اوفى واشمل من الطبعة الاولى للديوان فان طبعة مكتبة بلديةنابلس [ايار ١٩٧٥] قد استطاعت ان تستوفي ما لم يتوصل اليه كامل السوافيري. ويستطيع القارىء المتأني ان يثبت اعدادا من الابيات كبيرة اضافتها الطبعة الجديدة . كما يلاحظ ـ من جهة اخرى ـ وجود نواقص في بعض قصائدها يجدها القارىء مستوفاة في طبعة الاتحاد سالفة الذكر .

ومع ان مقدمة كامل السوافيري طويلة للغاية الا انها لم تستطع ان تقدم للقارىء رؤية نقدية جديدة لشعر الشاعر عبد الرحيم محمود . وما اشبههذه المقدمة بالدراسات الادبية الكلاسيكية التي تطغى عليها نزعات التاريخ والتصنيف والمبالغة في التقدير الجمالي مع سيطرة الاتجاه الكلاسيكي في النقد والتقويم والتحليل . ولم تكن المقدمة التي استهل بها معدو الديوان في قسم الابحاث بمكتبة بلدية نابلس متميزة من حيث النوعية عن مقدمة السوافيري او غيره من الكتاب التقليديين . فالنظرة الى عناوين المقدمة تؤكد ما نقول : « سيرة الشاعر الذاتية» « بيئته الخاصة والعامة » . « نضاله العسكري ومعركة الشجرة » . « الصراع بين العرب واليهود » . « شخصيته » « تأثره بالشعراء الآخرين » . الى آخر تلك العناوين التي اعتدنا قراءتها في كتب تاريخ الادب . والحق ان المرء لا يستطيع ان يلوم هؤلاء الشبان الثلاثة الذين قاموا باعداد هذا الديوان وهذه الدراسة لاسباب لا تخلو من الوجاهة . فليس فيهم من هو متخصص في مجال الدراسات النقدية المعاصرة . كما ان وضعهم تحت كابوس الاحتلال جعل من احياء ذكرى الشاعر هدفهم النهائي ولم يلتفتوا الى ضرورة احيائه شعريا وفكريا .

ونحن الآن لسنا بصدد الحديث عن طبعات الديوان . ولا نود ان نحصي الاضافات التي اشتملت عليها كل طبعة . ولا نروم كذلك تسجيل انطباعاتنا عن هفوات وقع فيها جامعو الديوان ومحققوه . بل حسبنا ان نلقي الاضواء على شعر عبد الرحيم محمود بعد سبعة وعشرين عاما من استشهاده محاولين ان نكتشف طاقة هذا الشاعر الثورية التي ابقت لشعره هذه النكهة الخاصة ، وهذا الزخم المتميز ، وما فيهما من عناصر التجدد والاستمرار التي تجعل شعره على وصال مع التجربة الشعرية الثورية المعاصرة . ومع ان الشاعر ـ في الواقع ـ لم يصدر عن رؤية فنية واقعية موحدة ،بل تجاذبته رؤى مختلفة شتتت طاقته الشعرية ، وحشرته في نقطة التماس مع شعر المناسبات ـ الا اننا سنعمد في هذه الدراسة لاستقراء الجوانب الكامنة فيه . وهي نفس الجوانب التي تهبه قوة العطاء الثوري.

وهذه الجوانب ـ للاسف ـ هي التي لم يشر اليها اي من دارسي عبد الرحيم محمود . لا الاكاديميون ولا جامعو الديوان ومحققو القصائد وما اقصده هو ذلك الوعي الطبقي الذي بدأ بالظهور في شعر عبد الرحيم محمود قبل غيره من الشعراء .

ويستطيع الباحث ، باستقراء الشواهد التاريخية التي بقيت من الفترة التي توهجت فيها شاعرية عبد الرحيم محمود ـ وهي فترة الثلاثينات والاربعينات ـ ان يستنبط جملة خصائص تميزت فيها تلك السنوات على المستويين السياسي والاجتماعي . فقد ازدادت ـ على المستوى السياسي ـ حدة النضال ضد الاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني . كما برزت ـ على المستوى الاجتماعي ـ مجموعة التناقضات الطبقية بحكم العوامل المختلفة التي تحدها جدلية التطور والصيرورة. فقد تبلور في هذه الفترة اتحاد العمال العرب في فلسطين . كما تطورت جمعية عمال فلسطين العربية .وتأسست النقابات العمالية وانتشرت ـ رغم الانتداب البريطاني ـ افكار اجتماعية ديمقراطية تنبه الى الخطر الذي يحمله الاستعمار كما تنبه الى خطر استمرار التركيبة الاجتماعية الحالية التي كانت تتألف من تحالف طبقة الاقطاع وطبقة الوجهاء الى جانب الطبقة المتوسطة التي برزت حديثا والفئات البيروقراطية . وظهرت صحف اتخذت من الخط الديمقراطي شعارا لها مثل مجلة الطريق ، ومجلة الى الامام ، وصحف اخرى . وعبدالرحيم محمود باعتبار انه شاعر ذو حساسية متميزة

كان عليه ان يدرك كل ما يدور من حوله ، وهو الذي ينحدر من صلب طبقة فقيرة هي صغار الفلاحين ، وانتقل من القرية الى المدينة ليعايش فيها واقعا طبقيا متمايزا . ومع تفجر شاعريته اصبح عليه ان يناضل في جبهتين : ضد الاستعمار المزدوج البريطاني الصهيوني ، وضد الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي .

ورغم ان الظرف الموضوعي كان يحتم على الشاعر الفلسطيني آنذاك ان يصرف النظر عن التناقضات الثانوية . وان يركز الجهود باتجاه الخلاص من الاستعمار المزدوج فان عبدالرحيم وجد نفسه مرغما على الاشتراك في الحوار المحتدم داخل الطبقة البورجوازية الصغيرة حول الافكار الجديدة التي بدأت تصل البلاد فور انتصار الثورة الروسية ، وتأسيس الحركة النقابية . ولهذا يلحظ قارىء الديوان وجود هذين الخطين المتوازيين لديه . ولعل الغلبة الكمية لجوانب الصراع السياسي في شعره هي التي جعلت جل الدارسين يغفلون عن ادراك الجانب الاجتماعي منه ، ويبذلون القدر الاكبر من اهتماماتهم في استجلاء الجوانب الوطنية . ان اعادة النظر في شعر عبد الرحيم محمود والكشف عن مكامن الوعي الطبقي لديه ، يهدينا الى السبل الحقيقية لمعرفة الصلة بين تراث الشعر الثوري الفلسطيني ، وبين هذا الشعر الذي نقرأه بعد تصاعد المقاومة ، او بالتحديد ، في المرحلة التي تلت حزيران الاسود ١٩٦٧ .

من بين القصائد التي تطرح تصور الشاعر للحوار الذي دار في فلسطين حول مفهوم التحرر الاجتماعي قصيدته التي عنوانها « نحن المصادر والموارد » فهي اشبه بردود فعل ضد اقوال وآراء كانت تطرح لكي تنتقص من العمال بوصفهم طبقة ذات حقوق . ونراه - في الرد على هؤلاء المتقولين - يفخر بانتمائه لهذه الطبقة ذات الدور الكبير في بناء الحضارة والاقتصاد والمجتمع :

نحن المصادر والموارد
وسلاحنا فتل السواعد
وقلوبنا نبع المكارم ..
ليس ينضب والمحامد
ودماؤنا الحمراء للحرية العليا روافد
ولنا الايادي البيض ..
لا ينسى الايادي غير الجواحد
وبنا اذا تدهو الشدائد ..
كان تفريج الشدائد .

والملاحظ - هنا - ان الشاعر ربط قضية التحرير الاجتماعي بالتحرر الوطني . فهؤلاء العمال هم الذين كانوا يسقطون في غمار الحرب ضد البريطانيين والصهيونيين ، الى جانب حربهم ضد مستغليهم الذين يصفهم الشاعر بكلمة الجواحد . ويرى الشاعر جثة حمال مطروحة في الطريق ، والناس يمرون مزورين عنها . فتتهيج قريحته لهذا الموقف الذي يجسد الشوط الذي قطعته هذه الطبقة في تحمل الاضطهاد طوال العصور :

قد عشت في الناس غريبا وها
قد مت بين الناس موت الغريب
والناس قد كانوا ذوي قسوة
فليس للبأس فيهم نصيب
لو كنت في حبلك شناقهم
لولولوا حزنا وشقوا الجيوب .

ورغم الخطأ الذي وقع فيه الشاعر حين استعمل كلمة « الناس » وهي كلمة عامة لا تحمل مضمونا طبقيا محددا ، رغم ذلك فانه لمس في القصيدة جانبا من جوانب الصراع الاجتماعي في ظل الانظمة الاجتماعية التقليدية . ويمضي الشاعر في تصوير الفارق بين موقفين : موقف الناس المؤمنين بالقيم الاقطاعية ، وموقف الشاعر الذي يعوزه الاحساس بقيمة الاشياء في ضوء الموقف الذي رأى فيه ابعاد مأساة الحمال الميت :

لثوبك الرث واخلاقه
كرهت اثواب الحرير القشيب
والجسد الجامد في يبسه
كره لي الغصن الطري الرطيب
وصمتك الرائع يا موحشي
بغض لي الصوت الحنون الطروب .

اي تعبير اعمق ، وادق ، في تصوير الانتماء، من التعبيرات التي استخدمها عبدالرحيم محمود

في تصوير انتمائه الاجتماعي ؟ وفي قصيدة اخرى بعنوان « انصفني فأنا اخوك » يخاطب الشاعر اصحاب الاموال ، والمصالح ، طالبا منهم الانصاف والعدل ، لا شيء اكثر من ذلك:

اتينا للحياة فلي نصيب
كما لك انت في الدنيا نصيب
فلم تعدو وتغصبني حقوقي
وتطلب ان يسالمك الغصيب
اعدلك قال ان اسعي وتجني
واطلب لي المعاش فلا اصيب ٠

وتدلنا هذه الابيات على حقيقة ان الشاعر كان يخوض معركة حامية الوطيس ٠ فهو لا يقر بعدالة المطلب الاقطاعي بسكوت المغصوب على غاصبيه بل يحث العامل ، ويحرضه ، على المطالبة بحقوقه ، وعدم السكوت ٠ ولعل في هذه القصيدة ما يوحي بأن الشاعر كان لديه من الوعي بايديولوجية الطبقة العاملة فكرا وممارسة ما يدفع بنا الى استنتاج خطير وهو ان الشاعر ـ من الجائز ـ ان يكون قد التزم في تلك الفترة المبكرة بهذه الايديولوجية تنظيميا الى جانب الممارسة ٠

ويصل عبد الرحيم محمود ، في التزامه ، الى حد التشكيك بالقيم الغيبية التي دأب رجالات الاقطاع ، والوجهاء ، ومثقفو الطبقة الحاكمة آنذاك على زرعها في نفوس الفقراء والفلاحين والعمال ٠ وهي تحض على الصمت والاستكانة والتسويف ، والقبول بما كتبه الله على عباده :

بغى في قسمة الارزاق ناس
وقالوا : هكذا قسم الاله ..
وقالوا ان احب الله عبدا
برزقته المقدرة ابتلاه ٠
دعونا ان يكن هذا صحيحا
ير الفقراء معبودا سواه
لقد وصفوا الاله بشر ظلم ...
بما كذبوا ، تنزه في علاه ٠

وعلى هذا النحو درج الشاعر في رفع راية التحدي، لا ضد الاستعمار البريطاني الصهيوني فحسب ، بل ضد الاستغلال والاضطهاد الاجتماعي ،ودفع دمه فدية للاهداف الاجتماعية والوطنية السامية التي عاشت في دمه وعاش في صميمها ٠ وهكذا يظل شهيد الشجرة شاعرا نموذجيا تتحقق فيه امثولة المناضل الوطني بحق ٠ وهذه الامثولة هي التي نجد صداها ـ بشكل قوي ـ في نتاج الشعراء الفلسطينيين الثوريين المعاصرين : التزاما بالثورة المسلحة والتزاما بايديولوجية فكرية طبقية تكون خطوة تالية لانتصار الثورة ٠ والشعراء الفلسطينيون من توفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش واحمد دحبور وخالد ابو خالد والقيسي ووليد سيف والكثيرين غيرهم ان ساروا في هذا الطريق فانهم لا يزيدون الا تعميقا وتوسيعا للتيار الذي بدأه عبد الرحيم محمود في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ٠

ابراهيم خليل

حسين ابو النمل ، **بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي** (مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت : ١٩٧٥)

ينطلق حسين ابو النمل في كتابه من مقولة اساسية تقوم على ادراك اثر الاوضاع الاقتصادية على الكيان الصهيوني ، والتي هي « مسألة وجود او عدم وجود بالدرجة الاساسية » .

ويتناول البحث الاول « دور القرار السياسي في منع السياسة الاقتصادية الاسرائيلية » حيث يعتبر المؤلف « ان الاهداف السياسية وليس المعايير الاقتصادية ، هي المتحكمة بسياسة اسرائيل الاقتصادية » . اذ ان مفهوم القرار السياسي وعلاقته بالاقتصاد مختلف في الكيان الصهيوني عن المفهوم التقليدي له . فهو الاساس ويرتدي دورا مركزيا يستخدم الامور الاقتصادية لتكون في مصلحته . وتبرز سياسة العمل العبري كنموذج حي للتدليل على المنطق القائل «بتراجع المعايير الاقتصادية امام المعايير الايديولوجية عند التعارض بينهما » . وكذلك ازدياد الاجور بشكل يفوق الانتاجية الجدية للقوى العاملة . غير ان المؤلف لا يرمي من وراء هذا التأكيد الى نفي القانون الذي يعتبر السياسة اقتصادا مكثفا ، فهو ينظر الى الكيان الصهيوني على ضوء الاعتبارات الداخلية ، كما يضعه في اطار شبكة العلاقات الاقتصادية الامبريالية ، حيث يلعب هذا الكيان دورا اقتصاديا محددا قائما على خدمة الامبريالية العالمية ، لكن بالرغم من التأكيد على الاعتبارات الخارجية لدور الكيان الاداة ، فالمؤلف لا يلتزم بهذه الرؤية في كتابه كما سنبين .

ويكشف المؤلف في القسم الثاني من البحث الاول احد الاساليب التي يلجأ اليها العدو الصهيوني للحصول على الموارد المالية . ويتمثل هذا الاسلوب بخلق او استغلال الازمات، واصدار التصريحات والبيانات المذعورة التي تتحدث عن صعوبة الوضع الاقتصادي وتأزمه ، مما يعني مزيدا من التبرعات والمساعدات من بعض الدول ويهود العالم ، مع انه يتبين فيما بعد ان « لا اساس حقيقي » لهذه الازمة . من هنا فان اي تشخيص للاقتصاد الصهيوني لا بد ان يكون تشخيصا خاطئا اذا ما وقع اسيرا للدعاية الصهيونية المضللة . ولا ينفي ذلك ، من جهة اخرى ، ان كل الازمات التي تعصف بالكيان الصهيوني هي ازمات مفتعلة ، بل ان السؤال المطروح « لماذا تضخم اسرائيل ازماتها » . ويجد السؤال جوابه في الطموح الصهيوني لتجاوز حدود دور الاداة الذي ارادته الامبريالية ، لينتقل الى موقع الشريك للامبريالية. وهذا امر تحدده قدراته الاقتصادية والقاعدة الصناعية التي يبنيها .

ويفسر المؤلف مستوى المعيشة المرتفع للمستوطنين الصهاينة انطلاقا من كونه عامل وجود او عدم وجود للكيان الصهيوني ، وليس « مرده تمتع القوى العاملة في اسرائيل بقوة سياسية لها وزنها » بل ان الحفاظ على هذا المستوى المرتفع وتحسينه هو الذي يؤمن استمرار سياسة جلب مهاجرين جدد من الخارج ، حيث يترابط مستوى المعيشة المرتفع بتدفق الهجرة ، « وبلا هجرة لا توجد اسرائيل» ويخلص المؤلف الى نتيجتين هامتين :

١ ـ ان ارتباط معدل الهجرة بمستوى المعيشة يؤكد ان دور العامل الايديولوجي محدود اذا ما تعارض مع اسباب مادية قوية ... فالعامل الايديولوجي لم يستطع ان يقدم عام ١٩٥٣ سوى ٢ر١ الف مهاجر . بينما التحسين الكبير في الناتج القومي عام ١٩٥٤ قدم ٤ر١١ الف مهاجر .

٢ ـ اهمية العامل الاقتصادي بالنسبة لدولة العدو الامر الذي يفرض مواجهة عربية لها في مستوى ما يمثله من خطورة .

ويناقش المؤلف مدى صحة القول بان الكيان الصهيوني « دولة امبريالية بالمعنى

الاقتصادي » . ويجيب بالنفي منطلقا من التعريف اللينيني للامبريالية باعتبار ان الامبريالية كمرحلة متطورة من مراحل الرأسمالية تقوم على مجموعة من الخصائص ابرزها تصدير رأس المال الحالي الى الخارج وقيامه بدور استثماري ، ويشكل مصدرا للعائد . وهذه السمة لا تنطبق على الكيان الصهيوني لكونه دولة مستوردة لرأس المال ، ويعتمد على القروض والمنح والمساعدات الخارجية ، مع عدم استبعاد امكانية تحول الكيان الصهيوني الى « قاعدة اقتصادية » للامبريالية علاوة على كونه قاعدتها العسكرية والسياسية . غير ان هذا الدور الجديد يتطلب « انهاء حالة العداء والحرب واقامة علاقات طبيعية » مع جيرانها . وعلى رأسها « الحدود المفتوحة » .

اما بالنسبة الى التحويلات المالية للكيان الصهيوني كعبء مستقبلي على اقتصاده . فيعتقد المؤلف ان هذه التحويلات لم تعد تشكل عبئا على الاقتصاد الصهيوني وذلك بعد التطورات المستجدة التي طرأت عليه حيث ان « جزءا كبيرا من المساعدات التي قدمت لاسرائيل قد وظفت بشكل رئيسي لخلق اصول اقتصادية ... معمرة وتشكل بحد ذاتها رأس مال » . ويورد المؤلف بهذا الصدد الملاحظات التالية :

١ ـ ان معظم التحويلات المالية لاسرائيل هي غير قابلة للاسترداد ...

٢ ـ ان مصادر هذه التحويلات لم تجف بعد .

٣ ـ ان المرحلة القادمة وبالذات في حالة السلام ستشهد تخفيضا في بعض اوجه الصرف ، والتي كانت تبتلع الجزء الاكبر من المساعدات .

٤ ـ ... ان اعباء الدفاع في المرحلة القادمة ، وعلى ضوء ترتيبات السلام ، لا بد وان تتبدل جذريا .

لذلك يعتقد المؤلف ان الكيان الصهيوني قد استغل التحويلات المالية « لوضع اساس ثابت لطموح اسرائيل الاقتصادي ... حيث وجهت الموارد الاستثمارية نحو بناء رأس المال التحتي ، وترجمت بتحسين الزراعة ومكننتها وتحديثها ... [و] توفير قاعدة صناعية لا تلبي مصلحة الحاضر فحسب ، بل تتطلع لتغطية المستقبل ايضا » .

ويخلص المؤلف من هذا كله الى ان الكيان الصهيوني في طريقه الى التحرر من مجموعة من الضغوط وخلق الاساس لبناء اقتصاد مستقل عن طريق خلق قاعدة صناعية توفر الاساس المادي لهذا الاستقلال .

اما فيما يتعلق بحقيقة البطالة في مجتمع العدو فيعتقد المؤلف « ان كلمة البطالة بمعناها التقليدي والرائج لا تنطبق على الحالة التي تعاني منها اسرائيل » . وهي ليست عامل ضعف .. اذ ان البطالة المتفشية بين الجامعيين والشباب واصحاب الكفاءات والخبرة تعني وفرة في العقول التي اذا ما شغلت تصبح خطرا على العرب اكثر مما هي على دولة العدو . ولا ينظر المؤلف الى العجز في ميزان المدفوعات لاقتصاد العدو كمؤشر على ضعف هذا الاقتصاد وعدم قدرته على تحقيق الاستقلال ، بل ان الامر يختلف عندما ننظر الى الواردات التي تشكل قيمة السلع الاستثمارية جزءا هاما منها . والتي تخدم اغراض التنمية الصناعية وبالتالي فهي مؤهلة لان تصبح منتجة في المستقبل ، وقادرة على سداد هذا العجز .

وفي البحث الثاني يبين السيد ابو النمل « دور العمال العرب في الاقتصاد الاسرائيلي » حيث يساهمون عمليا في حل المشاكل الناتجة عن اختلال النسبة بين رأس المال والعمل في الكيان الصهيوني ، وبالتالي رفع الناتج القومي بنسب عالية ومتساوية نسبيا مع نسبة الطاقة العاطلة في اقتصاد العدو ، مما سيؤدي الى تخفيض تكلفة « السلع الاسرائيلية ، وكذلك انخفاض في اجمالي قيمة الاجور الحقيقية المدفوعة » . وهذا بدوره سيعزز القدرة التنافسية لسلع دولة العدو في الاسواق العالمية . غير ان المشكلة التي ما زال يعاني منها الاقتصاد الصهيوني تتمثل في « عدم توازن .. (هيكل القوى العاملة) لصالح الكفاءات الفنية والعلمية » مما يجعل وضع دولة العدو

« شبيها » بوضع المرء الذي يملك من النقود اكثر مما يستطيع ان ينفق » ٠

ويكشف المؤلف بالارقام مدى اعتماد اقتصاد العدو على اليد العاملة العربية ، حيث « ان اليد العاملة غير الفنية ، التي يقوم عليها الاقتصاد الاسرائيلي ، انما هي اليد العاملة العربية » ، ويتمثل تخطي الكيان الصهيوني عقبة توفير العنصر البشري في الاستفادة من بقية الموارد ، وتحقيق المزيد من فائض القيمة مما يفتح امامه مرحلة اقتصادية جديدة قائمة على تصدير رأس المال في المرحلة القادمة ، وليس رأس المال البضاعي فقط ٠ وهنا نصل الى تناقض هذه السياسة الاقتصادية الجديدة القائمة على الاعتماد على اليد العاملة العربية مع سياسة العمل العبري التي اعتنقها قادة الحركة الصهيونية مع بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين ٠ غير ان تبدل الظروف الاقتصادية والسياسية قد جعل الاعتماد على اليد العاملة العربية دون سواها قضية تاريخية محضة بعد وصول الاقتصاد الصهيوني الى مرحلة جديدة من التطور تستلزم تشغيل اليد العاملة العربية ٠ وامام التهديد الذي يمثله تزايد العرب لديموغرافية السكان في الكيان الصهيوني ، نلاحظ ان قادة هذا الكيان يحاولون الاستفادة من العمال العرب اقتصاديا، وعدم تحمل مسؤوليتهم سياسيا واجتماعيا ٠

اما البحثان الثالث والرابع فيرتديان اهمية خاصة في هذه المرحلة من الصراع العربي – الصهيوني وذلك لتناولهما مدى خطر السلام على الاقتصاد الصهيوني واثار حرب تشرين على هذا الاقتصاد ٠

ويناقش المؤلف الوضع الاقتصادي في الكيان الصهيوني في ظل السلام المؤقت من خلال ثلاثة مؤشرات : تطور الناتج القومي ، تطور الهجرة ، المساعدات الاقتصادية ٠ ويؤكد تلازم هذه المؤشرات وترابطها ، وارتفاع نسبها في ظل وضع يسوده الامن والسلام ، وانتفاء التهديد بحرب وشيكة ٠ ويدحض هذا الاستنتاج وجهة النظر القائلة بخطر السلام على الكيان الصهيوني ٠

ويفسر عدوان حزيران في العام ١٩٦٧ انطلاقا من الديناميكية الداخلية للاقتصاد الصهيوني حيث كان قد بلغ مرحلة جديدة تتمثل في الانتقال من خلق وبناء الاصول الى تشغيل هذه الاصول، وبالتالي بروز النزعة العدوانية لرأس المال والسعي وراء ما اسماه لينين « الرقع الاقتصادية » لتوفير سوق استهلاكية ويد عاملة رخيصة تلبي احتياجات صناعة العدو المتزايدة٠

وفي رأينا ان هذا التفسير لا يتوافق مع ما ذهب اليه المؤلف في تشخيصه لطبيعة الكيان الصهيوني ودوره :

١ ـ فلقد نفى المؤلف في القسم الرابع من البحث الاول ان تكون دولة العدو دولة امبريالية بالمعنى الاقتصادي ، واعتبرها اداة سياسية وعسكرية للامبريالية تطمح الى لعب دور الشريك عن طريق بناء قاعدة اقتصادية مستقلة ٠ فاذا كان الكيان الصهيوني هذه الاداة التي تستمر في تأمين وجودها عن طريق المساعدات والقروض الخارجية ، فلا بد ان تكون الحروب التي تشنها مرتبطة بمخططات الامبريالية في المنطقة ، وليست نتيجة لديناميكية التطور الاقتصادي الداخلي فقط ٠

٢ ـ يعتقد المؤلف انه مع تزايد التنامي للصناعة الصهيونية ، ستتزايد حاجتها لرقع اقتصادية جديدة ، وستسعى دولة العدو لتوفيرها عن طريق اتفاقيات السلام ٠ وعندما تتوصل هذه الدولة الى اي حالة سلام ، فلسوف تتمكن من تخفيض اعباء الدفاع عن كاهل موازنتها ٠ مما يعني تخصيص تلك الموارد نحو اهداف التنمية واستيعاب المهاجرين ٠

ويقع المؤلف مرة اخرى في تناقض حول تطور اقتصاد دولة العدو المستقبلي ٠ فاذا كان لرأس المال نزعة عدوانية تدفعه الى شن الحرب من اجل الحصول على الرقع الاقتصادية، فهذا يعني ان هذه النزعة سوف تتضاعف مع تركز هذا الرأس المال ونموه ، مما سينعكس على زيادة النفقات العسكرية والعمل على عسكرة الاقتصاد بغية تحقيق غاياته ٠ هذا ما يدل عليه تاريخ الدول الامبريالية التي تزداد نفقاتها العسكرية ومخصصات الدفاع في

ميزانيتها مع ازدياد توسعها الخارجي لمد نفوذها وتصدير رؤوس اموالها واستغلال اليد العاملة الرخيصة والحصول على المواد الخام ، ودخولها مع الامبرياليات الاخرى في صراع مكشوف على مناطق النفوذ .

وتأتي حرب تشرين لتعمق الازمات التي كان يعاني منها اقتصاد العدو فيما قبل الحرب . مما زاد في التكاليف المباشرة وغير المباشرة ، وخلق جوا من التعبئة ، اي الاستمرار في عدم العودة الى الاوضاع الطبيعية قبل الحرب ، ومحاولات الكيان الصهيوني لاستعادة قوته العسكرية وانعكاس هذه المسألة على ميزان المدفوعات وجميع فروع الانتاج . بكلمة اخرى، ارتفاع الاعباء الامنية ، وبروز مسألة تمويل مشتريات الاسلحة . وتطرح مسألة ارتفاع الاعباء الامنية ضرورة « توجيه مزيد من الطاقة البشرية والانتاجية لتلبية متطلباتها » ، مما سيؤدي الى «ازدياد النقص في الطاقة البشرية المخصصة للفروع الصناعية الانتاجية » . وبالتالي رفع اسعار السلع المعدة للاستهلاك الداخلي ، وارتفاع العجز في ميزان المدفوعات نتيجة النقص في السلع المعدة للتصدير .

وبالرغم من حفاظ دولة العدو على سياستها القديمة الثابتة بالنسبة الى المصروفات الامنية ، فان ضمان مستوى معيشة مرتفع لمواطنيها قد تعرض لهزة لاول مرة . ولقد لجأت حكومة العدو الى الاجراءات التالية لمعالجة هذا الوضع :

« (١) الحصول على مزيد من المساعدات والقروض لتمويل مشترياتها الامنية بالدرجة الاساسية .. ومن ثم بقية الواردات الضرورية لاقتصادها .

(٢) تخفيض الاستيراد المعد للاستهلاك والعمل على تحسين الصادرات .

(٣) تقييد وتخفيض مستوى الطلب النقدي الكلي وتخفيض العمل في الاستثمارات ومشاريع التنمية وكذلك قطاع البناء .

(٤) رفع الانتاج باستنفار الطاقة البشرية في اسرائيل الى اقصى مدى » ، بالاضافة الى الاعتماد على المتطوعين الاجانب ، والاستفادة من العمال العرب في مناطق ٤٨ و٦٧ .

وينتهي المؤلف الى التأكيد على النقاط التالية :

١ – ان اكثر الاجراءات التي تركت اثرا ، كانت المساعدات الاميركية التي انقذت ميزان المدفوعات الاسرائيلي ، والعمال العرب ، من المناطق المحتلة ٤٨ و٦٧ الذين يشكلون حجر الرحى في سياسة اسرائيل لزيادة الانتاج .

٢ – اذا كنا لا نستطيع ايقاف المساعدات الاميركية نتيجة للارتباط العضوي بين الامبريالية الاميركية واسرائيل ، فيجب ان نكون قادرين على الاستفادة من الدور المؤثر الحيوي للعمال العرب ... وان العرب الذين يقرضون اميركا ، والذين تخشى اوروبا ليس سحب ارصدتهم النقدية ، بل مجرد تحريكها، يجب ان يعكسوا قدرتهم هذه باتجاه مزيد من الصمود لدول المواجهة .

واخيرا نورد الملاحظات التالية :

١ – كنا نتمنى الا ينجر المؤلف الى استخدام التعابير التي ترد في القاموس الصهيوني حول دولة العدو ،خاصة عندما يطلق على المستوطنين الصهاينة اسم « المواطنون الاسرائيليون » .

٢ – رغم ايلاء المؤلف الهجرة الى دولة العدو اهمية قصوى ، غير انه يتجاهل هجرة اليهود السوفيات ومدى دعمهم لهذه الدولة وتعزيز كيانها . ونحن لا نفهم تجنب هذه المسألة الخطيرة حتى من باب الحوار والتعامل مع « دولة صديقة » .

٣ – يغرق المؤلف في بعض الاحيان في تفسير اقتصادي جامد بالنسبة الى تفسير الاهداف الكامنة وراء الاعتداءات الصهيونية على الدول العربية خاصة عدوان حزيران ٦٧ ، وبالرغم من انه يذكر في مطلع الكتاب انه يضع الكيان الصهيوني في اطار شبكة العلاقات الاقتصادية الامبريالية ، حيث يلعب هذا الكيان دورا قائما على خدمة الامبريالية العالمية . وهذه نقطة اثرناها في سياق العرض .

يوسف شويري

اسرائيليات

[١]

اسرائيل تتخوف من « تغيير » في السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية

تحتل القضية الفلسطينية مكانا بارزا في وسائط الاعلام الاسرائيلية في المرحلة الراهنة، وتعبر المقالات والتعليقات الكثيرة التي تعالج هذه القضية عن اختلاف في المواقف والاراء داخل الائتلاف الحكومي وفي الرأي العام الاسرائيلي حول كيفية مجابهة هذه القضية ، وتولي اهتماما شديدا بكل ما يصدر عن الولايات المتحدة من بوادر واتجاهات حول هذا الموضوع ، ومع ان الاوساط الاسرائيلية المختلفة تقيم المواقف الاميركية بصورة متباينة ، احيانا بحسب رغبتها ، يمكن القول، بصورة عامة ، ان هذه الاوساط جميعا ، تتحدث عن حدوث تغيير في السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية ، وخاصة بعد نشر «وثيقة ساوندرز » التي اعترفت الولايات المتحدة بموجبها ، ولاول مرة ، ان القضية الفلسطينية هي اساس النزاع في الشرق الاوسط ، وتعتقد بعض هذه الاوساط ان هذا التغيير ليس الا مجرد بداية ، بينما يذهب بعضها الى القول ان اعتراف الولايات المتحدة الاميركية بـ م.ت.ف. ليس الا مسألة وقت .

ماذا تغير في السياسة الاميركية ؟

يعتقد معظم المعلقين الاسرائيليين ان اي تغيير حصل ، او سيحصل ، في السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية و ـ م.ت.ف. يدخل في اطار « اعادة النظر » في هذه السياسة تجاه قضية الشرق الاوسط ، بهدف تعزيز مواقع اميركا في العالم العربي على حساب الاتحاد السوفياتي من جهة ومحاولة تجنب العزلة التامة عن بقية دول العالم في مواقفها من القضية من جهة اخرى ، وان هذه السياسة متأثرة وستتأثر اكثر ، باحتمالات سياسة الوفاق الدولي . وهذا التغيير الذي يتحدث عنه الاسرائيليون يثير قلقهم ، ليس لانه قد يؤدي الى تخلي الولايات المتحدة عن اسرائيل بل لانه قد يؤدي الى اقامة دولة فلسطينية الى جانبها ، مقابل اعتراف م.ت.ف. باسرائيل .

اما متى بدأ هذا التغيير في السياسة الاميركية يعبر عن نفسه بصورة ملموسة ، فان البعض يعزي ذلك الى نشر « وثيقة ساوندرز » ، والبعض الاخر يعود الى الوراء اكثر ... « ان وثيقة ساوندرز لم تفاجئنا . فقد كان واضحا منذ رفعت الولايات المتحدة الشعار القائل انها لن تعترف بـ م.ت.ف. الى ان تعترف م.ت.ف. باسرائيل ، أن هذا الشعار لم يقصد به خدمة مصالح اسرائيل . فمنظمة التحرير الفلسطينية تستطيع ان تتغلب على معضلة الاعتراف باسرائيل اذا ما حصلت على الارشاد الدبلوماسي المناسب » (النائب زلمان شوفال ـ يديعوت احرونوت ، ٧٥/١٢/٧) .

ويعتقد الاسرائيليون ان « وثيقة ساوندرز » لا تعبر فقط عن رأي حامل اسمها ، بل تعبر ايضا عن موقف الحكومة الاميركية . فقد كتب احد المراسلين الاسرائيليين في واشنطن ان وزير الخارجية كيسنجر بعث برد على سؤال وجهه اليه لي هاملتون ، رئيس احدى لجان الكونغرس « ... المؤيد للعرب . وقد جاء في

الرد انه [اي كيسنجر] علم مسبقا بالوثيقة، الامر الذي يتناقض مع تصريح سابق له على اثر نشر الوثيقة ... » (دان مرغليت ـ هآرتس ، ٧٥/١٢/٩) . واضاف هذا المراسل ان الرئيس فورد (بحسب مقال نشره المعلقان ايفان ونوفاك ، المعروفان بحسن اطلاعهما ، في صحيفة واشنطن بوست الاميركية) « يعمل على تغيير سياسته الفلسطينية ، مستندا بذلك الى اشارات من التيار الرئيسي في م.ت.ف. حول استعداد للاعتراف باسرائيل » (المصدر نفسه) .

وتوقعت صحيفة اميركية اخرى ، هي « بلتيمور سان » ، ان « يسود التوتر العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية ، كلما تعمقت الولايات المتحدة في بحث القضية الفلسطينية » (يديعوت احرونوت ، ٧٥/١٢/٧) . ومعنى ذلك ان اسرائيل تعتبر مجرد معالجة القضية الفلسطينية من قبل الولايات المتحدة تغييرا في السياسة الاميركية . وهذا امر لا ينسجم مع موقف اسرائيل التي تصر على تجاهل القضية والالتفاف حولها ، وتحاول بالتالي التهرب من التوصل الى حل شامل لقضية الشرق الاوسط .

وتحدث الدكتور ناحوم غولدمان ، رئيس المجلس اليهودي العالمي ، عن التغيير في موقف الولايات المتحدة من م.ت.ف. فقال : « ان اعتراف اميركا بـ م.ت.ف. ليس الا مسألة وقت . واميركا لا تفعل ذلك الان لكي لا تحرج اسرائيل ... الوزيران الون وعوفر مستعدان للاعتراف بالفلسطينيين ،اما رابين فغير مستعد لذلك . ولكن اسرائيل قد تغير موقفها بسبب اعتمادها على الولايات المتحدة التي لا تتخذ دائما المواقف نفسها التي تتخذها اسرائيل » (معاريف ، ٧٥/١٢/٢) . ووافق النائب السابق اوري افنيري على هذا الرأي بقوله : « كل انسان عاقل في واشنطن يعلم ان اعتراف واشنطن بـ م.ت.ف. ليس الا مسألة توقيت واسلوب . ان الولايات المتحدة تريد ان تقبض ثمن هذا الاعتراف لنفسها وليس لاسرائيل . ستشترك م.ت.ف. في مؤتمر السلام وهذا بحد ذاته يعتبر اعترافا باسرائيل . وبعد او قبل ذلك ستنضم المنظمة الى القرار ٢٤٢ الذي يعترف بسيادة دول المنطقة ، وذلك في مقابل اعتراف اسرائيل بحق الفلسطينيين في وطن قومي » (هاعولام هازيه ، ٧٥/١٢/٣) .

سخط على مجلس الامن ... وعلى الولايات المتحدة

اذا كانت وثيقة ساوندرز قد اثارت الغضب في اسرائيل فان رضوخ الولايات المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ لمطلب سوريا في مجلس الامن بعقد المجلس في ٧٦/١/١٢ باشتراك م.ت.ف. ، مقابل موافقة سوريا على التمديد لقوة الطوارىء الدولية في الجولان ، قد اثار سخط اسرائيل على مجلس الامن وعلى الولايات المتحدة معا .

فعلى الصعيد الرسمي عقدت الحكومة الاسرائيلية جلسة طارئة في ٧٥/١٢/١ ،واتخذت قرارا بمقاطعة مجلس الامن . كذلك رفضت الحكومة اقتراح وزراء مبام والاحرار المستقلين والوزير عوفر (حزب العمل) بالموافقة على المفاوضات مع كل طرف يعترف باسرائيل (وهي الصيغة التي يعرفها الاسرائيليون باسم « صيغة ياريف ») . وقررت الحكومة ايضا ، آخذة جانب التصلب « تقوية التشكيل الامني في الجولان . وتقوية شبكة الاستيطان هناك » (يوسف حاريف ـ معاريف ، ٧٥/١٢/٢) . اما الصحف الاسرائيلية فقد اتهمت الولايات المتحدة بانها بموافقتها على بيان رئيس مجلس الامن، حول دعوة م.ت.ف. للاشتراك في مناقشات المجلس لقضية الشرق الاوسط وقضية فلسطين، « خدعت » اسرائيل . ودعت تلك الصحف الولايات المتحدة نفسها الى مقاطعة جلسات مجلس الامن اذا حضرها ممثل م.ت.ف. ،بينما اتهم بعضها الاتحاد السوفياتي بانه يستغل « الانجراف » لصالح الفلسطينيين في مجلس الامن والولايات المتحدة لكي يظهر كأنه حامل لواء القضية الفلسطينية ، وانه في هذا الجو « يدفع م.ت.ف. للحوار مع الولايات المتحدة. وقد ظهرت اشارات لذلك في البيان المشترك الذي صدر في ختام زيارة ياسر عرفات الاخيرة الى موسكو » (دافار ، ٧٥/١٢/١٤) .

ومع ان الرئيس فورد بعث برسالة تطمين

هذا ، فقد يكون كيسنجر مقتنعا بذلك ، ولكن ليس الحكومة الاميركية كلها ٠

٣ ـ اذا لم تحصل الولايات المتحدة على هذين الامرين فستتوقع من اسرائيل تنازلا بعيد المدى تقدمه للملك حسين ، بحيث يحصل على تأييد من مصر والسعودية وسوريا ٠ وهنا لا تكفي « خطة اريحا » ٠

٤ ـ اذا اتفق رابين في رحلته القريبة مع واشنطن على خطة استراتيجية او لم يفعل ذلك ، فان الحكومة الاميركية ستطلب منه وضع خطة تمكن فورد من الوصول الى الانتخابات في تشرين الثاني من هذه السنة بسلام ٠ « سينتظر فورد خطة عمل للتنفيذ ، واذا كانت هذه الخطة مقبولة ستوافق الحكومة الاميركية على الصيغة القائلة ان سنة ١٩٧٦ هي سنة وضع الخطط وليس تنفيذها ، وان سنة ١٩٧٧ هي سنة التنفيذ ٠ واما اذا لم تقتنع الحكومة الاميركية بافكار رابين فستطلب مساعدته في وضع خطة للتنفيذ العملي » (دان مرغليت ـ هآرتس ، ٧٦/١/٢٣) ٠

والملاحظ ان رحلة رابين الى واشنطن ، في شباط الماضي ، وكذلك موقف الولايات المتحدة في مجلس الامن من القضية الفلسطينية في كانون الثاني ، بددا الكثير من الشكوك التي اثارتها وثيقة ساوندرز وغيرها حول موقف الولايات المتحدة من القضية الفلسطينية ٠ وقد صرح رابين نفسه ، بعد عودته من واشنطن ، قائلا : « كانت الزيارة مفاجأة سارة لي ، فلم يضغطوا علي في واشنطن » (معاريف ، ٧٦/٢/٢٣) ٠ اما يوسف حاريف ، مراسل معاريف (المصدر نفسه) فقد علق على اجتماع الحكومة بعد عودة رابين من زيارة واشنطن بقوله ان « اميركا ليست متحمسة لمؤتمر جنيف الان ٠ ابلغ رابين فورد وكيسنجر ان اسرائيل ستكون مستعدة لانسحابات كبيرة في سيناء والجولان مقابل انهاء حالة الحرب ،وان وزير الدفاع بيريس يعارض اي انسحاب من الضفة الغربية لانه يعتبر ذلك بمثابة قتل لمعنويات الشعب » (المصدر نفسه) ٠

« البعبع » السوفياتي

من الواضح ان في اسرائيل دوائر عديدة لا تريد الانسحاب من الضفة الغربية ـ لا لمصلحة الفلسطينيين ولا لمصلحة الاردن ، خاصة وان البعض يشكون في ان « الملك حسين قد يكون ممثل القمة العربية [في الرباط ، سنة ١٩٧٤] ووكيل الفلسطينيين في المفاوضات مع اسرائيل» (متتياهو بيليد ـ معاريف ، ٧٦/٢/١٣) ٠ والواضح ايضا ان اسرائيل تحاول استخدام كل وسيلة لاقناع الاميركيين ان اقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع ستكون هزيمة للولايات المتحدة ونصرا للاتحاد السوفياتي ٠

ويعلق احدهم على موقف اسرائيل هذا بقوله: « ان اسرائيل ضحية لفشل اميركا تجاه السوفيات ٠ لقد تمسكت بمواقع كانت تعلم مسبقا انها لا تستطيع الحفاظ عليها فتنازلت وضعفت في نظر السوفيات ٠ وهي ايضا لا تستغل جيدا العلاقات مع الصين ٠ ان العدوانية السوفياتية تجاه اسرائيل نابعة من ضعف اميركا تجاه الاتحاد السوفياتي ٠ وازاء هذا الوضع يجب اتخاذ موقف عسكري صلب ضد م٠ت٠ف٠ ، ويجب التصلب ايضا في السياسة الاستيطانية » (حفاي اشد ـ دافار ، ٧٥/١٢/٥) ٠

ويضيف معلق آخر : « لقد اثبت الاسد للسادات ان الارتباط بالسوفيات مفيد اكثر من الارتباط باميركا : واميركا لا تريد ان تكون معزولة وتسعى ، على الاقل ، الى اتخاذ المواقف الاوروبية تجاه القضية الفلسطينية ٠ من ناحية تكتيكية من المفيد ان تتخذ الموقف نفسه [اي « صيغة باريف »] ، ولكن من الناحية الاستراتيجية قد يؤدي ذلك الى الاعتراف بدولة ثالثة [اي دولة فلسطينية بين الاردن واسرائيل] ٠٠٠ » (اريئيل غيناي ـ يديعوت احرونوت ، ٧٥/١٢/٥) ٠

ويقول معلق ثالث ان الولايات المتحدة مقتنعة بعدم التفاوض مع م٠ت٠ف٠ والاعتراف بها ، لاسباب اميركية وليس لاسباب اسرائيلية فقط ، ذلك لان « ٠٠٠ تفاوضا اميركيا مع م٠ت٠ف٠ سيكون بمثابة اعتراف بفشل

السياسة الاميركية وسيقوض ركائز الوفاق الدولي نهائيا . هناك عدد متزايد من الشخصيات الاميركية يعتقد انه على اسرائيل الدخول في مفاوضات مع م.ت.ف. ولكن الاحداث الاخيرة ، مثل استخدام اميركا لحق الفيتو في مجلس الامن ، وقرار تزويد اسرائيل بطائرات ف ـ ١٥ ، تدل على ان الولايات المتحدة تنظر الى المفاوضات مع م.ت.ف. على انها فشل لاميركا ولسياسة كيسنجر الرامية الى اخراج السوفيات من المنطقة وكذلك فشل لسياسة الوفاق الدولي » (فيليب بن ـ معاريف ، ٧٥/١٢/١٩) .

وذكر مراسل آخر : « يدرك الاميركيون الان ان فشل اسرائيل الدبلوماسي هو انتصار سوفياتي على الولايات المتحدة . وعلى الرغم من « المهرجان الفلسطيني » في الولايات المتحدة ، ورغم الانجراف في موقفها الذي عبرت عنه وثيقة ساوندرز ، من الممكن اقناعها ان فرض اي تراجع آخر على اسرائيل سيكون انتصارا اكبر للسوفيات على الاميركيين . ان اضعاف السادات سيبرهن [للعرب] على ان الطريق الصحيح لا يمر في واشنطن بل في موسكو وعلى واشنطن ان تبرهن ان السادات كان على حق عندما راهن على الورقة الاميركية » (شموئيل سيغف ـ معاريف ، ٧٥/١٢/٨) .

وباسم المصلحة الاميركية وباسم التلويح « بالبعبع » السوفياتي ، يحاول الاسرائيليون اقناع الولايات المتحدة ايضا ان مجلس الامن ليس المكان الصحيح لحل قضية الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية . « علينا ان نقنع الولايات المتحدة ان الامم المتحدة هي جهاز سوفياتي معاد للغرب ولها » (يوسف لابيد ـ معاريف ، ٧٥/١٢/٨) .

ويبدو ان استخدام « البعبع » السوفياتي في هذا الوقت بالذات له علاقة بانتخابات الرئاسة الاميركية . فاذا اقنعت الدعاية الرأي العام الاميركي بان اقامة دولة فلسطينية ستكون « خدمة » للسوفيات و « اساءة » لاميركا ، سيكون من الصعب على ادارة فورد تأييد مشروع اقامة هذه الدولة ، خاصة وهو يتنافس على الرئاسة مع مرشحين محافظين خطرين ، مثل رونالد ريغان ، الذي اثبت انه منافس عنيد في انتخابات الترشيح الاولية في ولاية هامبشاير .

ان رفض الحلول الفردية واصرار الدول العربية على تنفيذ قرارات مؤتمر الرباط نصا وروحا هو الضمانة لافشال المناورات الاسرائيلية الرامية الى تجاهل القضية الفلسطينية ، خاصة وان الولايات المتحدة تعلن انها تريد منع الحرب من جهة ، ومنع الجمود من جهة اخرى ، وهي بالتالي لا تستطيع ان تكون معزولة عن العالم كله بسبب دعم مواقف اسرائيل المتزمتة من جهة ثالثة .

ويلاحظ ، من ناحية ثانية ، ان الاصوات الداعية الى عدم تجاهل القضية الفلسطينية آخذة في الازدياد في اسرائيل . وانطلاقا من هذا الموقف ، انتقد احدهم حكومة اسرائيل بقوله : « ان هناك تناقضا في قول رابين ان الدول العربية ترفض وجود اسرائيل ، ولكنه [رغم ذلك] يريد التفاوض معها ، بينما لا يريد القيام بذلك مع م.ت.ف. لانها ترفض وجود اسرائيل ... يبدو ان معظم دول العالم تريد اقامة دولة فلسطينية ، ورابين يقول ان هذا لا يلزم اسرائيل . ولكن اسرائيل لا تستطيع ان تعيش لوحدها . لهذا يجب الموافقة على اقامة دولة ثالثة والحصول على ثمن ذلك ، ليس من العرب بل من الولايات المتحدة . والثمن هو معاهدة دفاع مع الولايات المتحدة من شأنها ان تمنع نشوب الحرب » (ا. شفايتسر ـ هآرتس ، ٧٥/١٢/١٢) .

الا ان طابع التصلب هو الغالب ، عامة ، ما يصدر في اسرائيل من مواقف رسمية بشأن القضية الفلسطينية ، فحكومة رابين ترى ان التصلب قد يظهرها بمظهر القوة في نظر الرأي العام الداخلي والعرب واميركا . وقد حذر شمعون بيريس حكومته من اظهار اية علامات ضعف ، خاصة وهي مقبلة على امتحان صعب في نهاية ايار القادم ، اي عندما ينتهي انتداب قوات المراقبة الدولية في الجولان ، وذلك « في وقت يكون فيه الانسحاب في سيناء [بموجب اتفاقية سيناء الاخيرة] قد تم ، وتكون معركة

الانتخابات الاميركية محتدمة ، مما سيشكل عوامل ضاغطة على اسرائيل » (معاريف ، ٢ / ١٢ / ٧٥) . ويعتقد البعض ان تصلب اسرائيل هو افضل ضمانة لدعم الولايات المتحدة لها ، لانه « ... فقط عندما نتمسك برأينا بشدة ، وعندما ترى الولايات المتحدة ان شعب اسرائيل صامد في المعركة السياسية ، ستمدنا عندها بـ « جسر جوي » على الصعيد السياسي ايضا » (موشي زاك ـ معاريف ، ٢ / ١٢ / ٧٥) .

وفي الوقت نفسه ، هناك من يعتقد ان التصلب وحده لا يكفي . « هناك فراغ في الشرق الاوسط ، ويجب ان نملأه . علينا أن نقدم افكارا ووثائق ، مثل وثيقة ساوندرز ووثيقة بروكنكز ... لا يكفي ان ننتظر ساكنين حتى تمر السنوات السبع العجاف » (يوئيل ماركوس ـ هارتس ، ٢٦ / ١٢ / ٧٥) . وهذا يعني ان اسرائيل تحاول كسب الوقت عن طريق المناورات الدبلوماسية . وعلى سبيل المثال ، طلبت اسرائيل مؤخرا من الولايات المتحدة ان تطلب الى كل دولة عربية ان تقدم تعريفها لانهاء حالة الحرب بينها وبين اسرائيل . وتسعى اسرائيل من وراء هذا ، على ما يبدو ، الى كسب الوقت ـ موهمة العالم انها تفكر بالسلام ـ لكي تستمر في اللف والدوران حول القضية الفلسطينية وهي جوهر الصراع في الشرق الاوسط ، مع المحافظة على دور الولايات المتحدة التي ترتدي ثوب الوسيط لصنع السلام في المنطقة .

يوسف حمدان

[٢]

حكومة اسرائيل تقر ميزانية مخفضة للسنة المالية المقبلة

قدم وزير المالية الاسرائيلي يهوشواع رابينوفيتش الى الكنيست ، قبل اسبوعين ، مشروع الميزانية للسنة المالية ١٩٧٦ / ٧٧ التي تبدأ في اول نيسان المقبل . ويبلغ حجم الميزانية المقترحة ٨٥٫٢ مليار ليرة اسرائيلية ، وتحتل نفقات الامن الجزء الاكبر منها ، اذ خصص لها مبلغ ٣٤٫٣ مليار ليرة . اما اهم بنود الانفاق الاخرى في الميزانية فهي : تسديد الديون ـ ١٨ مليار ليرة ، الاسكان ـ ٣٫٢ مليار ليرة ، السلطات المحلية ـ ٢٫٧ مليار ليرة ، التأمين الوطني ـ ٢ مليار ليرة ، التعليم ـ ١٫٣ مليار ليرة ، الخدمات الصحية ـ مليار ليرة ، الشؤون الاجتماعية ـ ٦٥٠ مليون ليرة . كذلك خصص للمساعدات التي تمنحها الحكومة لمنع ارتفاع اسعار بعض المواد الغذائية الاساسية مبلغ ١٫٨ مليار ليرة . واعتمد مبلغ ثلاثة مليارات ليرة لتشجيع الصادرات (هآرتس ، ١٥ / ١٢ / ٧٥) .

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد صادقت قبل اكثر من شهرين على مشروع للميزانية يبلغ ٨٤٫٢٥ مليار ليرة ، وذلك بعد تسوية الخلاف مع بعض الوزراء المعارضين ، خاصة وزير الدفاع ، وبين وزير المالية ، حول المبالغ المقترحة لكل وزارة (هآرتس ، ٢٩ / ١٢ / ٧٥) . الا انها عادت واضافت نحو مليار ليرة اخرى الى هذا المبلغ ، وذلك بواسطة رفع نسبة الضرائب

على الواردات من الخدمات ، مثل التأمين والتخصص في الخارج واستئجار الخبراء والفنانين والرياضيين وما شابه . كذلك ازدادت الضرائب على رحلات السفر الى الخارج (دافار ، ١٦ / ٣ / ٧٦) .

ويتوقع اجراء عدة مناقشات في الكنيست ، وفي اللجنة المالية المنبثقة عنه ، حول مشروع الميزانية ، قبل المصادقة عليه نهائيا والعمل بموجبه في اول شهر نيسان المقبل . ونتيجة لهذه المناقشات ، يمكن ان تطرأ تعديلات على بنود الميزانية المقترحة .

بالاضافة الى ذلك ، سيقدم وزير المالية الى الكنيست ، ميزانية اضافية للسنة المالية ، ١٩٧٥ / ٧٦ ، بمبلغ ٧ر٥ مليار ليرة ، بحيث ستصل ميزانية السنة الحالية ، في نهاية الامر ، الى ١ر٦٥ مليار ليرة . ويبلغ العجز في هذه الميزانية الاضافية نحو ٤ر٥ مليار ليرة ، بالاضافة الى عجز بمقدار ١ر٥ مليار ليرة كان متوقعا في بداية السنة (دافار ، ١٥ و ١٧ / ١٢ / ٧٥) ، بحيث يبلغ العجز الاجمالي خلال السنة الحالية نحو ٦ مليارات ليرة . ولكن ، من ناحية ثانية ، اعلن حاكم بنك اسرائيل ان العجز الشامل في الميزانية الحالية سيصل ، بعد تقديم الميزانية الاضافية ، الى سبعة مليارات ليرة . كذلك ستقوم الحكومة قريبا بطبع اوراق نقدية جديدة بمبلغ ٣ مليارات ليرة (هآرتس ، ٢٦ / ١٢ / ٧٥) .

الميزانية جزء من خطة اقتصادية شاملة

يعتبر مشروع الميزانية جزءا من خطة اقتصادية شاملة اعتمدتها الحكومة الاسرائيلية للسنة المالية المقبلة . وتعتبر مشكلة العجز الكبير في ميزان المدفوعات ، الذي وصل في سنة ١٩٧٥ الى ٣ر٧ مليار دولار ، البند الاساسي وموضع الاهتمام الاول في هذه الخطة . وسبب ذلك هو «ان هذا العجز يؤدي الى تعلق اسرائيل بشكل خطير بالمصادر الخارجية ، وعليها ان تخفف من هذا التعلق سريعا قدر الامكان ، خاصة وان هناك خوفا من امكان انخفاض في المساعدات الخارجية خلال السنين المقبلة » (دافار ، ١٥ / ١٢ / ٧٥) . وعلق حاكم بنك اسرائيل ، موشي زنبار ، على هذه المشكلة (في مقابلة مع معاريف ، ٢٠ / ٢ / ٧٦) بقوله ان الاجراءات التي اتخذتها الحكومة في الماضي لمعالجة العجز في ميزان المدفوعات وتدني احتياط العملة الصعبة لم تحقق اهدافها كاملة ، « والارقام تدل على ذلك : ففي سنة ١٩٧٣ بلغ العجز في ميزان المدفوعات نحو ٢ر٧ مليار دولار ، وارتفع في سنة ١٩٧٤ الى ٣ر٦ مليار دولار . اما في ميزانية ١٩٧٥ فقد توقعنا عجزا بقيمة ٣ر٣ مليار دولار ولكن بموجب الحساب النهائي تقريبا ، يتضح الآن ، ان العجز سيصل الى ٣ر٦ مليار دولار ـ اي ٦٠٠ مليون دولار زيادة عما كان متوقعا ... وبالنسبة لاحتياط العملة الصعبة ، في نهاية ١٩٧٣ بلغ الاحتياط ٧٠ر١ مليار دولار . وفي نهاية ١٩٧٤ وصل الى ٠٧ر١ مليار دولار ، اي انخفض بـ ٦٣٠ مليون دولار . اما في نهاية ١٩٧٥ فقد بلغ ٠٤ر١ مليار دولار ، اي انخفاض بـ ٣٠ مليون دولار اخرى » . وحول تعلق الاقتصاد الاسرائيلي بالاوساط الخارجية ، يقول زنبار : « لقد قسمنا هذا التعلق بصورة دقيقة ، وذلك بواسطة تحديد النسبة بين فائض الواردات الى اسرائيل وبين مجموع الانفاق العام . وبلغت نسبة هذا التعلق في سنة ١٩٦٤ ، وهي سنة التضخم المالي ، ١٩ر٠ وفي سنة ١٩٦٩ ـ سنة الانكماش الاقتصادي ، التي قل فيها الطلب على البضائع المستوردة ـ انخفضت الى ٣ار٠ . ولكن منذ ذلك الوقت وهي في ارتفاع حتى سنة ١٩٧٠ ، وهي السنة التي قرر فيها عبد الناصر تقريب الصواريخ الى قناة السويس ـ حيث بلغت ٢٠ر٠ ، واتضح ان هذا الامر خطير جدا . وفي سنة ١٩٧٢ انخفضت الى ١٧ر٠ ، ولكنها عادت في السنة السابقة ، ١٩٧٥ ، ووصلت الى ٢٨ر٠ ، وهي نسبة ليس لها سابقة واشك اذا كان قد حدث مثلها في اية دولة حديثة . وتعني هذه النسبة ، بلغة بسيطة ، ان اسرائيل تقترب من وضع لا تستطيع معه توفير ثلث حاجياتها بنفسها ، وانما هي بحاجة الى مساعدة الجهات الخارجية » . وعلى سبيل ذكر المساعدات الخارجية ستحصل اسرائيل خلال هذه السنة من الولايات المتحدة على مساعدات عسكرية بقيمة ٥ر١ مليار دولار

وعلى مساعدات اقتصادية بقيمة ٧٠٠ مليون دولار ٠

وفيما يلي اهم وابرز اهداف ومميزات الخطة الاقتصادية التي جاءت الميزانية الجديدة لتنفيذها ، وذلك بالاضافة الى معالجة العجز في ميزان المدفوعات بواسطة محاولة خفضه بمبلغ يتراوح بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ مليون دولار خلال السنة المقبلة :

١ ـ ميزانية مخفضة ـ ان الميزة الاولى للميزانية المقترحة هي انها ميزانية مخفضة بالمقارنة مع ميزانيات السنين الماضية ، رغم الزيادة التي طرأت عليها ، والناجمة اساسا عن ارتفاع الاسعار ٠ « ففي جانب النفقات في الميزانية حدث ارتفاع بمبلغ ٢١ مليار ليرة تقريبا ، الا ان ذلك لا يعتبر بمثابة زيادة في الميزانية ٠ ان زيادة ١٢٫٢ مليار ليرة من هذا المبلغ ناجمة عن الغلاء ، و٧ مليارات ليرة مخصصة لتغطية الزيادة في الديون ، و١٫٧ مليار ليرة لتغطية نفقات امن اضافية بالعملة الصعبة ، وبعض البنود الاخرى ٠ وبعداختصار هذه الامور جميعها ، يتضح ان هناك انخفاضا حقيقيا بنسبة تزيد على ٥٪ في ميزانيات جميع الوزارات » (دافار ، ١٥/١٢/٧٥) ٠ وخلافا لما يقال بأنه هذه هي المرة الوحيدة التي يعلن بها رابينوفيتش عن ميزانية مخفضة ، فالحقيقة هي انه اعلن حتى الان منذ توليه وزارة المالية ، اربع مرات عن شد الاحزمة بواسطة تعديل الميزانية ٠ ففي المرة الاولى خفضت، في حزيران ١٩٧٤ ، ميزانية ١٩٧٤/٧٥ ، وبعد ذلك بفترة قصيرة قدمت ميزانية اضافية بمبلغ يفوق ما تم تخفيضه ٠ وفي المرة الثانية اعلن عن ميزانية مخفضة لسنة ١٩٧٥/٧٦ ٠ وقد فاقت هذه الميزانية كل ما سبقها ، واذا كان ينقصها شيء ما ، فستتم اضافته خلال هذه الايام ، بعد تقديم الميزانية الاضافية للسنة المالية الحالية بمبلغ ٧٫٥ مليار ليرة ، كما ذكرنا ٠ وفي المرة الثالثة اعلن رابينوفيتش عن تخفيض مبلغ ٥٠٠ مليون ليرة في الميزانية خلال سنة ١٩٧٥ ٠ ولكن اثر هذه التخفيضات ، بالمدى الذي نفذت به ، سيزول عند اقرار الميزانية الاضافية لهذه السنة ٠ واخيرا مشروع الميزانية الجديدة ، التي يقتضي ان تشمل تخفيضا حقيقيا بنسبة ٥٪ بالمقارنة مع الميزانية الجارية (ابراهام طال ـ هآرتس ، ١٢/١/٧٦) ٠ ولكن بناء على تجربة الماضي ، ليس هناك ضمان بعدم تقديم ميزانية اضافية خلال السنة المالية المقبلة ، تفوق نسبة التخفيض ، رغم ما يعلنه رابينوفيتش عن تمسكه باطارها ٠ وتجدر الاشارة هنا الى ان العجز المخطط في الميزانية المقترحة هو ٢٫٧ مليار ليرة : « ان المبدأ الاساسي ، هذه المرة ، في المشروع الذي قدمه وزير المالية هو تعيين حد ادنى للميزانية لا يمكن تجاوزه ٠٠٠ يبلغ العجز فيه ٢٫٧ مليار ليرة ٠ ويعتقد معظم الخبراء الاقتصاديين ان العجز سيكون اكبر ، لانه على اثر الانخفاض المتوقع في النشاط الاقتصادي ، هناك اساس للاعتقاد بان مقياس المداخيل لن يتحقق بكامله » (دانيئيل بلوخ ـ ملحق دافار ١٩/١٢/٧٥) ٠

٢ ـ ارتفاع الانتاج في سنة ١٩٧٦ بنسبة ١٪ فقط ، على ان يعود النمو في سنة ١٩٧٨ الى وضعه الطبيعي بحيث تصل نسبته الى ٧٫٢٪ ـ هذا هو احد التوقعات الاساسية في الميزانية للسنة المقبلة ، ويعود السبب في ذلك الى خفض الاستثمارات وتحديد ميزانيات الوزارات ، مما سيؤدي الى خفض النشاط الاقتصادي العام بهدف توفير العملة الصعبة ٠ وقد ولدت هذه الظاهرة قلقا متزايدا لدى الاسرائيليين ، الامر الذي عبر عنه احد خبرائهم الاقتصاديين ، بروفيسور دان باتنكين (في مقابلة مع معاريف ، ٢٩-١٢-٧٥)، بقوله : « لقد توقفنا عن النمو ٠ يجب وضع هذه المشكلة في مركز اهتمامنا ٠٠٠ ان احدى الظواهر الايجابية والمشجعة التي ميزت الاقتصاد الاسرائيلي منذ قيام الدولة ، هو سرعة النمو لدينا ٠ وقد استمرت هذه الظاهرة منذ ١٩٥٠ حتى ١٩٧٢ ، باستثناء فترة الانكماش الاقتصادي القصيرة خلال ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ٠ لقد نما الاقتصاد بنسبة ١٠٪ سنويا ـ وهي من اعلى النسب في العالم ٠ ولكن بدأ انخفاض في هذه النسبة قبل حرب ١٩٧٣ ، حيث بلغ النمو في تلك السنة ٦٪ فقط ٠

وحتى بعد حرب يوم الغفران ، في سنة ١٩٧٤، بلغ النمو نحو ٤٪ . وعندما وصلنا الى سنة ١٩٧٥ ، توقف النمو الاقتصادي عندنا تماما. ففي النصف الاول من سنة ١٩٧٥ حدث انخفاض في النمو ، بالمقارنة مع الفترة ذاتها من سنة ١٩٧٤ ، لا يعادله الارتفاع الذي طرأ في النصف الثاني من السنة ، بحيث يمكن القول ان النمو الاقتصادي خلال تلك السنة كان في حدود الصفر . وبحسب التوقعات سينمو الاقتصاد في سنة ١٩٧٦ بنحو ١٪ فقط ، وفي سنة ١٩٧٧ ، سيرتفع حتى ٥٪ ، وفقط في سنة ١٩٧٨ سيعود الى نسبة ٧٪ تقريبا ... اذا صح التوقع » . ويرى باتنكين انه لو استمر النمو الاقتصادي على صيغته القديمة لادى ذلك الى تخفيض العبء الامني . « فبحسب التوقعات سنصل نفقات الامن في سنة ١٩٧٦ الى ما يقارب ٣٥٪ من الناتج القومي القائم . ولو استمرت سرعة النمو الاقتصادي بنسبة ٨٪ في السنة ، بدون توقف، لشكلت ميزانية الدفاع ٢٩٪ من الناتج القومي القائم . وهذا فرق مهم جدا . وبالارقام يمكن القول ان هذا الفرق ، الذي يتجاوز ٥٪ يشكل نحو نصف الميزانية المدنية في تلك السنة . ان قدرة الاقتصاد على الصمود امام المطالب الامنية المتزايدة ، متعلقة بقدرة نموه » (المصدر نفسه) .

٣ ـ استمرار انخفاض الاستهلاك الخاص والعام بنسبة ٣٪ خلال سنة ١٩٧٦ ، وتجميده في سنة ١٩٧٧ ، ثم بدء ارتفاعه في سنة ١٩٧٨ ـ وهذا ما اعلنه وزير المالية في خطابه امام الكنيست عند تقديمه مشروع الميزانية . وكان رابينوفيتش قد ذكر في مناسبة اخرى ان مستوى المعيشة في اسرائيل يعتبر من اعلى المستويات في العالم الغربي ، « رغم ان ديوننا تتراوح بين٨ـ٩ مليارات دولار. فمنذسنة ١٩٧٢ ارتفع الاستهلاك الخاص بنسبة ١٥ـ١٦٪ ، وفقط في النصف الاول من هذه السنة (١٩٧٥) برز انخفاض بنسبة ٥ر٥٪ ، ولكن بسبب علاوة غلاء المعيشة ، والاصلاح في الضرائب المباشرة ، يبلغ الانخفاض ٣٪ فقط» (دافار ، ٧٥/١٢/١٢) .

٤ ـ تجميد الاجر الاساسي في القطاع العام، وكبح ذاتي في سياسة الاجور ـ فقد تقرر وفق الخطة الاقتصادية والميزانية الغاء ساعات العطلة في الصيف في الخدمة العامة ، واضافة ساعة عمل اسبوعية لجميع الذين يعملون اقل من ٤٥ ساعة في الاسبوع ، واحيانا الغاء ايام العطلة او تقليلها . كذلك تقرر تجميد الاجر الاساسي في القطاع العام لمدة سنة .

٥ ـ تفضيل الاستثمارات في فرع الصادرات ـ تقرر تبديل شروط تشجيع الاستثمارات بهدف تفضيلها في مجال الصادرات ، من خلال الاهتمام اولا بمناطق التطوير . اما بالنسبة للاستثمارات العامة الاخرى فقد تقرر ملاءمتها مع اطار الميزانية على غرار الاستثمار في التنقيب عن النفط وما شابه . وبالنسبة لتطوير السياحة تقرر استمرار تجميد بناء الفنادق الجديدة . اما ميزانيات تطوير شبكة المواصلات واجهزة الاتصال ، فتعتمد على استمرار الاعمال قيد التنفيذ ، بالاضافة الى مشاريع جديدةصغيرة تقرر تنفيذها (دافار، ٧٥/١٢/١٥) . ونفى وزير المالية ما تردد من اشاعات حول تخفيض الاستثمارات في المجال الصناعي قائلا : « ان هذه الاقوال ليس لها اساس من الصحة ، اذ ان الاستثمارات في الصناعة وصلت الى ذروتها في سنة ١٩٧٥ ، حيث بلغت ٣ر٥ مليار ليرة ، مقابل ٢ر٧ مليار ليرة في سنة ١٩٧٤ . ان الزيادة الحقيقية في الاستثمارات في الصناعة هي ٨٪ » (دافار ، ٢١-١٢-٧٥) .

٦ ـ تعميق جباية الضرائب المباشرة ، وفرض ضريبة القيمة الاضافية ـ سيبلغ الدخل من الضرائب خلال السنة المالية المقبلة نحو ٤٠ مليار ليرة (هآرتس ، ٧٥/١٢/١٩) . ومن اجل تحقيق هذا الهدف ، ومنع التهرب من دفع الضرائب بين قطاعات واسعة داخل اسرائيل ، كما حدث في السنين السابقة ، تقرر اتخاذ عدة اجراءات كفيلة بتعميق جباية الضرائب ، مثل تشكيل لجان تحقيق خاصة ، وفحص نماذج من ملفات ضريبة الدخل العائدة لطبقات معينة من المكلفين بدفع الضرائب ، وجمع المعلومات الدقيقة حول دخل الافراد

والشركات ، واتباع اجراءات قانونية ضد المتهربين • كذلك تقرر فرض ضريبة القيمة الاضافية خلال السنة المالية المقبلة ، ويتوقع جمع ٢ر٥ مليار ليرة بواسطتها • ولا زالت هناك بعض الخلافات بشأن نسبة هذهالضريبة بين وزارة المالية وبين الهستدروت ، الا انه بات مؤكدا ان نسبتها ستتراوح في البداية بين ٦-٨٪ (دافار ، ٧٦/٢/١٥) •

٧ - استمرار سياسة التخفيض الزاحف في قيمة الليرة ، والقيام ببعض الاعمال لكبح الواردات - ستستمر خلال السنة المالية المقبلة سياسة التخفيض الزاحف فيقيمة الليرة، وذلك من اجل الحفاظ على مستوى ايجابي في قيمتها لدى المصدر • والجدير بالذكر ان اخر تخفيض من هذا النوع حدث بتاريخ ١٠-٢-٧٦ حيث خفضت قيمة الليرة بنسبة ٢٪ تقريبا بحيث اصبح الدولار يساوي ٧ر٣٨ ليرة • كذلك ستطبقاجراءات اخرى منأجل تشجيعالصادرات، مثل اعادة ضريبة القيمة الاضافية للمصدرين وتوسيع التأمين على اخطار التجارة الخارجية ومنح مساعدات لاقامة مراكز بيع ومخازن في الخارج •

اما في مجال الواردات فستشدد القيود على الواردات الامنية بهدف استبدالها بالانتاج المحلي • كذلك ستتبع بعض الاجراءات للتوفير في الوقود ، بما في ذلك رفع الاسعار والضرائب •

وفي مجال اخر ، سيتم تحديد رحلات الوفود الرسمية والعامة الى خارج اسرائيل والغاء دورات تخصص موظفي الدولة في السفارات الاجنبية • وسيدعى الجمهور الى تفضيل الانتاج المحلي • كذلك ستشدد القيود على التجارة غير القانونية بالعملة الصعبة (دافار، ١٥-١٢-٧٥) • وكان اخر اجراء اتخذته الحكومة ، في مجال التشديد على الواردات ، هو فرض ضريبة بقيمة ١٥٪ على الواردات من الخدمات ، كما اشرنا •

٨ - تخفيض سيولة السندات المربوطة بجدول الغلاء - تقرر ضمن الميزانية المقترحة استمرار تشجيع التوفير بجميع اشكاله • كذلك تقرر تخفيض سيولة سندات الدين المربوطة بجدول الغلاء ، والتي كانت الحكومة الاسرائيلية قد اصدرتها في الماضي في مناسبات مختلفة والحفاظ على مبدأ الربط الكاملبجدول الغلاء بالنسبة للتوفير على المدى الطويل فقط • وقد اتخذ هذا الاجراء لتضييق الثغرة القائمة بين الدخل من السندات والدخل من العمل • وبناء على ذلك تقرر تخفيض الربط بجدول الغلاء تدريجيا حتى ٧٠٪ من قيمة السندات ، خلال سنتين • وكمرحلة اولى سيتم اصدار سندات مربوطة بالجدول بنسبة ٩٠٪ فقط ، ابتداء من موعد اتخاذ هذا القرار • واكد وزير المالية ان الحكومة لن تتعرض الى شروط السندات القديمة التي كانت قد اصدرت في الماضي ، وستتحمل كامل التزاماتها بشأنها (هآرتس ، ٧٥/١٢/٢٤) •

٩ - تسديد الديون - يشكل بند تسديد الديون عاملا مهما في ميزانية ١٩٧٦/٧٧ • وقد ادى الارتفاع الكبير في هذه الديون الى تخصيص ٢١٪ من الميزانية لهذا الغرض ، مما سيؤثر على مركب العملة المحلية او على النفقات بهذه العملة •

وسيصل حجم تسديد الديون خلال السنة المالية المقبلة الى ١٨ مليار ليرة مقابل ١١ مليار في سنة ١٩٧٥ • كذلك فان اكثر من نصف الزيادة في الدين ناتج عن دفع ديون في داخل اسرائيل ، والباقي بالعملة الصعبة (دافار ، ٧٥/١٢/١٥) •

وعلق بروفيسور باتنكين (معاريف ، ٧٥/١٢/١٩) على مشروع الميزانية الجديدة بقوله : « ان الحل الصحيح والحقيقي وبعيد المدى لخفض العجز في ميزان المدفوعات هو بانطبع زيادة الصادرات ثم الانتاج المحلي كبديل للواردات • وفي هذا المجال يتوقع ، بحسب الخطة الاقتصادية ، نمو الصادرات بنسبة تتراوح بين ٩ - ١٢٪ خلال السنين الثلاثة المقبلة » • واضاف باتنكين ان نقل العمال من الخدمات الى فروع الانتاج هو امر ضروري ولكنه غير كاف • « ليست هذه هي المشكلة الاساسية • ليس هناك حوافز كافية للمصدرين - هذه هي المشكلة ، والخطة الاقتصادية التي

عرضتها الحكومة لا تبين لنا كيف ستتغلب عليها ... ان عائدات اكبر من الصادرات هي التي ستشجع الصناعيين على توجيه منتوجاتهم الى الاسواق الخارجية » . اما التخفيض الزاحف كوسيلة لتشجيع الصادرات ، فانه لم ينجح بمدى كاف ، بحسب رأي باتنكين ، لان زيادة الاجور والمداخيل تغطي خلال زمن قصير الفرق الذي يحصل عليه المصدر نتيجة التخفيض الزاحف ، بحيث يؤدي غلاء الانتاج الى جعل التصدير غير مفيد . وهناك رأي اخر يقول ان اسلوب التخفيضات لم يعد يجد نفعا ، بسبب سرعة تحسن قيمة الدولار الاميركي ، وازدياد قدرة المنافسة لدى منافسي الصادرات الاسرائيلية (دوف غنحوفسكي - يديعوت احرنوت ، ٧٦/٢/١٢) .

خلاف بين وزير المالية ووزراء اخرين

اثار مشروع الميزانية ردود فعل « عدائية » لدى بعض الوزراء في الحكومة الذين خفضت ميزانيات وزاراتهم ، مثل التعليم والاسكان والشؤون الاجتماعية والاستيعاب والصحة . وعلق وزير الصحة فيكتور شمطوف على هذه الميزانية قائلا : ان التخفيضات المقترحة ستؤدي الى التوقف عن بناء مستشفيات جديدة ، الامر الذي سيؤدي الى انخفاض مستوى الخدمات الصحية . واضاف وزير الصحة انه ليس في هذه الميزانية اي توازن في فرض العبء وستؤدي الى توسيع الثغرات الاجتماعية بدلا من تضييقها (حديث مع حاييم ايزك - دافار - ٧٥/١٢/١٩) .

كذلك انتقد وزير الاستيعاب شلومو روزن « التوزيع غير العادل للعبء » في الميزانية . ففي وزارة الاستيعاب خفضت الميزانية من ١٨٨ مليون ليرة الى ١٣٤ مليونا ، والوزارة على استعداد لتقليص جهازها . ولكن روزن اعلن انه تلقى وعدا من وزير المالية بالا تكون الميزانية عاملا محددا لعدد المهاجرين « فهناك احتياط مالي لاستيعاب عشرة الاف مهاجر اضافي في حال وصولهم ، زيادة على العدد المتوقع وهو عشرين الف مهاجر ، كما في السنة السابقة » (المصدر نفسه) .

وذكر وزير المعارف والثقافة اهرون يدلين ان تخفيض ميزانية وزارته سيؤدي في الاساس الى خفض ميزانيات الجامعات ، وبالتالي الى رفع الاجور الدراسية وتقليص الهيئة الادارية . كذلك سيؤدي التخفيض الى فرض نظام المناوبة في المدارس الابتدائية والثانوية وعدم بناء ابنية جديدة ، واغلاق نحو الف صف (هآرتس ، ٧٥/١٢/١٥) . وذكر ايضا ان التخفيض سيلحق ضررا باربعين الف طالب في الصفوف التاسعة ، كانوا معفيين في الماضي من دفع الاجور الدراسية (معاريف ، ١٧-١٢-٧٥) .

البطالة متوقعة

يتوقع الاسرائيليون حدوث بطالة على نطاق واسع خلال السنة المالية المقبلة ، نتيجة تخفيض النشاط الاقتصادي العام المخطط له في فرعي البناء والخدمات . وتهدف وزارة المالية من وراء ذلك الى تحويل طاقة بشرية عاملة لفروع الانتاج المعدة للتصدير ، ولكنها تدرك ان هذا الامر صعب التحقيق بسبب قلة الخبرة المهنية لدى اولئك العمال ، خاصة العاملين منهم في فرع البناء . وكان وزير الاسكان ابراهام عوفر قد اعلن ان الميزانية المخفضة التي خصصت لوزارة الاسكان للسنة المالية المقبلة ، ستؤدي الى هدم هذا الفرع وتعطيل ٤٠ الف عامل فيه . واضاف عوفر قائلا « ان وزارة الاسكان بحاجة الى ٤،٥ مليار ليرة اخرى من اجل تقديم مساعدات للعائلات الشابة وتحسين ظروف سكنها ، ونقل السكان الى مدن الاعمار ، واقامة المؤسسات العامة والبدء ببناء ١٥ الف وحدة سكنية ، بحسب تخطيط وزارة المالية . واذا لم تباشر بذلك سيتعطل نحو ٤٠ الف عامل ، وفي حال بدء البناء ، سيبلغ عدد العاطلين ١٥ الف عامل » (دافار ، ١٥-١٢-٧٥) . وذكر بروفيسور باتنكين (معاريف ، ١٩-١٢-٧٥) انه اذا لم يستوعب العمال العاطلين في فرعي البناء والخدمات في فروع الانتاج من اجل التصدير او من اجل مواد بديلة للواردات ، فهناك خطر من ان تفوق نسبة البطالة عندها تلك المتوقعة في خطة الحكومة الاقتصادية . « واذا لم

يحدث تطوير في الصناعة من اجل الصادرات ، لن يكون هناك حل للعمال العاطلين في فروع اخرى » ٠

وبرر حاكم بنك اسرائيل ، موشي زنبار ، اسباب حدوث مثل هذه البطالة (في مقابلة مع معاريف ، ٣٠-٢-٧٦) بقوله « انه اذا حدث انخفاض كبير في المساعدات الخارجية ، بدون ان نستطيع في موازاة ذلك تقليل العجز في ميزان المدفوعات ، فستحدث في اسرائيل بسرعة وبالضرورة بطالة واسعة ، بسبب العجز الكبير في العملة الصعبة ٠ كذلك من الافضل لنا من الان تقليص الطلب الداخلي وتحويل اموال الاستثمارات والطاقة البشرية العاملة الى فروع الصادرات ٠ وهكذا سنربح دولارات اكثر ، وننفق عملة اجنبية اقل ، ونقلل الواردات ونخفض العجز في ميزان المدفوعات ٠

« كذلك فان هذا الانتقال الى فروع الصادرات مرتبط ايضا بحدوث بطالة ٠ ستقل فرص العمل لانتاج منتوجات لمتطلبات السوق الاسرائيلي ٠ هذه هي السياسة المعلنة للحكومة ويجب ان ننجح في تنفيذها » ٠

ارتفاع اسعار المواد الغذائية الاساسية

سيؤدي تخفيض المساعدات التي تدفعها الحكومة لمنع ارتفاع اسعار ١٤ مادة غذائية اساسية ، وكذلك اجور المواصلات العامة ، الى ارتفاع كبير في اسعار تلك المواد وفي تكاليف المواصلات ٠ وكانت قيمة هذه المساعدات قد بلغت خلال السنة الحالية ٢٫٧ مليار ليرة ٠ ولو ارادت الحكومة المحافظة على اسعار المواد الغذائية الاساسية الحالية، لاضطرت الى تخصيص ٣٫٥ مليار ليرة لهذا الغرض ، خلال هذه السنة ٠ الا انها اقترحت في الميزانية مبلغ ٠٫١ مليار ليرة فقط ، اي انه سيكون هناك نقص بمقدار ملياري ليرة في المبالغ المخصصة للمحافظة على الاسعار ٠ ويتوقع ان يرتفع ، مثلا ، سعر الحليب ومنتوجاته بسبب ذلك بنسبة ٣٠-٤٠٪ ، بحيث يصبح ثمن لتر الحليب نحو ليرتين وربع ٠ كذلك سيرتفع سعر الخبز بنسبة ٥٠٪ والعلف بنسبة ٥٠٪ ، مما يؤدي الى رفع اسعار اللحوم والبيض (تسفي كسئر - يديعوت احرونوت ، ٩-٢-٧٦) ٠ وبحسب التقديرات الاولية سيزيد مصروف العائلة العادية ، نتيجة هذا الغلاء ، بنحو ١٢٠ ليرة شهريا (رازي غوترمان - معاريف ، ١٦-٢-٧٥) ٠ وليس هناك امل لدى الاسرائيليين بان تقوم الحكومة بتعويضهم عن ذلك ، نظرا الى تجميد الاجور خلال السنة المالية المقبلة ٠

الاثر الاجتماعي للميزانية

يسود الانطباع لدى العائلات الفقيرة بانها ستكون الضحية الاولى لسياسة التخفيض في الميزانية ، وخاصة ميزانية الشؤون الاجتماعية، اذ ان اكثر من مئة الف نسمة في اسرائيل (اي نحو ٢٥ الف عائلة) تحصل اليوم على مساعدة شهرية من مكاتب الشؤون الاجتماعية (يوسف تسوريئيل - معاريف ، ١٦-٢-٧٥)٠ وقد اعلن وزير الشؤون الاجتماعية ، زفولون هامر ، انه ليس هناك احتمال بان يستطيع هؤلاء تدبير امورهم ، وكل تخفيض في الخدمات التي تمنح لهم سيؤدي الى اضعافهم اكثر (حديث مع حاييم ايزك - دفار ، ١٩-٢-٧٥)٠

يستدل مما ذكر ان التاثير الاجتماعي للميزانية سيكون صعبا على الطبقات الفقيرة والمتوسطة من الاسرائيليين خلال هذه السنة ٠ فاسعار المواد الغذائية سترتفع بشكل ملحوظ، بينما ستجمد الاجور في القطاع العام ، مع امكان حدوث بطالة بين الاف العمال ٠ كذلك ستقل الخدمات التي تقدمها الحكومة للجمهور ، خاصة في مجالات الصحة والتعليم والاسكان ٠ ومن ناحية الضرائب ، ستفرض ضريبة جديدة ، كما ذكرنا ، وهي ضريبة القيمة الاضافية ٠ وهذه الاجراءات جميعها ، التي تبدو حادة وصارمة ، كفيلة بتخفيض مستوى المعيشة ، الا ان الاسرائيليين ، على ما يبدو ، بامكانهم تحملها نظرا الى مستوى المعيشة المرتفع نسبيا ، الذي حققوه خلال السنين الماضية ، رغم ان هذا القول لا ينطبق عليهم جميعا ٠

الهستدروت تقر سياسة مهنية جديدة

من ناحية ثانية ، اعلنت الهستدروت ، النقابة العامة للعمال في اسرائيل ، عن « عدم رضاها » عن سياسة الحكومة المالية بكل جوانبها ، واقرت سياسة مهنية جديدة لسنة ١٩٧٦ تتضمن مواقفها من العمالة والدخل والاجور والارباح والضرائب والمساعدات الحكومية . وترتكز هذه السياسة على الاسس التالية : (١) ستساند الهستدروت وتتعاون خلال السنة المالية المقبلة مع كل عنصر يعمل على زيادة الانتاج ، والحفاظ على العمالة الكاملة وزيادة الصادرات . (٢) تعتبر الهستدروت ان البطالة ليست وسيلة لسياسة اقتصادية ـ وانما ، على العكس ، بمثابة فشل لها . « فالبطالة تؤدي الى تبذير الموارد وتضر بالطبقات الفقيرة بصورة خاصة » . (٣) تطالب الهستدروت بسياسة دخل معتمدة على الغاء الثغرة بين الدخل من العمل وبين الدخل من رأس المال . (٤) ترى الهستدروت انه ينبغي تشجيع الصادرات وليس المصدرين . فتغيير قيمة العملة لا يكفي لتشجيع الصادرات ، بل ينبغي اعادة النظر في جميع الاجهزة العاملة على تشجيعها . ويجب ان يمكن هذا التشجيع منح حوافز مالية لعمال الانتاج ايضا ، من اجل جذب القوى العاملة المطلوبة للمشاريع المصدرة ، وتشجيع تحسين النوعية وزيادة الانتاج . (٥) ينبغي توسيع قاعدة الاستثمارات المعدة لفرع الصادرات . وترى الهستدروت انه بدون استثمارات كبيرة في فروع الانتاج ، لا يمكن العودة الى النمو الاقتصادي في المستقبل القريب . (٦) ينبغي اجراء المفاوضات حول سياسة الاجور والسياسة المهنية على مستويين : مفاوضات جماعية على مستوى اقليمي ، تقر بواسطتها اتفاقات تشمل جميع العمال المأجورين ، ومفاوضات فرعية ومباشرة بين ارباب العمل والعمال . (٧) يجب على الحكومة الاستمرار في تقديم المساعدات للحفاظ على اسعار المواد الغذائية الاساسية ، والمواصلات العامة ، لان هذه المساعدات تعتبر جزءا غير منفصل من المداخيل ، والغائها الكامل او تخفيضها يؤدي الى تبديل سيء في توزيع الدخل . (٨) تكرر الهستدروت وتؤكد ان الاصلاح الضريبي يمنح افضلية بالنسبة للضريبة المفروضة اليوم على الدخل من رأس المال ، مقابل الدخل من العمل المأجور . ان الاصلاح في مجال الضرائب (حسب توصيات لجنة بن ـ شاحار) ينفذ اليوم بكامله بين جمهور العمال المأجورين فقط ، بينما تستفيد الجماعات الاخرى من المعيلين من نسب الضريبة المخفضة ، بدون ان تنجح ادارة مداخيل الدولة حتى الان من تحديد دخل هذه الجماعات التي تهربت سابقا من دفع الضرائب المترتبة عليها . وتقترح الهستدروت سن قوانين خاصة واتخاذ اجراءات قانونية ضد المتهربين من دفع الضرائب . كذلك تقترح رفع نسبة الضريبة على الاشخاص الذين يتجاوز دخلهم ١٥٠ الف ليرة سنويا .

حنة شاهين

[٣]

الاستيطان مستمر في المناطق المحتلة

بعد صدور قرارات الجمعية العمومية للامم المتحدة ومجلس الامن بادانة الصهيونية ، ردت الحكومة الاسرائيلية باتخاذ قرارات تقضي بانشاء مزيد من المستوطنات في المناطق المحتلة ، واعلنت عن موافقتها على اقامة اربع مستوطنات في الجولان . وكانت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان قد انتهت من البحث في اقامة تلك المستوطنات في ايلول الماضي ، بينما اعرب الوزير يسرائيل غليلي في حينه ، عن ثقته بان « الحكومة ستقر في احدى جلساتها المقبلة اقامة ٤ مستوطنات جديدة في هضبة الجولان ، وسينفذ هذا الامر باقصى سرعة ممكنة » (معاريف ، ١٨/ ٩/ ٧٥) . وايد غليلي في ذلك وزير المواصلات جاد يعقوبي الذي صرح اثناء زيارته للنواتين الاستيطانيتين في تل كطيف وتل فرج في الجولان بانه « يتوجب علينا تعزيز المستوطنات اليهودية في هضبة الجولان بشكل قانوني وبقرار من الحكومة » . واضاف يعقوبي ان الهدف من ذلك هو « توجيه الحكومة في سياستها » (المصدر نفسه) .

وفي وقت لاحق بحثت لجنة مستوطنات الجولان ، بتاريخ ١٣/ ١٠/ ٧٥ ، « الخطوات العملية والسياسية والاعلامية لدفع المعركة السياسية المتوقعة ، واحتمال اجراء مباحثات بالنسبة لتسوية ثانية مع سوريا » (معاريف ، ١٤ / ١٠ / ٧٥) . وكانت اللجنة قد استمعت الى تقرير عن اعمال لجنة مصغرة منبثقة عنها ، يحتوي على نتائج الاتصالات المختلفة التي اجريت مع كبار موظفي الدولة ومع رئيس الحكومة رابين بهذا الشأن . كذلك استعرضت اللجنة الخطة التي وضعتها وحدة الاستيطان التابعة للمنظمة الصهيونية ، لاستيطان القسم الاوسط « والفارغ »من هضبة الجولان على امتداد ٤٠ كم (من عين زيفون في الشمال الى رمات مغشيميم في الجنوب) ، لانشاء ٤ مستوطنات زراعية في هذه المنطقة تحتوي كل منها على مركز صناعي ، وانشاء ٤ مستوطنات اخرى صناعية ومستوطنة اضافية على سفوح الجولان والمركز المدني - الصناعي في كتسرين (المصدر نفسه) . وكلما كانت فترة عمل قوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة في الجولان تقترب من نهايتها ، واحتمال احالة الموضوع للبحث في مجلس الامن ، كان الحديث عن الاستيطان في الجولان يزداد تصاعدا ، ليشكل ضاغطا سياسيا على التحرك السوري ، وعاملا مؤثرا بالنسبة لاية قرارات قد تتخذها الجمعية العمومية في هذا الشان .

كذلك اجرت كتلة « ارض اسرائيل الكاملة » في ليكود حوارا حول شؤون هضبة الجولان نتيجة للاوضاع السياسية الراهنة ، وقررت ان تتوجه بطلب الى حكومة اسرائيل « للموافقة على انشاء مستوطنات اضافية في الجولان » (دافار ، ٢٠ / ١٠ / ٧٥) . وبالاضافة الى ذلك قررت الكتلة القيام « بحملة اعلامية جماهيرية متشعبة لمعرفة مشاكل الجولان ، ولزيادة التجنيد في وسط الشبيبة للاستيطان هناك » (المصدر نفسه) .

ومن ناحية اخرى، بعث الكيبوتس القطري ، التابع لحزب مبام ، بوفد الى رئيس الحكومة ، لنقل وجهة نظره بالنسبة لموضوع استيطان هضبة الجولان القاضية « برفض خطة المستوطنات المدنية ، التي ليست عملا استيطانيا بقدر ما هي خطوة سياسية تظاهرية »تهدف الى عرقلة امكانيات المفاوضات السياسية وتكبيل يدي حكومة اسرائيل ، في «مساعيها لتأمين شؤون الامن الاساسية لاسرائيل في هضبة الجولان ، بايجاد امكانية للمحادثات والحل السلمي » (دافار ، ٢٠/١٠/٧٥) .ولكن رغم ذلك عبرت سكرتارية الكيبوتس القطري عن تأييدها لموقف رئيس الوزراء بان « اسرائيل لن تتخلى عن الجولان » ، مع ان

الحدود الفاصلة الان بين سوريا واسرائيل ، لا تشكل في نظرها حدودا نهائية بين الدولتين . ولهذا فان « سياسة الاستيطان في الجولان ، يجب ان تكون قائمة على هذه الفرضية الاساسية » (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى ، قام المؤيدون لاستيطان الجولان بحملة تمهيدية لقرار الحكومة اللاحق . ففي مؤتمر صحفي عقدته لجنة مستوطنات الجولان في بيت سوكولوف في تل ـ ابيب ، يوم ٢٧/ ١٠/ ٧٥ ، تطرق ممثل المستوطنات يهودا هرئيل الى امكانية قيام سوريا بحرب استنزاف في الجولان ، خاصة وان « هضبة الجولان الاهلة الان بالسكان ، ليست كصحراء سيناء ، ولن تسمح اسرائيل للمدافع السورية بقصف المستوطنات ، ولن تقف مكتوفة اليدين » (دافار ، ٧٥/١٠/٢٨) . ثم تبعه رئيس اللجنة يتسحاق نيس الذي طلب بالنيابة عن مستوطنات الجولان من الحكومة « ان تسرع في اتخاذ قرار لاقامة اربع مستوطنات جديدة في مركز الجولان ،زيادة على الاثنتين والعشرين مستوطنة » الموجودة هناك (المصدر نفسه) . واضاف نيس ان « خطة انشاء المستوطنات الاربع ، تؤيدها سلطات الامن ، وقد صادق عليها قسم الاستيطان التابع للوكالة اليهودية» (المصدر نفسه) . كذلك اوضح ان الاستيطان في الجولان كان قد تركز في الشمال والجنوب ، بينما بقيت منطقة واسعة في الوسط دون اية نقطة استيطانية واحدة . ولهذا فانه « من الضروري الان اقامة مستوطنات فيها ، وعدم ترك مركز الجولان مخترقا من الناحية الاسكانية ،كما وان سلطات الجيش الاسرائيلي في المنطقة معنية بسد هذه الثغرة » (المصدر نفسه) .

وزيادة على ذلك ، قرر مركز الكيبوتسات الموحد في جلسته في كيبوتس عميعاد بتاريخ ٢٧/ ١٠/ ٧٥ ، بان « الاستيطان اليهودي في هضبة الجولان ، هو عمل طلائعي ، ويعتمد على قرارات حكومة اسرائيل ، ومؤسسات الحركة الصهيونية » (دافار ، ١٩٧٥/١٠/٢٨)، وان ذلك يعتبر « استمرارا للطريق التقليدية للاستيطان الصهيوني » كذلك اعلن المركز انه يرى في تعزيز المستوطنات في هضبة الجولان ، بما في ذلك توحيد الكيبوتسات ، « حاجة ضرورية وملحة » .

كما وتقدمت وحدةالاستيطان التابعة للمنظمة الصهيونية بخطتها ، مجددا ، لبناء « ٤ مستوطنات جديدة في هضبة الجولان ، ٣ منها في الجولان الاوسط ، في تل يوسيفون وتل فرج وحاج حيدر ، والمستوطنة الرابعة في بركة رام في شمال الجولان » (معاريف ، ٧٥/١٠/٣١) ، واحالتها على اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان .

ورغم ان الحكومة كانت قد رفضت في بحثها السابق لشؤون الاستيطان اقامة المستوطنات الاربع المقترحة ، عادت ووافقت على انشائها في ١/ ١٢/ ٧٥ ، ردا على قرارات الجمعية العمومية ومجلس الامن . وتمشيا مع موافقة الحكومة هذه ، قررت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان في اليوم التالي « انشاء ٤ مستوطنات في هضبة الجولان» (دافار ، ١٢/٣/ ٧٥) .

وقد صوت ممثلو حزب مبام فياللجنة الوزارية ضد القرار ، وانضم اليهم وزير الاستيعاب شلومو روزن ، وعضو ادارة الوكالة اليهودية ابراهام شنكر . اما وزير العدل حاييم تسادوق ـ الذي كان قد ايد اقتراح اقامة المستوطنات الاربع في البحث السابق في اللجنة الوزارية ـ فقد امتنع عن التصويت هذه المرة ، لان « القرار الان ليس في صلب الموضوع ، وانما هو قرار تظاهري ضد قرار مجلس الامن » (دافار ، ٣/ ١٢/ ٧٥ وهآرتس ، ٥/ ١٢/ ٧٥) . كما لم يشترك في هذه الجلسة وزير الاسكان ابراهام عوفر ،الذي اعترض على القرار في البحث السابق في اللجنة الوزارية ، وطلب احالته واعادة بحثه امام الحكومة بكامل هيئتها . ولكن عوفر اضاف « انه لا يعارض هذه المرة القرار الذي اتخذته اللجنة ، كما عارض في المرة السابقة ، لاسباب توقيتية » (المصدر نفسه) . واضاف شارحا : « كان ذلك بعد اتفاقية فصل القوات مع المصريين ، وقبل ان يعلن السوريون عن رفضهم للتوقيع على اتفاقية فصل قوات جديدة مع اسرائيل ،

وكان ثمة تخوف من انهم سيتذرعون بانشاء المستوطنات بالنسبة لذلك » ٠ اما الان وبعد قرار مجلس الامن، «فثمة معنى لقرار تظاهري، ضد قرار مجلس الامن ،وضد موقف السوريون » (دافار ، ٣/ ١٢/ ٧٥) ٠

واكد شمعون بيريس، وزير الدفاع الاسرائيلي على ان « الحكومة نفسها تعمل كل ما في وسعها بالنسبة للاستيطان في الجولان والغور ومشارف رفح » (معاريف ، ٤/ ١٢/٧٥) ٠ واضاف انه « بالاضافة الى المستوطنات الاربع التي تقرر بناؤها في الجولان ، فان الحكومة تخطط الان لانشاء ٥ مستوطنات اخرى » (المصدر نفسه) ٠ كذلك صرح بيريس بان « الحكومة لا تعارض حق الاستيطان في الضفة الغربية ، وانها ليست جريمة ، اذا استوطن اليهود في هذه الاماكن » (المصدر نفسه) ٠

تقوية المستوطنات
في الضفة الغربية وسيناء

لم تكتف الحكومة الاسرائيلية بالقرار الذي اصدرته بالنسبة للمستوطنات الجديدة في هضبة الجولان ، بل عمدت مختلف المؤسسات الحكومية الى تنشيط وتطوير المستوطنات التي كانت قد اقرت اقامتها في جنوب سيناء ومشارف رفح ومنطقة القدس وغور الاردن ، والتحضير لاقامة مستوطنات جديدة فيها ٠

وعبر رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، عن تأييده للاسراع في اقامة حي مديني في اوفيره في جنوب سيناء ، وتطويره بشكل اسرع ٠ واوضح رابين موقفه هذا ، في مقابلة له مع وزير الزراعة اهرون اوزن ، المسؤول عن تطوير منطقة شرم الشيخ ، وروؤفين الوني ، رئيس ادارة تطوير تلك المنطقة ، حين طلبا اليه اطلاعهما على توجيهاته بالنسبة لتطويرها بعد توقيع اتفاقية سيناء المرحلية ، واعادة منطقة ابو رديس للمصريين ٠ وفي هذا الصدد اعلن رابين انه « يصر على الاسراع ، والاختصار في الوقت المحدد لتنفيذ تطوير منطقة اوفيره » ، وانه يولي « الاسراع في تنفيذ المخططات التي صادق عليها ، اهمية من الدرجة الاولى » (معاريف ، ١٢/ ١٠/ ٧٥) ٠

وكان رابين قد اعلن في اللقاء الذي اجراه قبل نحو نصف عام مع مستوطني اوفيره بانه « حتى (/ ١/ ٧٦ ، سيتم في المكان بناء ٥٠٠ وحدة سكن ، وستقام عدة مصانع في المنطقة » (المصدر نفسه) ٠

وبالنسبة لمشارف رفح ، اعلن آرييه بير ، مدير قسم التطوير في شركة الكيرن كاييمت انه « تتم الان تسوية الارض ، لاستكمال مدينة يميت ، وتسوية اراض اخرى لانشاء مستوطنات جديدة ، تعمل في الزراعة الزجاجية للتصدير في الشتاء » ، وانه قد « خصص مبلغ ١٥٠ مليون ليرة لذلك » (هآرتس ، ١٤/ ١٠/ ٧٥) ٠

وصرح ناتان راز ، سكرتير الكيبوتس الموحد ، في معرض حديثه عن اعمال منظمته بانه « قد تم استيعاب كيبوتسين جديدين في مشارف رفح وفي رامات هانجيف وثمة تحضير لاستيطان جديد غيرهما » (هآرتس ، ٢٨/١٠/ ٧٥) ٠

كذلك صرح شلومو آفني ،رئيس لجنة تطوير يميت ، عند الاحتفال بوضع الحجر الاساسي للمنطقة الصناعية في المدينة ، ان مبلغ ١٠٠ مليون ليرة قد صرف حتى الان في تطوير المدينة ٠ واضاف انه بعد اقامة ٣٥٠ وحدة سكن في الحي الاول في يميت ، يجري العمل الان على « تسوية الارض لبناء ١٠٠٠ وحدة سكنية اخرى في ثلاثة احياء » (معاريف ، ٤/ ١٢/ ٧٥) ٠

اما زئيف برغر ، نائب المدير العام لوزارة الصناعة والتجارة ، فقد صرح انه خصص مبلغ « ١٠ ملايين ليرة لبناء مصانع في يميت » (المصدر نفسه) ٠

وكتب تسفي ايلان انه « تقام في هذه الايام في مشارف رفح مستوطنة جديدة للناحال في خروبه » (دافار ، ١٩/ ١٢/ ٧٥) ٠ واضاف المراسل معلقا ، ان « هذه المستوطنة ، ومعها وادي سيناء الواقع الى الغرب منها ، والمؤدي الى العريش ، ترمزان ـ على ما يبدو ـ الى نوايا الحكومة بالنسبة لخط الحدود النهائي بيننا وبين المصريين » (المصدر نفسه) ٠

الاستيطان في منطقة القدس

اما بالنسبة لمنطقة القدس ، فانه ـ تمشيا مع موافقة الحكومة على المخطط الهيكلي لمنطقة القدس الذي قدم اليها قبل ثلاث سنوات ، المقترح بموجبه انشاء ثلاث مدن في قضاء القدس وتوسيع مدينة القدس نفسها ـ فقد تقدمت كل من اللجنة الادارية لتطوير القدس (المسماة لجنة غفني) ووزارة الاسكان بتقريرين الى اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ، توصيان فيهما ببناء ما يتراوح عدده بين ٢٨٦٠٠ و ٢٩٩٥٠ وحدة سكنية (هآرتس ، ١٤/ ١٠/ ٧٥ ودافار ، ١٧/ ١٠/ ٧٥) . ثم عادت لجنة غفني وقدمت مشروعا آخر لبناء ٨٦٠٠ وحدة سكن اضافية في اتجاه الجنوب ، « وبما ان الارض جنوب نفيه يعقوب ارض عربية ، فكل قرار بالبناء يوجب مصادرة اراضي المنطقة » (دافار ، ١٧/ ١٠/ ٧٥) . ولهذا فان مديرية عقارات اسرائيل تستولي على اراض واسعة في منطقة القدس ، من النبي صموئيل وحتى معاليه ادوميم ، « والصفقات التي تتم تجري بسرعة تامة دون اعلان » (هآرتس ، ١٤/ ١١/ ٧٥) . وجاء في تقرير المديرية لسنة ١٩٧٤/ ٧٥ والذي قدم للجنة عقارات اسرائيل ، بانه قد « نفذت عمليات مصادرة اراض حول مدينة القدس فقط، وقدم...طلب لمصادرةاراض اخرىبالقرب من بيت لحم، لاقامة جدار امنيحول المستوطنة الجديدة عتسيون ج » (المصدر نفسه) . كما وقدم اقتراح اخر « لمصادرة ١٠٠ دونم كانت تابعة للجيش الاردني بالقرب من غيلاه » (المصدر نفسه) . وزيادة على ذلك فقد ضم التقرير كشفا شاملا بالاراضي « الضرورية لتوسيع معسكرات الجيش الاسرائيلي في قضاء رام الله » (هآرتس ، ١٤/ ١١/ ٧٥) . وجدير بالذكر ان معسكرات الجيش تقوم بتبني نقاط الاستيطان ، التي لم توافق الحكومة على اقامتها رسميا ، كما حدث في مستوطنة عوفره بالقرب من رام الله ، وغيرها من المستوطنات في المناطق المحتلة .

وبالنسبة لمستوطنة مفشيرت يروشليم ، فقد افتتحت المناقصة على تسوية الارض في المنطقة « لجعل المستوطنة التي تتكون من مئات العائلات فقط ، تضم ٢٠ الف مستوطن » (معاريف ، ١٠/ ١١/ ٧٥) ، وذلك ضمن البرامج التي تسعى الى اقامة سلسلة من المدن والمستوطنات في شمال وشرق وجنوب مدينة القدس . وبحسب المخطط ، ستكون مفشيرت يروشليم تابعة للقدس ، ومبنية من « الفيلات والكوتجات والابنية المسطحة ، مكونة من خمسة الاف وحدة سكن ، ولكل وحدة سكن منها قطعة ارض خضراء » (المصدر نفسه) .

وتضم الخطة ايضا اقامة ٣٠٠ وحدة سكنية فوق قمة جبل الشيخ عبد العزيز الموجودة خارج « الخط الاخضر » ، ولا بد من مصادرة الاراضي هناك وضمها الى اراضي دولة اسرائيل » (معاريف ، ١٠/ ١٠/ ٧٥) . وقد عقب ميرون بنبنشتي نائب رئيس بلدية القدس على ذلك بقوله ان مفشيرت يروشليم هي ، « برنامج الحكومة ومديرية عقارات اسرائيل ، وهي خطة تطوير منظمة بشكل واسع » (المصدر نفسه) .

كذلك تهدف الخطة الشاملة الى « انتشار » القدس بنسبة ٦ بالمئة كل عام ، بحيث تبني احياء جديدة في النبي صموئيل وتلبيوت ونفيه يعقوب وتلبيوت مزراح (قصر المندوب السامي) . وقد تم بناء الاف وحدات السكن في هذه المناطق . وطبقا لما قررته لجنة غفني « يوجد الان في منطقة القدس اراض معدة لبناء ٤٠ الف وحدة سكن خلال ٥ سنوات » (المصدر نفسه) .

وفي تقدير المسؤولين في بلدية القدس ، ان هناك خطة « لمضاعفة عدد سكان القدس الى ٦٧٠ الف نسمة في المنطقة التابعة للمدينة ، بواسطة توسيع الضواحي واعمار « الفراغات » بين الاحياء » (معاريف ، ١٠/ ١٠/ ٧٥) .

الغزوة الاستيطانية لسبسطيه

كان من بين ردود الفعل غير الرسمية على قرار ادانة الصهيونية ، مبادرة جماعة غوش ايمونيم المتطرفة ـ التي تنادي بضم المناطق

المحتلة الى اسرائيل وتسعى الى اقامة المزيد من المستوطنات فيها ـ بغزوة استيطانية مكثفة الى جوار سبسطيه يوم (/ ١٢/ ٧٥ ، حيث اطلقوا على المكان الذي استقروا فيه اسم آلون موريه ، مدعين انه في هذا المكان قال الرب لابراهيم اول مرة « لك ولنسلك اورثت هذه الارض » (معاريف ، ٢/ ١٢/ ٧٥) ٠

وتوافد يوم السبت (/ ١٢/ ٧٥ ما لا يقل عن الف مستوطن من جماعة غوش ايمونيم الى محطة القطار القديمة في سبسطيه بعد ان اعلنوا عنها نقطة تجمع لهم ، بينما توافدت طوابير اضافية من المستوطنين والانصار خلال الاربع والعشرين ساعة التالية في طريقها الى تلك المحطة ، حيث ارسلوا من هناك برقية لرئيس الحكومة رابين ، بتأييد النائبة غيئولاه كوهين ، نددوا فيها بقرار مجلس الامن وطلبوا منه ان « يرد على هذا القرار باقامة مستوطنة في السامرة » (معاريف ، ٢/ ١٢/ ٧٥) ٠ كذلك طالب المستوطنون الكنيست بأن لا يكون « شريكا لزمرة المنددين بالصهيونية » ، اذ ان الاستيطان في السامرة هو « العمل الصهيوني الحقيقي الذي يوضح للشعب اليهودي وللعالم ، بان هذا هو بيتنا »، وان صاحب الحق الوحيد في « ارض ـ اسرائيل» هو « شعب اسرائيل » (المصدر نفسه) ٠

الا ان الحكومة طلبت الى المستوطنين اخلاء المكان بعد ساعات قليلة من هذه الغزوة الاستيطانية المكثفة ، فعقدت على اثر ذلك الكتلة البرلمانية الموسعة للحزب الديني القومي جلسة طارئة ، وقررت ان تبادر الى « اجراء مشاورات مع الكتل الائتلافية والمعارضة » ، للحصول على موافقتها « لاسقاط بحث الاستيطان في سبسطيه من جدول اعمال الكنيست » ، ولتوحيد الصفوف في « مواجهة قرار مجلس الامن » (معاريف ، ٢/ ١٢/ ٧٥)٠

وقد اثارت عملية الاستيطان هذه ردود فعل عنيفة لدى اهالي الضفة الغربية ، وخلقت توترا كبيرا في نابلس والقرى المجاورة ، مما دفع رئيس بلدية نابلس الحاج معزوز المصري ، الى دعوة مجلس البلدية ومخاتير القرى المجاورة لبحث الموقف في جلسة خاصة ، تقرر بعدها اغلاق جميع المحال التجارية في المدينة « احتجاجا على ما يجري في سبسطيه » ٠ ثم شكلت لجنة البلدية وفدا قام بمقابلة الحاكم العسكري في نابلس وقدم له احتجاجا يؤكد فيه ، ان الاستيطان في سبسطيه « يخلق توترا بالغ الخطورة في المنطقة » (المصدر نفسه) ٠ كذلك قام طلبة المدارس الثانوية في نابلس بمظاهرات احتجاج في شوارع المدينة ٠

ومن ناحية اخرى ، اثارت عملية الاستيطان هذه موجة من ردود الفعل المعاكسة ، لدى بعض الاحزاب والقوى الاخرى المعارضة لجماعة غوش ايمونيم وغزواتها الاستيطانية المدعومة من الاحزاب الدينية ومن التجمع اليميني ليكود ، موجهة انتقاداتها لموقف الحكومة المهادن منها٠ فقد نددت سكرتارية شباب حزب العمل في منطقة القدس بمحاولة الاستيطان هذه وعبرت عن دهشتها لموقف الحكومة التي لم تفعل شيئا لافشال محاولة الاستيطان تلك قبل حدوثها » (معاريف ، ٢ / ١٢ / ٧٥) ٠ كذلك تقدم افرايم كورن ، مسؤول الجيل الجديد في حزب مبام ، بطلب لمحكمة العدل العليا ، لاصدار « امر مع وقف التنفيذ ضد وزير الدفاع وقائد منطقة الضفة الغربية ، يأمرهما فيه بتقديم الاسباب التي جعلتهما يتقاعسان عن اتخاذ الاجراءات اللازمة لاخلاء مستوطني سبسطيه ، رغم بقائهم فيها اكثر من ٤٨ ساعة »(معاريف، ٢/ ١٢/ ٧٥) موضحا ان محاولة الاستيطان هذه « تشكل مخالفة للاوامر الصادرة بالنسبة للمناطق المغلقة » (المصدر نفسه) ٠

وفي باحة الكنيست وامام مكتب رئيس الوزراء ، تظاهر نحو ١٥٠ شخصا من حزب موكيد ، بقيادة النائب مئير باعيل الذي اعلن ان « الرد على قرار مجلس الامن لا ينبغي ان يكون بالاستيطان ، وانما بالمفاوضات مع الفلسطينيين » وان « الاستيطان حجر عثرة في سبيل السلام » (معاريف ، ٢/ ١٢/ ٧٥) ٠

بعد الاجراءات التي اشرنا اليها ، احيلت قضية الاستيطان في سبسطيه، الى جدول اعمال الكنيست ، في ٣/ ١٢/ ٧٥ ، بموافقة وزير الدفاع شمعون بيريس ٠ وتعطي كلمات النواب الذين تحدثوا حول البنود الستة التي طرحت

من مختلف الكتل على جدول الاعمال ، صورة واضحة لدائرة الاراءالمؤيدة والمضادة للاستيطان في سبسطيه ، فقد طالبت النائبة غيئـــولاه كوهين (ليكود) « باسقاط البحث كلية مـن الكنيست » (هآرتس ومعاريف ، ٤/ ١٢/ ٧٥)٠ اما يتسحاق غولان (الاحرار المستقلين) فانه يعتقد ان « على الكنيست ان يمتنع عن البحث في هذا الموضوع ، اثر القرارات التي اتخذها مجلس الامن ، والضربة السياسية التـــي تلقتها اسرائيل » (المصدر نفسه) ٠ وتحدث النائب يودين (مبام) معلنا ان « عمليـات الاستيطان هذه ليست قانونية ومناقضـــة لسياسة حكومة اسرائيل » ، وان « ثمة خطر للانشقاق داخل الحكومة نتيجة للخروج على قوانينها » ٠ واضاف انه « علينا ان نتركـز في جهودنا ، من اجل استيطان واسع فـي الجليل والنقب » (هآرتس ومعاريف ، ٤/١٢/ ٧٥) ٠ ثم تبعه يهودا بن ـ مئير (مفدال) فهاجم الحكومة لموقفهـا المعارض مـــن الاستيطـان ، الا بموافقتهـا ، واضـاف ان « الحكومة ليست مفوضة اطلاقا ـ بحسـب رأيي ـ لان تمنع استيطانا يهوديا في ارض ـ اسرائيل ٠ وما من قاعدة قانونية لذلك تستند عليها ٠٠٠ اننا نواجه الان مرحلة خطيرة في تاريخ دولة اسرائيل وعلينا ان نوحد صفوف الشعب ونرصها » ٠ اما النائب ليفنبراون (راكاح) فقد شجب عمليات الاستيطان ، متهما الاوساط اليمينية باختلاقها لعرقلـــة اية حلول سلمية مع الدول العربية ، واجراء مفاوضات مع الشعب الفلسطيني ، مؤكدا انه « في كل مرة يحصل فيها حدث سياسي ، من شأنه ان يهيء المناخ نحو حل سلمي ـ تختلق هذه الاوساط المتطرفة عملية استفزازيـــة ، تهدف منها ضرب اي امل للمفاوضات مـــع الشعب المجاور ـ الشعـــب العربـــي الفلسطيني » ٠ واضاف ليفنبراون : « وهكذا في هذه المرة ، فان محاولة جماعـــة غوش ايمونيم ومناصريهم الاستيطان في سبسطيه ، ترتبط بحسب اقوالهم وتصريحاتهم بمقررات مجلس الامن ، بالنسبة لتمديد فترة قـوة الطوارىء في الجولان ، والقرار القاضـــي بطرح قضية الشرق الاوسط على بساط البحث فـي مجلس الامن في شهر كانون الثاني ١٩٧٦ ، ودعوة ممثلي م ٠ ت ٠ ف ٠ لهذا النقاش » ٠ واتهم ليفنبراون الحكومة بانها تتواطأ مـع هذه الاوساط ، بتساهلها في عدم اتخاذ موقف حازم تجاهها (هآرتس ومعاريف ، ٤/ ١٢/ ٧٥) ٠ كذلك عارض مئير باعيل (موكيد) الاستيطان في السامرة وطالب الكنيســت باجراء « بحث اساسي ومبدئي في هـــذه المسألة » (المصدر نفسه) ٠

ورد وزير الدفاع شمعون بيريس على اعضاء الكنيست قائلا انه لا يمكن ان يكون استيطان في « السامرة » دون موافقة الحكومة ، لانها « هي التي تقرر خارطة الاستيطان والاجراءات الامنية » ٠ ولم يعارض بيريس الاستيطان في « السامرة » من حيـــث المبدأ ، معلنا ان « الجدال الدائر اليوم ليس جدالا على ماهية الحاجة للاستيطان ، او حتى الخارطة التي تدل على مدى الاستيطان ، وانما علـــى طريقة تنظيمه ، اي على طريقة عمله في نظام ديموقراطي ، قائم على قانون واضح وصريح ، وعلى سياسة موضوعة ومنفذة بشكـــل ديموقراطي » (المصدر نفسه) ٠ ونفـــى بيريس ان يكون قانون لدى الحكومة يمنـع الاستيطان في الاراضي المحتلة : «انني لا اعرف عن اي مبدأ لدى الحكومة يمنع حق الاستيطان في يهودا والسامرة » ٠ وفي نهاية حديثه طلب بيريس مـن المستوطنين « اخلاء سبسطيـه بارادتهم الحرة » ، ملمحا الى امكانية الموافقة على عودتهم للاستيطان بقوله « ان عليهـم التوجه الى دوائر الاستيطان بالنسبة لرغبتهم في الاستيطان في سبسطيـــه » (هآرتس ومعاريف ، ٤/ ١٢/ ٧٥) ٠

ورغم المعارضة والمظاهرات الشعبيـــة الفلسطينية ضد الاستيطان ، ورغم التظاهرات المعادية التي قام بها مبام وموكيد ثم طلب الحكومة الى المستوطنين اخلاء سبسطيه ، ظل المستوطنون وانصارهم من الحزب الديني القومي والاحزاب والقوى المتطرفة الاخرى ، يتوافدون على سبسطيه بمسيرات مكثفة ، حيث اقاموا مدينة من الخيام ثم نقلوا ستـة مبان جاهزة الى مكان الاستيطان في الون موريه

بالقرب من سبسطيه ٠ وادى ذلك الى زيادة التوتر بين السكان العرب في المناطق المحتلة ، ودفع « قوات الامن في منطقة نابلس الى تعزيز عناصرها واستنفارها ، نظرا للثورة العارمة التي اجتاحت نابلس والقرى المجاورة » (معاريف ، ٦/ ١٢/ ٧٥) ٠

وقد وصلت الثورة ذروتها يوم ٦/ ١٢/ ٧٥ ، حيث « تظاهر العشرات من التلاميذ في قرية سبسطيه ضد المستوطنين ، وتوجهوا من مركز القرية الى مكان الاستيطان ، بغية الاصطدام مع « جيرانهم » الجدد ، وقد انضم القرويون اليهم في طريقهم ، وهم يهتفون بهتافات قومية ، ويرفعون لافتات تندد بالسلطات » (معاريف ، ٧/ ١٢/ ٧٥) ٠ الا ان قوات الامن « حضرت الى المكان ، وحالت دون وصولهم ، وفرقتهم قبل ان يصلوا الى الشارع المؤدي الى مكان الاستيطان » (المصدر نفسه) ٠ وفي نابلس ، قام تلاميذ المدارس الثانوية بمظاهرة ضخمة وهم يحملون الاعلام الفلسطينية » (المصدر نفسه) ، الا ان قوات الامن « تصدت لهم وفرقتهم واعتقلت عددا من المشتبهين بتحريض المتظاهرين » (معاريف ، ٧/ ١٢/ ٧٥) ٠ اما في قرية عنبتا فقد « تصدى ابناء القرية للمستوطنين وانصارهم ، وهم في طريقهم الى سبسطيه ، بالحجارة ، محاولين منعهم من الوصول » ، الا ان المستوطنين « اطلقوا النار عليهم من بندقية رشاشة ، فسارع الجيش الى المكان واعتقل عددا من ابناء القرية » (المصدر نفسه) ٠

وعلى اثر ذلك ،اجتمعت الحكومة الاسرائيلية في جلسة طارئة ، في ٧/ ١٢/ ٧٥ ، للبت نهائيا في مشكلة المستوطنين ٠ وقد اختتم النقاش الوزير غليلي باقتراح تبنته الحكومة ، لا ينص على اخلاء المستوطنين ، بل يكتفي بالاعلان انه « لن يكون هناك استيطان بدون موافقة الحكومة » (معاريف ، ٨/ ١٢/ ٧٥) ٠

واخيرا توصل رئيس الحكومة يتسحاق رابين ووزير الدفاع شمعون بيريس الى حل وسط مع المستوطنين في سبسطيه لانهاء المشكلة ، وذلك بقبول الاقتراح الذي تقدم به الوزير غليلي بايحاء من مستشار رئيس الوزراء ومفاده ان « ينتقل جزء من المستوطنين في سبسطيه الى معسكر للجيش في قدوم ، بحيث تكون لهم حرية الحركة ، بينما يترك باقي المستوطنين وانصارهم سبسطيه » (معاريف ويدعوت احرونوت ، ٨/ ١٢/ ٧٥) ، على ان تجري الحكومة بحثا شاملا ، بعد شهرين او ثلاثة ، بالنسبة لسياسة الاستيطان في الضفة الغربية ٠

موقف واشنطن

ابدت حكومة الولايات المتحدة ، ربما لاول مرة ، قلقها من الغزوات الاستيطانية الاسرائيلية في الاراضي المحتلة ، وما رافقها من تصريحات اسرائيلية رسمية متصلبة ، وردود فعل فلسطينية وسورية وعربية تهدد مستقبل الحلول السلمية الاميركية المطروحة في المنطقة ، الى حد دفع الرئيس فورد الى ارسال برقية لرئيس الحكومة الاسرائيلية رابين يعبر فيها « عن استيائه للقرار الذي اتخذته حكومة اسرائيل باقامة ٤ مستوطنات جديدة في الجولان »٠ كذلك طالب فورد اسرائيل ان« تنسق مع الولايات المتحدة بالنسبة لاي استيطان في يهودا والسامرة » (معاريف ، ٢٤ - ٢٦/ ١٢/ ٧٥) ٠

وكان رد رابين ، الذي اعاد البرقية للرئيس فورد رافضا تسلمها ، ان « السوريين لن يملوا علينا اذا ما كنا سنقيم مستوطنات في الجولان ، ومتى » ٠ ويبدو ان رابين قد « احس مباشرة بما تنطوي عليه هذه الرسالة من اخطار كبيرة ، وما تحمله من بذور حل مفروض » (معاريف ، ٢٦/ ١٢/ ٧٥) ٠ وهذا ما يشير اليه قول رابين في احدى مشاوراته مع الحكومة « لماذا علي ان انسق مع الولايات المتحدة ؟ » (المصدر نفسه) ، وما اعرب عنه لسفير الولايات المتحدة من تخوف ، بانه لو نقل مضمون الرسالة للبحث في الحكومة بشكل موسع فانه « سيتسرب الى الخارج وستقوم معارضة شديدة لطلب الرئيس الاميركي في الحكومة ، لان الجميع سيرون في ذلك املاء رأي » (معاريف ، ٢٦/ ١٢/ ٧٥) ٠

واكد وزير الخارجية الاميركي كيسنجر ، في

مؤتمر صحفي عقده في مكتب وزارة الخارجية في واشنطن يوم ٢٣/ ١٢/ ٧٥ ، بان الولايات المتحدة ارسلت برقية شخصية لرئيس الحكومة الاسرائيلية رابين « انذرت اسرائيل فيها من النتائج المترتبة على انشاء ٤ مستوطنات جديدة في هضبة الجولان » (معاريف ، ٧٥/١٢/٢٤) . وردا على سؤال وجه اليه عن رأيه بالنسبة للتوتر الذي خلقه رابين في العلاقات الاميركية الاسرائيلية ، باعادته رسالة الرئيس ، وما يترتب على ذلك ، اجاب كيسنجر « سياستنا العامة تشير الى ان اية مستوطنات جديدة في هضبة الجولان ، وفي اماكن اخرى ، تعقد العملية الدبلوماسية في الشرق الاوسط . وقد اوضحنا هذا الامر لحكومة اسرائيل جيدا ... والمرة تلو الاخرى » (معاريف ، ٢٤/ ١٢/ ٧٥) .

توفيق فياض

شهريات

(١) القضية الفلسطينية دولياً

على اثر زيارة رابين الاخيرة لواشنطن ومقابلته الرئيس فورد ووزير خارجيته كيسنجر اخذت الانباء والتصريحات الرسمية تشير الى وجود اتفاق اميركي اسرائيلي لاطلاق مبادرة سلمية امريكية جديدة في المنطقة تتناول سوريا والاردن بصورة رئيسية • وقد اطلق رابين وبعض كبار المسؤولين الاسرائيليين تصريحات هامة حول هذا الموضوع تحديدا وحول الامور الاخرى التي شملتها محادثات رابين مع الزعماء الامريكيين • في الواقع ادلى رئيس الوزراء الاسرائيلي بسلسلة غير قصيرة من التصريحات حول هذه المسألة بالذات ، بعد عودته من واشنطن ، ونوجز فيما يلي اهم النقاط التي ركز عليها : (أ) ان اسرائيل لن تقدم في المستقبل على عقد اي اتفاق مؤقت ومنفرد مع اي من الدول العربية ، (ب) ان اسرائيل والولايات المتحدة توصلتا الى تفاهم حول الخطوات الدبلوماسية المقبلة في الشرق الاوسط والتي تتمركز حول قيام الولايات المتحدة بجس نبض الدول العربية المعنية حول امكانية انهاء الاخيرة لحالة الحرب مع اسرائيل مقابل تنازلات معينة على صعيد الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، (ج) ان اسرائيل لن تتفاوض في شأن الضفة الغربية الا مع الحكومة الاردنية ولا مانع من ان تنضم الى الوفد الاردني المفاوض عناصر فلسطينية • واعلن رابين ان حكومته قررت فتح مفاوضات مع الاردن في هذا الشأن لاتة على الرغم من ان « المشكلة الفلسطينية لا تشكل لب النزاع العربي الاسرائيلي » ـ حسب قوله ـ لا يمكن التوصل الى تسوية نهائية سلمية في المنطقة بدون تسوية المشكلة الفلسطينية على الا يعني هذا دخول اسرائيل في مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية باعتبار الاخيرة لا تعترف بشرعية وجود اسرائيل ، (د) ان اسرائيل قد طلبت بالفعل الى الولايات المتحدة الاتصال بالدول العربية للبحث في امكانات الوصول الى اتفاق يقضي بانهاء حالة الحرب بين الطرفين ، (هـ) ان اسرائيل لن تتخلى عن مرتفعات الجولان كليا حتى في حال التوصل الى تسوية سلمية نهائية في المنطقة ولكنها على استعداد للقبول باكثر من « تعديلات تجميلية » فيما يتعلق بالحدود النهائية في الجولان ، (و) ان اسرائيل تعتبر الان وضع مصر العسكري اضعف بكثير مما كان عليه عشية حرب تشرين مما يعني ان مصر لن تدفع باتجاه الحرب في المستقبل المنظور • ونسب رابين هذا الضعف المصري الى اتفاقية سيناء مما فرض على نظام السادات عزلة عربية « اخرجته خاسرا من صفقة سيناء » • لهذا السبب رجح رابين بأن اكثر الدول العربية ميلا للدخول في محادثات حول انهاء حالة الحرب هي مصر • أما آلون فقد قال بأن اسرائيل سترتكب خطأ كبيرا ان هي رضيت التفاوض مع الاردن بدون اشتراك ممثلين عن الضفة الغربية • كما اكد الموقف الاسرائيلي الرافض لمشاركة منظمة التحرير في مؤتمر جنيف وفي التعامل معها كممثلة للشعب الفلسطيني • وذكرت الانباء بأن اسرائيل كلفت عددا من رجال القانون المحليين والامريكيين لدراسة معنى عبارة « انهاء حالة الحرب » ومضامينها وما

تنطوي عليه من نتائج خاصة ما اذا كان هناك فارق اساسي بين حالة انهاء الحرب وحالة السلام ٠

بالنسبة للجانب الامريكي صرح كيسنجر على اثر محادثاته مع رابين بأن حكومته ستستدعي سفراءها في منطقة الشرق الاوسط للتشاور معهم حول الخطوة المقبلة في المنطقة معززا بذلك ما ذهب اليه رابين حول المبادرة الامريكية الجديدة الواردة ذكرها ٠ اما مساعد كيسنجر ، آثرتون ، فقد قال صراحة بأن الحكومة الامريكية تضع الان الخطوط العريضة لمبادرتها الجديدة في المنطقة ٠

على الجانب العربي تكفلت سوريا بايضاح المواقف ردا على الحملة الاسرائيلية اذ نفى مصدر رسمي مسؤول الانباء القائلة بان سوريا والاردن على استعداد لتوقيع اتفاق مع اسرائيل لانهاء حالة الحرب معهامقابل انسحابات واسعة من مرتفعات الجولان والضفة الغربية ٠ كما أكد وزير الخارجية عبد الحليم خدام مجددا الموقف السوري المعروف بقوله ان اية خطوة نحو السلام في المنطقة لا يمكن ان تتم الا على اساس تحقيق مبدأين هما انسحاب اسرائيل الكامل من الاراضي العربية المحتلة وتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ٠ ثم اوضح الرئيس الاسد الموقف السوري في مقابلة اجراها معه التلفزيون الايطالي حيث تناول مشكلة الشرق الاوسط من اهم جوانبها ٠ وكانت اهم النقاط التي شدد عليها الرئيس الاسد هي : (أ) التأكيد على ان سياسة الخطوة خطوة توافقت تماما مع مصالح اسرائيل ومطالبها في حين ان سوريا هي التي احبطت هذه السياسة وانهتها لانها استهدفت تمزيق الامة العربية عبر « خطوات عرجاء » حققت مكتسبات لصالح العدو اكثر من غيره ، (ب) التأكيد على ان احدا لم يفاتح سوريا بموضوع انهاء حالة الحرب مع اسرائيل ٠ واستغرب الرئيس الاسد ان يكون عنوان العمل السياسي في المرحلة المقبلة هو انهاء حالة الحرب في ظل الاحتلال القائم ٠ واضاف الاسد قائلا ان الكلام عن انهاء حالة الحرب يشكل تحركا اخر ضد المصلحة العربية ولكن بزي جديد اذ ان هذا التحرك ليس الا استمرار السياسة الخطوة خطوة تحت عنوان اخر ، (ج) التأكيد على ان عنوان العمل السياسي في المرحلة المقبلة يجب ان يكون قضية الشعب الفلسطيني وقضية الانسحاب من الاراضي المحتلة وتنفيذ قرارات الامم المتحدة لان انهاء حالة الحرب لا يمكن ان يتم بدون انهاء الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية وتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، (د) التأكيد على ان اتفاقية سيناء خربت جهود السلام واعاقت المسيرة نحوه لانه لا يجوز ان توافق حكومة مصر على نبذ استخدام القوة في حل مشاكلها مع اسرائيل في وقت يشكل فيه احتلال الاراضي العربية وتشريد الشعب الفلسطيني استخداما مستمرا للقوة من جانب اسرائيل ٠

☐ الموضوع الدولي الاخر الذي استأثر بالاهتمام كان مسألة التمديد لقوات الطوارىء الدولية في الجولان مع نهاية شهر ايار المقبل ٠ على هذا الصعيد بدأت اسرائيل منذ الان حرب اعصاب وتصريحات بهدف الالتفاف على اي ضغط عربي يمكن ان تتعرض له اسرائيل عندما يحين موعد التجديد للقوات الدولية ، خاصة بعد المأزق الذي وجدت اسرائيل نفسها فيه لاشهر خلت (عندما ناقش مجلس الامن موضوع التمديد) ٠ وقد تراوحت التحركات الاسرائيلية في هذا الشأن بين توجيه التهديدات السافرة الى سوريا من ناحية واعلان عدم اهتمامها باستمرار وجود القوات الدولية من ناحية ثانية ٠ على سبيل المثال صرح رابين في الكنيست قائلا : « بأنه من الافضل لسوريا الا تلعب بالنار لان الوضع القائم حاليا يعد في صالحها اكثر مما هو في صالح اسرائيل » ٠ واضاف قائلا بان الجيش الاسرائيلي على اتم استعداد « لمواجهة تطورات الموقف على الجبهة » ٠ واتهم سوريا بالعمل منذ الان للحصول على اقصى قدر من الفوائد والامتيازات في مقابل موافقتها على التجديد لقوات الطوارىء في الجولان كما اتهمها بتنظيم جبهة ضد اسرائيل منذ توقيع اتفاقية سيناء « لمواصلة النضال المسلح الذي تقول ان مصر قد تخلت عنه » ٠ من ناحية اخرى اعلن الناطق

الرسمي بلسان وزارة الخارجية الاسرائيلية بان بلاده لن تقدم اية تنازلات مقابل التجديد للقوات الدولية في الجولان • كما اكد وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز الموقف نفسه بقوله ان حكومته ترفض تقديم اية تنازلات لسوريا مقابل التجديد لمهمة قوات الطوارىء • كما اضاف قائلا بانه في حال رفض سوريا للموقف الاسرائيلي فان حكومته قد تستغني عن وجود القوات الدولية كليا لان اسرائيل غير مستعدة لدفع الثمن الذي تطلبه سوريا في كل مرة تنتهي فيها فترة عمل هذه القوات كما ان اسرائيل لن تتأثر بعد اليوم بايـة تهديدات باستئناف القتال في الجولان •

بالنسبة لمؤتمر جنيف ما زال الكلام كثيرا حوله من كافة الاطراف لكن بدون ان تبرز اية اشارة تلمح الى جدية هذا الكلام او الى اتجاه دولي نحو اتخاذ خطوات عملية لانعقاده مجددا• وكانت اخر التطورات على هذا الصعيد قيام وزير الخارجية السوفييتي بتوجيه رسالـة الى امين عام هيئة الامم المتحدة تطالـب باستئناف اعمال مؤتمر جنيف باشتراك منظمة التحرير على اعتبار انه لا سبيل للتوصل الى تسوية في الشرق الاوسط الا باستئناف المؤتمر لاعماله • واكدت الرسالة مرة اخرى الموقف السوفييتي القائل بضرورة الاعداد جيدا لهذا المؤتمر وضم جميع الاطراف المعنية به مباشرة بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية • كما انتقدت الرسالة موقف اسرائيل والذيـن يساندونها لانهم يعملون دوما على تجميد مشكلة الشرق الاوسط والقت اللوم على سياسة الولايات المتحدة لانها منعت مجلس الامن من اتخاذ القرارات المناسبة للتوصل الى حـل سياسي شامل في المنطقة •اما الجانب الامريكي فقد رد برسالة وجهها كيسنجر الى فالدهايم اقترح فيها عقد اجتماعات ثنائية امريكيـة سوفييتية بهدف الاعداد لمؤتمر تحضيري يعد لاستئناف اعمال مؤتمر جنيف مع التأكيد على عدم شمول المؤتمر التحضيري لاية اطراف جديدة لم تشترك فياعمال مؤتمر جنيف السابقة (اي استبعاد منظمة التحرير) • بعبارة اخرى عاد كيسنجر الى فكرته القديمة القائلة بعقد مؤتمر موازلمؤتمر جنيف والتي رفضتها الاطراف المعنية الاخرى • اما الحكومة الاسرائيلية فقد اكدت موقفها المعروف على لسان وزيـر خارجيتها آلون الذي قال ان حكومته مستعدة لاستئناف المحادثات في مؤتمر جنيف اذا مـا انعقد وفقا لصيغته الاصلية كما كرر القول بان حكومته لن توافق على اشتراك منظمة التحرير في المؤتمر •

☐ قام وزير الخزانة الامريكي ويليـام سايمون بجولة في المنطقة زار خلالها اسرائيل والسعودية وسوريا ومصر والخليج العربـي • وعلى الرغم من ان التصريحات العلنية شددت على الجانب الاقتصادي من مهمة سايمون من المؤكد انه كان لجولته جانب سياسي قد يرتبط بما تردد حول اتفاق اسرائيل والولايات المتحدة على اطلاق مبادرة امريكية جديدة في المنطقة تهدف الى انهاء حالة الحرب • اجرى الوزير الامريكي مباحثات على اعلى المستويات حيث قابل رابين والسادات والرئيس الاسد والملك خالد • في اسرائيل شدد سايمون على التزام الولايات المتحدة بتقوية الدولة اليهوديـة واشاد بالتفاهم والتعاون بين البلدين واصفا العلاقات الوثيقة بينهما « بأنه لا مثيل لها بين الامم » • ويبدو ان مفتاح هذه الجولة يكمـن فيما قاله سايمون حول رغبة حكومته فـي تشجيع ازدهار كل دول الشرق الاوسط لتسهيل عملية احلال السلام الدائم في المنطقة • وسنرى ابعاد هذا الكلام واهميته عندما يصل سايمون الى المحطة الرئيسية في رحلته : الى القاهرة • في دمشق ذكر سايمون ان بلاده تجري حاليا مشاورات اقتصادية لتوثيق العلاقات مـع سوريا والمساهمة في التنمية الاقتصادية لها • وألمح الوزير الامريكي الـى الجانب السياسـي من جولته عندما قال في دمشق ان رحلتـه الاستطلاعية هذه ستتيح له الفرصة لجمـع العناصر اللازمة لاعادة تقييـم الوضـع في المنطقة •كذلك ذكر انه استعرض مع المسؤولين السوريين القضايا السياسية الىجانب القضايا الاقتصادية • ووصف محادثاته مع الرئيس الاسد بانها كانت « حساسة » واعترف بوجود خلافات في وجهات النظر بين حكومتـي البلدين • في مصر بين سايمون ان هـدف زيارته هو دراسة افضل الوسائل لدعـم

الاقتصاد المصري ومساعدة الرئيس السادات في تحقيق اهداف البلاد الاقتصادية القائمة على سياسة الانفتاح والمساهمة المتزايدة للقطاع الخاص في حياة البلاد ٠ ولم يلجأ سايمون الى اية تعبيرات غير مباشرة او توريات لغوية في الافصاح عما تريده حكومته من النظام المصري اذ قال صراحة ان الحل الطويل الاجل لمشكلات مصر الاقتصادية يكمن في زيادة استثمار الرأس المال الخاص حيث المجال واسع للدور الذي تقدر ان تقوم فيه الولايات المتحدة ٠ كما كرر قوله بان الانتعاش الاقتصادي في دول المنطقة وفي مصر خاصة سيساعد على تحقيق السلام الذي نريده في الشرق الاوسط ٠ واقترح الوزير انشاء « مشروع مارشال » امريكي جديد لتنشيط القطاع الخاص في مصر باعتباره الطريقة الوحيدة لزيادة الانتاج الاقتصادي للبلد ٠ كما اكد ان اللجنة التنفيذية للهيئة المشتركة المصرية ـ الامريكية ستجتمع في نهاية شهر اذار في واشنطن لهذا الغرض بالتحديد ٠ كذلك عبر سايمون عن اعجابه بالسادات وسياسته لانه ابتعد عن الاتحاد السوفييتي وطبق سياسة الانفتاح الاقتصادي مبتعدا عن تجارب مصر السابقة (اي في عهد عبد الناصر)في الاقتصاد الموجه ٠ ووعد بارسال خبراء امريكيين لدرس مشروعات التنمية المصرية والمساعدة في تطوير قوانين الضرائب والجمارك ٠

□ لا بد من الاشارة الى زيارة السادات الى السعودية وعدد من دول الخليج العربي (بهدف تحصيل مساعدات مالية مباشرة لدعم اقتصاديات مصر) لان الرئيس المصري تعرض الى عدد من القضايا والمشكلات ذات الطابع الدولي والتي تخرج عن نطاق العلاقات العربية المحض ٠ ومن اهم الامور التي اشار اليها السادات هجومه المتشدد على الاتحاد السوفييتي واتهامه اياه بتحطيم التضامن العربي « وخلق المحاور » في العلاقات العربية المتبادلة وعدم تجاوبه مع طلبه (اي طلب السادات) اعادة جدولة ديون مصر وتعويضها عن خسائرها العسكرية في حرب تشرين ٠ كما هاجم القيادة السورية واتهمها بغرض وصايتها على منظمة التحرير الفلسطينية خلافا لمقررات مؤتمر القمة العربي في الرباط ٠ في مقابل هذا الهجوم عاد السادات الى تأكيد وجهة نظره القائلة ان « الولايات المتحدة تمسك بمفتاح الموقف في المنطقةرضينا بذلك ام لم نرض» «واذاتغاضينا عن هذه الحقيقة فاننا نضلل شعبنا» ٠هذا على الرغم من استخدام الولايات المتحدة حق الفيتو في مجلس الامن لنقض قرار يعترف نوعا ما بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ٠ وكعادته ادلى السادات بتصريحات كثيرة كان اهم ما جاء فيها : (أ) اعلانه انتهاء سياسة الخطوة خطوة وضرورة استئناف مؤتمر جنيف بحضور كل الاطراف المعنية بما فيها الفلسطينيون ، علما بانه كان قد صرح قبل فترة بانه على استعداد لحضور مؤتمر جنيف بدون منظمة التحرير وحتى بدون سوريا ، (ب) اعلانه بان البنود السرية في اتفاقية سيناء تتلخص في تعهد امريكي يمنع اسرائيل من شن حرب على سوريا وتعهد اخر بتحقيق فك ارتباط ثان على جبهة الجولان شبيه باتفاقية سيناء وتعهد ثالث بالعمل بجميع الوسائل المتيسرة لاشراك الفلسطينيين في اية مفاوضات تتعلق بالتسوية السلمية في المنطقة ، (ج) اعلانه بان مصر لن تحارب الى جانب سوريا ضد اسرائيل فيما اذا بدأت سوريا حربا جديدة لاستعادة الجولان ٠ وقد رحب رابين ترحيبا حارا بهذا التصريح الساداتي معتبرا اياه نجاحا كبيرا للدبلوماسية الاسرائيلية ٠ وعلقت على ذلك الصحافة الاسرائيلية بقولها ان الاتفاقات المرحلية مع مصر بدأت تعطي ثمارها ٠ وجدير بالاشارة الى ان البيانات المشتركة التي صدرت نتيجة زيارة السادات لم تتضمن اية اشارة تأييد لا من قريب ولا من بعيد لاتفاقية سيناء واقتصرت على الدعوة لاستئناف مؤتمر جنيف في اقرب وقت ممكن مع التشديد على مشاركة كافة الاطراف المعنية بما فيها الفلسطينيون ٠ وبعد عودته الى القاهرة دعا السادات دول اوروبا الغربية لضمان الحل السلمي في المنطقة الى جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كما دعا الى انشاء دولة فلسطينية باعتبارها الشرط المسبق لاعتراف الفلسطينيين باسرائيل وبحقها في العيش داخل حدود آمنة ٠

□ اخيرا لا بد من اشارة الى التقرير الذي تقدم به بريجنيف حول سياسة بلاده في الشرق الاوسط امام المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي الذي انعقد مؤخرا في موسكو • كانت ابرز النقاط في تقرير بريجنيف هي التالية : (أ) التشديد على التفاهم السوفييتي السوري الممتاز والتنسيق بين البلدين في كثير من القضايا الدولية لا سيما مشكلة الشرق الاوسط ، (ب) الاشارة الى اهمية معاهدة الصداقة والتعاون مع العراق باعتبارها الاساس الذي تستند اليه العلاقات السوفييتية ـ العراقية وتتطور، (ج) اتساع التعاون وتعمقه معالجزائر واليمنالديموقراطية الشعبيةبالاضافة الى الخطوات الهامة التي تحققت على صعيد تنمية العلاقات السوفييتية ـ الليبية و « تقوية الاتصالات الودية مع منظمة التحرير الفلسطينية » ، (د) الاشارة الى تمسك الاتحاد السوفييتي بمعاهدة الصداقة والتعاون مع مصر على الرغم مما تقوم به « قوى معينة من محاولات لتقويض العلاقات السوفييتية المصرية » : (هـ) الاشارة الى المساعدات والدعم اللذين قدمهما الاتحاد السوفييتي الى الشعوب العربية خاصة في نضالها من اجل ازالة آثار العدوان ، (و) التأكيد على انه على الرغم من عدم وجود الحرب في الشرق الاوسط في الوقت الحاضر فان هذا لا يعني استتباب السلام • هنا اكد التقرير الموقف السوفييتي المعروف بانه لا يمكن احلال السلام في المنطقة ما دام الجيش الاسرائيلي يحتل اراضي عربية وما دام الفلسطينيون محرومين من حقوقهم الشرعية ومن امكان انشاء دولتهم الوطنية ، (ز) الاشارة الى ان السلام في الشرق الاوسط يتطلب ايضا ضمان امن جميع دول المنطقة في الوجود ، (ح) التنديد بالاتفاقات الجزئية والانفرادية باعتبارها تعمل على ابعاد موعد حلول التسويات الحقيقية للازمة ، (ط) التعبير عن استعداد الاتحاد السوفييتي الاشتراك في الضمانات الدولية اللازمة لحفظ امن جميع دول المنطقة وحرمة حدودها مع دعوة بريطانيا وفرنسا للاشتراك ايضا في تقديم مثل هذه الضمانات •

(٢) المناطق المحتلة

الانتفاضة

منذ الذكرى السنوية الاولى لعرض القضية الفلسطينية امام الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة وحركة الاضراب والتظاهر والاحتجاج تسود مختلف مدن ومناطق الضفة الغربية • وقد ظلت هذه الحركة محافظة على وتيرتها الى ان قدمت سلطات الاحتلال بنفسها مناسبة جديدة لتحدث الانعطاف الهام فيحركة الاحتجاج هذه ، وذلك عندما اصدرت محكمة الصلح في القدس ـ اوائل شهر شباط (فبراير) الماضي ـ قرارا تجيز فيه لليهود الصلاة في المسجد الاقصى بالقدس • وجاء قرار المحكمة الاسرائيلية هذا والجماهير الشعبية في افضل حالاتها الثورية ، وذلك بعد ان كانت قد نزلت الى الشوارعايام عديدة واصطدمت بقواتالقمع الاحتلالية في مناسبات سابقة مماثلة • وما حرك العواطف الشعبية ودفعها احتجاجا واضرابا وتظاهرا ، ما كانت قد اقدمت عليه سلطات الاحتلال قبل فترة وجيزة من ذلك التاريخ على تقسيم الحرم الابراهيمي في الخليل وفرضه كامر واقع بالرغم من الاحتجاج

العربي والاسلامي والدولي على ذلك . من هنا فقد تحسست جماهير الضفة الغربيـــة مسؤولياتها الوطنية الخاصة بها هذه المرة ، وتقدمت في مواجهة اجراءات الاحتلال وقمعه ، لتدفع بقرار المحكمة الاسرائيلية ذاته الـى الوراء وتثبـــت قدرتها على مقارعة العدو وافشال مخططاته الهادفة الى طمس عروبة القدس وتهويد كل معالمها . وبالفعل فقـــد اضطرت جماهير الضفة المحتلة محتليها الى استئناف قرار المحكمة المشار اليه ولم تلزم نفسها بما صدر عن تلك المحكمة .

الا ان جماهير الضفة الغربية لم تنطل عليها الخدعة الاسرائيلية ، فخاضت معركتها مـع الاحتلال في باحة المسجد الاقصى ذاته وفـي شوارع القدس ومختلف مدن الضفة الاخرى .

وقد اعترفت اذاعة العدو : « ... يخطىء من يعتقد بان التظاهرات ذات طابع ديني . انها حلقة في سلسلة تظاهرات بدأت بعد خطـاب عرفات في الامم المتحدة وذلك بتحريض مـن عملاء م. ت. ف. ويبدو هذا واضحا مـن العريضة التي قدمها امس وجهاء نابلس الى وزير الدفاع امس ، والتي ادرجت ادعاءات ضد الاستيطان في الضفة الغربية والقدس ، وضد مشروع الحكم الذاتي ، وضد الاعباء الضريبية. وثمة من يعتقد بان هناك علاقة بين هـــذه التظاهرات وبين الانتخابات البلدية التـي ستجري بعد شهرين » (ر.ا.ف ٧٦/٢/١٦) .

وأمام التجاوب الكامل من مختلف قطاعات الشعب في الضفة الغربية في حركة الانتفاض هذه التي حركها طلاب المدارس ، لم تستطـع وسائل اعلام العدو من الادعاء كعادتها بـان بعض الصبية والمراهقين هم الذين يثيرون « الشغب » . فقد اضطرت اذاعة العدو الـى الاعتراف بشمول حالة الغليان الجماهيري هذه مختلف قطاعات الشعب في الضفة الغربيـة في اكثر من مناسبة . اذ انه بعد ان حصلت احدى المواجهات الساخنة بين طلاب مدرسة قـدري طوقان في نابلس وقوات الاحتلال يوم ٧/ ٣/ ٧٦، وتقديم المجلس البلدي في المدينة استقالته احتجاجا على ذلك ، اضطرت اذاعة العدو الى الاعتراف بان مدينة نابلس في ذلك اليـوم قد شاركت بكاملها في الاضراب حين قالـت : « ان الشوارع في نابلس خالية تماما اليوم ، ولم يفتح اي دكان ، كما ان المدارس مقفلة ، وحتى باصات المدينـة بقيت في محطاتهـا » (ر.ا.ف ٧٦/٣/٨) . وقالـت الاذاعـة في فقرة اخرى ذلك اليوم : « لقد كانت نابلس اليوم كمدينة الاشباح . فالدكاكين مقفلة ولم تجر دراسة في المدارس ووقفت الباصات فـي الساحات ... وكان قد قام اطفال من سن ٤ـ٥ سنوات باحراق دواليـب سيارات في شوارع المدينة ، وقام فتيان اكبر سنا بقذف حجارة وزجاجات على جنود الجيش لدى مرورهم فـي شوارع القصبة . ولكن كانت هـذه حوادث صغيرة . اذ ان ابرز ظاهرة كانت اضراب النشاط التجاري الذي شمل جميع احياء المدينة شمولا تاما » (المصدر نفسه) .

وفي الوقت الذي كانت فيه سلطات الاحتلال تصعد من حملاتها القمعية ضد مواطني الضفة الغربية ، كان هؤلاء يردون على العدو بمختلف وسائل النضال والاحتجاج المتاحة . وهكذا يمكن فهم استقالة المجلس البلدي في نابلس في ضوء التحدي المتبادل بين الجماهيـر الفلسطينية وقوات المحتلين . ولذلك فقـد كانت هذه الاستقالة فاتحة لحملة استقالات متتالية حدثت في العديد من مجالس بلديـات مدن الضفة الغربية مثل طولكرم وجنيـن وسلفيت ورام الله والبيرة وسلوان وغيرهـا . وهكذا فعندما دعت سلطات الاحتلال رؤساء هذه المجالس الى سحب استقالات مجالسهم ، وسع هؤلاء من رقعة تحديهم للعدو مطالبيـنه ليس فقط بوقف حملة العنـف والاعتقالات والغرامات المالية ضد مدنهم ، وانما بموافقة سلطات الاحتلال سلفا على الغاء قرار المحكمة الاسرائيلية الخاص بالمسجد الاقصى والحرم الابراهيمي واطلاق سراح جميع الذين اعتقلوا خلال فترة الانتفاضة ووقف عمليات الاستيطان وسحب القوات العسكرية من مدن وقرى الضفة الغربية .

وهكذا توالت الانتفاضة الشعبية واتسعـت دائرتها بتوسيع سلطات الاحتلال لدائرة عنفها وقمعها الاسود ، مشكلة بذلك نقطة انعطاف

هامة في مسيرة النضال الفلسطيني في الارض المحتلة ومضيفة الى سجل هذه النضال صفحة مشرقة ٠

اغلاق جريدة الشعب

اوقفت سلطات الاحتلال يوم ١٩/ ٤/ ٧٦ جريدة الشعب لاسباب « امنية » كما ادعت تلك السلطات ، وذلك لمدة ثمانية ايام بحجة مخالفتها لقانون الرقابة العسكري ٠ و « الشعب » هي احدى الصحف اليومية الثلاث التي تصدر في القدس المحتلة باللغة العربية ، وتتبع سياسة معادية للاحتلال ومؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠

وصدر امر توقيع الصحيفة عن الصدور بعد نشرها تفاصيل عن حادث وقع في احدى معسكرات اللاجئين القريبة من نابلس وادى الى مقتل شابين ٠ وقد نشرت الصحيفة اسماءهم الامر الذي اعتبرته سلطات الاحتلال مسا بحالة الامن ٠ وقالت السلطات في معرض تبريرها لقرار وقف الصحيفة ان ادارة الاخيرة لم تعرض على الرقابة هذا الخبر قبل نشره ٠

وبالرغم من التذرع الواضح بهذه الحجة « الامنية » فانه لم يغب عن بال المراقبين ان الدوافع الحقيقية الكامنة وراء هذا القرار الاسرائيلي هي دوافع سياسية بحتة ، وذلك لمواصلة الصحيفة نهجا وطنيا معاديا لسياسة الاحتلال ،وكانت « الشعب » الى جانب زميلتها « الفجر » قد قامت خلال الاسابيع الاخيرة بمواكبة الانتفاضة الجماهيرية ، سواء من جهة سرد تفاصيل المظاهرات والاضرابات ، او جهة الاعتقالات والغرامات المالية وما عداها من اجراءات قمعية ٠ وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن فهم قرار وقف الصحيفة عن الصدور الا باعتباره انذارا من السلطات المحتلة في محاولة لارهاب الصحيفة وحملها على تغيير سياستها٠ وقد كشفت الاذاعة الاسرائيلية عن ذلك بقولها : « صحيح ان جريدة الشعب اغلقت بسبب مخالفة الرقابة مخالفة خطيرة ، ولكن السلطات كانت تريد منذ زمن طويل اغلاق هذه الجريدة ، بسبب الخط المتطرف الذي تتبعه وهو خط يشكل احيانا تحريضا ظاهرا ضد الحكومة » ٠ (ر ١٠ ١٠ ٢٠/ ٤/ ٧٦) ٠

وبعد انقضاء مدة التوقيف ـ العقوبة ، عادت « الشعب » الى الصدور يوم ٢٩/ ٤/ ٧٦ واكدت على مواصلة خطها الوطني المؤيد لمنظمة التحرير الفلسطينية بنشرها في العدد الاول بعد عودتها الى الصدور صورة كبيرة لرئيس منظمة التحرير ، ياسر عرفات ، غطت ربع مساحة الصفحة الاولى ٠ كما جاءت الافتتاحية منددة بسياسة الاحتلال وقوانين الرقابة العسكرية ، فقالت انهم طبقوا ضدها ما اوجده العقل العثماني قبل مئة عام ، «ولكن سوف نبقى كما تطلب منا الجماهير ان نكون ٠ وهذا يعني اننا سنستمر بالكتابة والقول ان لا سلام من دون الشعب الفلسطيني ، وانه لن يتحقق سلام دون تحقيق جميع الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ولن يكون سلام دون اشراك قيادة هذا الشعب ، هذه القيادة التي اعترف العالم كله بها ٠٠٠ » ٠

وقد علقت الاذاعة الاسرائيلية على نهج الصحيفة هذا بالقول : « ان هذه المبادىء تتماشى مع مبادىء م٠ ت٠ ف٠ ، وهذه هي المبادىء التي عرضتها الصحيفة وعبرت عنها خلال اربعة اعوام من صدورها ٠ ولقد تورطت الصحيفة اكثر من مرة مع السلطات ، وطرد رئيس تحريرها علي الخطيب قبل عام من البلاد بسبب التحريض » (ر ١٠ ١٠ ٢٩/ ٩/ ٧٦) ٠

معركة الانتخابات في الخليل تبدأ مبكرة

اذا لم تلغ سلطات الاحتلال قرار اجرائها الانتخابات البلدية في ١٢/ ٤/ ٧٦ ، نتيجة لتصاعد الانتفاضة الشعبية ، فان الضفة الغربية ستشهد هذه المرة معركة انتخابات عنيفة وصراعات كبيرة على مجالس بلديات ٢٤ مدينة ، يبلغ فيها عدد المقترعين ما يقرب الـ ٩٠ الف ناخب ٠

ومما يستوقف الانتباه في هذه المعركة ، هو ما شهدته وتشهده مدينة الخليل من مناقشة شديدة ، هي الاولى من نوعها التي تحدث في

المدينة ، بين زعيمها التقليدي الشيخ محمد علي الجعبري الذي امضى نحو ثلاثين عاما في رئاسة البلدية ، وبين تيار يطلق على نفسه اسم تيار الشباب ويعبر عن نفسه بجموعة من الاسماء ابرزها الدكتور احمد النتشة وفهد قواسمي .

ويذكر انه في المرة السابقة التي جرت فيها الانتخابات في اواسط العام ١٩٧٢ ، فان بلدية الخليل لم تشهد تنافسا على المجلس البلدي دون غيرها من المدن الاخرى في الضفة الغربية باستثناء سلفيت . حيث فازت القائمة التي شكلها الجعبري بالتزكية . اما هذه المرة فان عدد المرشحين قد وصل الى حوالي ٣٠ شخصا ، كما ان المهرجانات الانتخابية قد بدأت مبكرة الامر الذي يشير الى ان معركة تنافسية شديدة ستشهدها مدينة الخليل هذه المرة .

فهذه هي المرة الاولى التي يجرؤ فيها شخص على طرح نفسه كبديل للشيخ الجعبري الزعيم التقليدي لهذه المدينة . والتحدي هذا لا يبرز فقط على انه صراع بين جيلين وثقافتين وما الى ذلك ، بل كصراع بين اتجاهين سياسيين ، الاول محافظ وموال للاحتلال ويمثله الجعبري ، والثاني عصري ووطني يمثله جيل الشباب بتفاعله مع الخط الوطني والتزامه بالهموم الوطنية الفلسطينية .

لذلك حاول الجعبري وما زال قطع الطريق على منافسيه الاقوياء بمختلف الوسائل . فبالرغم من استعداد سائر اعضاء مجلس بلديته الحالي الى ترشيح انفسهم مجددا في قائمة الشيخ ، فانه من جانبه يبدي تحفظا على ذلك ، لكي يتيح لنفسه مجالا للمناورة ومقارعة خصومه ، بادراج اسماء شابة في قائمته الانتخابية .

ومما يلفت الانتباه الى اهمية معركة انتخابات بلدية الخليل هذه ، ذلك التأييد الواسع الذي لقيه ترشيح الشباب لانفسهم ضد القيادة التقليدية للمدينة . فقد نشرت صحف الضفة الغربية بيانات تأييد لمنافسي الجعبري ليس من مؤيدين لهم من مدينة الخليل فقط وانما من مؤيدين من مدن اخرى في الضفة الغربية وحتى من قطاع غزة ، الامر الذي يشير الى مدى الرغبة الشعبية الواسعة التي تجتاح الضفة الغربية في التخلص من رئيس بلدية الخليل بما يمثله من نهج وعقلية سياسية موالية للاحتلال ومعادية للاماني الوطنية الشعب الفلسطيني .

عيسى الشعيبي

(٣) القضية الفلسطينية عسكرياً

العمليات العسكرية في داخل الارض المحتلة

واصلت حركة المقاومة العمل في اكثر من جبهة عسكرية وسياسية بحذر كبير لتتجنب الانزلاق في الشراك المنصوبة لها . وقد تطلب منها ذلك خلال الشهر الفائت تخفيضا في حجم عملياتها في داخل الارض المحتلة غير ان ذلك لم يمنع عناصر الثورة المسلحة في داخل الارض المحتلة من ممارسة نشاطاتها القتالية ضد الاهداف الحيوية الاقتصادية والعسكرية الاسرائيلية . لهذا يمكن اعتبار العمليات التي جرت في داخل الارض المحتلة خلال الشهر الفائت بمثابة نشاطات ازعاجية قصد بها ازعاج العدو وارهاق اعصاب اجهزته العسكرية

والامنية عن طريق ابقائها في حالة استنفار دائم . ان ابقاء اجهزة العدو في حالة استنفار دائم يؤدي في نهاية الامر الى استنزافه ماديا وبالتالي التأثير عليه نفسيا .

لقد اصبح العدو على قناعة تامة بأن المؤامرة التي حيكت وتحاك ضد الثورة الفلسطينية في لبنان سيكون مصيرها الفشل التام . وهذه الحقيقة هي التي دفعت شمعون بيريز في اكثر من مناسبة للقول بأنه لن يستبعد ان يصبح لبنان دولة مواجهة بل وان المؤشرات تشير الى انه سائر في هذا الطريق ليحتل مكانه الطبيعي بين الدول العربية .

لقد ابدت اسرائيل ارتياحها لاندلاع الاحداث في لبنان ، ذلك لانها كانت تتوقع ان تنجح قوى التآمر والشر في هز الثورة الفلسطينية وبالتالي تحجيمها الى القدر الذي يجعلها غير قادره على مواصلة كفاحها المسلح في داخل الارض المحتلة . الا ان ظن اسرائيل تلاشى بسرعة مع تطور الاحداث في لبنان . خاصة وان الثورة خرجت من هذه الاحداث اصلب عودا واقوى شعبية في لبنان وفي الاوساط العربية والدولية. وعلى الرغم من كل ذلك قامت فصائل الثورة في الداخل بما يمليه عليها الواجب الوطني .ففي ١٤/ ٢/ ١٩٧٦ نسف الفدائيون الفلسطينيون ملهيين ليليين في تل ابيب وسيارة عسكرية محملة بالتموين والكابل الرئيسي للهاتف ما بين حيفا وتل ابيب والمنطقة الجنوبية . فقد اعلن ناطق عسكري فلسطيني ان الفدائيين نسفوا ناديين ليليين هما (بلو آب) و (هاريه هادوم) في تل ابيب بعد ان مهدوا لعملياتهم بهجوم شنوه على الملهيين بالاسلحة الرشاشة. وقد نجم عن الحادث قتل وجرح عدد من افراد العدو . كما ذكر الناطق نفسه ان الفدائيين نسفوا سيارة تموين على الطريق الرئيسي ما بين تل ابيب واللد بواسطة عبوة ناسفة . وقد اتت النيران على السيارة . وفي الجنوب نسف الفدائيون ايضا الكابل الرئيسي للهاتف في مستوطنة ميجان ميخائيل ما بين حيفا وناتانيا . كما قام الفدائيون بوضع عبوة ناسفة وحارقة في محطة وقود في مفرق ابراهام - رأس العين في منطقة بتاح تكفا شرقي تل ابيب تستخدمها السيارات العسكرية عادة للتزود بالوقود . وقد انفجرت العبوة عندما حاول خبير متفجرات اسرائيلي ابطال مفعولها. وقد ذكرت المصادر الاسرائيلية ان الخبير قتل وجرح عدد من افراد شرطة العدو نتيجة للحادث . (المحرر ١٧/ ٢ / ١٩٧٦)

وفي ١٨/ ٢/ ١٩٧٦ اكتشف العدو الاسرائيلي عبوات ناسفة موقوتة داخل ناد تابع للبحرية الاسرائيلية في اسدود ، زرعها رجال المقاومة الفلسطينية المنطلقون من قواعدهم في داخل الارض المحتلة . وقد اكتشفت العبوات قبيل انفجارها بوقت قصير حيث استدعي الى النادي خبراء المتفجرات الذين تمكنوا من ابطال مفعولها . (المحرر ٢٠/ ٢/ ١٩٧٦)

ومن جهة اخرى قال ناطق عسكري فلسطيني في بلاغ نشرته وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) ان احدى المجموعات الخاصة العاملة داخل الوطن المحتل قامت يوم الخميس ١٩/ ٢/ ١٩٧٦ بوضع عبوات ناسفة وحارقة داخل صالة مكتبة تابعة لاحدى المؤسسات الصهيونية في حي هاتكفا في ضواحي تل ابيب . وقد انفجرت العبوات وادى انفجارها الى تدمير اجزاء كبيرة من الصالة واشتعال النيران في محتوياتها فاصيب نتيجة الحادث عدد من افراد العدو . وقال الناطق ان النيران امتدت الى الابنية المجاورة للمكتبة . (المحرر ٢١/ ٢/ ١٩٧٦) .

وعلى الرغم من اشتداد هجمات القوى الانعزالية المتآمرة في لبنان على الثورة الفلسطينية ، واصل الثوار نشاطاتهم ضد العدو . ففي ٢٠/ ٢/ ١٩٧٦ نفذ الفدائيون الفلسطينيون عملية جديدة في القدس . فقد ذكر ناطق عسكري فلسطيني انه رداً على اعتداء القوات الاسرائيلية على اهلنا اثناء توجههم للصلاة في المسجد الاقصى وحملة الاعتقالات الواسعة التي شنتها سلطات الاحتلال ضد المواطنين في المدينة المقدسة ، فقد تحرك ثوارنا بناء على التعليمات الصادرة لهم ، وقاموا بوضع عدد من العبوات الناسفة داخل احدى السيارات الصهيونية ، وعدد آخر في محل تجاري في حي اشكول في القدس . ففي الساعة المحددة انفجرت العبوات وادى انفجارها

الى اصابة عدد من افراد العدو وتدمير واجهة المحل التجاري واصابة عدد من السيارات الواقفة قرب العبوة الاولى. (المحرر ٢٢/ ٢/ ٧٦)

وفي ٢٢/ ٢/ ٧٦ قال ناطق عسكري اسرائيلي ان قذيفة بازوكا اطلقت في ساعة مبكرة من الصباح عبر الحدود الشمالية اللبنانية على دورية عسكرية اسرائيلية قرب قرية زرعيت الحدودية . وقال الناطق ـ كعادته ـ انه لم تقع اصابات بين افراد الدورية . (المحرر ٢٣ / ٢ / ١٩٧٦) .

وفي التاريخ نفسه ذكرت مصادر اجهزة الامن الاسرائيلية ان قواتها اكتشفت جهاز ارسال قويا ومخبأ للاسلحة في منزل شاب عربي في قرية قلنسوه شمال تل ابيب . كما ذكرت المصادر نفسها انه عثر ايضا في المخبأ نفسه على اسلحة مسروقة من الجيش الاسرائيلي . واضافت ان صاحب المنزل وصديقا له مع جنديين اسرائيليين سيحاكمون في هذه القضية. (النهار ٢٣/٢/١٩٧٦) . والجدير بالذكر انه المرة الاولى التي تعلن فيها اجهزة الامن الاسرائيلية عن اكتشاف اجهزة ارسال معقدة مخبأة في منزل يقع في قلب اسرائيل . ان تفسير ذلك ان سكان المناطق المحتلة اصبحوا الان يشاركون في النشاط المعادي لاسرائيل في الداخل ، وهذه ظاهرة خطيرة يمكن ان يترتب عنها نتائج خطيرة على الوضع الامني في اسرائيل في المدى البعيد . كما يمكن ان يشير الى ان رجال المقاومة الفلسطينية اصبحوا قادرين على العمل في كافة المناطق المحتلة ، مستخدمين اسلحة واجهزة متقدمة ومعقدة . الامر الذي له دلالات كثيرة في المفهوم العسكري . كما انها ظاهرة جديدة ان تعلن اجهزة مسؤولة في اسرائيل عن اتهام جنود اسرائيليين في نشاطات منسوبة لرجال المقاومة العرب . ومهما يقال عن ذلك فانه يدل على ان رجال المقاومة في الداخل نجحوا في استخدام اسرائيليين في نشاطاتهم ، وهذا ناجم عن ثقة كبيرة في النفس وعن استقرار في الاوضاع وجرأة في التخطيط .

وفي ٢٦/٢/١٩٧٦ نصب الفدائيون في منطقة الخليل كمينا لباص تابع لشركة (ايجيد) الاسرائيلية واشعلوا النار بداخله . كما قاموا بوضع عبوات ناسفة مشركة بالقرب من مكان احراق الباص . وقد انفجرت العبوات الناسفة فيما بعد ملحقة عددا من الاصابات في عدد غير معروف من حرس الحدود والشرطة المتواجدين في المنطقة . (المحرر ٢٩/ ٢/ ١٩٧٦)

وفي اثر ازدياد نشاطات رجال المقاومة الفلسطينية وتصعيد عملياتهم اشارت التقارير الواردة من الارض المحتلة ان السلطات الاسرائيلية قررت توزيع السلاح على جميع المدرسين وتدريبهم في دورات خاصة وقد ذكرت المصادر نفسها ان هذه الاجراءات اتخذت لمواجهة احتمال شن الفدائيين هجمات على المناطق السكنية . (المحرر ٢/٣/١٩٧٦) .

ففي ٤/ ٣/ ١٩٧٦ وسع الفدائيون نشاطاتهم العسكرية داخل الارض المحتلة ، فقد صرح ناطق عسكري فلسطيني انرجال المقاومة قاموا بوضع عبوة ناسفة موقوتة داخل سيارة للشرطة الاسرائيلية اثناء وقوفها في شارع (شتراوتس) في القدس . وقد انفجرت العبوة اثناء تحرك السيارة في شارع ياحين نغوت ، وادى تفجيرها الى تدمير السيارة واشعال النيران فيها وقتل وجرح جميع من فيها . وفي منطقة الخليل نصب الثوار الفلسطينيون كمينا لدورية عسكرية بالقرب من بلدة بني نعيم جنوبي الخليل ، واشتبكوا مع افراد الدورية بالاسلحة الصاروخية والقنابل اليدوية والرشاشات في قتال تمكنوا في نهايته من تدمير سيارة عسكرية واعطاب آلية وقتل وجرح عدد من افراد العدو . كما وضع الثوار في مدينة تل ابيب عبوات ناسفة بجوار احد مواقف الباصات التابعة للعدو في شارع باركوخابا وقد اكتشفت العبوات قبيل انفجارها بقليل وقام خبراء المتفجرات بتعطيلها وفكها . وقد اعترف العدو بكل هذه العمليات (المحرر ٦/٣/١٩٧٦) .

وفي ٥/ ٣/ ١٩٧٦ وضع الثوار عبوات ناسفة وحارقة موقوتة في احد الاندية الليلية في مدينة تل ابيب وتمكنوا من تفجير العبوة واحراق النادي . وفي اليوم نفسه هاجم الثوار قرب

مستعمرة (حانيتا) دوريـــة الية للعـــدو الصهيوني ٠ وقد تمكن الثوار من تدمير دبابة مـن طراز (باتون – م – ٤٨) بالصواريـخ المضادة كما استطاعوا تدمير كمين رشاش (٥٠٠ م) وقتـــل وجرح جميـع عناصره ٠ (المحرر ٩ / ٣ / ١٩٧٦) ٠

وهكذا واصل الثوار عملياتهم الفدائية فـي داخل الارض المحتلة على الرغم من الوضـــع المتأزم الذي ساد الساحة اللبنانية واضطرار حركة المقاومة للتورط مرغمة في بعض الاحداث المؤلمة التي وقعت في عدة مناطق لبنانية، دفاعا عن نفسها وعن الفلسطينيين الذين اصبحوا هدف القوى الانعزالية المتآمرة ٠

ان اي خبير مطلع على الاوضاع السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الاوسط لا يستطيع ان يفصل بين ما يجري في لبنان وبين ما تعده اسرائيل من مخططات واستعدادات عسكرية في المناطق الشمالية بهدف ضرب حركة المقاومة في الداخل وفي جنوب لبنان ٠ والدليل على صحة هذا التصور التصريح الذي ادلى به « شمعون بيريز » وزير دفاع العدو لصحيفة « يديعوت احرونوت » مؤخرا والذي جاء فيه «ان التطورات الاخيرة في لبنان جاءت تؤيد تقييم اسرائيل وهو ان وقف أطلاق النار لن يدوم طويلا » ٠ وقوله ايضا « ان اسرائيل تقوم بدور المراقب المحايد للوضع في لبنان ولكن اذا حدث اي تغيير من شأنه ان يهدد الامن على طول الحدود فان المستعمرات وسكانها والطرق المؤدية اليهـــا تتطلب منا اجراءات مضادة » (النهار ٣/١٣/ ١٩٧٦) ٠

الرائد الطيار حسين عويضة

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٢/١٦ — ١٥ / ٣ / ١٩٧٦

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١ —	٢/١٤	١٥ر١	تل ابيب	هجوم	اسلحة رشاشة	غير محدد		مهاجمة ناديين ليليين في شارع ديزنجوف	—	—	—	٢٩ — ٧٦	٢/١٦
٢ —	٢/١٣	١٨ر٠٠	بين اللد وتل ابيب	تفجير	عبوة لاصقة	غير محدد		تدمير سيارة تموين عسكرية واشعال النيران فيها	—	—	—	٣٠ — ٧٦	٢/١٦
٣ —	٢/١٥	١٦ر٣٠	بتاح تكفا	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	١	—	انفجرت العبوات اثناء عملية تفكيكها من قبل احد الخبراء العسكريين	—	—	—	٣١ — ٧٦	٢/١٦
٤ —	٢/١٥	١٤ر٣٠	ميجان ميخائيل	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير الكابل الرئيسي للهاتف وقطع الاتصالات بين حيفا والجليل وتل ابيب	—	—	—	٣٢ — ٧٦	٢/١٦
٥ —	٢/١٨	٩ر١٠	اسدود	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات في نادي البحرية وابطال مفعولها	—	—	—	٣٣ — ٧٦	٢/١٩
٦ —	٢/١٩	٢٠ر٠٠	هتكفا / تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد		تدمير اجزاء كبيرة من صالة مكتبة واشعال النيران فيها	—	—	—	٣٤ — ٧٦	٢/٢٠

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٧ -	٢/٢٠	١٧ر٣٠	القدس / حي راهات اشكول	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير عدد من المحلات التجارية وتصدع مبنى سكني واصابة عدد من السيارات باضرار	-	-	-	٣٥ - ٧٦	٢/٢١
٨ -	٢/٢١	٦ر٠٠	حوارة / نابلس	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	٤ غير محدد		تدمير سيارتين عسكريتين واصابة من فيهما	-	-	-	٣٦ - ٧٦	٢/٢٣
٩ -	٢/٢٤	١٩ر١٥	زخرون / بين حيفا والخضيرة	تفجير	الغام	غير محدد		نسف جزء من خط سكة الحديد وتدهور قطار وخروجه عن سكة الحديد وتحطم معظم عرباته	-	-	-	٣٧ - ٧٦	٢/٢٥
١٠ -	٢/١٦	٢٢ر٠٠	نابلس	تفجير	عبوات حارقة	--	--	احراق عدد من التراكتورات داخل احد الكاراجات	-	-	-	٣٨ - ٧٦	٢/٢٥
١١ -	٢/٢٧	٧ر٠٠	بين الخليل وبيت لحم	كمين	عبوات حارقة	غير محدد		احراق باص لشركة ايجد	-	-	-	٣٩ - ٧٦	٢/٢٧
١٢ -	١/١٩	--	القصاص / ايلات	تفجير	لغم ارضي	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	-	-	-	٤٠ - ٧٦	٣/٣
١٣ -	٢/١٣	--	الجريري / الخضيرة	تفجير	لغم ارضي	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	-	-	-	٤٠ - ٧٦	٣/٣
١٤ -	٣/٤	١٨ر٢٥	القدس	تعجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارة شرطة واشعال النيران فيها	-	-	-	٤١ - ٧٦	٣/٥

١٥ -	٣/٤	٢٣ر٤٥	بني نعيم / الخليل	كمائن	اسلحة صاروخية وقنابل يدوية	غير محدد	تدمير سيارة عسكرية واعطاب اليةوقتل وجرح من فيهما	- - -	٤٢ - ٧٦	٣/٥
١٦ -	٣/٤	١٧ر٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تم اكتشاف العبوات في شارع باركوخبا وابطل مفعولها	- - -	٤٣ - ٧٦	٣/٥
١٧ -	٣/٥	١٨ر٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	اشعال النيران في مستودعات الاثاث والمتاجر بشارع همسجير	- - -	٤٤ - ٧٦	٣/٥
١٨ -	٣/٥	٢٣ر٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات حارقة	غير محدد	اشعال النيران في جزء كبير من ناد ليلي واحراق محتوياته وذلك في شارع الهاجانا	- - -	٤٥ - ٧٦	٣/٨
١٩ -	٣/٧	٢١ر٠٠	تل السماقي / الجولان	كمين	اسلحة صاروخية ورشاشة وقنابل يدوية	غير محدد	تدمير اليه وقتل وجرح عدد من افراد دورية هندسة	- - -	٤٦ - ٧٦	٣/٨
٢٠ -	٣/٩	٩ر٠٠	نتانيا	تفجير	عبوات ناسفة	— —	تم اكتشاف العبوات في محطة القطارات وابطل مفعولها	- - -	٤٧ - ٧٦	٣/٩
٢١ -	٣/١٠	١٢ر١٥	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	اعطاب عدد من السيارات والاليات داخل الساحة المركزية	- - -	٤٨ - ٧٦	٣/١٠
٢٢ -	٣/١٠	٦ر٠٠	كفاريونا / نتانيا	تفجير واشتباك بالغام وصواريخ مضادة للدروع		غير محدد	تدمير عدد من الاليات واعطاب عدد اخر	- - -	٤٩ - ٧٦	٣/١١

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

غازي خورشيد